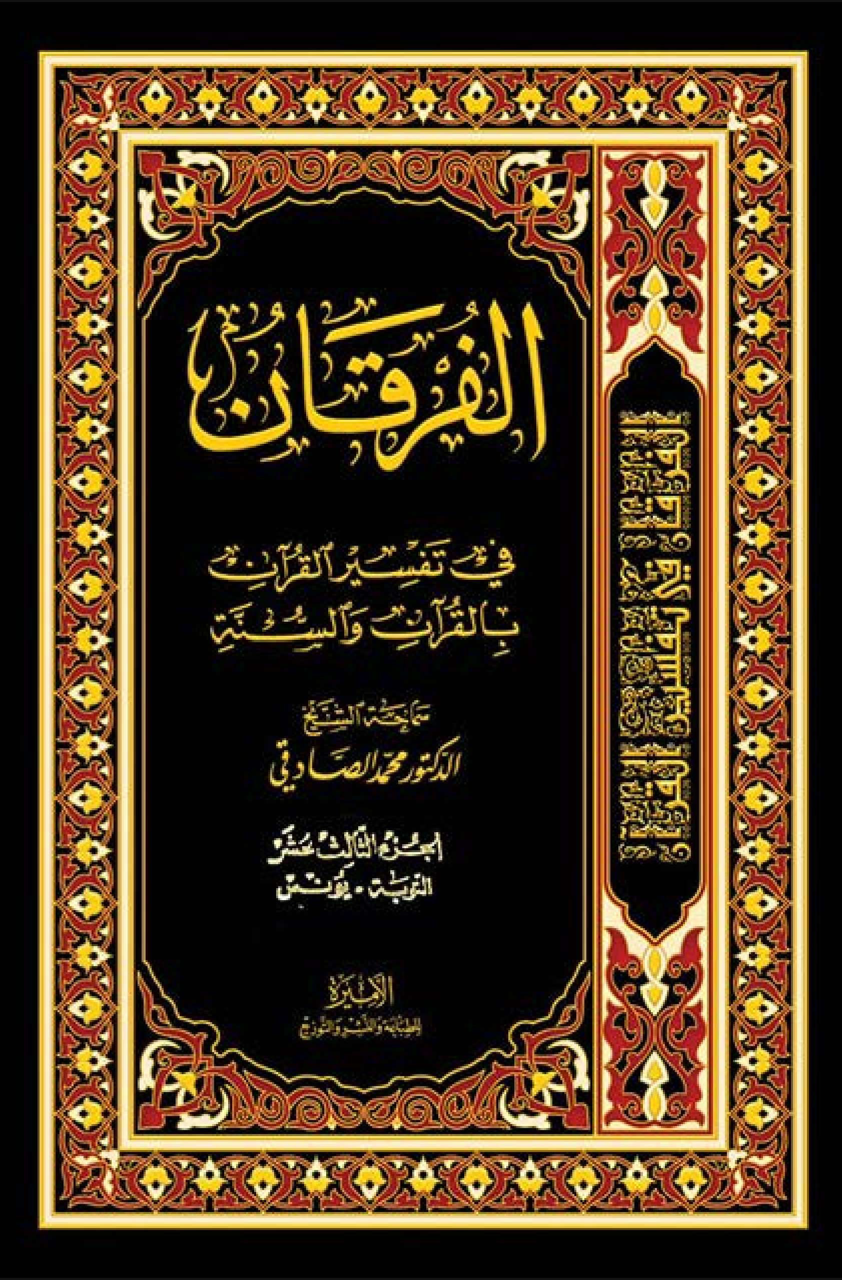

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء الثالث عشر
التوبة - يونس

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء الثالث عشر

تتمة سورة التوبة



سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي

٩

تتمة

سُورَةُ التَّوۡبَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

وترى مجرد الفسوق وإن في غير مسرح الإنفاق وهو ﴿طَوْعًا﴾ كيف

يعمل في أن ﴿لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ لـ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ إذاً فشرط قبول الإنفاق هو العدالة الطليقة! أو العدالة في الإنفاق حيث ﴿يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

هنا الفسوق محلِّق على كافة الأعمال لمكان تحليق الكفر على القلوب، حيث المورد هو المنافقون، ومن شروط قبول العبادة الإيمانُ، فحتى إذا أنفقوا هؤلاء طوعاً - ولن يكون - فـ ﴿لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فكينونة الفسق ضاربة إلى أعماقكم، فاصلة بينكم وبين الإيمان والمؤمنين، فكيف تتقبل أية عبادة من كافر أو منافق هو أشر منه؟! وقد تبين ذلك بالآية التالية:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

هنا ثالوث يمنع عن ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ هو: كفرهم بالله وبرسوله، وصلاتهم وهم كسالى، وإنفاقهم وهم كارهون، مهما تظاهروا أنه بطوع ورغبة، والأخيران منطويان في الأول، فهما له لزامان لا ينفصلان، فكما «الإيمان لا يضر معه عمل وكذلك الكفر لا ينفع معه عمل»[2] فطالح العمل لا يمحي صالح الإيمان استئصالاً وإحباطاً، وصالح العمل لا يثبت بالكفار، ضابطة ثابتة لا تستثنى.

هنا ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ حصر لصلاتهم بحالة الكسل

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٢٥ في الكافي مسنداً عن أبي عبد الله عليه السلام وفيه عن كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: فكل عمل يجري على غير أيدي الأصفياء وحدودهم وعهودهم وشرائعهم وسننهم ومعالم دينهم مردود غير مقبول وأهل بمحل كفر وإن شملتهم صفة الإيمان ألم تسمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ [التوبة: ٥٤] ويروى له «فمن لم يهتد من أهل الإيمان إلى سبيل النجاة لم يغن عنه إيمانه بالله مع دفع حق أوليائه وحبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين».

وحسر لها عن النشاط العبودي، وهذه صفة الكافر بالله، المنافق في عمله كسلاناً ومرائياً: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾(١) والكسل يعم الجسم إلى الروح ولأن كلًّا يؤثر على الآخر.

ذلك فصلاة الكسلان المرائي حابطة منافقاً كان أو مؤمناً، ولكن المنافق كل أعماله حابطة قضية عدم الإيمان، فالمؤمن بشيءٍ يضحي في سبيله قدر إيمانه، فهلّا نصلي نحن في نضارة الخاطر وحضارة الحال، وربنا هو الذي دعانا وأمرنا أن نحضر معراجه، وسمح لنا أن نكلمه بمحاويجنا، فالتثاقل التكاسل عن الصلاة، أو إتيانها كسلاناً، هو دليل على عدم الهمامة فيها ترجيحاً لسائر المهام، وَيْكأن غير الله أحب إلينا من الله؟ أو أن سائر الصلات أنفع لنا من الصلة بالله.

فلنستجوب أنفسنا في محكمة العقل والإيمان إن كان لنا إيمان، ولنتدرج في درجات القرب والرضوان من الرحيم الرحمان حتى نصل لحد لا نرجح على حال الصلاة حالاً، ولا على أقوال الصلاة أقوالاً، ولا على أفعالها أفعالاً، وكما قال أول العابدين: «وقرة عيني الصلاة» جرب قلبك، هل إن شوقك للقاء الله أكثر أم لسائر اللقاء، فيا ويلاه إن كنت ترجح سائر اللقاء على لقاء الله، وسائر الصِّلات على الصَّلاة لله.

إن أهل الله لا يصطفون على حال الصلاة حالاً، بل هم دائبون في الصلاة «خوشا آنان كه دائم در نما زند»: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾(٢).

ولأنها عمود الدين وعماد اليقين، لذلك نجدها من أجلى جلوات الشياطين، وأسرع صرعاته ضد المصلين، حيث يكرس كافة طاقاته بكل

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢.
(٢) سورة المعارج، الآية: ٢٣.

خيله ورجله ليصرعهم فيها، ولكي يصرعهم في سواها، لأن «الصلاة عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها».

فقد يبعد عنك شيطانك في شطر من صلاتك فيجلو لك ما غاب عنك من حصائل فكرية مهما كانت حول غوامض من الكتاب والسنة، قضية زوال الحجاب بينك وبينها، فيخيِّل إليك الشيطان أن الصلاة هي مجال الحصول على كل ضالّة فكرية ثمينة بعد ضالتها، فيخرجك بذلك عن الحضور أمام ربك فيها، فيجعل صلاتك الفائضة بالصلاة فاضية خاوية عن الصِّلات.

فلو أنك تأملت في نفسك، مَن أنت فعرفت أنك الفقر المجرد اللّاشيء عن أي غنىً، ثم تأملت في مقام ربك من هو، فعرفت أنه مجرد الغنى وله كل شيء، ثم فكرت في موقفك من صلاتك أنك على فقرك دعيت إلى معراج ربك لمصلحتك وحاجتك دون حاجته سبحانه ومصلحته، لذُبت تخجلاً من ذلك الشرف العظيم، وَي إن ربي دعاني بل فرض علي أن أكلمه؟ وأنا عنه لاهٍ مفكر في سواه.

ولكنك لما تصلي دون صلة، فارغاً قلبك عن الحضور بمحضره، ناسياً ربك حاضراً لما سواه، كان عليك أن تموت خجلاً.

ولولا واجب الصلاة بأمر الله لكانت صلواتنا محرمة من الكبائر، لأنها هتكٌ لساحة الربوبية أن نحسب لكل غاية فيما سوى الله حسابه، ولا نحسب للصلاة لديه أي حساب!.

ذلك ولنعرف أن إتيان الصلاة حالة الكسل هو من علامات النفاق ومن أسباب عدم قبول الإنفاق، مهما لم يصل إلى حد النفاق الرسمي الذي تتحدث عنه هذه الآية وما أشبه من آيات النفاق، وأقل تقدير هنا أن إنفاق هؤلاء وإن أسقط واجب تكليف الإنفاق، ولكنه لا يقبل كما يقبل سائر

الإنفاق رفعاً له إلى ساحة القبول حيث ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[1].

فثالوث: الكفر بالله، وإتيان الصلاة كسالى، والإنفاق كارهاً، هذه دركات ليست تقف لحد المرسوم منها، فمهما نزلت هذه الآية تنديداً بالمنافقين، فقد تشمل الموافقين الذين لهم نصيب منها، فـ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[2] توسّع نطاق الإشراك بالله كما ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[3] تسلب البر عما دون ما تحبون مهما لم تكونوا كارهين، و﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[4] تخرج الصلاة المأتي بها حالة الكسل عن حقل الصلاة، بل هي منكرة من المنكرات فكيف ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾؟.

ذلك فإصلاح الصلاة إصلاح لكافة العبادات، وكافة القالات والحالات والفعالات، فإن الصلاة عمود الدين وعماد اليقين، فتضييعها - إذاً - عمود اللّادين والخروج عن اليقين.

جرِّب نفسك في كافة المصارع مع الشيطان فقد تَطْلع قوياً تصرعه فيها، ولكنك تُصرع في مصرع الصلاة أياً كنت، اللّهم إلّا من هدى الله إذ جاهد في الله حق جهاده.

ركعة من حق الصلاة تُركع أمامك الشيطان، وسجدة منها تُسجده لك، وقراءة وذكر صالحين يخرسانه ويصمانه، فاعمل جهدك لكي تصلح صلاتك بسلاح الإيمان والاستعانة بالله.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

و«صلّ الصلاة لوقتها الموقت لها، ولا تعجِّل وقتها لفَراغ، ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال، واعلم أن كل شيء من عملك تبعٌ لصلاتك» (العهد ٢٧).

وترى ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ تناسب ﴿أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؟ الظاهر لا، لمكان حصر إنفاقهم هناك في الكراهية، وهنا بينها وبين الطواعية، ولكنه نعم، إذ الواقع منهم هو ﴿كَرْهًا﴾ في إنفاقهم وكل طاعاتهم، و﴿أَنفِقُوا۟ طَوْعًا﴾ ردفاً بـ﴿كَرْهًا﴾ قد يعني الطوع المدعى أم هو واقع الطوع تحدياً أنه غير واقع، فحتى لو وقع فلا يقبل لكفرهم المحبط لأعمالهم، وكما أن ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ﴾ إحالةً للقبول، تحلِّق على طوع إلى كَره لو اتفق طوع، ولكنه كَره على أية حال[1].

ذلك وفي طوعاً أو كرهاً وجوه أخرى مع ما ذكر كـ ﴿طَوْعًا﴾ دون إلزام من الله، أو إلزام من رؤسائكم مصلحيةَ الحفاظ على ظاهر الإيمان، فـ﴿كَرْهًا﴾ إلزاماً هنا أو هناك.

فإنفاقهم على أية حال، وبكل معاني وحالات الطوع، هو كالكرة على سواء أنه ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ﴾ إحالة لقبوله ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ تقبلاً من الله أو رسوله أو المؤمنين النابهين.

وهذه نماذج من صور المنافقين المناحرة لِسَيرهم، مظاهر خاوية من روح الإيمان، خالية من التصميم، وإنما خوف ومداراة بقلب منحرف، وعقل خَرِف، وضمير مدخول منجرف.

فمهما تكن لهؤلاء الأنكاد من طائلة الأموال والأولاد، فليست هي بشيء بجنب الله:

---

(١) قال ابن عباس: نزلت في جد بن قيس قال للنبي ﷺ: ائذن لي في القعود وهذا مالي أعينك به.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

إذاً ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ أيها الناظر، والرسول هنا خارج عن الدور إلَّا بمعنى إياك أعني واسمعي يا جارة، أم تأكيد للحرمة الفطرية والعقلية لذلك الإعجاب، وخطاب النبي بخصوصه أو بين آخرين يعني أن ذلك الإعجاب محرم على الكل، وليس النبي لنبوته ومحتده مستثنى عن ذلك، فإذا كان الإعجاب محرماً عليه فعلى غيره أحرى، فالنهي قد ينحو نحو المنكر المفعول فنهي عن منكر واقع، فهو نهي عن المنكر، أم تشريع لما لم يكن محرماً أم كان محرماً فطرياً وعقلياً، فهذا تأكيد وذاك إنشاء للحرمة، وهما لا يدلان على أن المخاطب به مقترف لمادة النهي، وهكذا تكون مناهي الرسول ﷺ اللّهم إلا فيما كان حلاً ثم حرم كـ ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾(١) وما أشبه، فمجرد ورود نهي للنبي ﷺ أم سواه لا يدل على أنه اقترف المنهي على حرمته، إنما هو تحذير ذو احتمالات ثلاثة.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ﴾ أن تحملك على عَجَب أو عُجْب كأن هذه الأموال والأولاد أعماد لحياتهم بها يعيشون، ويكأن الله أراد فيها بهم خيراً ﴿إِنَّمَا﴾ ليس إلا ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ عذاباً في الحصول عليها، وعذاباً في حفاظها، وعذاباً في ظالمة التصرفات وملتوياتها، مهما كانت لهم حظوة ظاهرة، ثم عذاباً - من جراء الدنيا - في الآخرة، فـ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(٢) ومن ضنكها أنهم ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ كارهين حيث يفقدون أموالهم وأولادهم هنا ولا يجدونها هناك إلا عذاباً فـ «تزهق وهم كافرون».

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

فالأموال والأولاد قد تكون نِعمة يسبغها الله على عباد له شاكرين لأنعمه، مصلحين أنفسهم وذويهم، فمتجهين بها إلى الله، دون أن تلهيهم عنه إلى سواه، فإذا هم مطمئنو الضمير ساكنو الأنفس، واثقين في ذلك المسير حاصلَ المصير، كلما أنفق من أموال والأولاد في سبيل الله استروح، وكلما أصيب احتسب، فالسكينة النفسية على أية حال له غامرة، وطويته بذكر الله عامرة.

وأخرى تكون نَعمة ونِقمة يصيب بها آخرين حيث يعلم فسادهم ودَخَلهم وإفسادهم، وكسادهم عن الإيمان ودَجَلهم، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحوِّل حياته جحيماً وضنكاً.

وهذه النَعمة النِقمة في المنافقين أبرز، حيث ينفقون من أموالهم، أو يؤخذ منهم ضرائب إسلامية وهم كارهون، والكفر ملة واحدة في ضنك المعيشة، حيث لا أمل لأصحابه في مستقبل الحياة، وهم في صراع دائم بين أموال وأولاد وشؤونات أخرى.

وهنا ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ تعني العذاب الأخير من الحياة الدنيا، فـ ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ بكراهية مزدوجة، أنهم يستدبرون هذه الثروات الركام لغيرهم، وهم يستقبلون عذاب الأبد، وإن كانوا ناكرين له حياتَهم، حيث يُكشف لهم الغطاء عند الموت، فبعين يرون الدنيا حسرة وحزناً على تركها، وبأخرى يرون الأخرى خوفاً على دخولها.

فقد يعني تعذيبهم بأموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا أن ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فإنه عذاب يكسح وينسي كل رياحة سلفت، وكفاه عذاباً يمر على الحياة كلها في اللحظة الأخيرة فيجعلها مراً مهما كانت حلوة.

كما ويعني أوسع من ذلك إنفاقهم على كره فإنه عذاب فوق عذاب

النفاق، حيث النفاق بنفسه عذاب يجعل الإنسان حيران في ازدواجية شخصية، دائم المراقبة على نفسه بين طرفي المخاصمة إيماناً وكفراً، ثم الإنفاق حالة النفاق عذاب على عذاب.

وثالث هو أوسع منها تحليقاً على حياة المنافق والكافر تعينه ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾(١) إذ لا مولى له يرتكن عليه إلّا دنياه المزعزعة التي هي دوماً على شُرُف وشفا جرف هار من الزوال والسقوط والانهيار بأعداء له يتربصون كل الدوائر لاستلاب منصبه وماله ونفسه، والمؤمن مولاه هو الله، مطمئناً به قلبه دون تزعزع: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(٢).

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

﴿... إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ بكل تأكيد ﴿مِّنكُمْ﴾ إيماناً صالحاً دون أي فارق وفَرَق ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ في إيمان ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ فَرْقاً بين القلب والقالب في إيمان، إيماناً بألسنتهم ومظاهر أعمالهم، وكفراً بقلوبهم، كما و﴿يَفْرَقُونَ﴾ فرقاً بين المؤمنين بمكائد النفاق، وذلك لأنهم ﴿يَفْرَقُونَ﴾ فَرَقاً، فِرقين من المؤمنين فارغين من الإيمان، يتظاهرون به، ومن الكافرين فيسرُّون إليهم بالكفر: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(٣)، فهم يعيشون ثالوث الفرْق والفَرَق، ومن فَرَقهم في فرْقهم أنهم:

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿لَوْ﴾ أنهم بثالوث فرْقهم وفَرَقهم ﴿يَجِدُونَ﴾ ثالوثاً: ﴿مَلْجَأً﴾ يلجأون

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤.

إليه من أعباء ظاهر الإيمان وتكاليف النفاق ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ بمداخل الجبال يغورون فيها ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ متدخَّلاً يتدخلون فيه بتكلف، فـ ﴿لَّوْ يَجِدُونَ﴾ مفلتاً من واقعهم المزري بسهولة: ﴿مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ أم بصعوبة ﴿مُدَّخَلًا﴾ ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ معرضين عن جو الإيمان والمؤمنين ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾: مسرعين بوجه لا يرد وجوههم شيءٌ.

فهم لعناء جبناء، متطلعون أبداً إلى مخبأٍ فيه يختبئون، أو مأمن إليه يأمنون، أو مدَّخل فيه يدَّخلون، مذعورين مطَاردين، ومن تخوفهم منكم حلفهم بالله ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ ثم ومنهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾[1] هناك بحلف إذ لا يصدَّقون، وهنا دون حلف إذ يصدَّقون.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

اللمز هو الاعتياب، والهمز الاغتياب، وقد يكون اللمز همزاً إذا كان الاعتياب اغتياباً، أو الهمز لمزاً إذا كان الاغتياب اعتياباً، وقد ينفردان كاعتياب دون اغتياب فهو لمز دون همز، أو اغتياب دون اعتياب فهمز دون لمز، والذين كانوا يلمزون الرسول ﷺ في الصدقات كانوا يعتابونه حضوراً وغياباً، فهم - إذاً - هامزون لامزون، و﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[2]!.

هؤلاء يلمزونك في الصدقات أخذاً وإعطاء، لماذا تأخذها: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾[3] أم تأخذ كثيراً ثم هكذا تعطيها ونحن محرومون أم ناقصون في العطية ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا﴾ كما يهوون ﴿رَضُوا۟﴾ بظاهر الحال ﴿وَإِن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤.
(٢) سورة الهمزة، الآية: ١.
(٣) سورة يس، الآية: ٤٧.

﴿لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا﴾ كما يهوون ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ عليك، وهؤلاء هم ثلثا الناس[١] أو يزيدون.

وليس ذلك اللمز منهم في الصدقات رعاية لعدل، أم حماسة لحق، أم غيرة على الدين، إنما ذلك التطاول مغبة أهوائهم ورغباتهم الغائلة الطائلة، وحماسة لهوساتهم الجهنمية ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ مهما كان ظلماً ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ مهما كان عدلاً.

ولقد أسخطوا رسول الله ﷺ بهمزهم ولمزهم إياه في الصدقات ومن قالاتهم: «اعدل يا رسول الله ﷺ فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل»[٢] أم «هذه قسمة ما أريد به وجه الله»[٣].

---

(١) في الكافي بإسناده عن إسحاق بن غالب قال قال أبو عبد الله عليه السلام: يا إسحاق كم ترى أهل هذه الآية: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]؟ قال: هم أكثر من ثلثي الناس.

وفي تفسير القمي في الآية أنها نزلت لمّا جاءت الصدقات وجاء الأغنياء وظنوا أن رسول الله ﷺ يقسمها بينهم فلما وضعها رسول الله ﷺ في الفقراء تغامزوا رسول الله ﷺ ولمزوه وقالوا: نحن الذين نقوم في الحرب ونغزو معه ونقوي أمره ثم يدفع الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يعينونه ولا يغنون عنه شيئاً فأنزل الله الآية، ثم فسر الله عزّ وجلّ الصدقات لمن هي وعلى من يجب فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ...﴾ [التوبة: ٦٠].

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٥٠ عن أبي سعيد الخدري قال: بينما النبي ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال: اعدل... فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيءٌ ثم ينظر في نضبه فلا يرى فيه شيءٌ ثم ينظر في رصافه فلا يرى فيه شيءٌ ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيءٌ قد سبق الفرث والدم آتيهم رجل أسود إحدى يديه - أو قال - ثدييه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدرد يخرجون على حين فرقة من الناس، قال: فنزلت فيهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾ [التوبة: ٥٨] قال أبو سعيد: أشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ وأشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ.

(٣) وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: لما قسم النبي ﷺ غنائم حنين سمعت رجلاً=

وتلك السجية المنافقة اللعينة وهي عدم الرضى بحكم الله في تقسيم صدقة أماهيه، إنها دركات حسب دركات الحالات والمجالات، فحتى المؤمن غير الراضي بقَسم الله في تكوين أو تشريع داخل في حقل التنديد قدر السخط في ذلك قالاً وحالاً وأعمالاً.

وترى يجوز أن يدفع لمنافق صدقة؟ طبعاً لا، فكيف ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ وإعطاءهم منها محظور؟.

إعطاؤهم منها كأصل محظور، وأما إعطاؤهم خوف إفسادهم فمحبور، وكما فعل رسول الله ﷺ [1] وهكذا الأمر في المؤلفة قلوبهم، فَعلَّ المنافق يصبح موافقاً بتلك العطية أو يترك شرَّه وضَرَّه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

«لو» هنا ترجٍّ لما لم يحصل منهم أو لـمَّا يحصل، فالنص يقرر أن المنافقين على نفاقهم لو رضوا... لأصبحوا من المؤمنين بذلك الرضى فإنه

= يقول: إن هذه قسمة ما أريد به وجه الله فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقال: «رحمة الله على موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر ونزل» ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]. وفي تفسير الفخر الرازي ١٦: ٩٧ قال الكلبي قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لرسول الله ﷺ: تزعم أن الله أمرك أن تضع الصدقات في الفقراء والمساكين ولم تضعها في رعاء الشاء؟ فقال رسول الله ﷺ: لا أبا لك أما كان موسى راعياً أما كان داود راعياً فلما ذهب قال ﷺ: احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون.

(١) وفيه روى أبو بكر الأصم أنه ﷺ قال لرجل من أصحابه: ما علمك بفلان؟ فقال: ما لي به علم إلا أنك تدنيه في المجلس وتجزل له العطاء، فقال ﷺ: إنه منافق أداري عن نفاقه وأخاف أن يفسد على غيره، فقال: لو أعطيت فلاناً بعض ما تعطيه، فقال ﷺ: إنه مؤمن أكله إلى إيمانه وأما هذا فمنافق أداريه خوف إفساده، وفيه قال الضحاك: كان رسول الله ﷺ يقسم بينهم ما آتاه الله من قليل المال وكثيره وكان المؤمنون يرضون بما أعطوا ويحمدون الله عليه وأما المنافقون فإن أعطوا كثيراً فرحوا وإن أعطوا قليلاً سخطوا، وفيه: قيل إن النبي ﷺ كان يستعطف أهل مكة يومئذ بتوفر الغنائم عليهم فسخط المنافقون.

قضية الإيمان، وهنا تعني ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ تكويناً وتشريعاً ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ تطبيقاً رسالياً، إذ ليس الرسول مشاركاً لله تكويناً أو تشريعاً ولا نائباً عنه وهكذا ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تقديراً ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ تقريراً ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ لا سواه، ذلك أدب نفسي أديب أريب أن يرضى العبد بقسمة الله، رجاءَ أن يزيده الله من فضله، وعلى أية حال أن يكون لسان القال والحال ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ أعطانا قليلاً أو كثيراً.

وبالتالي - بعد بيان هذا الأدب البارع بحق الله وحق رسوله، يقرر أن الأمر ليس أمر الرسول ﷺ إنما هو رسول في البلاغ والتطبيق، وليس له من الأمر شيء.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾:

آية وحيدة منقطعة النظير تقرر موارد الزكاة الثمانية لمرة يتيمة ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جديرة بين آي الصدقات والإنفاقات والزكوات وسائر الإيتاءات أن تُمَحور في البحث عن أُمهات مسائل الزكاة، وقد قُرنت بها الصلاة في كثير من الآيات كشريطة أصيلة للإيمان، والخروج عن اللَّاإيمان، وفي القرآن كله نجد إيتاءَ المال والصدقات والإنفاقات تعني كلها «الزكاة» مهما اختلفت عنها التعبيرات.

والصدقة هي ما تجافى به الإنسان عن حقه في سبيل الله، فهي صدقة الإيمان بالله والأخوة في الله، صدقاً في الحصول عليه، وصدقاً في إنفاقه، وهو النية الصادقة دون من ولا أذىً.

فآية الصدقات - هذه - مما تكفي برهاناً ساطعاً على أنها ككلّ هي الزكَوات[1].

---

(١) وهي ١٤ آية كلها مدنيات. تعني كلها الزكاة بوجه عام وحتى في ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ =

كما أن ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا...﴾[1] تجعل كل الأموال المأخوذة فرضاً من المسلمين صدقات هي الزكوات، وقد نزلت في تاسع الهجرة أو عاشرها.

ولا تعني ﴿مِنْ﴾ هنا تبعيضاً في الأموال، أن يؤخذ البعض دون الآخر حتى ينطبق ذلك البعض على التسعة الشهيرة، لأنها لا تؤخذ كلها، بل بعض منها، ثم ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ تحلِّق على كل الأموال، فهي - إذاً - كلها موارد لذلك الأخذ، فـ ﴿مِنْ﴾ تعني بعضاً من كل فرد فرد وكل صنف صنف من أموالهم، ولو عنت بعضاً من بعض لكان صحيح التعبير وفصيحه «خذ من بعض أموالهم».

ذلك، فلو كان النص «خذ أموالهم صدقة» كان الفرض أخذ كل أموالهم دون إبقاء، ولو كان «خذ من بعض أموالهم» كان أخذ البعض من بعض أموالهم، ولكن النص ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ فلا يعني إلا الأخذ من بعض الجميع وهو بعض كل منها، دون المجموع، ولا تصلح ولا تصح عناية البعض القليل القليل من ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ وهي جمع مضاف يعني كل أموالهم.

ومهما اختصت آيات الصدقات بأنها كلها مدنيات، ولكن آيات إيتاء المال والإنفاق والزكاة تعم العهدين، مما يبرهن أن الزكاة فريضة مكية قبل المدينة، بل هي من أُوليات فرائضها، كما قرنت بالصلاة وهي أولى الفرائض على الإطلاق، مهما كان تطبيقها المطبَّق بنصاباتها الخاصة في المدينة حين نزلت عليه ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً...﴾ وقد كانت في مكة فرضاً غير محدد إلا بحدود الإمكانية.

= أَوْ نُسُكٍ﴾ [البَقَرَة: ١٩٦] بل وحتى في ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النِّساء: ٤] مهما كانت هي المهور الواجبة لأنها لا مقابل لها إلا العطف بالنساء فإن ما يؤتينه يقال ما يأخذنه وزيادة، إذاً فمهورهن صدقات.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

وهنا تضاف إلى مكيات الزكاة التسع[(١)] مدنيات أربع[(٢)] تتحدث عن فرضها في الشرايع السابقة، فإنها تنجر إلى شرعة الإسلام ما لم تنسخ وقد أثبتت في العهدين.

ثم مكيات أخرى ثلاث تعبر عن الزكاة بـ ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾[(٣) (٤)] و﴿حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[(٥) (٦)]، مما تقضي على الفرية الشهيرة على الزكاة أنها - فقط -

---

(١) هي الآيات ٧: ١٥٦ و٢٣: ٤ و٢٧: ٣ و٣٠: ٣٩ و٣١: ٤ و٤١: ٧ و٨٧: ١٤ و٧٣: ٢٠ و٩٢: ١٨.

(٢) وهي ٢: ٤٣ و١٩: ٣١ و٥٥ و٢١: ٧٣.

(٣) سورة المعارج، الآية: ٢٤.

(٤) ومهما فسر ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعَارج: ٢٤] في قسم من الروايات بغير الزكاة، فقد يعني غير الزكاة المعروضة ذات النصابات المعلومة، لا سيما وأن آيتي ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعَارج: ٢٤] مكيتان ولم تكن في مكة للزكاة نصاب، ومما ورد في ذلك ما رواه عبد الرحمن الأنصاري قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول إن رجلاً جاء إلى علي بن الحسين عليهما السلام فقال له: أخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]؟ ما هذا الحق المعلوم؟ فقال له علي بن الحسين عليهما السلام : الحق المعلوم.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٦) هو في آيتين: المعارج ٢٤ والذاريات ١٩ ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥] وفي الأنعام ١٤٣ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ...﴾ [الأنعَام: ١٤١] ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ...﴾ [الأنعَام: ١٤١].

وتفصيلاً للهوامش ١ - ٢ إليكم نصوص الآيات التالية:

فالزكاة فريضة مكية لشطرين من آياتها، فالثاني آيات مدنية أربع تتحدث عن واجب الزكاة في الشرايع السابقة كـ ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريَم: ٣١] - ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البَقَرَة: ٤٣] - ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريَم: ٥٥] - ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٧٣].

والشطر الأول هي مكيات تسع: ﴿... وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ...﴾ [الأعرَاف: ١٥٦] - ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤] - و﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمَان: ٤، والنمل: ٣] - ﴿... وَمَآ ءَاتَيْتُم =

مدنية وليست مكية، وقد اشتهرت بين الفقهاء والمفسرين ومؤلفي آيات الأحكام مما يحير العقول.

والتعبير عن كل هذه الإيتاءات بمختلف صيغها بالزكاة أكثر مما سواها من تعبيرات، يعني أن المال المؤتى في سبيل الله يزكي النفوس والأموال من البخل والخيلاء أمام الله وأمام خلق الله، والمجتمعَ من الفقر والعناء مادياً ونفسياً، ومن كافة الأخطار الموجهة إليه اقتصادية وأنفسية وسياسية أماهيه من قذارات فردية وجماعية: فـ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾(1)!.

وفي مربع الإيتاء الإنفاق الصدقة الزكاة، الثلاثة الأخيرة تفسر كيفية الإيتاء، أن واجبه كونه موصوفاً بصفة الإنفاق والصدقة والزكاة، فالإيتاء الخارج عن هذا المثلث خارج عن دور الإيتاء إيمانياً.

ومختلف آيات الزكاة - كالحكمة الربانية الفارضة لها - تدل على شموليتها لكل الأموال، دون التسعة المعروفة التي لا أصل لها إلّا ضعاف

= مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الرّوم: ٣٩] ﴿... وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت: ٦-٧] - ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] ﴿... وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمّل: ٢٠] ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٨].

فهذه ثلاث عشرة آية تتحدث عن واجب الزكاة قبل العهد المدني.

ومن ثم آية الأنعام ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ...﴾ [١٤١] وآية ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ في المعارج (٢٤) والذاريات (١٩): ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

فهذه ست عشرة، ثم آياتها المدنية أقل منها وإنما تزيد على المكية الأمر بالأخذ من أموالهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وقد نزلت في تاسع الهجرة أو عاشرها، ثم بين الرسول ﷺ نصابات الزكاة.

فمن ثلاثين آية حول الزكاة التي أكثرها مقرونة بالصلاة تسع منها مكيات والباقية مدنيات!.

(1) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

الروايات سنداً ومتناً، المخالفة للآيات وعشراتٍ أضعافها من معتبرات الروايات التي تعني ما تعنيه الآيات.

فالروايات الحاصرة لها في التسعة هي القائلة بصيغة واحدة «عفى رسول الله ﷺ عما سوى ذلك»[1] وكيف يصح أن يعفو رسول الله ﷺ عما فرضه الله؟ اللّهم إلّا مرحليّاً تطبيقياً مؤقتاً توطيناً للنفوس على أداء الزكاة، وأنه لم يكن في عهدي الرسول مكياً ومدنياً سوى هذه التسع من الأموال التي تأتي فيها الزكاة أم هي أهمها وأكثرها، لا سيما وأن العهد المكي هو عهد أفقر الفقر للمسلمين المحاصَرين اقتصادياً وفي كل الحركات، لذلك يكتفى في آياتها المكية بفرضها دون واجب أخذها، ثم الزكاة تعني كل ما يزكي الإنسان دون اختصاص بالأموال، كزكاة العلم والمعرفة أماهيه، ثم ولم تكن زكاة المال مختصة بنصاب خاص، بل هي

---

(١) عفا رسول الله ﷺ عما سوى ذلك - إن صح نقله - لا يعني تشريعه استقلالاً أو تخويلاً، ثم السنة لا تنسخ الكتاب واختصاص الزكاة بهذه التسع نسخ لعمومات وصدقات الكتاب - وكثير منها آتية عن تخصيص أو تفسير - وما يقبل أحدهما فذلك تخصيص مستهيمن لأنه تخصيص الأكثر وكذلك لتفسير الأكثر، ثم الحديثان المتعارضان يعرضان على القرآن وهو يصدق القسم الثاني القائل بعموم الزكاة لكل الأموال فإنما العفو يعني مرحلية بيان الواجب في الزكاة كما فيما اشتبها من أحكام صعبة.

جامع أحاديث الشيعة ٨ : ٤١ بسند عن يونس عن عبد الله بن مسكان عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: وضع رسول الله ﷺ الزكاة على تسعة أشياء الحنطة والشعير والتمر والزبيب والذهب والفضة والإبل والبقر والغنم وعفا عما سوى ذلك.

وفي الكافي قال يونس معنى قوله إن الزكاة في تسعة أشياء وعفا عما سوى ذلك إنما كان ذلك في أول النبوة كما كانت الصلاة ركعتين ثم زاد رسول الله ﷺ فيها سبع ركعات وكذلك الزكاة وضعها وسنها في أوّل نبوته على تسعة أشياء ثم وضعها على جميع الحبوب.

وعن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هل في الأرز شيء؟ فقال: نعم، ثم قال: إن المدينة لم تكن يومئذ أرض أرز فيقال فيه ولكنه قد جعل فيه وكيف لا يكون فيه وعامة خراج أهل العراق منه؟ (التهذيب ٤ : ٦٥) أقول: وعلّ «عفا عما سوى ذلك» يشمل عفو الذكر عما لم يكن يومئذ في نطاق الحكم الإسلامي.

كل ما سمحت به الأيدي قدر المستطاع كما تعنيه آية البقرة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[(١)].

فلا يعني «عفى» عفوه من عند نفسه، فإنه مساماة لربه في التشريع أو فرية على ربه أن نسبه إليه، ولا عفوه تخويلاً من الله إليه حيث الربوبية تكوينيةً ولا تشريعيةً وما أشبه لا تخوّل، وإنما هو رسول ليس إلا، ولو كان مشرعاً بأية صورة لكان رباً رسولاً، والناصية العامة من الآيات التي تتحدث عن كيان الرسول تحصره في الرسالة فقط، وليس التشريع وكالة من الرسالة، بل هو ربوبية مخولة!.

نرى الزكاة في كافة الشرائع الإلهية متعلقة بكل الأموال، كما تشير إليه آيات من القرآن وأخرى من كتابات السماء[(٢)].

فمن القرآن: ﴿وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[(٣)] فمتى كان للسيد المسيح عليه السلام نقدان وغلات وأنعام ولا سيما لحد النصاب حتى يوصى بالزكاة منها، اللّهم إلّا زيادة عن ضروراته مهما قلت!.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) منها في في أخبار الأيام الثاني الإصحاح ٣١ - الآية ٥: «ولما شاع الأمر كثَّر بنو إسرائيل من أوائل الحنطة والمسطار والزيت والعسل ومن كلّ غلة الحقل وآتوا بعشر الجميع بكثرة».
وفي التوراة سفر الاعداد ١٨ : ٢٦: «متى أخذتم من بني إسرائيل العشر الذي أعطيتكم إياه من عندهم نصيباً لكم ترفعون منه رفيعة الرب عشراً من العشر. فيُحسب لكم أنه رفيعتكم كالحنطة من البيدر وكذلك من المعصرة. فهكذا ترفعون أنتم أيضاً رفيعة الرب من جميع عشوركم التي تأخذون من بني إسرائيل» وفي سفر اللاويين ١٩ : ٩ و١٠ و٢٣ والتثنية ٢٤: ١٩ وتواريخ الأيام ص ٣١ ٧١٧: ٥ يذكر الدهن والعسل من الأموال الزكوية.
وفي إنجيل متى ٢٣: ٢٣ يقول المسيح عليه السلام: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تعشُّرون النعنع والشِبِث والكُمّون وتركتم أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان. كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك» ومثله في لوقا ٤٢١١١ ولي ٤١ منه يقول عليه السلام: بل اعطوا ما عندكم صدقة فهوذا كلّ شيء يكون نقياً لكم.

(٣) سورة مريم، الآية: ٣١.

كما والنبيون أجمع وهم كانوا فقراء قد لا يملكون قوتهم: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[1].

فما هم في حقل الزكاة إلّا كالمسيح من النبيين وكنساء النبي ﷺ من سائر الناس: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ...﴾[2] فمتى كانت لهن نصابات من هذه التسع - أم دونها - حتى يؤمرن بالزكاة إلّا واحدة منهن وهي خديجة المتوفاة قبل نزول هذه الآية بسنين.

ثم وكيف تقرن الزكاة بالصلاة كشريطة ثابتة للإيمان؟ وهي خاصة بالتسعة التي لا يملكها إلّا الأقلون! ف ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ... وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾[3] إلا إذا كانت فرضاً مهما قلت، شاملة للجل أو الكل، حيث الإنسان أياً كان بإمكانه إيتاء الزكاة، وعلى أقل تقدير من سائر قواته إن لم يكن له قوة في مال.

ذلك! فلم يقرن أي واجب بصفة الإيمان العام إلا الزكاة، مما يدل على تعميمها لكل المؤمنين.

أم كيف تختص الزكاة بهذه التسع وهي معنية من الخاتم الذي أنفقه الإمام علي عليه السلام في ركوع الصلاة؟ حسب متواتر الروايات المفسرة آيته: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[4].

فلا تجد أياً من فروع الدين يقرن بالصلاة إلّا الزكاة، فقد «فرض الله الزكاة مع الصلاة»[5] في عدة آيات، وليس ذلك إلّا لأهميتها وأعميتها،

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ١ و٤.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٥.
(٥) الوسائل: ٦: ٥ صحيحة الفضلاء الأربع محمد بن مسلم وأبي بصير وبريد وفضيل كلهم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا: فرض الله الزكاة مع الصلاة. =

فالإنسان أيّاً كان قد يجد ما ينفقه، ولكن الصوم والجهاد والحج والأمر والنهي وما أشبه ليست على كافة المكلفين، اللّهم من توفرت فيه شروطها بظروفها.

هنا ننظر إلى خصوص الآيات وعمومها في حقل الزكاة، فلا نجد أية إشارة إلى اختصاصها بمال دون سواه، مما يحتم شمولها لكل الأموال دونما استثناء.

ومن خصوصها: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1].

فضمير الغائب في ﴿حَقَّهُۥ﴾ راجع - لأقل تقدير - إلى الأخير:

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ ويكفي هذا تجاوزاً عن التسعة الشهيرة! ولكنه راجع بظاهره - إلى كل المذكورات هنا، فـ ﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ تشمل كافة الجنات بكل الفواكه الناتجة عنها دونما استثناء، كما ﴿وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ تشمل كل ما يزرع، فأين حصر الزكاة في الغلات الأربع ونص الآية لا سيما في الزيتون والرمان يعارضه.

ثم ﴿حَقَّهُۥ﴾ تلمح صارحة بحق معلوم، ومن ثم ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾

= وعن النهج عن علي عليه السلام تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها.. ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام فمن أعطاها طيب النفس بها فإنها تجعل له كفارة ومن النار حجاباً ووقاية فلا يتبعها أحد نفسه ولا يكثرن عليها لهفة وإن من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها فهو جاهل بالسنة مغبون الأجر ضال العمل طويل الندم.

وفيه عنه عليه السلام سوسوا إيمانكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

تختصه بيوم الحصاد، مما يخصصه بالزكاة، إذ لا حق معلوماً يوم الحصاد إلّا الزكاة[1] والقول ألّا إسراف في الحق المعلوم، يرد هنا بأن المعلوم هو العفو الوسط، والإسراف يعم جانبي الإفراط والتفريط، فـ ﴿حَقَّهُۥ﴾ هو العفو الوسط إذ كان ذلك قبل تقرير نصابات الزكاة، فإنها ابتدأت من العهد المدني أم يعني الإسراف في المصرف، فكما لا تبذير فيه كذلك لا إسراف،

(١) الدر المنثور ٣: ٤٩ - أخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال: الصدقة التي فيه ذكر لنا أن نبي الله ﷺ سن فيما سقت السماء أو العين السائحة أو سقى النيل أو كان بعلاً العشر كاملاً وفيما سقي بالرشا نصف العشر وهذا فيما يكال من الثمر، قال: وكان يقال إذا بلغت الثمرة خمسة أوسق وهو ثلاثمائة صاع فقد حقت فيه الزكاة قال: وكانوا يستحبون أن يعطى مما لا يكال من الثمرة على نحو ما يكال منها.

وفيه أخرج ابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في الآية قال: «ما سقط من السنبل» أقول: قد يعني واجب الزكاة دون نصاب في مكة قبل تقرير النصاب.

وفي نور الثقلين ١: ٧٦٩ في تفسير العياشي عن سماعة عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام عن النبي ﷺ أنه كان يكره أن يصرم النخل بالليل وأن يحصد الزرع بالليل لأن الله يقول: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قيل يا نبي الله وما حقه؟ قال: ناول منه المسكين والسائل. أقول: وهذا من تفسير الآية مكياً قبل تقرير النصاب. وفيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية فسماه الله حقاً قال قلت: وما حقه يوم حصاده؟ قال: الضغث وتتأوله من حضرك من أهل الخاصة. أقول: وهكذا الأمر هنا.

وفي الصحيح عن زرارة ومحمد بن مسلم وأبي بصير في الآية «هذا من الصدقة يعطي المسكين القبضة بعد القبضة ومن الجراذ الحفنة بعد الحفنة حتى يفرغ».

وفي الوسائل ٦: ١٣٤ عن أبي مريم عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: «تعطي المسكين يوم حصادك الضغث ثم إذا وقع في البيدر ثم إذا وقع في الصاع العشر ونصف العشر» أقول: وهذا تفسير الآية مدنياً بعد تقرير النصاب. ويعارضه خبر معاوية بن شريح سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: في الزرع حقان حق تؤخذ به وحق تعطيه قلت وما الذي أؤخذ به وما الذي أعطيه؟ قال: أما الذي تؤخذ به فالعشر ونصف العشر وأما الذي تعطيه فقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] يعني من حضرك الشيء بعد الشيء ولا أعلمه إلا قال: الضغث ثم الضغث حتى يفرغ، أقول: عله يعني الحق المحلق على النصاب لأنها نزلت قبل تقرير النصاب.

و ﴿حَقَّهُۥ﴾ إذاً ما زاد عن حاجيات الحياة، فإن المبذر أو المسرف إنما ينقص فيهما عن ﴿حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ توفيراً لنفسه، إسرافاً أو تبذيراً أو كنزاً، مثلثاً من المحرمات لا يسمح لشيء منها في شرعة الله.

ولم يمنع جماعةً من أعلام الفقهاء والمفسرين عن أن ذلك الحق هو الزكاة إلا مكية الآية، زعمَ أن فريضة الزكاة مدنية، رغم أن زهاء النصف من آيات الزكاة مكيات!.

ومتضارب الروايات في تفسير ﴿حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ معروضة على هذه الآية حقها، فتطرح أو تأوّل المخالفة لحقها[1] وهي لأقل تقدير تفرض حقاً في الأكثر من التسعة المشهورة.

ومنها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ[2] وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ... وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ... إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ ﴿٢٧١﴾﴾[3].

ف ﴿طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ تحلِّق على كل المكاسب المحللة الطيبة تجارة وإجارة أماهيه؟ وكيف لا تشمل ﴿مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ أرباح التجارات وهو يقابل ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

---

(١) في فروع الكافي ٣: ٥١٠ محمد بن مسلم قال: سألته عن الحبوب ما يزكى منها؟ قال: البر والشعير والذرة والدخن والأرز والسّلت والعدس والسمسم كلّ هذا يزكى وأشباهه.
أقول: السّلت هو الشعير أو غير ذي القشر منه.
وفيه عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام مثله وقال: كلّ ما كيل بالصاع فبلغ الأوساق فعليه الزكاة وقال: جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصدقة في كلّ شيء أنبتت الأرض إلا ما كان في الخضر والبقول وكل شيء يفسد من يومه.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ٢٦٧-٢٧١.

ثم ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ محلقة على كل نابتات الأرض، ولا تخرج الأموال كلها من هذين، واختصاص ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ بالنقدين المسكوكين و﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا...﴾ بالغلات الأربع، من المستهجن جداً وذكر ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ فيما بعد مما يبين ويعين أن الإنفاق هنا يعني واجب الزكاة، فهي واجبة في أرباح التجارات وهي خارجة عن التسعة! ولو كان القصد من طيبات ما كسبتم فقط النقدين والأنعام لجاء بلفظهما الصريح كـ «من النقدين والأنعام» والأنعام مذكورة بعدها، وكذلك ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لو عنى منها «الغلات الأربع» لجاء بلفظها الخاص، إذاً فواجب الإنفاق عام، وتخصيصه بالتسعة مستهجن مخالف لنص العموم غير القابلة للتخصيص.

ومنها آيتا حق معلوم: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾[1] ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾[2] و«ليس في المال حق سوى الزكاة»[3] وهل إن ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ تختص بهذه التسعة، ولا يملكها إلا الأقلون.

ومن عموم الآيات التي هي كخصوصها كما النصوص: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا...﴾[4] حيث الجمع المضاف دليل الاستغراق، أفليست ما سوى التسعة من أموالهم؟ والأكثرية الساحقة يملكون منها ما لا يملكون! ولا تتحمل ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ التخصيص بالتسعة فإنه تخصيص الأكثر، وكيف يصح تخصيص عام يشمل مئات الصنوف من الأموال بتسعة فقط وهو مستهجن، فلا أقل من إشارة تناسب البعض.

---

(١) سورة المعارج، الآيات: ٢٢-٢٥.
(٢) سورة الذاريات، الآيتان: ١٨، ١٩.
(٣) تفسير الرازي ١٣ : ٢١٤ قال ﷺ: ...
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

ثم آيات فرض الإنفاق: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[١] أترى أننا مستخلفون - فقط - في القلة القليلة التي يملكها الأقلون، دون الكثرة الكثيرة التي يملكها الأكثرون، فالأقلون - إذاً - مستحلفون ثم الأكثرون متخلفون!..

أو ليست تلك الكثرة من مال الله التي استخلفنا فيه كما نحن مستخلفون في هذه القلة؟! وقد نرى فرض الإنفاق ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ بعد فرض الصلاة في آيات أربع: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢] - ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[٣] - ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٤] - ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[٥].

فلأن الصلاة تقرن فيما تقرن بالزكاة وقد قرنت هنا بـ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ فهي هي الزكاة، وكما أجمعت عليه كلمة المفسرين.

فهلّا تكون سائر الأرزاق - ما سوى التسعة - ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؟ فليست هي رزقاً أم هي من رزق غير الله؟ ولا يتحمل ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ التخصيص بالتسعة، فإنه من تخصيص الأكثر، وكذلك تخصيص النسخ حيث السنة لا تنسخ الكتاب ولا سيما إذا كانت معارضة بمثلها أو أكثر منها كما هنا.

هذا - وهكذا آيات إيتاء المال كـ ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٣) سورة الأنفال، الآيتان: ٣، ٤.
(٤) سورة الحج، الآية: ٣٥.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٣١.

وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ﴾[(١)] فـ «إن الله تبارك وتعالى أشرك بين الأغنياء والفقراء في الأموال فليس لهم أن يصرفوا إلى غير شركائهم»[(٢)] ثم ولا نجد في مربع الآيات - إيتاءً وإنفاقاً وصدقات وزكوات - أي تحديد لمتعلّقها من الأموال، إلّا تعميماً بنص، أو إطلاقاً أو عموماً يأبيان عن أي تحديد وتقييد.

ذلك، ولسنا نختص واجب الإنفاق بالزكاة لو لم تكن هي والصدقات والإنفاقات واحدة، وهي الصدقة حسب آيتنا ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ﴾ فواجب إيتاء المال كضريبة مستقيمة وغير مستقيمة هو واجب الرعاية على أية حال.

ذلك، ولأن الزكاة هي تزكية في جهات، ضميرياً عن البخل، ومالياً واجتماعياً وما أشبه، فقد يعبر عن كل الإنفاقات - سوى الديات والكفارات وما أشبه - بالزكاة، كما يعبر عنها بالصدقات والإنفاقات والإيتاءات.

ذلك، وليست صدفة غير قاصدة تلحيق أحاديث التسعة - ككل -

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٢) الكافي ٣: ٥٢٨ والعلل ٢: ٥٩ عن أبي المعزى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: . . . وفي الكافي ٣: ٥٢٤ عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: باع أرضاً من سليمان بن عبد الملك بمال فاشترط في بيعه أن يزكى هذا المال من عنده ست سنين.

وفيه عن عبد الله بن سنان قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: باع أبي من هشام بن عبد الملك أرضاً له بكذا وكذا ألف دينار واشترط عليه زكاة ذلك المال عشر سنين وإنما فعل ذلك لأن هشاماً كان هو الوالي.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن أبيه عن علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: من كان له مال وعليه مال فليحسب ماله وما عليه فإن كان ماله فضل على مائتي درهم فليعط خمسة دراهم وإن لم يكن له فضل على مائتي درهم فليس عليه شيء (الأشعثيات ص ٥٤).

وقولهم عليهم السلام: «أيما رجل عنده مال وحال عليه الحول فإنه يزكيه» (الحدائق الناضرة ١٢: ٣٩) وعن جعفر بن محمد عليهما السلام أنه قال في الذي يكون للرجل على الرجل إن كان غير ممنوع منه يأخذ متى شاء بلا خصومة ولا مدافعة فهو كسائر ما في يديه من ماله يزكيه وإن كان الذي هو عليه يدافعه ولا يصل إليه إلا بخصومة فزكاته على الذي في يديه وكذلك الحال الغائب وكذلك مهر المرأة على زوجها (البحار ٢٠: ١٣).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «هاتوا ربع عشر أموالكم» (المختلف ٢: ١).

بـ«وعفى رسول الله ﷺ عما سوى ذلك» فإنها لا تعني - إن صدرت وصحت - أنه ﷺ عفى عما فرضه الله، بل هي إشارة إلى سياسة التدريج والمرحلية لتطبيق فريضة الزكاة.

فقد فُرضت عليهم الزكاة في العهد المكي دون تحديد، اللّهم إلّا ما تسمح به أنفسهم، إذ لم تحدد فيه نصابات الزكاة، رعاية لأحوالهم في بداية الحال، ولأنه لم تكن في مكة أموال.

ثم تأكد الفرض في العهد المدني أمراً بأخذها: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾[1] ثم وقررت هنا النصابات لأموال خاصة، ثم عمت هذه التقديرات لكل الأموال كما فرض الله.

وقد تلمح هذه بمجاراتهم في أخذ الزكاة كيلا تصعب عليهم مضطربين، فأخذ منهم في البداية هذه التسعة «وعفى عما سوى ذلك» مؤقتاً حتى يتهيأوا[2].

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

(٢) قد يدل على هذه المرحلية ما رواه في الكافي عن علي بن مهزيار قال قرأت في كتاب عبد الله ابن محمد إلى أبي الحسن عليه السلام جعلت فداك روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: وضع رسول الله ﷺ الزكاة على تسعة أشياء.... وعفا عما سوى ذلك؟ فقال له القائل: عندنا شيء كثير يكون أضعاف ذلك، فقال: وما هو؟ فقال له: الأرز، فقال أبو عبد الله عليه السلام أقول لك: إن رسول الله ﷺ وضع الزكاة على تسعة أشياء وعفا عما سوى ذلك وتقول عندنا أرز وعندنا ذرة وقد كانت الذرة على عهد رسول الله ﷺ؟ فوقع عليه السلام: كذلك هو والزكاة على كلّ ما كيل بالصاع.

أقول: هذا تقرير لمرحلية الزكاة وأنها ليست فقط على التسعة كما يصرح به توقيعه عليه السلام «الزكاة على كلّ ما كيل بالصاع» ثم العفو عما سوى ذلك ليس من شؤون الرسول ﷺ لأنه ليس شارعاً ولا مخولاً في التشريع وإنما هو رسول - ولئن قلت إنه وحي أن يعفو فهو إذاً نسخ لعمومات الكتاب إذ لا تتحمل التخصيص.

ثم طبق عليهم الفرض المُطْبق كما أمر الله، وقد تتبين هذه المرحلية من مكاتيب للرسول ﷺ إلى بعض الملوك والشيوخ من حمير ونجران واليمن حيث يلحِّق فيها التسعة بـ «فمن زاد خيراً فهو خير له» إشارة إلى تطبيق الفرض بكامله فيما بعد.

ومن التأويل لروايات التسعة أنه لم يكن في البداية في زمن الرسول إلا هذه التسعة، أم هي الأكثرية الساحقة وغيرها لم يكن يؤتى بها.

وقد دلت روايات كثيرة على تلك الشمولية المحلقة على كل الأموال، في حقول الزراعة والتجارة(١) أماهيه من محاولات مالية، هي المعول عليها

(١) ومنها ما رواه زرارة قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام في الذرة شيء؟ قال: الذرة والعدس والسلت والحبوب منها مثل ما في الحنطة والشعير وكل ما كيل بالصاع فبلغ الأوساق التي تجب فيها الزكاة فعليه فيه الزكاة (التهذيب ٤: ٦٥).

أقول: وكيف يحمل مثله على التقية وذكر الثلاثة الأخر مع العدس زيادة في الإجابة عن مورد السؤال والتقية يقتصر فيها على الضرورة وما هي الضرورة أولاً في زيادة البقية وثانياً في ذكر ضابطة عامة «كل ما كيل بالصاع..»؟ ثم لا قائل بما زاد عن التسعة بين العامة حتى يحمل على التقية.

ومنها ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: كلّ ما دخل في القفيز فهو يجري مجرى الحنطة والشعير والتمر والزبيب قال: فأخبرني جعلت فداك هل على هذا الأرز وما أشبهه من الحبوب: الحمص والعدس زكاة؟ فوقع عليه السلام صدقوا الزكاة في كلّ شيء كيل (الكافي ٣: ٥١١ ح ٤). وكتب عبد الله وروى غير هذا الرجل عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سأله عن الحبوب فقال: وما هي؟ فقال: «السمسم والأرز والدخن وكل هذا غلة كالحنطة والشعير فقال أبو عبد الله عليه السلام في الحبوب كلها زكاة» (الكافي ٣: ٥١٠) أقول: الدخن ذريرة تدخن بها البيوت.

وعن محمد بن إسماعيل قال قلت لأبي الحسن عليه السلام: إن لنا رطبة وأرزاً فما الذي علينا فيها؟ فقال عليه السلام: أما الرطبة فليس عليك فيها شيء وأما الأرز فما سقت السماء العشر وما سقي بالدلو فنصف العشر من كلّ ما كلت بالصاع أو قال وكيل بالمكيال (الكافي ٣: ٥١١ ح ٥).

وعن أبي مريم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الحرث ما يزكى منه؟ فقال عليه السلام: البر والشعير والذرة والأرز والسلت والعدس كلّ هذا مما يزكى وقال: «كل ما كيل بالصاع فبلغ الأوساق فعليه الزكاة» (المصدر). =

لموافقة الكتاب، وروايات التسعة مأولة أو مطروحة بمخالفة الكتاب،

= وعن سماعة قال سألته عن الزكاة في الزبيب والتمر فقال: في كلّ خمسة أوساق وسق والوسق ستون صاعاً والزكاة فيهما سواء فأما الطعام فالعشر فيما سقت السماء وأما ما سقي الغرب والدوالي فإنما عليه نصف العشر (الكافي ٣: ٥١٢ والتهذيب ٤: ١٥ والاستبصار ٢: ١٦).

وعن أبي بصير ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام أنهما قالا له: هذه الأرض التي يزارع أهلها ما ترى فيها؟ فقال عليه السلام: كلّ أرض رفعها إليك السلطان مما حرثته فيها فعليك فيما أخرج الله منها الذي قاطعك عليه وليس على جميع ما أخرج الله منها العشر إنما عليك العشر فيما يحصل في يدك بعد مقاسمته لك (الكافي ٣: ٥١٣).

أقول: يقول صاحب المدارك بعد ذكر هذا الحديث: وهذه الرواية كالصريحة في عدم استثناء شيء مما يخرج من الأرض.. فالمستفاد من النصوص الصحيحة وجوب الزكاة في جميع ما يخرج من الأرض بعد المقاسمة، ومثله صاحب الذخيرة في قوله: قال بعض الفضلاء هذه الرواية كالصريحة في عدم استثناء شيء مما يخرج من الأرض سوى المقاسمة إذ المقام مقام بيان ما عسى أن يتوهم اندراجه في العموم.. والمستفاد من النصوص وجوب الزكاة في جميع ما يخرج من الأرض بعد المقاسمة.

وعن الرضا عليه السلام في كتاب له إلى المأمون: والعشر من الحنطة والشعير والتمر والزبيب وكل ما يخرج من الأرض من الحبوب إذا بلغت خمسة أوساق ففيها العشر إن كان يسقي سيحاً وإن كان يسقى بالدوالي ففيه نصف العشر للمعسر والميسر (تحف العقول ص ٤١٥).

وعن جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: وما سقت السماء والأنهار ففيها العشر وهذا حديث أثبته الخاص والعام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيه أبين البيان على أن الزكاة تجب في كلّ ما أنبتت الأرض ولم يستثن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك شيئاً دون شيء (دعائم الإسلام ١: ٢٥٦ - بحار الأنوار ٢٠: ٢٦).

وفيه وروينا عن أهل البيت عليهم السلام عن طرق كثيرة وبأسناده العامة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وروينا عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه سئل عن السمسم والأرز وغير ذلك من الحبوب هل تزكى؟ فقال: نعم كالحنطة والشعير (المصدر ص ٢٥٦).

وعن عبد الله بن سنان قال قال أبو عبد الله عليه السلام: إن صدقة الظلف والخف تدفع إلى المتجملين وأما صدقة الذهب والفضة وما كيل بالقفيز فما أخرجت الأرض فإلى الفقراء المدقعين (علل الشرائع).

أقول: هذا شطر من الأحاديث حول الزراعة من طرق أصحابنا وأما من طرق إخواننا فمنها ما عن موسى بن طلحة عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: فيما سقت السماء والبعل والسيل العشر وفيما سقي بالنضح نصف العشر وأن يكون ذلك في التمر والحنطة والحبوب وأما القثاء والبطيخ والرمان والقضيب فقد عفا عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (المستدرك للحاكم =

وحمل الأولى على التقية يحمل معها الكتاب أيضاً على التقية، رغم أن القائل بالشمولية في إخواننا عادم أم أقل من أصحابنا الإمامية، ثم الحمل على التقية مرحلة أخرى بعد العرض على الكتاب، وهذه الموانع الثلاثة هي مما تجعل الحمل على التقية هنا مخالفاً للعقل والكتاب والسنة، اللّهم إلّا أن تحمل أخبار التسعة على التقية لأنها مذهب العامة وسائر الأخبار هي مذهب أهل البيت عليهم السلام إذ لا نجد قائلاً بها بين إخواننا!.

ذلك، ولئن لم تقبل أحاديث العفو تأويل سياسة التدرج أما أشبه فهي

= النيسابوري ١: ٤٠١) أقول: الرمان خلاف نص القرآن في آيته الماضية ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ. . .﴾ [الأنعام: ٩٩].

أقول: وقد أخرج في صحيح البخاري ١: ١٧٠ والخراج ص ٥٤ وصحيح مسلم ٣: ٦٧ وسنن ابن ماجة كلهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بعلاً العشر وفيما سقي بالنواضح نصف العشر.

وفي فتوح البلدان للبلاذري ص ٨٣ عن موسى بن طلحة بن عبد الله قال قرأت كتاب معاذ بن جبل حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليمن فكان فيه أن تؤخذ الصدقة من الحنطة والشعير والتمر والزبيب والذرة.

وفيه عن عمرو بن شعيب أن عاملاً لعمر بن الخطاب على الطائف كتب إليه أن أصحاب العسل لا يرفعون إلينا ما كانوا يرفعون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو من كلّ عشرة زقاق زق، فكتب إليه عمر إن فعلوا فاحموا لهم أوديتهم وإلا فلا تحموها.

هذا - ثم أحاديث أخرى تدل على فرض الزكاة على جميع الأموال: منها ما عن الحسن بن علي الوشا عن أبان عن شعيب قال أبو عبد الله عليه السلام: كلّ شيء جرّ عليك المال فزكه وكل شيء ورثته أو وهب لك فاستقل به (الكافي ٣: ٥٢٧).

وعن محمد بن مسلم عنه عليه السلام قال: كلّ مال عملت به فعليك فيه الزكاة إذا حال عليه الحول (الكافي ٣: ٥٢٨).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه أسقط الزكاة عن الدر والياقوت والجوهر كله ما لم يرد به التجارة (البحار ٢٠: ١٣ عن دعائم الإسلام) وفيه عن جعفر بن محمد عليهما السلام عن علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عفا عن الدور والخدم والكسوة والأثاث ما لم يرد شيء من ذلك التجارة.

وعن زرارة عنه عليه السلام قال: «لكل شيء زكاة وزكاة الأجسام الصيام» (الحدائق ١٣: ١٠).

وعن الصادق عليه السلام قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ملعون كلّ مال لا يزكى (أربعين الشيخ البهائي الحديث الثامن عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عنه عليه السلام).

مطرودة، حيث الرسول ﷺ ليس ليعفو عما فرضه الله! ولا سيما عن حقوق الفقراء المعدمين رعاية للأغنياء.

فهل إن رسول الرحمة للعالمين يحن إلى الأغنياء تخلفاً عما فرضه الله عليهم من حقوق الفقراء، زحمة للفقراء ورحمة للأغنياء.

إن هذه فرية وقحة على ساحة الرسالة القدسية في حقول شتى!.

هذه آيات لواجب الزكاة الطليقة الشاملة على كل الأموال، وعلى ضوئها رواياتها، والروايات الأخرى مأولة أو مطروحة لمخالفة الكتاب والسنة، لا سيما وبعض رواتها ليسوا من رعاتها، بل ومن المطعونين الكذابين[1] ومهما كانت أسناد بعضها صحيحة، ولكن المتون لا صحة لها إلّا ما يوافق القرآن.

---

(١) منهم علي بن فضال الفطحي وكان يقول بإمامة جعفر الكذاب وقد روى (٤٨) حديثاً في باب الزكاة هي بين ما أخرجه الشيخ الطوسي في التهذيب، وهي تحمل تناقضات في نفسها ومع أحاديث أخرى وإجحافات بحق الفقراء هضماً لحقوقهم بحيل وسواها تنقص من حقوقهم وإليكم نماذج منها:

فحديثه الحادي عشر وهو الثامن عشر من التهذيب فيه «ليس على البر زكاة» ويضاده الحديث (٢٩) فيه.

و(١٢) منه وهو (٢٣) من التهذيب «ليس في الحلي زكاة وإن بلغ مائة ألف درهم».

و(١٣) منه وهو (٢٤) من التهذيب فيه «سألت أبا عبد الله عن الحلي فيه زكاة قال: لا».

و(١٤) منه وهو (٢٧) منه فيه «من فر بها (بالحلي) من الزكاة».

و(١٥) منه وهو (٣٠) منه فيه «ليس في الفضة زكاة حتى تبلغ مائتي درهم وليس في الكسوة رشى».

و(١٦) منه وهو (٣٢) منه فيه «إذا زاد على المائتي درهم أربعون درهماً ففيها درهم وليس فيما دون الأربعين شيء».

و(١٨) منه وهو (٣٥) منه فيه «في زكاة الحنطة والشعير والتمر والزبيب ليس فيما دون الخمسة أوساق شيء» وله معارض.

و(١٩) منه وهو (٣٦) منه فيه «ليس في النخل صدقة حتى تبلغ خمسة أوساق» وله معارض.

و(٢٣) منه وهو (٦٣) منه فيه عن أبي عبد الله عليه السلام «كان أبي يخالف الناس في مال اليتيم ليس عليه زكاة» وله معارضات. =

ثم وعلى ضوء آية زكاة التجارة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا

= و(٢٤) منه وهو (٧٣) منه فيه ليس في مال اليتيم زكاة وليس عليه صلاة وليس على جميع غلاته من نخل أو زرع أو غلة زكاة وإن بلغ فليس عليه لما مضى زكاة ولا عليه لما يستقبل حتى يدرك فإذا أدرك كانت عليه زكاة واحدة.

و(٢٦) منه وهو (٨٠) منه فيه «ليس في الدين زكاة».

و(٢٨) منه وهو (٧٩) منه فيه «ليس على المستقبل زكاة وليس على أهل الأرض اليوم زكاة إلا من كان في يده شيءٌ مما أقطعه الرسول ﷺ».

و(٢٩) منه وهو (١٠٤) منه فيه «ليس في شيء من الحيوان زكاة غير هذه الأصناف الثلاثة... وكل شيء من هذه الصنوف من الدواجن والعوامل فليس فيها شيء» وله معارض.

و(٣١) منه وهو (١٢٧) منه فيه إعطاء الزكاة للأشراف وأصحاب البيوت والعبيد.

و(٣٧) منه وهو (١٦١) منه فيه «أعطوا من الزكاة بني هاشم فإنها تحل لهم».

و(٤٠) منه وهو (١٩٠) منه فيه «ليس في مال المضطرب به زكاة».

هذه وعديد آخر والمجموع (٤٨) حديثاً يرويه هذا الفطحي الكذاب، سبعة منها هي من اثني عشر حديثاً في تعيين الزكاة في التسعة المعروفة.

ولقد أضاف في الوسائل بقية الاثني عشر إلى أحاديث ابن فضال تكثيراً للدليل على حصر الزكاة في التسعة ولكنها مردودة وإن بلغت مئات.

٢ - زكاة مال التجارة حسب نقل الشيخ الطوسي في المبسوط قول أكثر أصحابنا وإن قال هو باستحبابها وإليكم أحاديثها: في الوسائل ٦: ٤٦ عن إسماعيل بن عبد الخالق قال سأله سعيد الأعرج وأنا أسمع فقال: إنا نكبس الزيت والسمن نطلب به التجارة فربما مكث عندنا السنة والسنتين هل عليه زكاة؟

قال: إن كنت تربح فيه شيئاً أو تجد رأس مالك فعليك زكاته وإن كنت إنما تربص به لأنك لا تجد إلا وضيعة فليس عليك زكاة حتى يصير ذهباً أو فضة فإذا صار ذهباً أو فضة فزكه للسنة التي اتجرت فيها وفيه عن محمد بن مسلم قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل اشترى متاعاً فكسد عليه متاعه وقد زكى ماله قبل أن يشتري المتاع متى يزكيه؟ فقال: إن كان أمسك متاعه يبتغي به رأس ماله فليس عليه زكاة وإن كان حبسه بعدما يجد رأس ماله فعليه الزكاة بعدما أمسكه بعد رأس المال، قال: وسألته عن الرجل توضع عنده الأموال يعمل بها؟ فقال: إذا حال عليها الحول فليزكها.

ورواه مثله أبو الربيع الشامي عنه عليه السلام وخالد بن الحجاج الكرخي عنه عليه السلام وسماعة عنه عليه السلام وأبو بصير عنه عليه السلام والعلاء عنه عليه السلام ومحمد بن أبي نصر عن الرضا عليه السلام وليس في شيء منها لمحة الندب أبداً.

كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾(١) روايات في فرض الزكاة على مال التجارة وإن كان لليتامى(٢).

ثم وحكمة الزكوات المذكورة في الروايات أنها كفاية عن كل حاجيات الفقراء، لا تناسب وانحصارها في هذه التسعة، لا سيما إذا اختص النقدان فيها بالذهب والفضة المسكوكتين، وهي لم تعد - بعدُ - باقية إلّا في شطر من البلاد والزمن، فهي الآن ومنذ أمد بعيد لا توجد إلّا في مستودعات الأشياء العتيقة.

وليس الدينار والدرهم، أو المسكوك منهما في أحاديثنا إلّا نموذجين من النقد الرائج في تلك الأيام، ولكلّ يوم نقد، وقد انحصر اليوم في الأوراق النقدية الرائجة في كافة البلاد.

وكيف يصدق أن في مائتي درهم فضة مسكوكة زكاة وليس في ملايين الليرات والدولارات والتومانات زكاة؟ وشرعة الإسلام بمشاريعها تحلّق على كل عصر ومصر!.

أم كيف يصدق أن في خمسة أوسق من الغلات الأربع زكات، وليس

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.

(٢) كما في صحيح ابن مسلم وحسنه (الوسائل ب ١٣ من أبواب الزكاة ح ٣ و٨) وخبر أبي الربيع الشامي (ح ٤) وسعيد الأعرج (ح ١) والكرخي (ح ٥) والعلاء (ح ٩) وأبي بصير (ح ٧) وموثق سماعة (ح ٦).

فالصحيح الأول قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل اشترى متاعاً فكسد عليه متاعه وقد زكى ماله قبل أن يشتري المتاع متى يزكيه؟ فقال: إن كان أمسك متاعه يبتغي به رأس ماله فليس عليه زكاة وإن كان حبسه بعدما يجد رأس ماله فعليه الزكاة بعدما أمسكه بعد رأس المال، وسألته عن الرجل توضع عنده الأموال يعمل بها؟ فقال: إذا حال عليه الحول فليزكها.

والموثق قال: سألته عن الرجل يكون عنده المتاع موضوعاً فيمكث عنده السنة والسنتين وأكثر من ذلك؟ قال: ليس عليه زكاة حتى يبيعه إلا أن يكون أعطى به رأس ماله فيمنعه من ذلك التماس الفضل فإذا هو فعل ذلك وجبت فيه الزكاة وإن لم يكن أعطى به رأس ماله فليس عليه زكاة حتى يبيعه وإن حبسه ما حبسه فإذا هو باعه فإنما عليه زكاة سنة واحدة.

في خمسة آلاف أوساق من سائر النبات زكاة، ومنها ما هي أغلى كالأرز والزيتون وما أشبه.

أم كيف يعقل أن في خمسة آبال زكاة وليست في خمسين أو خمسمائة أما زاد من سيارات وباخرات وطائرات زكاة؟.

ذلك كله إضافة إلى أن شروطاً لواجب الزكاة في هذه التسعة تجعلها كالعادمة إطلاقاً.

فحين يختص واجب الزكاة في الأنعام بغير المعلوفة، فإن علفتها وإنْ في أيام قلائل فلا زكاة، وهناك من يعلفها فراراً عن الزكاة، أم وتقل السائمة في كل أيام السنة(١) وألا تكون عاملة، ولا ذكراً، ولا أنثى ترضع!، ثم ولا تبدّل بحيوان وسواه طوال السنة، بل تكون عاطلة أنثى دون ولد ترضعه ولا للأكل واللبن! فأين - إذاً - زكاة الأنعام؟.

---

(١) كما يقول المحقق في الشرايع: «ولا بد من استمرار السوم جملة الحول فلو علفها بعضاً ولو يوماً استأنف الحول» وفي الحدائق ١٢ : ٧٩ واختار الشيخ في النهاية والمبسوط سقوطها بعلف اليوم، ثم يقول: والظاهر أنه لا فرق في العلف الموجب لسقوط السوم بين كونه من المالك أو الدابة نفسها أو علف الغير لها بإذن المالك أو بغير إذنه من مال المالك أو من مال نفسه ولا بين أن يكون لعذر يمنع من الرعي كالثلج ونحوه أم لا يصدق العلوفة في جميع هذه الصور.

ثم يقول: «ينبغي الاحتياط في عدم إسقاط الزكاة بعلف ساعة بل يوم في السنة».

أقول: فلو ملئت الدنيا أنعاماً لأمكن سقوط الزكاة بسهولة، بل ولا يتفق لأحد من أصحاب المواشي ألا يحتاج لعلف مواشيه حتى يوماً واحداً في السنة!.

ثم وشرط ألا تكون عاملة يزيد في الطنبور نغمة أخرى، حيث الآبال والأبقار تستعمل في الأكثرية المطلقة للركوب والفلح والحمل، وذلك خلاف ما عن إسحاق بن عمار قال سألته عن الإبل تكون للجمال أو تكون في بعض الأمصار أتجري عليها الزكاة كما تجري على السائمة في البرية؟ قال: نعم (التهذيب ٤ : ٤١ و٤٢ والاستبصار ٢ : ٢٤).

وشرط آخر ألا تكون ذكوراً ولا للأكل بل للتجارة، ولا الأنثى التي لها نتاجان ترضعهما، وهنا تصل أنعام الزكاة لحد الصفر!.

وحين تختص زكاة النقدين بالمسكوك منها، ولكل من يملك الملايين منها تبديلها بسواها من أموال، أو كسرها فراراً عن زكاتها، فأين - إذاً - زكاة النقدين؟.

وحين يشترط لواجب الزكاة في الغلات الأربع قدر نصاب كلٍّ في مكان واحد، وللمحتالين توزيع زرعها لعدة أماكن فأين - إذاً - زكاة الغلات؟.

وهكذا يُقضى على واجب الزكاة من قبل مختلقي روايات التسعة ومشترطيها من ناحية، ومن قبل المحتالين فيها من أخرى، فتظل حقوق الفقراء من الزكاة بين اختلاق واحتيال هباءً منثوراً!.

أو هكذا تكفي الزكاة للفقراء و«إن الله عزّوجلّ فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم، إنهم لم يؤتَوا من قبل فريضة الله عزّوجلّ، ولكن أوتوا من قبل من منعهم حقهم لا مما فرض الله لهم، ولو أن الناس أدّوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير»[1].

أجل «ولكن أوتوا من قبل من منعهم حقهم» كالجامدين على التسعة، وعلى حرفية المسكوك من الذهب والفضة، وعلى كل ما يروى أو به يفتى به مما يهضم حقوق الفقراء «لا مما فرض الله لهم»!.

إن الله تعالى بحكمته العالية ورحمته الشاملة فرض للفقراء أياً كانوا

(١) الوسائل ٦ : ٣ الفقيه بإسناده عن حريز عن زرارة ومحمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: .. وفيه عليه السلام قال الصادق عليه السلام: إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ولاستغنى بما فرض الله له وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله تبارك وتعالى أن يمنع رحمته ممن منع حق الله في ماله وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق أنه ما ضاع مال في برّ ولا بحر إلّا بترك الزكاة.. وأن أحب الناس إلى الله أسخاهم كفاً وأسخى الناس من أدى زكاة ماله ولم يبخل على المؤمنين بما افترض الله لهم في ماله.

وأيان ما يكفيهم من واجب الزكاة، ثم عديد من عباده فرضوا لهم ما لا يكفي قوتهم لأيام فضلاً عن السنة.

لا تجد في القرآن إلا آية واحدة لفرض الخمس على فرض أنه يشمل كل العوائِد، دون خصوص غنائم الحرب، ثم تجد بجنبها عشرات الآيات بحق الزكاة وعشرات عشرات بحق الإيتاءات والإنفاقات والصدقات التي تنحو كلها منحى الزكاة، قرناً بكثير منها بالصلاة مما تجعلها أهم الأركان الاقتصادية للمسلمين، فردية وجماعية، شعبية وحكومية.

فلماذا إذاً تعدم الزكاة فتوىً وواقعاً، ويحتل مكانها الخمس المخصوص بأشخاص خصوص ليس فيهم فقراء اللّهم إلّا المنتسبين بالآباء الى الرسول ﷺ! خلافاً للنصوص التي تعم الخمس لذرية الرسول، وهم كلهم من فاطمة وهي بنت الرسول ﷺ فإذا لم تكن البنت من الذرية فذريتها أيضاً ذكوراً وإناثاً ليسوا بذرية فكل ولد الرسول ﷺ هم من فاطمة من علي عليه السلام ذكوراً وإناثاً دونما فارق إلا فرق الجاهلية بينهما بأن الأناث غير منتسبات إلى الآباء!.

وقد «بني الإسلام على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية» كما في متواتر الحديث عن النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، وليس منها الخمس!.

هذا - ولكن الزكاة التي فرضها الله هي الكافية لكافة الفقراء بل ولحاجيات الدولة الإسلامية أيضاً صرفاً في المصالح العامة التي منها الجهاد وما أشبه.

وهناك نصابات مقدرة وغير مقدرة للزكاة قضيةَ مختلف الظروف والحالات والحاجات للشعب والدولة الإسلامية.

فالمقدرة بين ربع العشر كما في النقود بمختلف عملاتها، ونصف

العشر والعشر كما في الغلات وعامة المزروعات، والخمس كما في المعادن وما أشبه[١].

وغير المقدرة بأقلها كما في الزكاة المكية التي لم تتقدر، وإنما ﴿لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾[٢] أم ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾[٣] أم ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾[٤].

أم أكثرها كما في الزكاة المدنية العليا ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾[٥] وهو الزائد عن حاجيات متعددة لأصحاب الأموال و«ما فضل عن قوت السنة»[٦]، فلذلك يهدّد كانز الذهب والفضة وإن أعطى مقدرات

(١) المجمع ١ : ٣١٦ والبرهان ١ : ٢١٢ ونور الثقلين ١ : ١٧٥ هو المروي عن الباقر عليه السلام.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.
(٤) سورة المعارج، الآيتان: ٢٤، ٢٥.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٦) وفي الدر المنثور ١ : ٢٥٤ - أخرج أحمد ومسلم والترمذي عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يابن آدم إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى...

وفيه أخرج أبو يعلى والحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأيدي ثلاثة فيه اليد العليا ويد المعطي التي تلاها ويد السائل السفلى إلى يوم القيامة فاستعفف عن السؤال وعن المسألة ما استطعت فإن أعطيت خيراً فلير عليك وابدأ بمن تعول وارضخ من الفضل ولا تلام على الكفاف.

وفيه أخرج أبو داود وابن حيان والحاكم عن مالك بن نضلة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الأيدي ثلاثة... فأعط الفضل ولا تعجز عن نفسك، وفيه أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن كدير الضبي قال: أتى أعرابي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: نبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: تقول العدل وتعطي الفضل، قال: هذا شديد لا أستطيع أن أقول العدل تحل ساعة ولا أن أعطي فضل مالي...

أقول: العفو لغوياً في الأصل هو القصد لتناول الشيء، إلى إزالته، فالعفو على الذنب هو قصده لإزالته، والعفو في المال هو قصده - كذلك - لإزالته ولكن وسطاً بين الإفراط والتفريط.

زكـاتـهـمـا ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١) (٢).

والعفو هو الوسط بين الإسراف والإقتار الممنوعين(٣) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾(٤) - ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾(٥) فـ ﴿كُلَّ الْبَسْطِ﴾ هـو ألّا يُبقي لحاجته شيئاً فيصبح فقيراً يتكفف الناس. ومرحلية الزكاة تقتضي عدم نصاب خاص في العهد المكي لأنه بداية الدعوة، ولقلة أموال المسلمين في مكة، وقد تحمل عليه الروايات التي تفسر بعض آيات الزكاة المكية بأنها تعني فرضاً في الأموال سوى الزكاة، أي سوى ذات النصاب المدني، وإلّا فعلى كل واجب مالي زكاة، سواء أكان بنصاب أم دون نصاب.

وترى كيف لا تتعلق الزكوات بغير النقدين المسكوكين من النقود، وهي اليوم معيار الأموال بل هي ممولة الأموال، وليس التعبير في قسم من

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٢) سأل عبيد الله بن علي الحلبي أبا عبد الله عليه السلام عن الكنز كم فيه؟ فقال: الخمس وعن المعادن كم فيها؟ قال: الخمس وعن الرصاص والصفر والحديد وما كان من المعادن كم فيها؟ فقال عليه السلام: يؤخذ منها كما يؤخذ من معادن الذهب والفضة (الفقيه ١٥٨) وفيه أيضاً سئل أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام عما يخرج من البحر من اللؤلؤ والياقوت والزبرجد وعن معادن الذهب والفضة هل فيها زكاة؟ فقال: إذا بلغ قيمته ديناراً ففيه الخمس، أقول: يعني من الخمس نصاب الزكاة في موارد السؤال كما يدل عليه الحديث الأول.

(٣) نور الثقلين ١: ٢١٠ القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: الوسط.

وفي الدر المنثور ١: ٢٥٥ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته، وفي التهذيب ٤: ٩٨ نقلاً عن الكافي بسند عن أبي الحسن الصيرفي قال: استعملني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام على باب بانقياد وسواد من الكوفة فقال: «.. فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو».

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

أحاديث الزكاة بالنقدين، أو الدينار والدرهم إلا تعبيراً عن النقود الرائجة في تلك الزمن[١] وهل الزكاة تختص بزمن الدرهم والدينار حتى تختص بهما زكاتهما، والشرعة الإسلامية بأحكامها الحكيمة خالدة على مر الزمن!.

وهل النقدان المسكوكان هما من الأموال وليست الأوراق النقدية الأخرى منها وقد تكون عشرات أضعافهما؟.

وقد يجوز اختصاص النقدين المسكوكين بزكاتهما سنوياً حتى يسقطا عن النصاب دون سائر النقود، وكما اختصت سائر التسعة بنصابات قد تأتي في نظائرها أم لا نصاب لها مقدراً، وإنما تزكي عفواً كأكثر تقدير، أو أقل منه قدر التقدير لأقل التقدير، وهكذا يجمع بين روايتي الزكاة في التسعة وسواها.

فلأن النقد الرائج محدود فلا يجوز ركازه، لذلك قررت الزكاة عليه ما دام في حد النصاب، بخلاف سائر الأموال التي لا تزكى إلا مرة واحدة،

---

(١) ممن أفتى من فقهائنا بشمولية الزكاة لكل النقود الرائجة المغفور له الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء في رسالته الاستجوابية ص ٢٥٩ عند السؤال:
«هذه الأوراق التي جرت المعاملة بها في هذه العصور كالدينار العراقي والنوط الإيراني أو الهذي أو الإنكليزي ونحوها هل تجب فيها الزكاة إذا بلغت النصاب وحال عليها الحول وهل تجري عليها سائر أحكام النقدين من الربا والتقابض في بيع الصرف أم لا؟».
فالجواب: الأصح أن هذه الأوراق حاكية وممثلة للأموال النقدية المستودعة في البنوكية فمن بيده دينار أو نوط فهو رمز إلى أن له في البنك ليرة ذهبية أو نصف ليرة إنكليزية، أما نفس تلك الأوراق لولا هذا الاعتبار فلا قيمة لها أصلاً وجميع المعاملات التي تجري على تلك الأوراق إنما تجري عليها بتلك اللحاظ وعلى هذا فجميع أحكام النقدين ثابتة لها من وجوب الزكاة وحرمة الربا ولزوم التقابض وغير ذلك فيعتبر الدينار العراقي مثلاً مثقالاً ذهبياً مسكوكاً بسكة المعاملة والعشرون دينار نصاب فإذا حال عليها الحول مستقرة لمالك واحد وجبت فيها الزكاة وهي نصف دينار أي نصف مثقال شرعي كما تقدم وهكذا.
كما وكرر هذه الفتوى في تحرير المجلة تحت المادة (١٣٠).

فقد يختص المسكوك بهذه الزكاة المتكررة سنوياً[١]، حفاظاً على عديد النقد المرسوم الرائج، وإذهابا لأصالته عند من يعشقه كأصل.

إنّ الجمود على حرفية بعض النصوص لواجب الزكاة في الذهب والفضة المسكوكتين يجمد الزكاة اليوم في كافة النقود غير الذهبية ولا الفضية! وفي البعض منها «في كل خمسة وعشرون»[٢] وهو طليق بالنسبة لكافة العملات على مر الزمن، أو تقدر بقدر قيم الدراهم والدنانير زمن صدور مثل هذه الرواية[٣].

وكما تجمد حرفية المسكوك من النقدين الزكاة عن عشرات أضعاف نصابهما في غير المسكوكة مهما كانت ركازاً وكنزاً، وهو خلاف نص آية الكنز غير المختصة بالمسكوك من النقدين!.

بل وكذلك الجمود في عشرات الأضعاف من المسكوكين التي يهبها أصحابها قبل تمام الحول، فراراً عن الزكاة ثم يستوهبونها.

فهناك فرارٌ فتوىً عن كثير من الأموال الزكوية حصراً في التسعة

---

(١) كما في التهذيب ٤ : ٧ والاستبصار ٢ : ١٢ عن علي بن يقطين قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن المال الذي لا يعمل به ولا يقلب؟ قال: تلزمه الزكاة في كلّ سنة إلا أن نسبك أقول: فإذا سبك فلا زكاة فيه إلا سنة واحدة، فالزكاة المتواصلة لغير المقلوب هي كفارة ركازه وعدم إدارته.

وعليه يحمل الحديث: «ليس في التبر زكاة إنما هي على الدنانير والدراهم».

(٢) الوسائل ٦ باب ٧ من أبواب ما تجب فيه الزكاة ح ١٧ سأله عليه السلام ابن سنان في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال: الزكاة الظاهرة أم الباطنة؟ فقال: ما هما؟ فقال: «أما الظاهرة ففي كلّ ألف خمسة وعشرون وأما الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك».

(٣) وهنا روايات في تعلق الزكاة بالأثمان ككل منها صحيح ابن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام سئل عن الخضر فيها زكاة وإن بيعت بالمال العظيم؟ فقال: لا حتى يحول عليه الحول وصحيح الحلبي قلت لأبي عبد الله عليه السلام : ما في الخضر؟ قال: وما هي؟ قلت: القضب والبطيخ ومثله من الخضر؟ قال: ليس عليه شيء إلا أن يباع مثله بمال فيحول عليه الحول ففيه الصدقة.. (الوسائل باب ١١ من الزكاة ح ١ و٢).

المعروف حالها، وهنا الفرار عن هذه الزهيدة التافهة لفتوى ثانية، وكل ذلك خلاف الحكمة الربانية لحقوق الفقراء المظلومين المهضومين.

ثم الجمود على الأنعام الثلاثة شرط السوم طول السنة وعدم العمالة[١] وعدم الذكورة، وعدم الرضاعة لولدين في أنثاها، وعدم اتخاذها للحمها[٢]، وعدم تبديلها طول السنة بغيرها، يجمد الزكاة بأسرها عنها.

ثم الجمود على الغلات الأربع حتى مع الغض عن شروطها، يجعل لكل فقير وهم لأقل تقدير في كل ألف نصف أو يزيدون، مبلغاً زهيداً قد لا يكفيهم لأسبوع أو شهر واحد، فضلاً عن سائر الأصناف وسائر الحاجات للدولة الإسلامية!.

وذلك إذا استمرت الغلات الأربع والأنعام الثلاثة قوتاً لغالب الناس، ولمحات من التقدم الصناعي توحي باحتلال مواد أخرى محلّها، وهي المستنتجة من البترول ونابتات بحرية تحمل فيتامينات وبروتوئينات كافية للتغذية[٣].

---

(١) وأحاديثها متعارضة حملوا الدالة على عدم شرطيتها على الاستحباب دون أي وجه كما في الوسائل (٦ : ٨١) صحيحة إسحاق بن عمار قال «سألت أبا إبراهيم عليه السلام عن الإبل العوامل عليها زكاة؟ فقال: نعم عليها زكاة» ويقابلها مثل خبر زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال: ليس في شيء من الحيوان زكاة غير هذه الأصناف الثلاثة: «الإبل والبقر والغنم، وكل شيء من هذه الأصناف من الدواجن والعوامل فليس فيها شيء» أقول: وهل تجد من الغنم عاملاً حتى يستثنى مهما كان في الآخرين.

(٢) في الوسائل ٦ : ٨٤ مرسل الصدوق عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ليس في الأكيلة ولا في الربي التي تربي اثنين ولا شاة لبن ولا فحل الغنم صدقة» وفي آخر عنه عليه السلام قال: «لا تؤخذ الأكولة والأكولة الكبيرة من الشاة تكون في الغنم ولا والدة ولا الكبش الفحل» أقول: لعل الأخذ المنهي هو الأخذ للذبح، فيبقى الحديث الأول يتيماً لا ناصر له إلا مخالفة الكتاب والسنة.

(٣) ففي جريدة (كيهان) الإيرانية - ٧ / ١٠ / ١٣٤٧ هجرية شمسية ص ٢ يقول ضمن نبإ توفيق (آبولو ٨) تحت عنوان: رئيس جامعة طهران يعلن: تؤخذ صور من معادن القمر، بروفسور=

. . . .

= فضل الله رضا قال: حتى السنة ١٣٧٠ سوف تستحصل المواد الغذائية من عناصر، وقد برع شاب بهذا الصدد، وعلى ضوء الإمكانيات التي قررتها له شركة البترول الإيراني، سمح له التحقيق حول صناعة بروتوئين من النفط، وفي سنة/ ١٣٨٠ / ٢٠ / ١٠٠ المحاصيل الزراعية العالمية تحصل من البحار.

وفي العدد (٧٩٤٧) ٢٤ / ١٠ / ١٣٤٨ ص ١٠ من نفس الجريدة مقال تحت عنوان «إمكانيات مشرقة ضد الجوع» إنه: خلال السنين الآتية تنحل مشكلة الجوع بمحاصيل غذائية من البترول والنباتات البحرية، ومما فيه:

١ - لا يمضي بعيد من الزمن قد يوفق علماء أن يصنعوا من المواد الطبيعية أغذية نافعة يافعة تحمل بروتوئينات تساعد بقدر كثير عن التغذية العالمية. . . ففي السنة الماضية في المجمع البترولي في مكسيكو، عرض جماعة من العلماء أن الزمن الضروري لكي يتغذى من لحم العجل إحدى عشر شهراً، حال أن بالإمكان أن نحصل على بروتوئين يوازيه خلال يوم واحد من البترول -

وقد عرض علماء السوكيت في هذا المجمع أنهم يحصلون سنوياً آلافات الأطنان من البروتوئين من البترول، ولأنهم لم يجد لها مصرفاً يغذون بها الأنعام لكي تسمن فيستفاد من لحومها.

وفي عملية التخمير على (غازوئيل) حين يزرعون خمس ك من هذا المخمر على النفط يحصلون على (١٢٨٠) ك بروتوئين خلال ثمان وأربعين ساعة وجدية المحاصيل الغذائية من النفط بالغة لحد نوصي الأقطار النفطية ألا يستعجلوا في استخراجه.

٢ - استنتاج المواد الغذائية من النباتات البحرية، فقد تقدم العلم لحد يعتقد العلماء أنه لو عمت الزراعة كلّ الأراضي الفارغة ولم تكف - بعد - لحاجات البشرية، فبالإمكان أن نزرع في غير التراب.

فقد يستفاد من النباتات المائية التي هي على لوْن الماء المسماة بـ(إسبرولين) وهي تحمل من البروتوئين ٦٨ / ١٠٠ وكلوسيد ٣ - إلى - ٣٠/ ١٠٠ والمادة الدسمة، والفيتامينات ١ - ب ١ - ب ٢ - ب ٦ وب ١٢.

وقد تكفي (٩٠) إلى (١٠٠) غرام من محاصيل هذه النباتات المائية. إيفاء لـ «غالري»: الحرارة - الضروري لشخص واحد دون حاجة إلى تغذية أخرى. وقد أثبت العلماء أن البعض من النباتات والمواد الصغيرة الحجم تحمل مواد غذائية غنية جداً.

ومنها خضرة باسم (كلرلا) فبالإمكان أن تزرع بمساعدة المواد المعدنية في مياه واسعة الحجم، فقد يستفاد من كلّ عشرة آلاف متراً مربعاً خمسون طناً من النباتات المائية، وهي بالقياس إلى محاصيل الحنطة زهاء مائة ضعف.

ذلك، وعلى حد تعبير الرسول ﷺ على ضوء آيات الصدقات العامة المحلقة على كل ما يمكن أن يتصدق به «على كل مسلم صدقة فمن لم يجد فليعمل بالمعروف»[(١)] و«أفضل الصدقة جهد المقل»[(٢)].

أفهذه الزكاة هي التي تكفي مؤنة للفقراء وسواهم، بهذه الشروط الغلاظ الشداد؟! أهذه هي الزكاة الواجب توزيعها بين الثمانية كما في آيتها الحاضرة في بحثنا؟.

أهذه التي تغني الفقراء لحد التزويج بها والحج وسائر الحاجات الضرورية والراجحة؟.

أهذه التي تؤلِّف قلوب الكفار بغزير إنعامها وقد يملك الكافر ألوفاً مؤلفة؟.

أهذه التي تكفي الغارمين، إزاحة عن غرمهم وإراحة في حياتهم؟.

أهذه التي يصرف قسم منها في الرقاب، لا سيما إذا عنى منهم فيمن يُعنى المسجونون بديونهم أماذا؟.

---

٣ - في الاستثمار من النباتات الوحشية في مكافحة الجوع، فإن بالإمكان أن نستفيد من عديد من النباتات الوحشية.

٤ - استثمار الأراضي القطبية: تربية صالحة للنباتات المتعلقة بـ (ليسنكو) المعمولة في السوكيت.

وهكذا في مجلة (دانشمند) الفارسية: العالم، العدد ٧ - ٧ / ٢ / ١٣٤٩، سر شرح حول الأغذية الصناعية -: وهي البروتئين الذي يوجد في الحيوان - أنه بالإمكان الحصول عليه بطريقة أسهل مما في الحيوان.

ذلك وما أشبه، مما يُطَمئِن أنه سوف نستغني عن الفلاة والأنعام لحد كثير، قد نصل إلى ترك الكثير من الزرع والماشية!.

(١) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ - ك ٢٤ ب ٣٠ نس - ك ٢٣ ب ٥٦ مى - ك ٢٠ ب ٣٤ عد - ج ٨ ص ٣٣٧ ط - ح ١٠٣٦ و١٠٣٨ و١٠٣٩.

(٢) المصدر نقلاً عن نس - ك ٢٣ ب ٤٩ حم - ثان ص ٢٣١.

أهذه التي تصرف في سبيل الله حجاً وجهاداً ودعوة إلى الله بكل وسائل الدعوة والإعلام؟.

وهذه التي تكفي أبناء السبيل وسائر الطوائف الثمان؟!.

أم هي زكاة الأموال كلها بمختلف النصابات المرحلية التي علياها «العفو» أن تزكي كل ما زاد عن حاجياتك، ولكي تزول الطبقة العارمة الظالمة، ويتشابه المسلمون في حاجيات الحياة وسؤلها.

ذلك، وإليكم قياساً بين الخمس والزكاة حسب الأكثرية المطلقة من الفتاوى:

الزكاة التي هي قرينة الصلاة والإيمان وفرضها في زهاء ثلاثين آية مكية ومدنية، وهي لمصارف ثمانية:

١ - تتعلق بتسعة أشياء، المهزولة المهزّلة!.

٢ - الزكاة محددة بنصابات خاصة.

٣ - لا زكاة بين نصابات الزكاة، فكما أن لأربعين شاة شاة واحدة، كذلك لـ (١٢٠) شاة هي دون النصاب الثاني بواحدة.

٤ - تستثنى الأنعام المعلوفة والعاملة والذكورة والمرضعة والتي يقصد منها لحومها.

٥ - يشترط في زكاة النقدين كونهما مسكوكين بنصاب خاص.

٦ - يشترط في زكاة الأنعام والنقدين مضي سنة دون تصرف فيها.

٧ - الزكاة تقسم بين الصنوف الثمانية قدر الحاجات، مختصة بغير المنتسبين بالآباء إلى النبي ﷺ من الفقراء وهم زهاء تسعون بالمائة من فقراء العالم الإسلامي!.

٨ - تدفع زكاة السادة إلى السادة كما لغيرهم.

٩ - تبديل الأشياء التسعة إلى غيرها يسقط فرض الزكاة.

والخمس الذي تحمله آية واحدة يتيمة ومصرفه جماعة خصوص!:

١ - يتعلق بكل الأموال دونما استثناء اللّهم إلا المواريث والهبات في قول.

٢ - ليس للخمس نصاب.

٣ - إذ ليس في الخمس نصاب فليس فيه بين نصابين حتى يعفى عن الخمس.

٤ - لا استثناء في موارد الخمس إلا قليلاً بأسره كالميراث.

٥ - ليس في خمسها نصاب ولا اشتراط كونهما مسكوكين.

٦ - لا يشترط في موارد الخمس مضي سنة وإنما هو إمهال.

٧ - الخمس سهمان اثنان، سهم للإمام وسهم للسادة من طريق الآباء، وليسوا إلا زهاء عشر الفقراء في العالم الإسلامي!.

٨ - لا يدفع سهم السادة لغير هؤلاء السادة.

٩ - لا يسقط فرض الخمس أي تبديل.

وهكذا نجد الخمس الوفير وهو ٢٠ / ١٠٠ من كل الأموال يختص ١٠ / ١٠٠ منه بالسادة من قبل الآباء، والباقي سهم الإمام المخصوص حسب الفتاوى بطلاب علوم الدين إبقاءً للحوزات العلمية، وليس هؤلاء أكثر من ١٠ / ١٠٠ فقراء المسلمين! فقد يصل إلى كلٍّ من هؤلاء يومياً آلاف من التوامين.

في حين أن الزكاة التي معدلها بين الكسور الثلاثة ٦ / ١٠٠، ليست إلا من التسعة الهزيلة ذاتية وعرضية، هي تقسيم بين الأصناف الثمانية وهم ٩٠ / ١٠٠ من المحاويج، فلا تصل منها إلى أيدي الفقراء والمساكين إلا قوت

يوم - علَّه - من السنة أما زاد!، فضلاً عن سائر الموارد الثمانية التي تشكل البنية الاقتصادية للدولة الإسلامية.

ذلك، ومع العلم أن الإبل هو أقل الأنعام وفي قليل من البلاد، فحين يشمل الإسلام كل المعمورة فكيف تبقى الإبل من موارد الزكاة وهي لا تشكل إلَّا ضئيلاً قليلاً لا يذكر من الأموال الزكوية!.

وكما نعلم أن الحنطة والشعير هما إلى القلة القليلة حيث ينوب منابهما سائر الحبوبات، بل والبترول وقسم من النباتات البحرية هما المقدمان في أنظار الأخصائيين الاقتصاديين ليحتلا مع سائر الحبوبات الموقع الأكثر مصرفاً بين الناس، فهما - إذاً - لا تشكلان - حتى لو بقيا على حالهما - إلَّا كسراً ضئيلاً من الزكاة، إضافة إلى القيود التي تقلل موارد الزكاة منهما!.

ثم النقدان المسكوكان هما - ومنذ زمن بعيد - عادمان عن كونهما من النقود الرائجة، حيث احتلت سائر النقود من الأوراق وسواها الموقع الأعلى بنفسها.

وعلى هذا الحساب لا يبقى من هذه التسعة اليتيمة اللطيمة إلا نزر قليل من الزكاة، حيث لا يكفي لسد ثغر واحد من المصاريف الثمانية، ولا بكسر قليل بأقله.

فهذه هي الزكاة الإسلامية التي تسد كل الثغور الاقتصادية للمحاويج وسائر الحاجات الإسلامية؟!.

ذلك، ولا محملَ صالحاً لاختصاص الزكاة في الفتاوى بهذه التسعة، على قيود فيها تقللها على قلتها، إلّا أن أخذ الزكاة هو من شؤون رؤساء الدولة الإسلامية، والأكثرية المطلقة من هؤلاء منذ ارتحال الرسول ﷺ كانوا ظالمين، يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع.

لذلك رأوا من الصالح لتضعيف سواعد الظلم أن يقللوا من موارد الزكاة، وكما وردت في باب الخمس روايات بشأن تحليله على الشيعة بنفس الصدد!.

ولكنه - إن كان له مبرر لردح من الزمن - لا يبرر أن يفتي بذلك على مدار الزمن.

ثم وهنا طريق آخر لتضعيف سواعد الظلم هو أن يؤمر المسلمون بإيتاء الزكاة بذوات أيديهم للمحاويج، لا أن يختصوها بهذه التسع اللطيمة العديمة!.

ومن هذا الطريق ما يروى من منع الزكاة عن الظالمين كما يروى عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ولا تقصدوا أيضاً بصدقاتكم وزكواتكم المعاندين لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم المحبين لأعدائهم فإن المتصدق على أعدائنا كالسارق في حرم ربنا عز وجل وحرمي[1].

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ومنها ما في التهذيب عن عبد الله بن أبي يعفور قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك ما تقول في الزكاة لمن هي؟ قال فقال عليه السلام: هي لأصحابك، قال: قلت: فإن فضل عنهم؟ قال: فأعد عليهم، قال: قلت فإن فضل عنهم؟ قال: فأعد عليهم، قال قلت: فإن فضل عنهم؟ قال: فأعد عليهم، قال: فنعطي السؤال منها شيئاً؟ قال: لا والله إلا التراب إلا أن ترحمه فإن رحمته فأعطه كسرة ثم أومأ بيده فوضع إبهامه على أصول أصابعه.

وفي الكافي والتهذيب عن عيص بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام في الزكاة: «ما أخذ منكم بنو أمية فاحتسبوا ولا تعطوهم شيئاً ما استطعتم فإن المال لا يبقى على هذا أن تزكيه مرتين».

وفي التهذيب عن إبراهيم الأوسي عن الرضا عليه السلام قال: سمعت أبي يقول: كنت عند أبي يوماً فأتاه رجل قال: إني رجل من أهل الري ولي زكاة، إلى من أدفعها؟

فقال: إلينا، فقال: أليس الصدقة محرمة عليكم؟ فقال: بلى، إذا دفعتها إلى شيعتنا فقد دفعتها إلينا، فقال: إني لا أعرف لها أحداً، فقال: انتظر بها السنة، فقال: فإن لم أصب لها أحداً؟ قال: انتظر بها سنتين حتى بلغ أربع سنين، ثم قال: «إن لم تصب لها أحداً فصرها صرراً واطرحها في البحر فإن الله عز وجل حرم أموالنا وأموال شيعتنا على عدونا» أقول: لا يعني من =

صحيح أنهم كانوا مجبرين في إعطاء الزكاة من التسعة الشهيرة، لا محيد لهم عنها، ولكنه لا يبرر ذالك الاختصاص الامتصاص من حقوق الفقراء، فقد كان ولا بد أن يفتي بدفع بقية الزكوات لأهليها الآهلين لها بذوات أيدي الدافعين.

ذلك، فلا مبرر لفتوى اختصاص الزكاة بهذه التسعة لا مؤقتاً ولا دائماً، حيث النصوص المتظافرة كتاباً وسنة دالة على العموم.

وحين تُحمل أحاديث التعميم على التقية - ولا قائل به من العامة إلَّا قليل هو أقل من الشيعة - فهل تحمل آيات التعميم - كذلك - على التقية؟.

وترى مما ذا - إذاً - التقية؟ وقضية التقية - وهي موافقة الأكثرية العامة في العامة - هي حمل أخبار التسعة على التقية لموافقتها فتاوى العامة ومخالفتها للكتاب والسنة دون أن تحمل أدلة التعميم آيات وروايات على التقية.

إذاً فهذه تقية بغية غير نقية، شكلت حرماناً شاملاً للفقراء والمحاويج، دون أي مبرر شرعي أو عقلي أو خُلُقي.

أفهكذا يُهرب من القرآن إلى أمثال هذه الأحاديث التي هي أحدوثات مخزية في الدين؟ وكما عن سلمان الفارسي مخاطباً ذلك الجيل المضل هربتم من القرآن إلى الأحاديث، وجدتم كتاباً دقيقاً حوسبتم فيه على: النقير والقطمير والفتيل وحبة خردل فضاق عليكم وهربتم إلى الأحاديث التي اتسعت عليكم.

= الطرح واقعة، وإنما هو تأكيد لحرمتها على أعدائهم.

وهنا يقول القرطبي في جامع أحكام القرآن (٩: ١١٢) في تفسير سورة التين نقلاً عن ابن العربي إن التين من أهم المؤن وهو من الأموال الزكوية، والسبب في عدم تصريح العلماء بوجوب الزكاة فيه إسراف الولاة في الزكوات وكأنها من أموالهم الخاصة، وذهب الشافعي إلى عدم وجوب الزكاة في الزيتون - رغم أن فيه الزكاة - بنفس السبب.

ويروى عن علي عليه أفضل الصلاة والسلام: «أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم»(١).

وهذه المصارف الثمانية للزكاة حاصرة لا تنقص ولا تعدو إلى سواها وقوفاً على نص الآية حصراً بـ ﴿إِنَّمَا﴾ وقد حصَرت الحاجيات الأصيلة للإسلام والمسلمين فيهم ثم لا أحد غيرهم.

وقد «قال رجل يا رسول الله ﷺ أعطني من الصدقة» فقال: «إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم هو فيها فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك»(٢).

ولا يشترط الفقر والمسكنة في الستة الأخرى كما هو ظاهر من عناوينها وقد يروى عن النبي ﷺ أنه «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة لعامل عليها أو رجل اشتراها بماله أو غارم أو غاز في سبيل الله أو مسكين تصدق عليه فأهدى منها لغني»(٣) ثم وسائر الستة من الثمانية.

---

(١) رجال الكشي ص ٢، والحديث الثاني يرويه جابر بن عبد الله عن عبد الله بن يسار سمعت علياً عليه السلام يقول: . .

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٥٠ - أخرج أبو داود والبغوي في معجمه والطبراني والدارقطني عن زياد ابن حارث الصدائي قال قال رجل. . . وفيه أخرج ابن سعد عن زياد بن الحارث الصدائي قال: بينا أنا مع رسول الله ﷺ إذ جاء قوم يشكون عاملهم ثم قالوا: يا رسول الله ﷺ أخذ بشيء كان بيننا في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ: لا خير للمؤمن في الإمارة ثم قام رجل فقال يا رسول الله ﷺ أعطني من الصدقة فقال: إن الله لم يكل قسمها إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل حتى جزّأها ثمانية اجزاء فإن كنت جزءاً منها أعطيتك وإن كنت غنياً عنها فإنما هي صداع في الرأس وداءٌ في البطن.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله وهو يقسم قسماً فأعرض عنه وجعل يقسم قال: أتعطي رعاء الشاء والله ما عدلت فقال ﷺ: ويحك من يعدل إذا أنا لم أعدل فأنزل الله هذه الآية.

(٣) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: . .

وقد تلمح مصارف الزكاة بمصاريفها صارحة أنها ثروة ضخمة بإمكانها إدارة الشؤون الاقتصادية للمملكة الواسعة الإسلامية المقصودة.

فمنهم «الفقراء والمساكين» فالفقير من الفقار وهو عظم الظهر، والمسكين من السكون، وهو الذي أسكنه العدم عن حركات الحياة، ولكن الفقير هو الذي أفقره العدم أي كسر فقاره فهو أسوأ حالاً من المسكين، فلذلك يتقدم على المسكين إذا جمعا وكما هنا، وقد ينفرد كما في آيات اثني عشر[1] ويذكر المسكين في (٢٣) آية، وبينهما عموم مطلق فكل فقير مسكين وليس كل مسكين فقيراً، وقد يتأيد ذلك الفارق بـ ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾[2] سماهم مساكين ولهم سفينة بحرية، وإن لا تكفيهم مؤنة كاملة، مهما تأيد خلافها بالصحيح فإنه غير صحيح لمخالفة القرآن واللغة إلا أن يؤول[3] وكذلك ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[4] فلو كان المسكين أسوأ حالاً من الفقير لكان ذكره أحرى في موقف الإطعام.

وقد يكون الفقير ﴿مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[5] ولذلك يتقدم في آية الصدقات على المسكين لتقدم حقه بحاجته.

---

(١) وهي ٢: ٢٦٨ و٣: ١٨١ و٢٢: ٢٨ و٢٨: ٢٤ و٤: ٦ و١٣٥ و٢: ٢٧١ و٢٧٣ و٢٤: ٣٢ و٣٥: ١٥ و٤٧: ٣٨ و٥٩: ٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٩.

(٣) وهو صحيح محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام أنه سأله عن الفقير والمسكين فقال: الفقير الذي لا يسأل والمسكين الذي هو أجهد منه الذي يسأل (الوسائل ب ١ ح ٢ من مستحقي الزكاة) أقول: علّي أجهد منه وهو أسعى تعني سؤاله فالذي يسأل هو بطبيعة الحال أغنى من الذي لا يسأل وقد قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا...﴾ [البقرة: ٢٧٣].

(٤) سورة الحج، الآية: ٢٨.

(٥) سورة البلد، الآية: ١٦.

ولو كان المسكين أسوأ حالاً من الفقير لكان هو الأحرى في التعبير عن حال الناس في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾[(١)] - ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[(٢)] كما وقد يعبر عن أسوأ الأحوال في الأخرى بـ ﴿فَاقِرَةٌ﴾: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾[(٣)].

ثم الترتيب الثُّماني مقصود هنا دونما فوضى، فكما الفقير أسوأ حالاً من المسكين، كذلك المسكين هو أسوأ حالاً من العاملين عليها، وإلى البقية الباقية حيث إن كل سابق أحوج من لاحقه، فالمؤلفة قلوبهم هم أحرى من الرقاب، فإنهم رقاب أسرى عقيدياً وليس الرقاب هكذا ككل، ثم الرقاب أحرى من الغارمين فإنهم أسرى بأنفسهم وهؤلاء بغرمهم في أموالهم، ثم في سبيل الله الشاملة لكل سبيل الله هي عامة بعد هؤلاء الخصوص حيث الكل لها صبغة «في سبيل الله» ومن ثم «ابن السبيل» مصداق من مصاديقها.

ذلك والتقسيم ليس بين هؤلاء على حد سواء، وإنما لكلٍّ قدر الحاجة الضرورية ثم الزائدة عنها، وعند الدوران بينهم حيث لا تكفي الصدقات كلهم فالتقدم للأقدام فالأقدم ذكراً وحاجة.

وعلى أية حال فالفقير والمسكين هما اللذان لا يملكان القوت قدر الحاجة الضرورية، أم ولا يقدران على تحصيله دون عسر وحرج، أم ولا بعسر أو حرج، فالأولان قد يشك في جواز إعطاء الزكاة لهما، ولا شك في الأخيرين، ثم المتوسطان متوسطان، ومهما يكن من شيء فلا ريب في تقدم الأخير على ما قبله، والوسيط على ما قبله. ثم لا ريب في تقدم من له كل

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣٨.

(٣) سورة القيامة، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

العناوين الثمانية على من دونه منها، فالفقير يتقدم على المسكين، والفقير من أبناء السبيل يتقدم على أحدهما، وهكذا القياس.

ويقابل «الفقراء والمساكين» الأغنياء و«لا تحل الصدقة لغني»[١] وهو أعم من غنى المال الحاضر، والغائب بحرفة حاضرة كافية، أم بحرفة مقدورة غير محرجة، فليس الزكاة إلّا للساعين قدر مقدورهم بنقصان مؤنة، أو القصَّر والعجزة الذين لا يقدرون على مؤنتهم، ولأن الزكاة دين للفقراء في أموال الأغنياء فلا بد من التحري في إيصالها إلى أهلها إلّا أن يخطئ قاصراً فقد يُعفى عنه[٢].

---

(١) الوسائل ٦: ١٥٨ - ١٦١ ح ٨ - ٩ - ١١ وفي الدر المنثور ٣: ٣٥٢ عنه ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني ولا ذي مرة سوي». وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي عن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي ﷺ في حجة الوداع وهو يقسم بالصدقة فسألاه منها فرفع فينا البصر وخفضه فرآنا جلدين فقال: إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب».

ويدل عليه صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: «إن الصدقة لا تحل لمحترف ولا لذي مرة سوي قوي فتنزهوا عنها» (الكافي ٣: ٤٥٠ رقم ٢).

وعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي ولا لمحترف ولا لقوي، قلنا: ما معنى هذا؟ قال: لا تحل له أن يأخذها وهو يقدر على ما يكف نفسه عنها» (قرب الإسناد ٧٢) أقول: فلا تعني الغني المال الحاضر الوافي ولا الحرفة الحاضرة الوافية، بل تكفي القدرة على تحصيل المؤنة وإن كان تارك الحرفة تينلاً، ثم يعني المحترف الذي تكفيه حرفته لمؤنته وإلا فليأخذ الناقص عنها على حرفته ويدل عليه صحيحة معاوية بن وهب قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يكون له ثلاثمائة درهم أو أربعمائة درهم وله عيال وهو يحترف فلا يصيب نفقته فيها أيكسب فيأكلها ولا يأخذ الزكاة أو يأخذ الزكاة؟

قال: لا بل ينظر إلى فضلها فيقوت بها نفسه ومن وسّعه ذلك من عياله ويأخذ البقية من الزكاة ويتصرف بهذه ولا ينفقها» (الكافي ٣: ٥٦١ رقم ٦).

(٢) كما في الصحيح عن عبيد بن زرارة قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام «رجل عارف أدى زكاته إلى غير أهلها زماناً هل عليه أن يؤديها ثانية إلى أهلها إذا علمهم؟ قال: نعم، قال قلت فإن لم يعرف لها أهلاً فلم يؤدها أو لم يعلم أنها عليه فعلم بعد ذلك: ؟ قال: يؤديها إلى أهلها لما مضى، قال: قلت له: فإن لم يعلم أهلها فدفعها إلى من ليس هو لها بأهل وقد كان طلب =

ولا تشرط العدالة ولا الوثاقة ولا الإيمان في الفقراء والمساكين لإطلاق النص فيهما مهما كان التقدم للمؤمنين في دوران الأمر بينهم وبين الكافرين، فللفقر والمسكنة على أية حال نصيبهما كما لسائر العناوين الثمانية، وكلها مصبوغة بصبغة واحدة هي «سبيل اللّه».

ثم ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ هم عمال أخذ الزكاة، وهذا يلمح بما تصرح به الآية ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾[1] أن أمر أخذ الزكاة ليس إلا لإمام المسلمين وليس فوضى جزافاً، لأنها الضريبة الإسلامية العامة الكبرى التي بها تقام المصالح الإسلامية اقتصادية وروحية وسواها، فلا بد أن تكون بأيدي قادة المسلمين الصالحين.

وترى كيف يتساءَل حول أداء الزكاة بصورة شخصية وهي شأن حكومي؟ إذ لم تكن هنالك حكومة عادلة تستحق أخذ الزكاة!.

وهل يشترط في ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ العدالة؟ الظاهر نعم حيث المال ليس لهم فحسب بل ولسائر الثمانية أيضاً، فليكن العامل أميناً وكما في الصحيح «فإذا قبضته فلا توكل إلّا ناصحاً شفيقاً أميناً حفيظاً»[2] ولكن الأمانة والحفظ يكفيان للحفاظ على المال، والنصيحة والشفقة تكفيان للجباية الصالحة، فلا تجب العدالة بل لا تكفي في عمالة الزكاة، فهي العمالة بالحق كما يروى عن رسول الله ﷺ: «العامل على الصدقة بالحق كالغازي حتى يرجع إلى بيته»[3].

= واجتهد ثم علم بعد ذلك سوء ما صنع؟ قال: ليس عليه أن يؤديها مرة أخرى» (الكافي ٣: ٥٤٦ رقم ٢).

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٢) هو قول أمير المؤمنين عليه السلام فيما رواه معاوية بن عمار عنه طويلاً.

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٥١ - أخرج ابن أبي شيبة عن رافع بن خديج سمعت رسول الله ﷺ يقول: . .

ثم ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ لهم من الزكاة حق العمالة وليس حقَّ الفقر حتى يحرم عليهم من الزكاة فتحرم عمالة الهاشميين لحرمة الصدقة عليهم، فلهم حق العمالة أياً كانوا، وكما يجوز للهاشمي أخذ الزكاة من سائر أهليها أجرة لعمالة أخرى أم تجارة أماهيه، بل ويجوز له الزكاة للفقر والمسكنة على الأقوى.

وعلّ الصحيح[1] في منعهم غير صحيح إلّا إذا أريد إعطاءهم من الزكاة لفقرهم إضافة إلى عمالتهم، والعلة في حرمة الزكاة عليهم عليلة، إذ كيف تكون الزكاة أوساخ ما في أيدي الناس وليس الخمس وسواه مما في أيدي الناس هبة أو هدية أماهيه؟ ثم كيف تدفع أوساخ في سبيل الله و﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[2]! إذاً فالرواية القائلة أنها أوساخ هي نفسها من الأوساخ والمختلقات الزور والغرور التي دسها في أحاديثنا الغَرور.

﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ تشمل من تتألف قلوبهم إلى الإسلام والمسلمين بما يؤتون من الزكاة، سواءٌ أكانوا كفاراً أو منافقين، أم وبأحرى ضعفاء الإيمان، تأليفاً لهم إلى كامل الإيمان، وكما الله يؤلف قلوب عباده بمواعيده الحسنى في الأولى والأخرى.

وليس يعني تأليفَ قلوب نافرة عن الإسلام، إليه بالمال، إغراءَها بتلك الأموال كما يفعله الاستشراق المسيحي وما أشبه، وإنما ذلك بعدَ كامل

---

(١) هو صحيح العيص بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن أناساً من بني هاشم أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشي وقالوا: يكون لنا هذا السهم الذي جعله الله عز وجل للعاملين عليها فنحن أولى به فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا بني عبد المطلب إن الصدقة لا تحل لي ولا لكم ولكن قد وعدت الشفاعة (الكافي ٤ : ٥٨ والتهذيب ١ : ٣٦٥).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

البيان وقاطع البرهان[1]، حيث الإيمان الآتي بالمال هو ذاهب بالمآل بنفس المال في مزايدة الأموال التي تبذل لتأليف القلوب بين الدعايات المتضاربة من دعاة الأديان والمذاهب المشتتة.

إنما ذلك التأليف يجول في مجالاته المناسبة لهؤلاء الذين هم مقتنعون عقلياً وعقائدياً للإيمان، وإنما يحجزهم أو يبطئهم من الالتحاق إلى كتلة الإيمان فقرهم حين يفصلون عن سائر الكتَل.

ومن «هم قوم كانوا يأتون رسول الله ﷺ قد أسلموا وكان يرضخ لهم من الصدقات فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيراً قالوا هذا دين صالح وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه»[2].

فالحكم الإسلامي يؤلف القلوب غير المسلمة بدعوات حقة ثم بأموال

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢٣٠ عن الصادق عليه السلام في حديث يفسر الثمانية ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٠] قوم وحدوا الله ولم تدخل المعرفة قلوبهم إن محمداً رسول الله ﷺ فكان رسول الله ﷺ يتألفهم ويعلمهم كيما يعرفوا فجعل الله عزّ وجلّ لهم نصيباً في الصدقات لكي يعرفوا ويرغبوا، وفيه عن أصول الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: المؤلفة قلوبهم قوم وحدوا الله وخلعوا عبادة من دون الله ولم تدخل المعرفة قلوبهم إن محمداً ﷺ رسول الله وكان رسول الله ﷺ يتألفهم ويعرفهم لكي ما يعرفوا ويعلمهم.

وفيه عن تفسير القمي في الصحيح عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٠] قال: هم قوم وحدوا الله عزّ وجلّ وخلعوا عبادة من يعبد من دون الله وشهدوا أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وهم في ذلك شكّاك في بعض ما جاء به محمد ﷺ فأمر الله عزّ وجلّ نبيه أن يتألفهم بالمال والعطاء لكي يحسن إسلامهم ويثبتوا على دينهم الذي دخلوا فيه وأقروا به أن..

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٥١ - أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: هم قوم...

وفيه أخرج البخاري وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال بعث علي بن أبي طالب عليه السلام من اليمن إلى النبي ﷺ بذهيبة فيها تربتها قسمها بين أربعة من المؤلفة الأقرع بن جالس الحنظلي وعلقمة بن علاثة العامري وعيينة بن الفزاري وزيد الخيل الطائي فقالت قريش والأنصار أيقسم بين صناديد أهل نجد ويدعنا؟ فقال النبي ﷺ: إنما أتألفهم.

هي تكملات لتأليف قلوبهم، فإذا انفرد كلٌّ من التأليفين الأليفين عن الآخر أصبح التأليف ناقصاً غير أليف، اللّهم إلا شذراً نزراً من الناس الذين تؤلف قلوبهم بتأليف ما حالاً أو مآلاً.

وليس تأليف القلوب النافرة يختص بزمن النبي ﷺ فإنها لا تختص بزمنه ومن غريب التعبير عن نصيب المؤلفة قلوبهم هو ما يروى عن الخليفة أبي بكر أنه الرشا وهو قطعها في الإسلام[١]! وليست الرشا إلّا في الحكم دون تأليف قلوب نافرة، إلى الإسلام الذي هو ثابت إلى يوم القيامة ما كان هنا قلوب هي بحاجة إلى تأليف بالمال بعد تأليف الحال بناصع البيان وناصحه.

ثم وليس قلة الإسلام هي المبيحة - فقط - لتأليف القلوب، حتى إذا كثر فلا تأليف لقلوب آخرين كما رآه الخليفة عمر اجتهاداً قاحلاً أمام القرآن ونبي القرآن[٢].

ولا تختص ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ بكفار أم منافقين أم ضعفاء الإيمان، وإنما هم ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾، فإن أعطي ضعيف الإيمان ولم يؤلف قلبه إلى كامل الإيمان فليس هو من المؤلفة قلوبهم، وهكذا المنافق المقلوب قلبه،

---

(١) المصدر أخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ قال: ليست اليوم مؤلفة قلوبهم إنما كان رجال يتألفهم النبي ﷺ على الإسلام فلما أن كان أبو بكر قطع الرشا في الإسلام.

(٢) المصدر أخرج ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال جاء عيينة بن حصين والأقرع بن حابس إلى أبي بكر فقالا: يا خليفة رسول الله ﷺ إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلاء ولا منفعة فإذا رأيت أن تعطيناها لعلنا نحرثها ونزرعها ولعل الله أن ينفع بها فأقطعها إياها وكتب لهما بذلك كتاباً وأشهد لهما فانطلقا إلى عمر ليشهداه على ما فيه فلما قرأ على عمر ما في الكتاب تناوله من أيديهما فتفل فيه فمحاه فتذمّرا وقالا له مقالة سيئة فقال عمر: إن رسول الله ﷺ كان يتألفهما والإسلام يومئذ قليل وإن الله قد أعز الإسلام فاذهبا فاجهدا جهدكما لا أرعى الله عليكما إن أرعيتما، أقول: وفي نور الثقلين ٣: ٢٣٢ عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: المؤلفة قلوبهم لم يكونوا فقط أكثر منهم اليوم.

وإن أعطي مشركٌ أو موحِّد يتألف به قلبه إلى إيمان فهو منهم، وأوسطهم الموحدون الذين تتألف قلوبهم بما يُعطَون.

ذلك، ومن تأليف القلوب تخفيف العداء عنها للحق المُرام أن تخفف وطأة المعاندين مهما بقيت خفيفة.

وهل لا يجوز إعطاء الزكاة - للمؤلفة قلوبهم - إلا لأهل الولاية كما تدل عليه صحاح(١) قد يجوز أن تعطى لمن يؤلف قلبه ويمال إلى الحق، فإن منعته عاند أكثر مما كان، فهم كلهم تشملهم ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

ولا تشرط العدالة في مستحق الزكاة فـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾(٢) والفقر كاد أن يكون كفراً!.

فحين يجوز إعطاء الزكاة لغير المسلم تأليفاً لقلبه، فهلا يجوز إعطاءها لغير أهل الولاية تأليفاً لقلوبهم أو لغير العدول سداً لثغرتهم، وهو بطبيعة الحال يؤلف قلوبهم أم يمنع عن تنافر أكثر مما كان(٣).

---

(١) هي ما رواه الكليني وابن بابويه عن زرارة وبكير والفضيل ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية العجلي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا في الرجل يكون في بعض هذه الأهواء الحرورية والمرجئة والعثمانية والقدرية ثم يتوب ويعرف هذا الأمر ويحسن رأيه يعيد كلّ صلاة صلاها أو صوم أو زكاة أو حج أو ليس عليه إعادة شيء من ذلك؟ قال: «ليس عليه إعادة شيء من ذلك غير الزكاة لا بد أن يؤديها لأنه وضع الزكاة في غير موضعها وأن موضعها أهل الولاية» أقول: استثناء الزكاة لا يلائم ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥] ثم وهو صد عن التوبة، بل قد يعطى مثله من نصيب المؤلفة قلوبهم فكيف يجب عليه إعادة الزكاة، ثم التعليل عليل فإنه لم يضع - فقط - الزكاة في غير موضعها بل وجل العقائد والأعمال التي تخالف شرعة الولاية!.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٨.

(٣) ويدل على الجواز معتبرة منها صحيحة علي بن يقطين أنه سئل أبو الحسن الأول عليه السلام عن زكاة الفطرة أيصلح أن تعطى الجيران والظؤورة مما لا يعرف ولا ينصب؟ فقال: لا بأس بذلك إذا كان محتاجاً.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ هي رقاب العبيد والإماء، ثم رقاب المساجين غير الغارمين، الذين يُطلقهم رهائن الأموال، فقد يُصرف قسم من الزكاة في سبيل فك رقابهم عن أسر الرقية أماهيه من آصار.

ثم ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ تعم كل الرقاب المحتاجة في حلِّها إلى صدقة! والمحتاجة إلى حلٍّ[1] فأمّا الرقاب الغنية بما عندها من أموال أم أشغال، أو الغنية عن العتق، فليست هي مما تشمله «في الرقاب» حيث الحاجة أو مصلحة أخرى لا مندوحة لها هي المحور لصرف الزكاة، التي قررت - كأصل - للمحاويج أو الذين يستحقونها لعمل كالعاملين عليها.

وقد يشمل ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ - وبأحرى - من عليه عتق رقبة ولا يجدها[2]، فإنه مجمع العنوانين ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ حيث عليه عتق رقبة وليست عنده، و﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ شرطَ توفر شروط الرقبة التي تشترى له من نصيب الزكاة لتُعتق عنه، ومنها ما كان تأليفاً لقلب رقبة غير مؤمنة إلى الإيمان فهي مجتمع العنوانين، وقد تكفيها أنها من ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فحتى إذا كان حراً هو في أسرٍ بمال قد يجوز فكه تأليفاً لقلبه إلى الإيمان.

وقد تعني رواية القمي عن العالم توسعة في ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ حيث الكفارات فيها ليست لتعني فقط العتق بل ولا يصح في قتل الصيد وأمثاله من

---

(١) كما في خبر أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن الرجل يجتمع عنده من الزكاة الخمسمائة والستمائة يشتري بها نسمة ويعتقها؟ فقال: إذاً يظلم قوماً آخرين حقوقهم، ثم مكث ملياً ثم قال: إلا أن يكون عبداً مسلماً في ضرورة فيشتريه ويعتقه (الكافي ٣: ٥٥٧).
ومرسل الصدوق عن الصادق عليه السلام قال سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته وقد أدى بعضها؟ قال: يؤدي عنه من مال الصدقة إن الله تعالى يقول: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧] (التهذيب ١: ٣٢٥ والفقيه ٣٤٥).

(٢) عن تفسير القمي عن العالم عليه السلام قال: في الرقاب قوم لزمتهم كفارات في قتل الخطأ وفي الظهار وفي الإيمان وفي قتل الصيد في الحرم وليس عندهم ما يكفرون به وهم مؤمنون فجعل الله تعالى لهم سهماً في الصدقات ليكفر عنهم (التهذيب ١: ٣٦٤ وتفسير القمي ٢٧٤).

الكفارات، فهي تعني فك رقاب الغارمين لله فتشملهم ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ كما قد تشملهم ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ وما ألطفه تنبيهاً!.

﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ هم - على القدر المتيقن - المطلوبون بأموال دون تقصير ولا إسراف أو تبذير أم أي تصرف محظور[1]، فهم - إذاً - الغارمون في غير باطل أو محظور، وإن صرف في باطل ثم تاب فهل له من سهم الغارمين شيء، حيث التائب من الذنب كمن لا ذنب له، و﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾[2]؟ كما وإطلاق الآية يشمله؟ أم لا نصيب له حيث صرفه في معصية، والأخبار فيه مطلقة لا تتقيد بالتوبة، الأشبه هو الأول لإطلاق الآية، المتقيد به إطلاق الأخبار المقيدة بعدم صرفه في معصية، وأنه أحرى من غيره تشجيعاً على نصوح التوبة، بل وأحرى من المؤلفة قلوبهم.

---

(١) فـ ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧] ليس الله ليعين إخوان الشياطين بأموال المساكين. و﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١] فكيف يتحبب إلى المسرفين بأموال المساكين، ثم الله لا يحب العاصين، فكيف يزيدهم عصياناً أو يعينهم بأموال المساكين؟.

وفي خصوص الإسراف خبر الحسين بن علوان عن قرب الأسناد عن جعفر عن أبيه عليه السلام أن علياً عليه السلام كان يقول: يعطى المستدينون من الصدقة والزكاة دينهم كله ما بلغ إذا استدانوا في غير إسراف (قرب الأسناد ١٤٦) وهو يعمم الاستدانة في معصية الله فإن صرف المال فيها من أسرف الإسراف.

وفي عموم عدم المعصية أم في طاعة الله خبر محمد بن سليمان المروي في الكافي باب الديون عن رجل من أهل الجزيرة يكنى أبا محمد قال: سأل الرضا عليه السلام رجل وأنا أسمع - إلى أن قال عليه السلام في إنظار المديون: نعم ينتظر بقدر ما ينتهي خبره إلى الإمام فيقضي عنه ما عليه من الدين من سهم الغارمين إذا كان أنفقه في طاعة اللّٰه عز وجل فإن كان أنفقه في معصية الله فلا شيء له على الإمام (الكافي ٥: ٩٣ - ٩٤).

وفي الصحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن رجل عارف فاضل توفي وترك دنيا لم يكن بمفسد ولا مسرف ولا معروف بالمسألة هل يقضي عنه من الزكاة الألف والألفان؟ قال: نعم (الكافي ٣: ٥٤٩).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

وقد يختص ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ - فيما يختص - بمن يعجز عن أداء دينه، وإلّا فهو غني لا تحل له الصدقة، وإن لم يملك إلا مؤنة سنته، إما أن يؤديها أو بعضها لغريمه أم يصرفها في مؤنته، فقد يشمله إطلاق الآية، مهما أخرجته الرواية لأنه غني، ولكنه يفتقر إذا أدّى دينه، والأحوط أن يؤدي دينه بمؤنته ثم يستكملها بالصدقة حيث يدخل - إذاً - في نص الآية:

«الفقراء والمساكين»[1] وقد كان داخلاً في إطلاق الآية: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ المشكوك شموله لهكذا غني، والنتيجة واحدة.

وهل يجب إحراز أنه لم يقصّر ولم يسرف أو يبذر أو لم يصرفه في معصية الله؟ الظاهر نعم، إلّا أنه يكفي ظاهر حال المسلم المحمول على الصحة، لا سيما إذا ادّعى ذلك، ثم إطلاق ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ يشمل موارد الشك، ويقتصر على الخارج منه يقيناً وهو المعروف من حاله صرفه في معصية الله.

وهل يشترط في الغارم العدالة، أو الإيمان أو الإسلام؟ إطلاق الآية يرفضها كما يرفض كل شرط، اللّهم إلا الإسلام بل والإيمان، فإن اشتراط ألا يعصى الله في دينه هو اشتراط الإيمان، والكافر عاصٍ لله على أية حال في دين وسواه.

ثم الغارم إنما يؤتى من الزكاة لفقره بالنسبة لدينه مهما كان غنياً في نفسه، فحصته من الزكاة إذاً معلقة على عدم إمكانية أدائه على طول الخط،

(١) وقد يتأيد بما عن مستطرفات السرائر نقلاً عن كتاب المشيخة لابن محبوب عن أبي أيوب عن سماعة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل منا يكون عنده الشيء يتبلغ به وعليه دين أيطعمه عياله حتى يأتيه الله بميسرة فيقضي دينه أو يستقرض على ظهره في جدب الزمان وشرة المكاسب أو يقضي بما عنده دينه ويقبل الصدقة؟ قال: يقضي بما عنده ويقبل الصدقة (السرائر ٤٧٢).

فإن أمكنه الأداء بعدُ دونما عسر ولا حرج فليرد ما أخذ قدر المكنة والاستطاعة، فإنما حصص الزكاة لهؤلاء - ككل - هي لسد ثغور الحاجة قدرها، وأما المحتاج اليوم الغني غداً، فليس له من الزكاة إلّا قدر اليوم ثم يردها عند المكنة حسب المستطاع، إذاً فحصة الزكاة للغارمين الذين يجدون فيما بعد ما يسدون ثغر الغرم، هي لهم قرض مؤقت وليس ملكاً طليقاً.

وقد يشمل ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ الأغنياء الذين غرموا لغير مصالحهم الشخصية كإصلاح ذات البين بتحمل دية وما أشبه من أموال، فسواء قدروا على أدائها أم لم يقدروا تشملهم ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ ويؤيده قول النبي ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمس.. ورجلاً تحمل حمالة...».

فكما لا يشترط الفقر في ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ومن أشبه حفاظاً على المصلحة الإسلامية، كذلك لا يشترط في الغارمين اللّهم إلا الغارم في مصالحه الشخصية وهو قادر على الأداء.

﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي واسعة اتساع سبل الله، المحلقة على كافة المصالح الإسلامية الواسعة، مهما كان من أبرزها سبيل الدعوة إلى الله والجهاد أو الدفاع في سبيل الله، ولكنها ليست لتختص بهما، وإنما هي ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا فقط ما ذكر من سبل الله.

وقد تكون ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا ضابطة عامة بعد موارد منها خاصة، ولا ريب أن ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا هي السبيل المحتاجة إلى مال ليس ليحصل من غير الصدقات التي هي للفقراء والمساكين، فلا بد لسبيل الله - إذاً - من فقر وحاجة كما للفقراء والمساكين، وكما عن العالم عليه السلام قال: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قوم يخرجون إلى الجهاد وليس عندهم ما ينفقون أو قوم من المؤمنين ليس عندهم ما يحجون به وفي جميع سبل الخير فعلى الإمام أن

يعطيهم من مال الصدقات حتى يقووا على الحج والجهاد[١]، إذاً فالستة السابقة على ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كما ابن السبيل بعدها، هي من المصاديق الهامة لـ، ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فالفقراء والمساكين هما في قمة الأهمية، ثم العاملين عليها، ومن بعدهم بعدَهما، ولأنهم قد يخفون على المؤمنين كونهم من المصاديق الصادقة لـ ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يذكرون تفصيلياً، وهؤلاء مرتبون ذكراً حسب رُتَبهم، فما دام فقير لا تصل النوبة إلى مسكين، وما داما هما لا تصل إلى العاملين عليها، إلا إذا كانوا منهما فهم أحرى من غير العاملين فقراء ومساكين، ثم وما داموا هم لا تصل إلى المؤلفة قلوبهم، وما داموا هم لا تصل إلى ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ حيث المؤلفة قلوبهم هم رقاب وأسرى في ضلال العقيدة، فتحريرهم أحرى من الرقاب في أبدانهم، ثم الرقاب أحرى من الغارمين حيث الرقاب هم أسرى بأنفسهم والغارمون أسرى بما غرموا، وأما ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهي ضابطة عامة تحلق على كافة سبل الله، ولذلك كررت لها «في» لمحةً إلى استقلالها وأهميتها، ثم ابن السبيل هو ابن سبيل الله، فهما تعبيران عن جهات سبيل الله وأشخاص السبيل كضابطتين عامتين، والمذكورون من قبل هم بين ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وابن السبيل، فـ ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ هما من ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حيث لا يملكون صدقة بأنفسهم، وإنما تصرف في صالحهم لمكان «في» والباقون هم من أبناء سبيل الله ولذلك ذكروا باللام حيث يملك الصدقَة أشخاصهم.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وتراه - فقط - ابن سبيل الله، وهو المنقطع عن ماله في سبيل من سبل الله؟ إذاً فابن السبيل في غير مرضاة الله، أم والسبيل المباح الذي ليس مبغوضاً ولا مرضياً لله، هو خارج عن ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾؟

(١) تفسير القمي ٢٧٤ والتهذيب ١: ٣٦٢ في حديث طويل.
وفي صحيحة علي بن يقطين المروية عن الفقيه أنه قال لأبي الحسن عليه السلام: يكون عندي المال من الزكاة أفأحج به مواليّ وأقاربي؟ قال: نعم» (الفقيه أبواب الزكاة رقم ٦٠).

أم الخارج - فقط - هو سبيل غير الله وهي المحرمة في شرعة الله.

﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ هنا هو ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ السابق ذكرها كضابطة لمصارف الصدقات، وشرط ابن السبيل كأقل تقدير ألّا يكون في سبيل غير الله، فليكن في طاعة الله أم دون معصية الله فإنه أيضاً طاعة الله في عمل المباحات أم أياً كان من غير محظور، وهو المقصود من «طاعة الله» في بعض النصوص[1] وليس سبيل المباحات خارجة عن سبيل الله حيث سبلها الله ولم يمنع عنها ف ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ هو الذي لا كافل له وهو منقطع عن ماله في الحال، وليس في سبيل الحرام التي هي فقط خارجة عن السبيل.

وكذلك ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ الذي هو غني في هذه السبيل، فلا بد له من رد ما أخذ ما أمكن، وهل يشترط في ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ الفقر كالفقراء والمساكين؟ ظاهر مقابلته بهما - لا، ولكن الغني في بلده يؤتى من الزكاة حتى يصل إلى بلده فيردها، إذ «لا تحل الصدقة لغني».

وليس يختص ابن السبيل بالغريب عن وطنه، بل هو الغريب عن ماله سواء أكان في وطنه وله مال في غيره، أم في الغربة وله مال في وطنه، أم ليس له مال على أية حال، فإنه فقير وابن سبيل، تحق له الزكاة لأمرين اثنين قدر ما يكفيه حتى يغنى.

وقد يتوسع ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ إلى كل من هو يعمل في سبيل الله كالدعوة إلى الله، غير الواجبة عليه، أم والواجبة، يدعو لحد إذا سئل ابن من هو، يقال: ابن سبيل الله، حيث ترك كل صلة إلا الصلة بالله، وهو يعمل دوماً في سبيل الله، فلا يشترط - إذاً - فيه الفقر، بل والفقير المؤقت والمسكين

(١) كما رواه القمي في تفسيره عن العالم عليه السلام قال: وابن السبيل أبناء الطريق الذين يكونون في الأسفار في طاعة الله فيقطع عليهم ويذهب مالهم فعلى الإمام أن يردهم إلى أوطانهم من مال الصدقات (التهذيب ١: ٣٦٢ وتفسير القمي ٢٧٤).

تشملهما «الفقراء والمساكين» فكما لا يشترط الفقر والمسكنة في العاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب، كذلك في ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ مهما كانت الحاجة مفروضة في الكل من غير جهة الفقر والمسكنة.

وفي التعبير عن الأربعة الأولى باللام الدال على الاختصاص الظاهر في الملك: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ دليل أنهم يملكون نصيبهم من الزكاة.

ثم التعبير عن الآخرين بصيغة أخرى ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ لمكان «في» دليل على أن أصحابها لا يملكون نصيبهم وإنما يصرف في صالحهم فـ «الرقاب» لا تملك وإنما تملك أن تعتق بنصيبها، وكذلك «الغارمين» فإن صار لهم وُجد رجعوه، وكذلك قسم من ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ولا تجوز مطالبة الزكاة إلا بلين ورحمة وحنان وكما قال الله: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾[1] وفي الصحيح: قل يا عباد الله أرسلني إليكم ولي الله لآخذ منكم حق الله في أموالكم فهل لله تعالى في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال لك قائل: - لا - فلا تراجعه وإن أنعم لك منعم فانطلق معه..»[2].

وهل يجب تقسيم الأسهم الثمانية على سواء؟ لا دليل عليه ولا هو صحيح في نفسه، حيث الحاجات تختلف حسب مختلف الظروف والحاجيات[3] والآية طليقة في التقسيم بينهم دون تسهيم بالسوية، بل ولا يصح حيث يختلف عديد هذه المصارف ومديدها.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٢) حديث مفصل عن الكافي.

(٣) الوسائل ٦ : ١٨٣ عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث أنه قال لعمرو بن عبيد في احتجاجه له =

فحين لا يوجد ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ في غياب الدولة الإسلامية فلا نصيب لهم، كحين لا توجد رقاب اللّهم إلّا ساير الرقاب التي تعتق عن رهنها بأموال لا تقدر على أدائها لتحلّلها، مثل رقاب من عليهم كفارات لا يقدرون على أدائها، وسائر الرقاب التي لا تنفك إلّا بمال حتى إذا كان قيدها بمعصية إذا تابت أصحابها.

وحين يوجد فقراء ومساكين بوفرة وحاجات مدقعة فقد تضيق المجالات الأخرى، اللّهم إلا الأهم فالأهم من حيث كونه سبيل الله، أو الأعم نفعاً والأتم من نفس الحيثية.

= ما تقول في الصدقة؟ فقرأ عليه الآية قال: نعم فكيف تقسمها؟ قال: أقسمها على ثمانية أجزاء فأعطي كلّ جزءٍ من الثمانية جزءاً، قال: وإن كان صنف منهم عشرة آلاف وصنف منهم رجلاً واحداً أو رجلين أو ثلاثة جعلت لهذا الواحد ما جعلت للعشرة آلاف؟ قال: نعم، قال: وتجمع صدقات أهل الحضر وأهل البوادي فتجعلهم فيما سواء؟ قال: نعم، قال: فقد خالفت رسول الله ﷺ في كلّ ما قلت في سيرته، كان رسول الله ﷺ يقسم صدقة أهل البوادي في أهل البوادي وصدقة أهل الحضر في أهل الحضر ولا يقسمها بينهم بالسوية وإنما يقسمها على قدر ما يحضرها منهم وما يرى ليس عليه في ذلك شيء مؤقت موظف وإنما يصنع ذلك بما يرى على قدر من يحضرها منهم.

وفيه عنه عليه السلام أتي النبي ﷺ بشيء يقسمه فلم يسع أهل الصفة جميعاً فخص به أناساً منهم فخاف رسول الله ﷺ أن يكون قد دخل قلوب الآخرين شيء فخرج إليهم فقال: معذرة إلى الله عزّ وجلّ وإليكم يا أهل الصفة، إنا أوتينا بشيء فأردنا أن نقسمه بينكم فلم يسعكم فخصصت به أناساً منكم خشينا جزعهم وهلعهم.

وفيه عن العبد الصالح عليه السلام . . . ثمانية أسهم يقسم بينهم في مواضعهم بقدر ما يستغنون به في سنتهم بلا ضيق ولا تقتير فإن فضل من ذلك شيء رد إلى الوالي وإن نقص من ذلك شيء ولم يكتفوا به كان على الوالي أن يمونهم من عنده بقدر سعتهم حتى يستغنوا - إلى أن قال -: وكان رسول الله ﷺ يقسم صدقات أهل البوادي في البوادي وصدقات أهل الحضر في أهل الحضر ولا يقسم بينهم بالسوية على ثمانية حتى يعطي أهل كلّ سهم ثمناً ولكن يقسمها على قدر من يحضره من أصناف الثمانية على قدر ما يقيم (يغني) كلّ صنف منهم بقدر سنته ليس في ذلك شيء موقوف ولا مسمى ولا مؤلف إنما يصنع ذلك على قدر ما يرى وما يحضره حتى يسد كلّ ناقة كلّ قوم منهم وإن فضل من ذلك فضل عرضوا المال جملة إلى غيرهم».

وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام وإن كان بالمصر غير واحد فأعطهم إن قدرت جميعاً».

إذاً فلا بد من نظام إسلامي ينتظم به سلك الاقتصاد والعدل في هذه السهام مهما كان في غياب الدولة الإسلامية، أن تقرِّر كُتَل المسلمين قرارات فيما بينهم تقضي على فوضى التقسيم والتسهيم من بيت مال المسلمين حتى يأتي الفرج العام زمن الدولة المهدوية عليه آلاف التحية والسلام، أم تؤسس دولة أم دويلات إسلامية متضامنة مترابطة توطئ للمهدي عليه السلام مقدمه الشريف.

ثم ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1] ذيل الآية تفرض ذلك التقسيم إضافة إلى فرض الزكاة المقسومة على أهليها، فهي - إذاً - فرض ذو بعدين وما أهمه فرضاً وأتمه وأعمه بين فرائض الإسلام!.

وهنا نعرف مدى خرافة مختلقة ضد المحاويج في حصر الزكاة في التسعة، وسلبها عن البقية، فالحديث المختلق «ليس في الجوهر وأشباهه زكاة وإن كثر وليس في نقر الفضة زكاة»[2].

كما ليس في مكسور الدينار الذهبي والدرهم الفضي زكاة، إنه وأشباهه لا يلائم مشروع الزكاة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أفمِن العلم بحاجات المحاويج، والحكمة في إعانتهم، حصرُ الزكاة فيما حصرت فيه، وهناك من ذواخر الأموال والجواهر الثمينة مئات آلاف أضعافها المكنوزة وسواها؟! وماذا يحمل جماعة من أهل الفتوى على تأويل

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

(٢) فيه حديث يتيم محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ليس في الجوهر...» وعن يعقوب بن شعيب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحلي أيزكى؟ فقال: إذاً لا يبقى منه شيءٌ وسأله بعضهم عن الحلي فيه زكاة؟ فقال: لا ولو بلغ مائة ألف. ويخالفه ما عن أبي الحسن قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحلي عليه زكاة؟ قال: إنه ليس فيه زكاة وإن بلغ مائة ألف درهم، كان أبي يخالف الناس في هذا (الوسائل ٦: ١٠٦ - ١٠٧).

أضعاف الآيات والأحاديث الواردة، في زكاة الأموال كلها وفي زكاة مال التجارة، أن يؤلوها إلى استحباب ولا إشارة له في واحدة منها؟! فهل هم انتبهوا لما تغافل عنه المعصومون أم تجاهلوا؟.

تأويل كليل عليل ليس له أي دليل إلّا على خلافه لمن ينظر إلى أدلة الأحكام نظرة مستقيمة صافية ضافية.

وهلا تجوز الزكاة لذرية الرسول ﷺ؟ قد يقال: لا لما ورد من أن الصدقة لهم محرمة، ولكن العلة العليلة المروية «إن الصدقة أوساخ أيدي الناس»[١] جارية في الخمس أكثر من الزكاة! أم تماثله حيث الكل مما في أيدي الناس دونما مايز بينهما في المكاسب، اللّهم إلّا إذا اختص الخمس بغنائم دار الحرب إذ لم يسع لها مسلم سعيه في الأموال الزكوية! ولكنها أوسخ حيث الكفار الذين حصلوا عليها لم يطبقوا شرعة الله في تحصيلها!.

أجل إنها قد لا تحل للرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول عليهم السلام حرمة لمحتدهم وتعالياً عن افتقارهم إلى الناس، وكما يروى عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «أعطوا الزكاة من أرادها من بني هاشم فإنها تحل لهم وإنما حرم على النبي ﷺ وعلى الإمام الذي من بعده وعلى الأئمة عليهم السلام»[٢].

---

(١) الوسائل ٦: ١٨٦ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا قال رسول الله ﷺ: إن الصدقة أوساخ أيدي الناس وإن الله قد حرّم علي منها ومن غيرها ما قد حرّمه وأن الصدقة لا تحل لبني عبد المطلب.

أقول: وقد تعني الصدقة هنا غير الزكاة المفروضة، فتعني ما يتصدق به الناس إعطاءً للفقراء، فهي محرمة على المعصومين ذوداً عن كرامتهم.

وفيه (٣٦٠) عن الرضا عليه السلام في حديث الخمس المفصل: فلما جاءت قصة الصدقة نزه نفسه ورسوله ونزه أهل بيته فقال: إنما الصدقات.. فلما نزه نفسه عن الصدقة ونزه رسوله ونزه أهل بيته لا بل حرّم عليهم لأن الصدقة محرمة على محمد وآله وهي أوساخ أيدي الناس لا تحل لهم لأنهم طهروا من كلّ دنس ووسخ.

(٢) المصدر (١٨٧) محمد بن علي بن الحسين بإسناده إلى أبي خديجة سالم بن مكرم الجمال =

وليس مَثَل حرمة الزكاة على ذرية الرسول إلا كحرمة الخمس على ذريته من طريق الأم اعتباراً أنهم من الأدعياء، وليس من الأدعياء إلا مختلق الرواية نفسها، المستدل فيها على حرمانهم بآية الأدعياء[1].

تذنيب فيه تقريب:

زكاة النقدين وهي ٥ / ٢ في المائة تعم كافة النقود على حسابهما لأنها الأصل في العملة.

وزكاة أموال التجارة هي زكاة النقدين بمقياسهما.

وزكاة الغلات والفواكه هي ٥ / ١٠٠ أو ١٠ / ١٠٠ حسب اختلاف السقي.

وزكاة سائر الحيوان ما أمكن قياسه على الأنعام الثلاث، وإلا ففي أسعارها، وهكذا السيارات والباخرات والطائرات وأشباهها.

ثم هذه الكسور هي الكسور المستقيمة لضريبة الزكاة، فإذا لم تف بالحاجات الهامة فأزيد منها وأزيد حتى العفو حيث ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ

= عن أبي عبد الله عليه السلام. وفيه (١٨٨) عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: لو حرمت علينا الصدقة لم يحل لنا أن نخرج إلى مكة لأن كلّ ماءٍ بين مكة والمدينة فهو صدقة.

وفي محاسن البرقي ١: ١٤ عن عبد الرحمن بن عجلان قال: سألت أبا جعفر عليه السلام من قول الله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، فقال: «هم الأئمة الذين لا يأكلون الصدقة ولا تحل لهم».

ومن رواة حديث حرمة الزكاة على الهاشميين هو علي بن الحسن الفضال وهو الراوي لحلها عليهم أيضاً.

(١) المصدر ٦: (١٨٨) مرسل الكليني عن العبد الصالح في حديث طويل قال: ومن كانت أمه من بني هاشم وأبوه من سائر قريش فإن الصدقات تحل له وليس له من الخمس شيء فإن الله يقول: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] أقول: هذه الآية تخص الأدعياء، فهل إن أولاد البنت من الأدعياء، إذاً - ولا سمح الله - الحسنان ليسا من أبناء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بل هما من الأدعياء، لو كان الانتساب بالأم لا يعتبر نسباً!.

﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[(١)] وهو الزائد عن الحاجة المتعودة دون تبذير ولا إسراف، ولا تقتير وإجحاف، فـ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[(٢)] ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[(٣)].

والأوسط من هذه الطرق رد الخمس من كافة العوائد قبل المؤنة من تكفيه بهذا الرد مؤنة سنته، فيرد من كل عائدة خمسها في نفس الوقت دون انتظار لتمام سنته أم إنهاء مؤنته، ثم مؤنة سنة هي الغاية القصوى في الخمس والزكاة، فإن أضرت بمن لا يملك أقل منه فإلى تقسيم كما يصح تسوية بين المحتاجين.



(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ
رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦١﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ
مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ
ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم
بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن
سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ
وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْۖ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن
نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾
ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ
عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ
ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾
كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا
فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦١﴾﴾:

هنا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ المضارعة تعم كافة القيلات - منذ نزول هذه الآية حتى القيامة الكبرى - حول أنه ﴿أُذُنٞۚ﴾ من أذن الوحي نكاية عليه أنه لا يصدر عن عقليته الإنسانية ولا سائر العقول، بل ﴿هُوَ أُذُنٞۚ﴾ فقط لوحي السماء؟.

وذلك - رغم ما يزعم - ليس له إلَّا فضيلة، حيث إن أذن الوحي لا يخطأ قصوراً ولا تقصيراً، وسائر الأذن خاطئة تقصيراً أو قصوراً.

ثم ﴿هُوَ أُذُنٞۚ﴾ صاغ لكلٍّ من يكلمه، فليس له رأي تصديقاً أو تكذيباً، فـ ﴿هُوَ أُذُنٞۚ﴾ مهانةٌ وإهانةٌ بساحة النبوة كأنه يتقبل ما يسمع دون تحرٍّ عن حق القول وباطله، وهكذا ﴿أُذُنٞۚ﴾ شرٌّ حيث يجتمع في تقبُّل صاحبه شراً إلى خير، والمتضادات بل والمتناقضات، والجواب كلمة واحدة ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ

﴿لَكُمْ﴾ عاقلاً فيما يسمع، عادلاً فيما يقبل أم يرد، وهو في كونه ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ فلا يسمع إلا بإذن الله على ضوء الإيمان بالله، أو يسلب أو يوجب ما يسمعه إلّا بإذن الله، فهو إذن لوحي الله ولكلام الناس، وأين أذن من أذن؟ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله.

وترى ذلك ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ كافياً عما سواه من إيمان، فما هو دور ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ «يؤمن له» هو إيمان لصالح من يؤمن له، إيماناً بالله لصالح المؤمنين، وأنه يؤمن المؤمنين عن كل بأس وبؤس وخوف، فهو - إذاً - للمؤمنين حيث يجعلهم في أمنه لما يسمع منهم قضية إيمانهم فيما يقولون، وعناية أخرى هي تصديقة المؤمنين كـ ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[(١)] ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾[(٢)] ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[(٣)] ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[(٤)] ثم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ككل، بأذنه ولسانه وكل أحواله وأعماله ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ أيها المنافقون، فهو ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ للمؤمنين بالله، و«أذن خير للذين آمنوا منكم» بالله فـ «يؤمن. يؤمن. رحمة» هي من أدلة أنه ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ حيث المؤمن بالله والمؤمن للمؤمنين ورحمة لهم، هو بطبيعة الحال ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾.

ولأن المفعول به في ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ محذوف، فقد يعني فيما يعنيه يؤمن المنافقين أن يجعلهم في أمن من صراح التكذيب لصالح المؤمنين، حتى يقفوا عند حدهم، تخفيفاً عن جزرهم ومدهم، أو يؤمنوا كما آمن هؤلاء، إذاً فـ ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أن يجعل نفسه في أمن بالله، ويؤمن للمؤمنين،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٧.
(٢) سورة يونس، الآية: ٨٣.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١١١.
(٤) سورة طه، الآية: ٧١.

أن يجعل أذنه صاغياً طليقاً لصالح المؤمنين، صغياً لأقوالهم الصادقة فهو لصالحهم، وصغياً لأقوال المنافقين الكاذبة، وهو أيضاً لصالحهم، حيث القسوة في المواجهة ترجع بالضرر عليهم، ثم في تصليحه غير الصالح من أقاويل المؤمنين وسواهم ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمناً للمتكلم بإجابة صالحة لصالح المؤمنين، وقد يعني ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إضافة إلى إيمانه نفسه بالله، إيمان الأمة أن يجعلهم في أمن بالله، ثم ﴿وَيُؤْمِنُ﴾ جو الحياة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بذلك الإيمان المزدوج بالله، مع جعل المنافقين أيضاً في أمن دون قسوة زائدة، لصالح المؤمنين، إلا إذا لزم الأمر أن يقسوا معهم.

ثم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بقولهم ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ وما أشبه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

وهكذا يكون داعية الحق أنه يسمع إلى كل قائل صادق فيصدقه أم كاذب فيرشده دونما غلظة كيلا يفلت، فيخيّل إلى البسطاء أنه مصدق كل ما يسمعه[1].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٥٣ عن ابن عباس في الآية يعني أنه يسمع كلّ أحد قال الله عزّوجلّ: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ...﴾ [التوبة: ٦١].
وفي نور الثقلين ٢: ٢٣٦ عن تفسير القمي كان سبب نزولها أن عبد الله بن نفيل كان منافقاً وكان يقعد إلى رسول الله ﷺ فيسمع كلامه وينقله إلى المنافقين وينّم عليه فنزل جبرئيل عليه السلام على رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن رجلاً ينم عليك وينقل حديثك إلى المنافقين فقال رسول الله ﷺ: من هو؟ فقال: الرجل الأسود الكثير شعر الرأس ينظر بعينين كأنهما قدران وينطق بلسان الشيطان فدعاه رسول الله ﷺ فأخبره فحلف الله أنه لم يفعل فقال رسول الله ﷺ: قد قبلت ذلك منك فلا تقعد فرجع إلى أصحابه فقال: إن محمداً أذن أخبره الله أني أنم عليه وأنقل أخباره فقبل وأخبرته أني لم أفعل ذلك فقبل فأنزل الله على نبيه ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ...﴾ [التوبة: ٦١] أي يصدق الله فيما يقول له ويصدقك فيما تعتذر إليه في الظاهر ولا يصدقك في الباطن أقول: دليلاً على عدم تصديقه في الباطن ظاهر قوله ﷺ له: «فلا تقعد» فلو كان تصديقاً له في براءته لم يكن إذاً دور لـ «لا تقعد» فهذا إذاً تكذيب بلسان التصديق لكيلا ينفضوا من حوله. =

فمن الناس من لا يسمع إلى أي قائل فلا يهتدي به ضال، أو يسمع إلى أي قائل فيه خلط للحق بالباطل، وهذان هما أذنا شر، وأما الداعية الرسالية فهو ﴿أُذُنُ خَيۡرٍ﴾ ليس في سماعه إلى كل أحد إلّا خير، فإن كان حقاً يصدقه ويزيده، وإن كان باطلاً يرشده.

أجل إنه ﷺ أذن صاغ طليق لمثل الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام إذ لا يقول إلا حقاً مستحقاً للإصغاء ولذلك أيضاً سموه أذنا إزراءً بساحته ومساً بكرامته، فقد ذكر ﷺ علياً وما أوصى الله فيه وذكر المنافقين والآثمين والمستهزئين بالإسلام وكثرة أذاهم لي حتى سموني أذناً وزعموا أني كذلك لكثرة ملازمته إياي وإقبالي عليه حتى أنزل الله[1].

ذلك، فأذن شر أو خليط بينه وبين خير خارج عن مثلث الإيمانين ورحمة، فعلى الدعاة إلى الله أن يكونوا ﴿أُذُنُ خَيۡرٍ﴾ حتى للمنافقين والكافرين، أن يصغوا إليهم لصالحهم المُرام عند الله، فكما على الطبيب أن يسمع إلى المريض ليعرف علته، وإلى الصحيح ليعرف صحته، فيصلح المريض إلى الصحيح، كذلك وبأحرى «طبيب دوار بطبه» عليه أن يكون ﴿أُذُنُ خَيۡرٍ﴾ صاغياً صغي خير للمؤمنين، ورحمة للذين آمنوا وهدىً للآخرين.

= وفي تفسير الفخر الرازي ١٦: ١١٦ روى الأصم أن رجلاً منهم قال لقومه : إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير فسمعها ابن امرأته فقال : والله إنه لحق وإنك أشر من حمارك، ثم بلغ النبي ﷺ ذلك فقال بعضهم: إنما محمد أذن ولو لقيته وحلفت له ليصدقنك فنزلت الآية على وفق قوله فقال القائل يا رسول الله ﷺ : لم أسلم قط قبل اليوم وإن هذا الغلام لعظيم الثمن علي والله لأشكرنه ثم قال الأصم: أظهر الله تعالى عن المنافقين وجوه كفرهم التي كانوا يرونها لتكون حجة للرسول ولينزجروا.

(١) نور الثقلين ٢: ٢٣٦ في كتاب الاحتجاج للطبرسي بإسناده إلى محمد بن علي الباقر عن النبي ﷺ حديث طويل يقول فيه وقد ذكر علياً عليه السلام . . . حتى أنزل الله. . . على الذين يزعمون أني أذن ولو شئت أن أسمي بأسمائهم لسميت وأن أومي إليهم بأعيانهم لأومأت وأن أدل عليهم لدللت ولكني والله في أمورهم قد تكرمت.

أجل، إنه أذن طليق لوحي الله ليبلغه إلى الناس، وأذن يستمع إلى المؤمنين ليرشدهم إلى الأصلح في حالهم، وأذن يستمع إلى المتحرِّين عن الحق ليوصلهم إليه، وأذن للآخرين علّه يردهم عن الردى ويهديهم إلى سبيل الرشاد والهدى.

فليس ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ سمعاً لكل قول تصديقاً دون تفطن إلى غش القول وزوره وغروره.

ذلك، وقد تعني ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ كلا وجهي إضافة الموصوف إلى صفته وسواها، فعلى الأولى هو خير أذن، وعلى الأخرى أذن لخير لكم وليس أذناً لشر لكم، والفرق بينهما أن الأولى تعني خير الأذن وإن سمع كذباً، والثانية أذناً لخير فلا يسمع كذباً، والجمع أجمع وأجمل.

وقد تلمح ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن صغي قول هو لصالح المؤمنين محبور دون محظور، مهما كان اغتياباً، وكما استثني في نصح المستشير وما أشبه، وهكذا يصدق المروي عن باقر العلوم عليه السلام [(١)] فالصاغي قولاً لصالح المؤمنين أو الأصلح لهم محبور مهما كان القول اغتياباً أو اعتياباً، والصاغي لطالحهم محظور مهما كان القول صادقاً.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾:

﴿. . . لِيُرْضُوكُمْ﴾ تصديقاً لهم أنهم موافقون وليسوا بمنافقين[(٢)] ﴿وَاللَّهُ﴾

---

(١) كما في تفسير العياشي عن حماد بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إني أردت أن أستبضع فلاناً بضاعة إلى اليمن فأتيت إلى أبي جعفر عليه السلام فقلت له: إني أريد أن أستبضع فلاناً فقال لي: أما علمت أنه يشرب الخمر؟ فقلت: قد بلغني من المؤمنين أنهم يقولون ذلك فقال صدقهم إن الله عز وجل يقول: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] فقال: يعني يصدق الله ويصدق المؤمنين لأنه كان رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٥٣ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً من =

أصالة ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ رسالة ﴿أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ هو، حيث الرسول لا يستقل أمامه ويجنبه، فلذلك يصح إفراد الضمير رغم عديد المرجع ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله كما يدعون، فليصلحوا فيما بينهم وبين الله يصلح الله بينهم وبين الناس.

وهنا ﴿أَحَقُّ﴾ تفضيلاً هو في موقف المجازاة، أن لو كان لغير الله حق أمام الله فهو أحق، أم على الحقيقة إذ للمؤمنين حقٌّ لإيمانهم بالله، ولكن الله أحق أن ترضوه لأنه محور الحق والإيمان، فماذا يكون الناس - وإن كانوا مؤمنين - أمام الله، ولكن الذي لا يؤمن بالله ولا يعفو له، هو بطبيعة الحال تختص عنايته بالناس، وقضية الإيمان بالله هي التوحيد في إرضائه كعبادته وطاعته، فإن مرضاة الناس لا تُحقق، لاختلافهم فيها بمناقضات ومضادات، ومرضاة الله موحَّدة في عبادته وطاعته دون سواه، فالعقل يحكم ولا سيما على ضوء الإيمان بالله أن توحَّد مرضاة الله دون عناية لمرضاة من سواه أياً كان، إلَّا من هو مرضاته مرضاة الله ومشيته مشية الله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(١) فقد تطلب مرضاتهم على هامش مرضاة الله، ولأنها أيضاً من مرضاة الله كما و﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾(٢).

فمحاولة إرضاء الناس خبْل وجِنة إذ إن مرضاة الناس مختلفة أو

= المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم شر من الخمر فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت شر من الحمار فسعى بها الرجل إلى نبي الله ﷺ فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: ما حملك على الذي قلت؟ فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك وجعل الرجل المسلم يقول: اللّهم صدق الصادق وكذب الكاذب فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ...﴾ [التوبة: ٦٢] وفيه عن السدي مثله وسمى الرجل المسلم: عامر بن قيس من الأنصار.

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

متناقضة، ولو حصلتَ على مرضاتهم جميعاً فليس لك إلا رضاهم جميعاً، ثم محاولة إرضاء الله هي عقل ورحمة، فإن مرضاته واحدة غير متفرقة، إذاً فالعقل يحكم كما الشرع أن نحاول في تحصيل إرضاء الله، رضي ناس أم سخطوا، ولو أسخطت بمرضاة الله كل الناس لم يضروك شيئاً، وإن أسخطت الله بمرضاة من الناس فهو كل الضرر.

فالأصل في الحياة العاقلة الإيمانية تحصيل مرضاة الله بتطبيق شرعته بلسان رسوله في وحي الكتاب والسنة فـ ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ يفرد فيها الضمير لإفراد الرضا لله وحده، حيث الرسول ليس يستقل أمام الله حتى يُستغَل مرضاته أمامه.

وكيف نحصل على مرضاة الله؟.

أن نكون من الصادقين: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

ومن السابقين بإحسان: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

والمبايعين الرسول شرط عدم النقض: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا...﴾[3].

وألّا يوادُّوا من حاد الله ورسوله: ﴿... أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٩.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.
(٣) سورة الفتح، الآية: ١٨.

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ضابطة ثابتة إلى يوم الدين، وقد تواتر عن النبي ﷺ قوله في أهل بيته المعصومين عليهم السلام: «من آذاني في عترتي فعليه لعنة الله»[2] «اشتد غضب الله على من آذاني في عترتي»[3] «حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي»[4] «من آذى أحداً من أهل بيتي قطع ما بيني وبينه»[5] وبخصوص علي عليه السلام: «من آذى هذا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله»[6] «من آذى علياً بعث يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً»[7] «من آذى علياً فقد آذاني»[8] وبخصوص فاطمة سلام الله عليها «من آذاها فقد آذاني»[9] «يؤذيني ما آذاها»[10].

و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾[11].

والنفوس المطمئنة بالله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾[12].

فالمؤمنون العاملون الصالحات الصادقون السابقون في الإيمان، المبايعون الرسول، الذين يخشون ربهم فهم من حزب الله، ولا يوادون من

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٢ - ١٠) هذه على الترتيب تجدها في ملحقات إحقاق الحق ١٨: ٤٥٨ - ١٨: ٤٣٩ - ٤٤٠، ٥٤٤ و٩: ٥١٨، ٥٢٠ - ١٨: ٤٦١ - ٥: ٧٣ - ١١: ٤٧ - ٤٨ و١٩: ٣١٧ - ٤: ٢٣٣ و٦: ٣٩٠ و٧: ٣٨٤ و٤٦١ و٥ - ٦: ٣٨٠ - ٣٩٤ و١٦: ٥٨٨ - ٥٩٩ و٢١: ٥٣٧ - ٥٤٣ - ١٠: ١٨٧ - ١٩٩، ٢٠٩ - ٢١١ - ١٩: ٨٣ - ٨٤ . أخرج في هذه المجلدات متواتر الروايات حول هذه المضامين عن رسول الله ﷺ.

(١١) سورة البينة، الآيتان: ٧، ٨.

(١٢) سورة الفجر، الآيات: ٢٧-٣٠.

حاد الله ورسوله ولو كانوا آباؤهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، ولهم نفوس مطمئنة بالله، أولئك الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وهذه درجات سبع تغلق على دركات سبع من جحيم التخلفات عن مرضاة الله.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾:

محادة الله هي اعتباره في حد دون حدودهم، في كل قضايا الربوبية أم بعضها، وكأنهم آلهة من دون الله، وإن في قضية واحدة من قضايا الربوبية، كطليق العبودية والطاعة، فهم ممن ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1] ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[2]!.

ومحادة الرسول هي اعتباره في حد دون حدودهم، وكأنهم يوحى إليهم كما هو، فلا عليهم أن يتبعوهُ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[3]!.

ولأن المحادة تحديد من ناحية فاعلها المحاد، ثم الله ليس ليحاد، فقد تعني أن هؤلاء يجعلون لله حداً كما الله جاعل لهم حداً، وليس لله حد في ألوهيته أو ربوبيته وعبادته وطاعته، إذاً فالمحادة تعني في مغزاها التفوق على الله تعالى في قرار حد من ناحية العبد كأنه إله لله، يملك الله أن يحد له ربوبيته، ومن ذلك محادته بحد الخلق كوحدة حقيقة الوجود وما أشبه!.

والمحادة الإلهية والرسولية، ومن ثم الرسالية، تعني استقلالاً بجنب الله ورسله ورسالاته، فاستغلالاً لطائشة الأهواء بحريتها الطليقة، وإذاً ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ فإنه بنفسه جهنم هنا، ثم في الأخرى يؤجج بنيرانها ﴿خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٠.

أجـل و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾[2].

فحين تعني المحادة - مفاعلةً - أنهم يحاولون أن يجعلوا لله حداً في الألوهية والربوبية، وللرسول حداً في الرسالة كما يشتهون، بديلاً عما يجعل الله لهم حداً على أية حال، ويجعل لهم الرسول حداً في رسالته - حداً بحد - فهم من أنحس مصاديق ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ...﴾[3].

متاجرة مهاترة بينهم وبين الله ورسوله وكأنهم إلهة لله كما الله إلههم، وأنهم رسل إلى الرسول كما الرسول رسول إليهم، أخذاً للعصا من البين وجعلاً للبلد شطرين!.

فمن هو العبد حتى يحاد الله ورسوله أو يشاقق الله ورسوله، تنزيلاً لساحة الربوبية والرسالة وترفيعاً لقاعة العبودية.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿سُورَةٌ﴾ هنا تعني إلى سورة المنافقين الخاصة بفضحهم، هذه السورة التي ثلثا آياتها أم تزيد نازلة بشأنهم الشائن، فقد جربوا خلال أعمالهم المنافقة أن الله ليس ليذرهم يفتنون المؤمنين عن دينهم، وهكذا سائر السور التي تتحدث عنهم في آيات، وقد تشمل ﴿سُورَةٌ﴾ جموع آيات سواء أكانت سورة مصطلحة أم أية سورة هي من السور المحيط بما يحيط، فإن آيات المنافقين بارزة الدلالة، ظاهرة المدلول، مهما تفرقت بين سائر الآيات،

(١) سورة المجادلة، الآية: ٥.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الحج، الآية: ١١.

فضلاً عما اجتمعت كما هنا في ثمان وأربعين آية[1] تتوارد على فضحهم بما يقولون، أو ما ينوون وما يفعلون وما يضمرون من عداءٍ عارم ضد المؤمنين، ولقد سميت التوبة البراءة - فيما سميت - بـ «الفاضحة» حيث تحمل فضْحهم أكثر من كل سورة في القرآن، فلذلك لا حرج هنا ولا حذر على المؤمنين، فليكيدوا هم كيدهم ويميدوا ميدهم، فـ ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[2].

ثم ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم﴾ لا تعني التي تختص بهم، وإنما ما تحمل فضْحهم بكثير أو قليل، إذاً فكل السورة التي تتحدث عنهم هي معنية بـ ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم﴾.

وهنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لا تعني نزول سورة وحياً إليهم، وإنما تعني «على» فضحاً وإضراراً بهم، ولقد جربوا أن الله ليس ليخفي على رسوله مكائدهم الظاهرة بينهم ضد المؤمنين، والمبطنة عندهم، فالرسول ﷺ هو نفسه يعرفهم في لحن القول: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[3].

ذلك، فلا يرد على الآية ما خيِّل إلى ناس بسطاء أم شياطين أن كيف

---

(١) وهي الآيات التالية التي تخصهم ٣٨ - ٤٤ - إلى - ٥٠ - ٥٢ - إلى - ٥٤ - ٥٦ - ٥٨ - ٦١ - إلى - ٦٩ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٩ - ٨٠ - إلى - ٨٧ - ٩٠ - ٩٣ - إلى - ٩٦ - ١٠١ - ١٠٧ - إلى - ١١٠ - ١٢٥ - ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٣٦ عن تفسير القمي في الآية قال: كان قوم من المنافقين لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك يتحدثون فيما بينهم ويقولون: أيرى محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم لا يرجع منهم أحد أبداً، فقال بعضهم: ما أخلفه أن يخبر الله محمداً بما كنا فيه وبما في قلوبنا وينزل عليه قرآناً يقرأه الناس وقالوا هذا على حد الاستهزاء فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: الحق القوم فإنهم قد احترقوا فلحقهم عمار فقال: ما قلتم؟ قالوا: ما قلنا شيئاً إنما كنا نقول شيئاً على حد اللعب والمزاح فأنزل الله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

(٣) سورة محمد، الآية: ٣٠.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ وهم لا يؤمنون بالوحي فضلاً ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ وهي لا تنزل إلّا على رسول الوحي؟.

هذا لأنهم ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(١) فهم على استيقانهم بحق الوحي يجحدونه ظالمين، والله يخبر عن طويتهم أنهم يحذرون بما هم يعرفون الوحي وما هم مجربون، حيث تكرر إنباءات الله ورسوله والمؤمنين عن نياتهم وطوياتهم، وعن قالاتهم سابقة ولاحقة.

وهنا ﴿ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ يعني إخراجه عن مخبئِه، فإخراجاً لمُخبئه، والأمر الظاهر الذي يمكن الحصول عليه بتجسس وتحسس ليس ليخرج، إنما يخرج المكتوم غير المعلوم، ولقد بلغ من حذرهم أن تنزل عليهم سورة تنبئهم أنهم ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾(٢).

ذلك، ثم الحذر لا يلازم العلم بالمحذور المحظور، فقد يكفيه مجرد احتمال، فهب أن هؤلاء المنافقين لم يكونوا على يقين بصدق الوحي، ولكن احتماله على أية حال وارد، إذ لا يملكون برهاناً على كذبه، وساطعة البراهين على صدقه ظاهرة باهرة.

وقد يحتمل إضافة إلى ما قدمناه أن ضمير الجمع الغائب في ﴿عَلَيْهِمْ - تُنَبِّئُهُم﴾ راجع إلى المؤمنين وفي ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ إليهم أنفسهم، والأول أرجح والجمع أنجح.

ومن ناحية أخرى في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قد يوجه بأنهم عائشون خلال المؤمنين، فالآيات التي تعنيهم كأنها منزلة عليهم، وقد يقربه ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾(٣) حيث تعني «على»

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٢) سورة المنافقون، الآية: ٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.

نزولاً بشأنهم دون أن يوحى إليهم تنزيلاً لوحي الكتاب - دون وسيط الرسول - عليهم[١].

ووجه آخر في ذلك الحذر أنه كان على سبيل الاستهزاء كما يؤيده ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ . . .﴾.

ذلك حذرهم في أنفسهم فحظرهم فيما ينزل عليهم ثم هم يتساءلون:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ عن هزئهم بالرسول ﷺ والذين معه، وما في قلوبهم من طويات خبيثة ﴿لَيَقُولَنَّ . . .﴾ وهذا إخبار بغيب مستقبل، وكان لهم ألا يقولوه لمَّا سمعوا الوحي هكذا يفضحهم، ولكنهم قالوه كما قال الله عنهم ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ﴾ وهل الخوض في آيات الله واللعب بالله ورسوله يبرره أي مبرر، وذلك استهزاء صريخ صريح: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾؟ وقد قال ﷺ لهم[٢] ما قال.

---

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٦ : ١٢٠ قال الحسن: اجتمع اثنا عشر رجلاً من المنافقين على أمر من النفاق فأخبر جبريل الرسول ﷺ بأسمائهم فقال ﷺ: إن أناساً اجتمعوا على كيت وكيت فليقوموا وليعترفوا وليستغفروا ربهم حتى أشفع لهم فلم يقوموا فقال ﷺ بعد ذلك: قم يا فلان ويا فلان حتى أتى عليهم ثم قالوا: نعترف ونستغفر فقال: الآن؟ أنا كنت في أول الأمر أطيب نفساً بالشفاعة والله كان أسرع في الإجابة اخرجوا عني اخرجوا عني فلم يزل يقول حتى خرجوا بالكلية، وفيه قال الأصم: إن عند رجوع رسول الله ﷺ من تبوك وقف له على العقبة اثنا عشر رجلاً ليفتكوا به فأخبره جبرئيل وكانوا متلثمين في ليلة مظلمة وأمره أن يرسل لهم من يضرب وجوه رواحلهم فأمر حذيفة بذلك فضربها حتى نحاهم ثم قال: من عرفت من القوم؟ فقال: لم أعرف منهم أحداً فذكر النبي ﷺ أسماءهم وعدهم له وقال: إن جبرئيل أخبرني بذلك فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم ليقتلوا؟ فقال: أكره أن تقول العرب قاتل محمد بأصحابه حتى إذا ظفر صار يقتلهم بل يكفينا الله ذلك.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٥٤ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله=

وهنا ﴿تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ تعمم حكم الاستهزاء - وهو الكفر والارتداد - إلى كل من يستهزئ بالدين مهما كان مسلماً مؤمناً، فضلاً عن المنافقين، إذ لا يعني الاستهزاء - فقط - النكران، بل هو شديد النكران، فمن منكر ساكت لا يستهزئ، وأما المستهزئ فهو منكر ماقت!.

ويا له عذراً غادراً: ﴿نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ وكيف يخاض في الدين ويلعب به إلّا بنكران هازئٍ، حيث الحق لا يتحمل الخوض واللعب إلّا بذلك النكران البعيد والكفر الشديد!.

﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦﴾:

﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾ حيث لا عاذرة عن الكفر المتعمّد و﴿قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ وهنا تقابل الإيمان بالكفر دليل على أنهم بين منافقين وبسطاء مضلّلين، فكفر طائفة منهم بعد إيمانهم هو جاهر الكفر بعد ظاهر الإيمان فلا يعفى عنهم، وكفر طائفة أخرى هو واقع الكفر بعد واقع الإيمان، فلذلك يصح هنا التقسيم ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾ وهم المضللون حين يتوبون.

﴿نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ﴾ أخرى ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ حيث تعرّق الإجرام

= ابن عمر قال قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قرآننا هؤلاء لا أرغب بطوناً ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء فقال رجل في المجلس: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب والنبي ﷺ يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، وفيه عن قتادة في الآية قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين فقالوا: أيرجو هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فقال نبي الله ﷺ: احبسوا على هؤلاء الركب فأتاهم فقال: قلتم كذا قلتم كذا؟ قالوا يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم ما تسمعون، وفيه عن سعيد بن جبير قال: بينما النبي ﷺ في مسيره وأناس من المنافقين يسيرون أمامه فقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فلنحن شر من الحمير فأنزل الله تعالى ما قالوا فأرسل إليهم ما كنتم تقولون فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب.

وتعمّق في قلوبهم، فهم رؤساء الضلالة وحملة مشاعل المتاهة والغواية حيث عاشوا ردحاً بعيداً من الزمن ذلك الإجرام فكيف يعفى عنهم فهم - إذاً - لا يتوبون ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾[1]، خلاف الأولين الذين كان كفرهم بسيطاً دون تعنُّد وتعمق[2].

واحتمال ثان أن يختص العفو بحاضر العذاب دون مستقبله لاختلاف دركات نفاقهم شدةً وضعفاء، ولكن الظاهر هو الأول ف ﴿نَّعْفُ﴾ إذ يتوبون، و﴿نُعَذِّبْ﴾ إذ لا يتوبون، أم وتوبتهم توبة نفاق غير وفاق.

هنا يذكر ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ لتشمل الذين آمنوا ثم كفروا ونافقوا عن جهل وبساطة، إلى هؤلاء الذين أسلموا منافقين، ثم ازدادوا كفراً ونفاقاً، ولذلك لما يفرد الآخرون يبدل الإيمان فيهم بالإسلام: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[3].

ووجه ثالث أن الإيمان يعم الإيمان باللسان إلى الإيمان بالجنان

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٤.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٣٨ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا ...﴾ [التوبة: ٦٦] قال: هؤلاء قوم كانوا مؤمنين صادقين ارتابوا وشكوا ونافقوا بعد إيمانهم وكانوا أربعة نفر وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] كان أحد الأربعة مخشى بن الحمير فاعترف وتاب وقال يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهلكني اسمي فسماه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن عبد الرحمن فقال: يا رب اجعلني شهيداً حيث لا يعلم أحد أين أنا فقتل يوم اليمامة ولم يعلم أين قتل فهو الذي عفا الله عنه.

أقول: لم يسم هذا الواحد طائفة فإنه شأن لنزول الآية وهي تعني كلّ من يصلح للعفو كأمثاله على مدار الزمن، وكما الطائفة الأخرى لا تعني الآخرين بأعيانهم.

وفي الدر المنثور ٣: ٢٥٥ - أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الكلبي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أقبل من غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة رهط استهزؤوا بالله وبرسوله وبالقرآن، قال كان رجل منهم لم يمالئهم في الحديث يسير مجانباً لهم يقال له يزيد بن وديعة فنزلت: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ [التوبة: ٦٦]، قال: الطائفة رجل واحد.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٤.

والأركان، وكما يخاطب الذين آمنوا بوظائف عامة فتشمل كل من أقر بالإيمان.

ووجه رابع أنه صحيح الإيمان وخفيفه الذي يزول بعارض مَّا، وكما لـــــ ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾(١) وهكذا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾(٢).

والقول ألا ملازمة لعذاب طائفة بالعفو عن طائفة، خاوٍ دون تأمل، حيث العذاب هنا شامل قضية الحال، فمعنى الشرطية - إذاً - ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لمصلحة ملزمة أو راجحة، فلا يستلزم أن نعف عن طائفة أخرى دون أية مصلحة.

وترى إذا كان طائفة منهم يعفى عنهم فهم إذاً معذورون، فكيف يخاطبون مع غير المعفو عنهم بـ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾؟

إنهم ككل غير معذورين عن كفرهم بعد إيمانهم وكذبهم أنهم لم يقولوا كلمة الكفر، وإنما العفو لمن تاب توبة صالحة ولم يكن كفره عن ضلال وإجرام عريق.

فـ ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ كشرط في هذا الحقل ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ كجزاء لذلك الشرط، إشعاراً بأن العفو عن طائفة لا يخلِّف العفو عن أخرى لاختلافهما في المغزى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ مضلِّلين، قد تعرق الإجرام في نفوسهم، وأولئك كانوا مجرمين مضلَّلين لم يعيشوا الإجرام.

فمجال العفو واسع فاسح ما لم يتعمق الكفر في النفوس فكانت التوبة إذاً نَصوحاً دون أي غدر ونفاق مَسوح.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٧.

﴿ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

مباعضة لعينة منافقة في مباضعة الإيمان الموافقة، تشكل مناصرة في حقل النفاق، ومن قضاياها الرزايا: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ بكل طاقاتهم وإمكانياتهم ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن كل خير مادي أو معنوي لقبيل الإيمان، وذلك لأنهم ﴿نَسُوا ٱللَّهَ﴾ نسيان تجاهل وتغافل معمَّد معنَّد ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ في كل حقول الرحمة والعناية، حيث عاملهم معاملة الناسي التارك لما هو كافله، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ في كافة الرحمات الرحيمية الخاصة بالمؤمنين والمتحرين عن الإيمان، نسياناً جزاءَ نسيان، وفاقاً لذلك العصيان ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[1].

﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ حيث ﴿نَسُوا ٱللَّهَ﴾ و﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ كأن لا فاسق سواهم، حيث تعمق فيهم الفسوق وتحمّق لأسفل دركاته، فلأنهم في الدرك الأسفل من فسوق الكفر، لذلك فهم ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2].

أجل وإن الله لا يسهو ولا ينسى، وإنما ينسى ويسهو المخلوق والمحدَث، ألا تسمعه عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[3] وإنما يجازي من نسيه ونسي لقاءَ يومه بأن يُنسيهم أنفسهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[4]، وقال عزّ وجلّ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾[5]، أي: نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا»[6].

(١) سورة النساء، الآية: ٤٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٥.
(٣) سورة مريم، الآية: ٦٤.
(٤) سورة الحشر، الآية: ١٩.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥١.
(٦) نور الثقلين ٢: ٢٣٩ في عيون الأخبار والتوحيد للصدوق بإسناده إلى عبد العزيز بن مسلم قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] فقال: . .

فقد ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ إذ تركوا طاعة الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: فتركهم[1] تركاً جزاءَ ترك في الأولى والآخرة.

وهنا نتلمح أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى معاكسة الأمر بينهما، وإلى قبض اليد عن الرحمة، كل ذلك من نسيان الله وعصيانه.

وفي ضم «المنافقات» هنا إلى «المنافقين» تحليق لنفاقهم على قبيلي الذكور والإناث، فإن لهن دوراً دائراً مائراً في عمليات النفاق، إضافة إلى كيدهن العظيم في حقل النفاق، كما والمعروف المنهي عنه والمنكر المأمور به يعمان كل حقول المعروف والمنكر، عقيدياً وعلمياً وعملياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً وحربياً، دركات سبع من جحيم المباعضة المنافقة في المباضعة عن الموافقة.

إنهم ككل ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ طبيعة واحدة وطينة واحدة، سوء الطوية ولؤم السريرة، وكل همز ولمز ودس وغمز، وضعف عن صريح المواجهة وصريخ العقيدة، وكل ذلك ينعكس في كل سلوكهم ومسالكهم، معاكسين كل خير إلى شر، وكل شر إلى خير، ركسة ونكسة محلقة على كل كيانهم.

وهنا أسس البلاء، المنعكس على العقيدة والخلق والعملية أماهيه، هو ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ في ألوهيته وربوبيته وعلمه وقدرته وواجب معرفته وعبوديته وطاعته، ونشأة حسابه وجزائه ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[2] ولذلك:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾:

---

(١) المصدر في تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ [التوبة: ٦٧].

(٢) سورة هود، الآية: ٩٨.

هنا ﴿وَٱلۡكُفَّارَ﴾ تعميم بعد تخصيص، تأخيراً لهم عن المنافقين تدليلاً على أنهم ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1]، ثم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ هو الخلود ما دامت النار و﴿هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾ في قسطاس العدل، خلوداً في النار قدر خلودهم في بواعث النار، فكما كانوا مقيمين على نفاقهم وكفرهم حتى الموت، كذلك ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ في النار ما داموا هم ودامت النار، بل ليست النار إلّا حصيلة نفاقهم وكفرهم المحدود في أصله وفصله ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾[2] وما أشبه برهان قاطع لا مرد له بين سائر البراهين أن للنار والخالدين فيها نهاية بنهاية العذاب المستَحق لمن لا يستحقون ثواباً، قضية عدل الله وقسطه.

فلا يعني مقيم العذاب إقامته معهم إلى غير نهاية، فإنها ظلم إلى غير نهاية، وإنما ﴿مُّقِيمٞ﴾ كمقيم الاستحقاق وقدره، حيث الزيادة على قدر الاستحقاق ظلم مهما كانت محدودة، فضلاً عن كونها غير محدودة كما يهرفه هارفون ويخرفه خارفون أم قاصرون في إدراك الحق بحق الله العدل الرحيم.

هنا لأهل النار الخالدين ﴿عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ قضيةَ عدل الله ونقمته - ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾[3] مقيم ما قامت النار دون خروج عنها، وليس فناء من في النار مع النار خروجاً منها، والإقامة اللّانهائية لأهل النار في النار خروج عن العدل والنصفة وعوذاً بالله.

وهناك لأهل الجنة ﴿نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ قضيةَ فضل الله ورحمته، فأين مقيم من مقيم، مقيم يقيمه عدل الله فله نهاية، ومقيم يقيمه فضل الله فليست له

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٧.

نهاية، بل هو ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[(١)] [(٢)]، حيث: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[(٣)].

وترى ما هو الفارق بين ثالوث: «نار جهنم - خالدين فيها - وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ»؟

هنا قوس تصاعدي أن لهم أولاً: ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ ولكن ليس لزامه خلودهم فيها، فبعض الداخلين فيها هم غير خالدين، كبعض العصاة من الموحدين، حيث يخرجون عن النار دون خلود فيها هو البقاء مدة طويلة، فثانياً: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مدة طويلة هي منقسمة بين عذاب مؤقت وعذاب مقيم، ثم ثالثاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أبدي ما داموا هم ودامت النار، فلا يخرجون عن النار، ولا تخمد النار وهم أحياء، بل هما متقارنان، يقيمون مع مقيم العذاب، كما أن مقيم العذاب معهم ما داموا أحياء، فهم:

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٨.

(٢) في تفسير العياشي عن ثوير عن علي بن الحسين عليه السلام قال: إذا صار أهل الجنة في الجنة ودخل ولي الله إلى جنانه ومساكنه وأتكأ كلّ مؤمن على أريكته حفنة حذامه وتهدلت عليه الثمار وتفجرت حوله العيون وجرت من تحتها الأنهار وبسطت له الزرابي ووضعت له النمارق وأتته الحذام بما شاءت هواه من قبل أن يسألهم ذلك، قال: وتخرج عليه الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء الله، ثم إن الجبار يشرف عليهم فيقول لهم: أوليائي وأهل طاعتي وسكان جنتي في جواري ألا هل أنبئكم بخير ما أنتم فيه؟ فيقولون: ربنا وأي شيء خير مما نحن فيه فيما اشتهت أنفسنا ولذت أعيننا من النعم في جوار الكريم؟ - قال: فيعود عليهم القول فيقولون ربنا نعم فأتنا بخير مما نحن فيه فيقول تبارك وتعالى لهم: رضاي عنكم ومحبتي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه، قال: فيقولون نعم يا ربنا رضاك عنا ومحبتك لنا خير وأطيب لأنفسنا ثم قرأ علي بن الحسين عليه السلام هذه الآية ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [التوبة: ٧٢] وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا دخل أهل الجنة الجنة قال اللّٰه: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا وهل بقي شيء إلا وقد أنلتناه؟ فيقول: نعم رضاي فلا أسخط عليكم أبداً.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢١.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

هؤلاء الأنكاد الأبعاد هم ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ منافقين وكافرين تشابهت قلوبكم وهم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾.

وقضية هذه المشابهة اللعينة أنهم على كثرة قوتهم وأموالهم وأولادهم ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ وهو النصيب المكتسب صالحاً أو طالحاً حسب مختلف الخُلُق، وهو ما خلق للإنسان في الحياة الدنيا ذريعة للأخرى، فالخلاق الصالح هو نصيب صالح في الأخرى، وكما الخلاق الطالح هو نصيب طالح فيها، ولا يعني سلب الخلاق يوم الأخرى إلّا سلب صالحه المرتقب حيث أتلف خلاقه في الأولى ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[1] ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[2].

ذلك، والخلاق: النصيب المكتسب، هو المخلوق في أصله لكل مكلف، وهو يكلَّف بالتذرع به إلى مرضاة الله، وهو الفطرة والعقلية الصالحة وكافة الطاقات الأنفسية ظاهرية وباطنية، التي هباها الله إياناً لنكون له من الشاكرين.

ذلك الخلاق قد يستمتع بها متعة الحياة الدنيا لمن ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[1].

فقد نسوا نصيبهم من الدنيا ذريعة للآخرة، ذلك لأنهم استمتعوا ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾ متعة الحياة الدنيا، ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ﴾ استمتاعاً متشابهاً بين سَلَف وخَلَف في الخلاق، خلاق الحياة الدنيا بحذافيرها، التي خلقها الله لصالحنا، ولكنها اختلفت عن صالح مغزاها بسيّئ الخُلق إبصاراً إليها فأعمتهم، دون إبصار بها حتى تبصّرهم.

كما ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في آيات الله ناكرين مستهزئين ﴿كَٱلَّذِي خَاضُوٓا﴾:

كما خاضوا فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ سلفاً وخلفاً ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ كأن لا خاسر سواهم.

و﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ هنا هي الحسنة في نفس الذات حيث السيئات هي حابطات دون إحباط، فأعمالهم الحسنة التي قد تفلت من ذات أيديهم حابطة غير ثابتة إذ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2] فهي حابطة في الآخرة ليس لهم بها فيها من أجر، ثم أعمالهم التي يعملونها في الدنيا لإزهاق الحق وفتّ ساعده وكسر عضده، هي حابطة فيها إذ لا يقدرون أن يضروا الله بها شيئاً، فإنما النافع لهم منها في هذه الأدنى متعة الحياة الدنيا ليس إلّا.

وهنا ضمير الجمع في ﴿خَاضُوٓا﴾ غير راجع إلى «الذي» حتى يصبح مَمسكاً على أدب القرآن لهؤلاء الذين ليس لهم أدب إلّا الخوض في آيات الله البينات، بل هو راجع إلى ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ و«الذي» هو عبارة أخرى عن أصل الخوض، تعني «كما خاضوا»[3]. ولأن زيادة المباني تدل

---

(١) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٣) فضمير الصلة للموصول هو غائب مفرد «خاضوه» راجعاً إلى «الذين» وليس الراجع هو =

على زيادة المعاني، فقد تعني «الذي» هنا بديلاً عن «ما» عمق الخوض وحمقه من ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فأنتم الأوغاد الأنكاد تتابعونهم في: كم خاضوا وكيف خاضوا، المعنيين بـ ﴿كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ كماً وكيفاً.

والخوض في آيات الله يشمل كل حدث في الإسلام وكما يروى عن النبي ﷺ: أحذركم أن تحدثوا حدثاً في الإسلام وعلم أنه سيفعل ذلك أقوام من هذه الأمة فقال الله: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾[1].

فكما يحدث من أحكام وأعمال وسنن لا توافق الكتاب والسنة، إنها ككل أحداث في الإسلام بإحداث ما ليس منه فيه.

ذلك فقد ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من مضى قبلكم، ممن كان أطول منكم أعماراً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيَّدة، والنمارق الممهَّدة، الصخورَ والجبالَ المسنَّدة، والقبور اللاطئة الملحدة، التي قد بُني بالخراب فناؤها، وشُيد بالتراب بناؤها، فمحلُها مقترِب، وساكنها مغترِب، بين أهل محلة مُوحِشين، وأهل فراغ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان، ولا يتواصلون تواصل الجيران.. وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه، وارتهنكم ذلك المضجع، وضمَّكم ذلك المستودَع، فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور، وبعثرت القبور[2].

= ضمير الجمع في «خاضوا» حتى يخالف الأدب خلافاً لخلاف الأدب من هؤلاء الخائضين في القرآن، فقد حاولوا طوال القرون القرآنية أن يمسوا من كرامة وحيه فلم ينالوا ما يبغون، رغم الكثير من أتعابهم في هذه البغية الظالمة، مما يدل على صالح الوحي القرآني دون أية نقطة سوداء في أدب اللفظ وحدب المعنى.

(١) الدر المنثور ٣: ٢٥٥ - أخرج أبو الشيخ عن الربيع أن رسول الله ﷺ حذركم...

(٢) (الخطبة ٢١٧).

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)﴾:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ وقد أتاهم بألسنة الوحي منافقين وكتابيين، بل ومشركين وملحدين، حيث الأنباء متناقلة متداولة بين كل الأمم مهما قلَّت أو كثرت، ومن أهم هذه الأنباء نبأ قوم نوح غرقاً، وعاد وهم قوم هود حيث أهلكوا بريح صرصر عاتية، وثمود وهم قوم صالح حيث أخذتهم الرجفة، وقوم إبراهيم بما فعلوا به حرقاً زعمَهم فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، ثم أهلك ملكهم نمرود وسلب عنهم النعمة، وأصحاب مدين أهلكوا بعذاب يوم الظلة بكل مهانة وذِلَة، وبصورة عامة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ وهي المنقلبات بقراها حيث جعلت أعاليها أسافلها كقوم لوط، فقد عم عذاب الاستئصال بمختلف صورة أمثال هؤلاء الطغاة الغاوين البغات فأصبحوا مثلاً للآخرين[(١)].

ولأن النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، فهو هنا منقسم إلى ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وما أتاهم من عذابات تكذيباً لهذه البينات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ هنا وهناك ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تكذيباً للبينات وابتلاء بالمَثُلات والمؤتفكات.

إنهم ظلموا انتقاصاً أنفسهم النجيسة النحيسة، حيث الانتقاص بظلمهم ليس ليرد على الله وعلى الحق، ومهما ورد على أهل الحق في حيوية مادية - وليست روحية - فخلْفيتها الأصيلة هي واردة عليهم أنفسهم، إذ لا تذرهم ما هم أحياء في مثلث النشآت.

---

(١) نور الثقلين ٢: في من لا يحضره الفقيه روى جويرية بن مسهر قال أقبلنا مع أمير المؤمنين عليه السلام من قتل الخوارج حتى إذا قطعنا في أرض بابل حضرت صلاة العصر فنزل أمير المؤمنين عليه السلام ونزل الناس فقال علي عليه السلام: أيها الناس إن هذه الأرض ملعونة قد عذبت في الدهر ثلاث مرات - أو مرتين - وهي تتوقع الثالثة وهي إحدى المؤتفكات.

فمن نبأِ هؤلاء الأنكاد: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾[1] ثم أولئك الآخرون يستمتعون غير شاعرين، سائرين سبيل الهلكى متغافلين، فقوم نوح يغمرهم الطوفان ويطويهم إليهم في تيار الفناء المرهوب، وأمثالهم من هؤلاء المذكورين وسواهم.

وهكذا تكون النفس المنحرفة المنجرفة إلى هُوَّات، حيث تُبطرها النِّعمة فتحوَّل نَعمة ونِقمة، ولا تنتفع بعظات الغابرين ولا تعتبر، ولا تنفتح بصائرهم لإدراك سنة الله التي لا تتحول، فلا تُبصر مهاوي ومصارع الأقوياء الأغوياء قبلها.

هذه هي الضفَّة المنافقة والكافرة، ومن ثم الضفَّة الإيمانية:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾:

هذه الولاية هي ولاية المحبة والرقابة والنصرة التامة الطامة على بعضهم البعض، أن يلي كلٌّ أمر الآخر في خطوات الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة - دون الولاية الشرعية الخاصة بمدراءِ الشريعة - وفي نهاية المطاف وعند كمال الدعوة ومعرفة كاملة بالمعروف والمنكر - وشروط أخرى مفروضة التحصيل قدر المستطاع - ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فكل فاعلٍ منهم لمعروف وتارك لمنكر يأمر تارك هذا المعروف وينهى مقترف هذا المنكر، وكما يأتمر فيما هو تاركُه بفاعِله وينتهي فيما هو فاعله بتاركه، تآمراً بالمعروف وتناهياً عن المنكر، فيكون كلٌّ مرآةً للآخر يرى صالحه فيُريه إياه أمراً به، ويرى طالحه فيُريه إياه نهياً عنه، دون تدخل لعوامل الفرقة بين صفوفهم، فحيثما وجدت فرقة في هذه

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٦.

الجماعة المؤمنة فثمة تدخل عنصر غريب عن طبيعتها وعقيدتها، وثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى التي قررها العليم الخبير.

وهذه الصفات الخمس في المؤمنين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، هذه تُقابل صفات للمنافقين: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ونسيان الله وقبض الأيدي، وعصيان الله.

وتلك الولاية هي قمة الولايات الإيمانية المحكمة المتحكمة بين المؤمنين، كخطوة أولى في الدعوة وكما قال الله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[1] في وجه من وجوه العِدَّة، ولأن ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ هنا «كما المنافقون والمنافقات» هناك جمعان يحلِّقان على كل من يحمل إيماناً أو نفاقاً، فقد يعني الجمع فيها جمع كل خَلَف إلى سلفه، سلسلة موصولة مع بعضها البعض، يتابع كلُّ خَلَفٍ سَلَفه، كما يتابع بعضهم بعضاً في كل سلف وكل خَلَف، دون انفصام في عِدَّتهم عن عُدَّتهم إيماناً أو نفاقاً، مباعضة شاملة تخطِّياً عن فواصل الزمان والمكان والأواصر حيث يجمع كلًّا عقيدته الخاصة به في حقل الإيمان.

فالولاية الإيمانية هي امتداد بين أهليها طولَ الزمان وعرضَ المكان، وهكذا الولاية الكافرة نفاقاً وسواه، طالما الولاية الإيمانية عريقة لا تنفصم، والولاية الكافرة هي في انفصام دائم، فلذلك هم ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾[2] وأولئك الأكارم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

فالولاية الصادقة بحاجة إلى نَجدة وشجاعة جادَّة، وإلى تعاون صارم وتكاليف قائمة وليست هكذا ولاية النفاق.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

ولأن «يأمرون وينهون» هنا محذوف المتعلَّق فقد يشملان إلى التآمر والتناهي فيما بينهم التعاون الصالح في أمر الآخرين ونهيهم بعد كامل الدعوة العاذرة البينة.

ذلك ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ صلةً بالله ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صلةً بعباد الله بأمر الله ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ﴾ أصلاً في الطاعة، متمثلة في كتاب الله ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فرعاً فيها رسالة عن الله، متمثلة في سنة رسول الله ﷺ ولأن هذه الثلاثة هي من ميزات الإيمان معدودة في عديد الولاية الإيمانية فلتكن في رقابة جماهيرية أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويطيعوا الله ورسوله في حقل الولاية وبصورة جمعية متضامنة، فكما أن تطبيق المعروف وترك المنكر شخصياً ولا يكفي، بل ويليها واجب الأمر والنهي، كذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، فعند ذلك يرحمهم الله رحمة عالية تشملهم، حيث تجعلهم أقوياء أمام الأغوياء، فـ ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾[(١)] على ضوء هذه الحياة الإيمانية التضامنية، وكما هي مذكورة في آل عمران من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ...﴾[(٢)] إلى ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾[(٣)]. فـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الدنيا والآخرة فـ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[(٤)] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

إذاً فالخارجون عن هذه الخماسية المجيدة خارجون عن رحمة الله إلى عذابه.

ذلك، وهل إن من قضايا تلك الولاية الإيمانية أن يحمل مؤمن مؤمنة أو

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١١.
(٤) سورة غافر، الآية: ٥١.

تحمل مؤمنة مؤمناً بأمان إيمان وظل ظليل رباني؟ أجل «فإن المؤمن محرم المؤمنة. . .»[١]

ولكن في غير ما هو مخصوص بالمحارم الرسميين أقرباء وأنسباء، حيث إن الولاية الطليقة الصالحة تقتضي ذلك الحمل رعاية لصالح بعضهم البعض.

ذلك فـ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ لإخائهم في الله يتحابون بجلال الله والولاية لله و«رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس ولن يهلك رجل بعد مشورة وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة»[٢].

ولأن هذه الولاية الجماهيرية هي من لزامات الإيمان، فعلى كافة المؤمنين والمؤمنات أن يحصلوا على جدارة هذه الولاية، تقديماً لكل طاقاتهم وإمكانياتهم في هذه السبيل بمقدماتها، كالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فليكن كلٌّ واعظاً آمرا ناهياً غيره كما يعظ ويأمر وينهى نفسه، بادئاً بنفسه حتى يصلح واعظاً لغيره.

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٢٤٠ في تفسير العياشي عن صفوان الجمال قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام : بأبي وأمي تأتيني المرأة المسلمة قد عرفتني بعملي وعرفتها بإسلامها وحبها إياكم وولايتها لكم وليس لها محرم؟ قال: فإذا جاءتك المرأة المسلمة فاحملها فإن المؤمن محرم المؤمنة وتلا هذه الآية ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٥٦ - أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن سعيد بن المسيب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : . . أقول وذيل الحديث مروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم بطريق كثيرة وألفاظ عدة ومنها ما عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن أحب عباد الله إلى الله عز وجل من حبب إليه المعروف وحبب إليه فعاله، وفيه عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله جعل للمعروف وجوهاً من خلقه وحبب إليهم فعاله ووجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطاءه كما يسر الغيث إلى الأرض الجدبة ليحييها ويحيي به أهلها وإن الله جعل للمعروف أعداءً من خلقه بغض إليهم المعروف وبغض إليهم فعاله وحظر عليهم إعطاءه كما يحظر الغيث عن الأرض الجدبة ليهلكها ويهلك بها أهلها وما يعفو الله أكثر.

وحين يصبح الجو في المجتمع الإيماني جو الدعوة والعظة والأمر والنهي بشروطها، فقد يسلم ذلك الجو الطاهر، القاهر على التخلفات عن كافة النكبات، ولكي يربي العائشين فيه من غير المؤمنين فضلاً عن المؤمنين أنفسهم.

ذلك، فكل فاعل لمنكر أو تارك لمعروف عليه مسؤولية مضاعفة ما دام في ذلك الجو معروف متروك أو منكر مفعول، أولاهما هي التخلف الشخصي عن شرعة الله، وثانيتها التخلف عن جدارة الولاية بالنسبة لأمثاله من المتخلفين.

ذلك وهنا ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ حيث اقتسموا إلى بعضين اثنين، قد يُعنى من البعض الأول الجامعون لشروط الولاية ككل، كالعدول في كل شيء، ومعهم الجامعون لشروط الولاية في بعض الأمور، ثم المولى عليهم هم المقصرون، فهناك ولاية من طرف واحد، ثم موالاة بين بعض وبعض حسب مختلف التخلفات فيهما.

إذاً فهم بين آمرين وناهين من جانب ومأمورين ومنتهين من جانب آخر، وآخر متآمرين ومتناهين فيما إذا اشتركوا في ترك واجب واقتراف محرم.

وقد تعني الأمة الآمرة الناهية وهم خير أمة أخرجت للناس الأوّلين، ثم يليهم الآخرون المتآمرون المتناهون، فولاية الأولين في حقل الأمر والنهي طليقة، وهي للآخرين محدودة بما هم فيه غير مقصرين.

ثم لا ولاية لتاركي المعروف ومقتر في المنكر إلا - علّها - فيما هم فاعلوه من معروف أو تاركوه من منكر.

فالمقصر المطلق لا ولاية له على أحد في هذا الحقل، والعادل المطلق له الولاية المطلقة فيه، والعوان بينهما له ولاية نسبية فيما لا يقصر فيه.

ذلك، ولأن العدالة المطلقة قلما توجد بين المسلمين، ولا كفاية في

هذه القلة القليلة قياماً لواجب الأمر والنهي، ونصوص آيات وعلى ضوئها روايات لا تمنع إلّا عن الأمر بمعروف آمره تاركه، وعن النهي عن منكر ناهيه فاعله، ثم وآيات واجب الأمر والنهي بوجه الكفاية طليقة أو عامة يكتفى بتخصيصها أو تقييدها بالآمر التارك لما يأمر، والناهي الفاعل لما ينهى، إذاً فواجب الأمر والنهي غير ساقط عن الباقين مهما كانوا باغين في غير ما يأمرون به وينهون عنه.

وترى المجاهر بالفسق له أو عليه أن ينهى عن فسق آخر؟ وفي أمره ونهيه مزرءة بشرعة الله، ومنقصة أو معاكسة في التأثير!.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾(١) قد تمنع عن الآمر بالبر الناسي نفسه فيه، ولكنها محددة بنفس البر الذي به يأمرون، وإلا رجعت مشكلة عدم كفاءة العدول في كل شيء، ثم ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾(٢) تحدد المحرم الماقت في القول أمراً وسواه بما لا يفعله نفسه.

صحيح أن في الأمر والنهي من غير العادل منقصة في التأثير ولكنه ليس - مع الوصف - عدم التأثير، إذ لا حجة للمأمور والمنهي في عدم ائتماره وانتهائه بأن الآمر تارك لما يأمر، أو الناهي فاعل لما ينهى.

ثم آية التناهي نص في واجب النهي والانتهاء، ولو كانت العدالة الطليقة شرطاً لوجوب - فضلاً عن جواز - الأمر والنهي فلا دور إذاً للتناهي، كما وأن التناهي تعاون على البر والتقوى وهو فرض جماعي بين الجماعة المؤمنة.

فكما يجب على المكلفين فعل الواجبات وترك المحرمات فرضاً

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

شخصياً على أشخاصهم كذلك يجب التآمر والتناهي وليس إلّا في غير العدل المطلق.

إذاً فالواجب الأول على كل المكلفين وقاية أنفسهم بصورة عادلة طليقة، ثم وقاية الآخرين، وحين يفسق المكلف أحياناً ويعدل أخرى، فهو حالةَ عدله مفروض عليه أن يكلف التاركين له أن يحققوه، أمراً بمعروف هو فاعله، ونهياً عن منكر هو تاركه، دونما تعدِ طوره أن يأمر بمتروكه وينهى عن مفعوله، مهما كان خفية فضلاً عن كونه جهراً.

فالمصلي التارك للصوم والصائم التارك للصلاة، يجب عليهما التآمر بأن يأمر الأول الثاني بالصلاة، ويأمر الثاني الأول بالصوم، وهكذا التناهي.

ولولا خلق جو التآمر والتناهي لأظلم الجوّ بصورة واسعة شاسعة إذ لا كفاءة في العدول الطليقين في شيءٍ.

فهنا - في حقل واجب الأمر والنهي - هذه الآية هي أعم الآيات فيهما، ثم تخصص ب ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾[1] ثم تخصص آية الأمة هذه بـ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ. . .﴾[2] و﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[3] و﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[4] وهذه الثلاث تنضبط دلالياً بـ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[5].

والمهم في هذا البين ضرورة استمرارية لسان الأمر والنهي بين المؤمنين، متجنبين عن سوء التأثير إن لم يكن لهما حسن التأثير.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤.
(٣) سورة الصف، الآية: ٢.
(٤) سورة هود، الآية: ٨٨.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٧٩.

ففاعل المنكر وتارك المعروف جهاراً، محرم عليه الأمر والنهي فيما لا يفعله من معروف أو لا يتركه من منكر، قطعاً، ثم يتلوه غير الجاهر فيما يأمر وينهى، لمكان الإطلاق في هذه الآيات الثلاث.

ومن ثم الجاهر بغير ما يأمر أو ينهى، فالأشبه وجوبهما عليه إلا إذا أثر سوءاً في المأمور والمنهي.

ثم غير الجاهر بغير ما يأمر وينهى، فإنه مع العدل المطلق من القدر المتيقن للوجوب.

ذلك، ولا يعني جواز التأثير في حقل الأمر والنهي أن يؤثرا بالفعل، بل وإن أثرا في المستقبل أم بتكرار الأمر والنهي، أم ولأقل تقدير كانا حجة على المتخلفين أم مزيد حجة عليهم، حيث الدعوة الربانية تمحور ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾[1] كيف لا؟ وقد عذب الذين تركوا النهي عن السوء - فيما لم يؤثر - إلى جانب فاعلي السوء في مزرعة السبت: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾[2].

فقد دخل التاركون النهي عن المنكر هنا في الظالمين ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[3] ولم يكن ليؤثر النهي كما لم يؤثر!.

فلا يشترط في وجوب الأمر والنهي التأثير ولا جوازه بالفعل ولا مستقبلاً، بل يكفي كونها حجة على المتخلفين.

وهكذا شرط الأمن من الضرر إلا إذا فاق ضرر ترك المعروف وفعل

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٦.

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ١٦٤-١٦٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦٥.

المنكر، فـ ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[١] وليست الإصابة هنا إلا من مخلفات الأمر والنهي.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾:

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ فـ «لنعيم أهل الجنة برضوان الله عنهم أفضل من نعيمهم بما في الجنان»[٢].

فأين حَظوة روحية بـ ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ معرفيةً وعبوديةً وزلفىً، من حظوة جسدية في جناتها؟ مع كل مواصفاتها على لسان الرسول ﷺ[٣].

وهنا ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ تنكير قاصد لأقل رضوان إلى كثيره وأكثره، فقليل الرضوان أكبر من كثير الجنان و﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ جمعاً بين رضوان وهذه الجنان ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٤].

وكما أن السالكين إلى الله يوم الدنيا يفضِّلون مرضاة الله على مرضاة

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٧.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٥٧ - أخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبد الملك الجهني قال قال رسول الله ﷺ: . . وفيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون لبيك يا ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك فيقول: الا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضوان فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

(٣) تفسير الفخر الرازي ١٦: ١٣٢ عن أبي هريرة قلت يا رسول الله ﷺ حدثني عن الجنة ما بناؤها؟ فقال: لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك الأذفر وترابها الزعفران وخصاؤها الدر والياقوت فيها النعيم بلا بؤس والخلود بلا موت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

أنفسهم، كذلك يوم الأخرى، ففي هذه الجنات رضوانٌ لأنفسهم، وأين هي من ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟ وقد ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١) ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾(٢) ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾(٣).

فحزب الله الذين يخشون ربهم هم المرضيون عند الله في الدنيا والآخرة و﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أجل ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو أقصى الغايات وأنهى النهايات للسالكين إلى الله، الهائمين إياه، ولو أن أهل الله خُيِّروا بين رضوان من الله في عذاب أليم جسيم، وبين غير رضوان ونعيم مقيم، لكانوا يقدمون رضوانه على سائر نعيمه، وإنما يفضلون الجنات لأنها محالُّ أهل كرامة الله والزلفى من الله.

ثم ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هنا هم الموصوفون بمخمس صفات الإيمان في الآية السالفة، دون من يحمل مجرد الإيمان عقيدياً وإن لأدناها.

إذاً فـ ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ دون حساب، هي من مواعيدهم عند الله، ثم سائر المؤمنين والمؤمنات هم محاسَبون بتركهم صفات الإيمان الخمس، وقد يدخلون النار دون قرار ثم يخرجون إلى ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أم ترى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ إضافة إلى ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ذلك لمن لا يرحمهم الله من التاركين لشروط الإيمان الأصلية؟!.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٩.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٣) سورة البينة، الآية: ٨.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ
وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ
وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ
عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ
٧٤ ۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ
مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم
مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ
مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ
سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ
ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ
أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠
فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ
كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ
٨٢ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن

تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾:

أتراها نزلت «جاهد الكفار بالمنافقين» إذ «إن رسول الله ﷺ لم يقابل منافقاً قطُّ، إنما كان يتألَّفهم»[1] والمنافق إن لم يقاتل لا يقاتل به إذ ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]! فإنما يقاتل بالمؤمنين الموثوقين، فهذا هو نفسه خبال وإيضاع وتضييع أن يخيّل بالآية أنها هكذا أنزلت!.

أم هي كماهيه ولكن الجهاد لا يختص بالقتال فمن جهاد المنافقين إلزامهم على الفرائض[3] كما التزموا بها بإقرارهم أنفسهم لما أسلموا، كما منه التلطُّف معهم على حائطة، وتأليف قلوبهم لكي يتحوَّلوا عن إقرارهم باللسان إلى إقرارهم بالجنان إيماناً يُدخلهم في حقل المؤمنين.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢٤١ مجمع البيان روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قرأ «جاهد الكفار بالمنافقين» قال: إن... وفيه روي في قراءة أهل البيت عليهم السلام «جاهد الكفار بالمنافقين» قالوا: لأن النبي ﷺ لم يكن يقاتل المنافقين ولكن كان يتألفهم ولأن المنافقين لا يظهرون الكفر وعلم الله بكفرهم لا يبيح قتلهم إذا كانوا يظهرون الإيمان.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

(٣) المصدر في تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام قال:...

كما ومنه - إذا لزم الأمر - قتالهم وكما قاتلهم علي عليه السلام فجهاد علي عليه السلام جهاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [(١)].

إذاً فجهاد الكفار هو حملهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى إقرار الإيمان ثم إلى قراره، وإلَّا فالقتال، ثم جهاد المنافقين هو إلزامهم على ما أقروا به، ثم التزامهم بواقع الإيمان وإلَّا فالقتال.

فلا يعني «جاهد» إلَّا المجاهدة بمختلف درجاتها، مهما لا يصل في المنافقين إلى قتال إلّا في حالات قلال، فـ «لما نزلت ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾» أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجاهد بيده، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فليلقه بوجه مُكْفَهِرّ[(٢)].

فهنا ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ مرحلة أخيرة حاسمة بين مرحليات الدعوة في خطوات المجاهدة، وقتالهم إن لزم الأمر مطوي في ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

ذلك، فـ ﴿جَٰهِدِ﴾ الشامل للقتال في آخر المجال، ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ الدال على غلظهم في الجهاد، هما دليلان اثنان على أن ﴿جَٰهِدِ﴾ لا يختص بالقتال، إذ لا دور لـ «أغلظ» بعد ﴿جَٰهِدِ﴾ إن عنى به القتال، ولا غلظ أغلظ من القتال.

ذلك، فالمجاهدة في سبيل الله هي الصراع الدائم للسالكين إلى الله، سلباً لما سوى الله وشِرعته، وإيجاباً لله بشرعته، فقد يدخل في نطاقها كافة

---

(١) المصدر عن تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] قال: هكذا نزلت فجاهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكفار وجاهد علي عليه السلام المنافقين فجهاد علي..

وفيه عن أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لأجاهدن العمالقة يعني الكفار وأتاه جبرئيل عليه السلام قال: أنت أو علي.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٥٨ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال لما نزلت..

المحاولات في هذه السبيل لتكون كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا.

إذاً فكافة الإجراءات الإيمانية لتحقيق كلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هي مجاهدات في سبيل الله، سلباً للكفر وجلباً إلى الإيمان.

وكما ليست هذه المجاهدات لوناً واحداً وشكلاً فارداً، كذلك مجاهدة الكفار والمنافقين، كلٌّ كما تقتضيه حاله ومجاله، وليس ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ إلّا مرحلة أخيرة حاسمة بعد مرحليات المجاهدات اللطيفة العطيفة، ومنها - مع الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة - تأليف قلوب نافرة بمال ف ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] وهي بصورة طليقة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

فهكذا ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ هنا وفي التحريم (٩) ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ولأن المنافقين هم أخطر من الكفار واقعياً مهما كانوا أقرب إلى المسلمين ظاهرياً فجهادهم - إذاً - أكثر منهم وأوعر، فالمنافق - كما الكافر - نار حيثما دار، وإخماد النار واجب المؤمنين الأحرار، ولكي تبقى الحياة المسلمة سليمة أمينة عن الأشرار، بذلاً لكل جهد في إصلاح الأمر مهما بلغ به الأمر في ذلك الأمر، حفاظاً على الإمرة الإسلامية والكتلة المسلمة عن همجات وهجمات أنفسية أو دعائية أماهيه؟. وإلى ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فإنه أغلظ المجاهدة وآخر المطاف فيها بما في الغَلظ من قتالهم إذا لزم الأمر، فآخر الدواء الكي.

ذلك ولقد كان الرسول ﷺ يلاين المنافقين كثيراً علَّهم يلينون عن شدتهم، ويفيقون عن غفوتهم، ويغضي عنهم كثيراً علَّهم يُغضون، بالغاً

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٠.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

معهم في الصفح والحلم والساحة غايتها، فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة بمراحلها، فإن لم تنفع فالحسم القاطع، وذلك عندما يتظاهرون بمظاهر الكفر، وكما في النص التالي:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ ما قالوه وغالوا فيه مثل «لا تفتني - ﴿يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ - هو أذن - إنما كنا نخوض ونلعب «في استهزائهم» خضتم كالذي خاضوا - كما مضت».

أم وما يروى عن قالاتهم القالة الغائلة كـ «والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمير»[١] وما شتموه[٢] كـ «سمِّن كلبك يأكلك»[٣] دركات سبع جهنمية من قالاتهم الكافرة ومحاولاتهم الماكرة في مختلف المجالات ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ بألسنتهم فإن كلمة الكفر تنقض كلمة الإسلام، و﴿إِسْلَامِهِمْ﴾ هنا تعم من آمن منهم بلسانه وقلبهُ كافر، أم لمّا

---

(١) قد مضت روايات عن الدر المنثور بهذا المعنى.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٥٨ عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال على م تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء أصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم وأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا...﴾ [التوبة: ٧٤].

(٣) المصدر عن قتادة قال ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار فظهر الغفاري على الجهني فقال عبد الله بن أبي للأوس: انصروا أخاكم والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر.

يدخل الإيمان في قلبه، أم دخل دخيلاً قليلاً ضئيلاً، فكفروا بقالاتهم الكافرة بعد إسلامهم بأيٍّ من زواياه الثلاث، حيث إن قالة الكفر تنقض قالة الإسلام على أية حال.

ثم ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ من اغتيال النبي الأقدس ﷺ وقد سماهم الله تعالى لنبيه ﷺ (١).

---

(١) المصدر أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في الآية هم الذين أرادوا أن يدفعوا النبي ﷺ ليلة العقبة وكانوا قد أجمعوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ وهم معه في بعض أسفاره فجعلوا يلتمسون غرته حتى أخذ في عقبة فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم وذلك ليلاً قالوا إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي فسمع حذيفة وهو يسوق النبي ﷺ وكان قائده تلك الليلة عمار وسائقه حذيفة بن اليمان فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل فالتفت فإذا هو بقوم متلثمين فقال: إليكم يا أعداء الله فأمسكوا ومضى النبي ﷺ حتى نزل منزله الذي أراد فلما أصبح أرسل إليهم كلهم فقال: أردتم كذا وكذا فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذي سألهم عنه فذلك قوله: يحلفون... وفيه عن ابن عباس في الآية قال: همَّ رجل يقال له الأسود بقتل رسول الله ﷺ وفيه عن عروة في قصة تبوك المفصلة فقال النبي ﷺ: هل علمتم ما كان شأنهم وما أرادوه؟ قالوا: لا والله يا رسول الله قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت الشمس طرحوني منها، قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله فتضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمداً وضع يده في أصحابه، فسماهم لهما وقال اكتماهم، وفيه أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق نحوه وزاد بعد قوله الحذيفة هل عرفت من القوم أحداً؟ فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: إن الله أخبرني بأسمائِهم وأسماء آبائِهم وسأخبرك بهم إن شاء الله عند وجه الصبح فلما أصبح سماهم له: عبد الله بن أبي سعد وسعد بن أبي سرح وأبا حاصر الأعرابي وعامر أو أبا عامر والجلاس بن سويد بن الصامت ومجمع بن حارثة ومليحا التيمي وحصين بن غير وطعمة بن أبيرق وعبد الله بن عيينة ومرة بن ربيع فهم اثنا عشر رجلاً حاربوا الله ورسوله وأرادوه فأطلع الله نبيه ﷺ ذلك وذلك قوله عز وجل: وهموا بما لم ينالوا وكان أبو عامر رأسهم وله بنوا مسجد الضرار وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة.

وفيه من حديث حذيفة بن اليمان قلنا يا رسول الله ﷺ ألا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كلّ قوم برأس صاحبهم؟ قال: لا، إني أكره أن تحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم ثم قال: اللّهم ارمهم بالدبيلة قلنا يا رسول الله ﷺ وما الدبيلة؟ قال: شهاب من نار يوضع على نياط قلب أحدهم فيهلك.

وفي نور الثقلين ٢: ٢٤٣ في تفسير العياشي عن جابر بن أرقم عن أخيه زيد بن أرقم قال: =

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾ من رسول الله ﷺ والذين معه ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بما حصلوا عليه من غنائم الغزوات وبسط الأمن والرياحة المعيشية في ظل الإسلام، أفهذه هي السيئة التي قدمها لهم الإسلام حتى ينقمون منه هكذا؟.

وهنا ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ كما مضى ليس يعني إلا رسالة البلاغ، فلذلك أفرد الضمير لله بعد ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ في ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، ولأن الله لا يدخل في حساب العدد حتى يُردف بغيره في عدٍّ، كما أن ﴿وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فقد تعني ﴿أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾: الله، وهذا من مقابلة النعمة بالنقمة وما أنحسها وأشرسها من هؤلاء الأغباش الأنكاد!.

ذلك، ثم انظر إلى بالغة الرحمة وسابغتها الموعودة لهؤلاء الخَوَنة إن

= لما أقام النبي ﷺ علياً ﵇ بغدير خم وبلغ فيه عن الله ما بلغ ثم نزل انصرفنا إلى رحالنا وكان إلى جانب خبائي خباء نفر من قريش وهم ثلاثة ومعي حذيفة بن اليمان فسمعنا أحد الثلاثة وهو يقول: والله إن محمداً الأحمق إن يرى أن الأمر يستقيم لعلي من بعده، وقال الآخرون أتجعله الأحمق ألم تعلم أنه مجنون قد كاد أنه يصرع عند امرأة ابن أبي كبشة، وقال الثالث: دعوه إن شاء أن يكون أحمق وإن شاء أن يكون مجنوناً والله ما يكون ما يقول أبداً فغضب حذيفة من مقالتهم فرفع جانب الخباء فأدخل رأسه إليهم وقال: فعلتموها ورسول الله بين أظهركم، ووحي الله ينزل إليكم؟
والله لأخبرنه بكرة مقالتكم، فقالوا له: يا عبد الله وإنك لههنا وقد سمعت ما قلنا؟ اكتم علينا فإن لكل جوار أمانة، فقال لهم: ما هذا من جوار الأمانة ولا مجالسها، ما نصحت الله ورسوله إن أنا طويت عنه هذا الحديث، فقالوا له: يا عبد الله فاصنع ما شئت لنحلفن أنا لم نقل وأنك قد كذبت علينا افتراه يصدقك ويكذبنا ونحن ثلاثة؟ فقال لهم: أما أنا فلا أبالي إذا أديت النصيحة إلى الله وإلى رسوله فقولوا ما شئتم أن تقولوا، ثم مضى حتى أتى رسول الله ﷺ وعلي إلى جانب محتب بحمايل سيفه فأخبره بمقالة القوم فبعث إليهم رسول الله ﷺ فأتوه فقال لهم: ما ذا قلتم؟ فقالوا: والله ما قلنا شيئاً فإن كنت أبلغت عنا شيئاً فمكذوب علينا فهبط جبرئيل بهذه الآية: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ [النّساء: ٦٢] وقال علي عند ذلك ليقولوا ما شاؤوا والله إن قلبي بين أضلاعي وإن سيفي لفي عنقي ولئن هموا لأهمن فقال جبرئيل ﵇ للنبي ﷺ: أخبر الأمر الذي هو كائن فأخبر النبي ﷺ علياً بما أخبر به جبرئيل فقال: إذاً اصبر للمقادير.

تابوا عن ارتدادهم: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وهذا نص في قبول توبتهم لصريح وعد الخير ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا﴾ معرضين على ما هم عليه من الكفر والنكران ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ومن عذاب الدنيا خروجهم عن قوة الإسلام وأمنه، وقتلهم قضيةَ حكم الارتداد المعمَّد دون توبة، إذاً فتوبة المرتد مقبولة بذلك النص، ولكن المنافق المتعمق المُتحقق في نفاقه، المتعرق في كفره، ليس ليتوب وكما توعده الله بالعذاب من ذي قبل ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[1]، ثم ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

ذلك، فكلمة الكفر إضافة إلى باطنه، تقلب الإنسان ظهر بطن، فالحذر الحذر من حصائد الألسنة وكما عن النبي ﷺ: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلّا حصائد ألسنتهم»[2] فإن أكثر معاثر الأقدام، ومصارع الأنام هي من جرائر ألسنتهم عليهم، وعواقب الأقوال السيئة التي تؤثر عنهم، فالألسنة هي الزارعة وهي الحاصدة ما تزرعها.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

معاهدة على شرط ﴿لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ فهم أنحس ممن ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾[3] ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ وأخذوا يعيشون على رَغَد عيش وطمأنينة جأش ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾ نقضاً لـ ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ثم ﴿وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ نقضاً لـ ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وذلك من أنحس الخيانة الكافرة، فهل هم بعد يوفَّقون لتوبة حتى يتوب الله عليهم كما وعد ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾!.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٦.

(٢) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (٩٨).

(٣) سورة الحج، الآية: ١١.

ذلك، وقد يجري بصورة خفيفة في غير المنافق من ضعيف في إيمانه كثعلبة بن حاطب ومن أشبه[١] ولكن النص يحمل صورة ثقيلة لا تحمل مثل ثعلبة إلّا جرياً في خفيفها.

ولأن تخلف العهد نفاق فيه، ولا سيما إذا أضيف إليه الإعراض، فقد يدوم ذلك النفاق عقاباً مُعقَباً:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)﴾:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ ذلك النفاق الكافر، فـ «أعقبهم» الله، بذلك ﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ عريقاً يبقى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أعقبهم ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: إعقاباً بإعقابهم عقاباً هنا، جزاءً وفاقاً، ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢].

فكما الإيمان يُعقب إيماناً على إيمان وهدى على هدى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[٣] كذلك الكفر والنفاق يُعقبان كفراً ونفاقاً على

---

(١) مجمع البيان قيل نزلت في ثعلبة بن خاطب وكان من الأنصار قال للنبي ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه أما لك في رسول الله أسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضةً لسارت، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ﷺ ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق لئن رزقني مالاً لأعطين كلّ ذي حقه حقه، فقال: اللّهم ارزق ثعلبة، قال: فاتخذ غنماً فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى منها فنزل وادياً من أوديتها ثم كثرت حتى تباعد عن المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة فبعث رسول الله ﷺ المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل وقال: ما هذه إلا أخت الجزية، فقال رسول الله ﷺ: يا ويل ثعلبة فأنزل الله عزّ وجلّ الآيات.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨١.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٧.

القلوب ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ فلا يوفقون لتوبة إذ صدت على قلوبهم منافذ النور إلى مهاوي النار: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[١].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ وهم يسيرون بالكفر ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ سراً ونجوى وأخفى منهما غيباً، كالنيات المستقبلة والأفعال الآتية، فالسر قبال النجوى، و«أخفى» هو الأخفى منهما.

فما دام النفاق غير مرتكن في القلب أمكن إزالته، فإذا ارتكن معمَّداً متواتراً فأصبح القلب ركاماً من النفاق لم تمكن إزالته، وحتى إذا أرادها حيث ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[٢] بما كانوا يفعلون.

وهنا ﴿يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ هو لقاء العلم حيث يُكشف الغطاء، وهو لقاء عالَم الله حيث لا خيرة للعبد، ويوم لقاء الحساب والجزاء بلقاء وعد الله، فهو يوم الموت، ثم لا دور للنفاق إلا الجزاء الوفاق.

وهنا ﴿مَا وَعَدُوهُ﴾ تحلِّق على كافة المواعيد الربانية فطرية وعقلية، ثم قالية وحالية إخلافاً حليقاً، طليقاً عن ﴿مَا وَعَدُوهُ﴾ ثم هم ﴿يَكْذِبُونَ﴾.

فمن بذور النفاق الكافر إخلاف وعد الله وتكذيبه، وقد يروى عن النبي ﷺ «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان»[٣] وهؤلاء هم:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)﴾:

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧.

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٦١ - أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: ...

﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هم المتطوعون في كل شيء لله، متطوعين ﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ تطوعاً لواجب الصدقة وراجحها، حيث يصدِّقون بالزائد عن حاجاتهم المتعوَّدة، فهم أولاء الأنكاد «يلمزونهم» تعييباً وتأنيباً في كل تطوعاتهم و﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ و«يلمزون - الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ» وهم يصَّدَّقون مجهودهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فهؤلاء ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة بما يُعقبهم من العذاب والتباب، سخرية بسخرية وأين هي من هيه؟، حيث ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ و«إن الله تعالى لا يسخر ولا يستهزئ ولا يمكر ولا يخادع ولكنه تعالى يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً»[١].

وهنا التطوع الإيماني في الله له بعدان اثنان: تكلف في الطوع في واجب أو راجح في واسع من الجهد، ثم تكلف فيه في أصل الجهد وهو ضيقه وجهد المقل[٢] وهما من سماحة الإيمان فليس هنا واقع التكلف، إنما

(١) نور الثقلين ٢: ٢٤٧ في عيون الأخبار بإسناده إلى الحسن بن علي بن فضال عن الرضا عليه السلام: . . .

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٤٦ في تفسير القمي في الآية جاء سالم بن عمير الأنصاري بصاع من تمر فقال: يا رسول الله ﷺ كنت ليلتي أجر الجرير حتى عملت بصاعين من تمر فأقرضته أحدهما فأمسكته وأما الآخر فأقرضته ربي فأمر رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات فسخر منه المنافقون وقالوا: والله إن الله لغني عن هذا الصاع ما يصنع الله بصاعه شيئاً ولكن أبا عقيل أراد أن يذكر نفسه ليعطي من الصدقات فقال الله: سخر الله منهم ولهم عذاب أليم.

وفيه عن المجمع روي عن النبي ﷺ أنه سئل فقيل: يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل.

وفي الدر المنثور ٣: ٢٦٢ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً فجاء عبد الرحمن فقال يا رسول الله ﷺ عندي أربعة آلاف ألفين أقرضهما ربي وألفين لعيالي فقال: بارك الله لك فيما أعطيت وبارك الله لك فيما أمسكت وجاء رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله ﷺ إني بت أجر الجرير فأصبت صاعين من تمر فصاعاً أقرضته ربي وصاعاً لعيالي فلمزه المنافقون قالوا: والله ما أعطى ابن عوف الذي أعطى إلا رياء وقالوا: أو لم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ . . .﴾ [التوبة: ٧٩].

هو ظرفه لمن لا ينفق، فاللّامزون الساخرون من هؤلاء هم الساخرون من شرعة الله وسماحته في أمره بالإنفاق والتصدق ولا سيما جهد المقل، و«قد أفلح المزهد المُجهِد قد أفلح المزهد المُجهِد»(١).

أجل، جهد المقل المزهد هو أفضل الصدقة ولكن «أبداً بمن تعول»(٢) وأما ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٣) فلا تعني حرمان من تعول، إنما هو إيثار بعد واجب النفقة، وإلا فهو إيثار الإعسار المحظور في شرعة الله لمكان النهي: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾(٤) و﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾(٥): الزائد عن الحاجة الطبيعية، وبغير إسراف أو تبذير ولا إقتار.

أجل وإن هؤلاء المنافقين البخلاء عما يتوجب عليهم قد يتعدى بخلهم إلى منفقين غيرهم ساخرين منهم ومستهزئين بهم، تقولاً وتغولاً على هؤلاء المؤمنين السمحين المنبعثين إلى الصدقات بكل طواعية نفس ورضا قلب،

---

(١) المصدر أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي السليل قال: وقف علينا شيخ في مجلسنا فقال: حدثني أبي أو عمي أنه شهد رسول الله ﷺ بالبقيع قال: من يتصدق اليوم بصدقة أشهد له بها عند الله يوم القيامة فجاء رجل لا والله ما بالبقيع رجل أشد سواد وجه منه ولا أقصر قامة ولا أذم في عين منه بناقة، لا والله ما بالبقيع شيء أحسن منها فقال رسول الله ﷺ: هذه صدقة؟
قال: نعم يا رسول الله ﷺ فلمزه رجل فقال: يتصدق بها والله لهي خير منه فسمع رسول الله ﷺ كلمته فقال: كذبت بل هو خير منك ومنها ثلاثة مراراً ثم قال رسول الله ﷺ: إلا من قال بيده هكذا أو هكذا وقليل ما هم ثم قال: قد أفلح المزهد المجهد مرتين.

(٢) المصدر عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله ﷺ أي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل وابدأ بمن تعول.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

حيث يتطوعون تكلفاً متعوداً في غير ما تكلف أو تخلُّف، حيث طوعوا أنفسهم لكل المشاق في سبيل الله لحد أصبحت المشقة لهم راحة، والصعوبة لهم رياحة دون أية عاهة.

ذلك لأن هؤلاء الأنكاد الساخرين لا يدركون المشاعر الرفرافة المنبعثة من هذه الذوات الطاهرة الغامرة من حب الله وحب أهل الله.

فهؤلاء الأغباش العباد لا توبة لهم ولا غفران حيث ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ فـ:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

هنا ﴿سَبْعِينَ﴾ عدد غير محدَّد، حيث أتي به هنا للتكثير، بقرينة «لن» حيث تُحيل الغفْر عن بكرته على أية حال وقبلها مساواة الاستغفار وتركه أياً كان، ومن بعد ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ فهذه الثلاثة آيات بينات لكون ﴿سَبْعِينَ﴾ واردة مورد التكثير دون حدٍّ لعدِّه، ومن ثم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[1] تحيل غفرهم على أية حال، فلا يصدق المفترى على الرسول ﷺ أن يقول: «لأزيدن على السبعين»[2] فيبدو هنا أنه

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٦.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٦٤ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة أن عبد الله بن أبي قال لأصحابه: لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله وهو القائل: ليخرجن الأعز منها الأذل فأنزل الله الآية قال النبي ﷺ: لأزيدن على السبعين فأنزل الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦].

وفي نور الثقلين: ٢: ٢٤٧ عن تفسير العياشي عن العباس بن هلال عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: إن الله تعالى قال لمحمد ﷺ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] فاستغفر لهم مائة مرة ليغفر لهم فأنزل الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] وقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]، فلم يستغفر لهم بعد ذلك ولم يقم على قبر واحد منهم».

بدا له أن يستغفر لهم أم بدأ يستغفر لمكان ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فهنا الله يخبره أن مصير هؤلاء مقرر، وحسابهم مختوم محتوم، فلا مجال لتوبتهم أو الاستغفار لهم، فالقلب حين يختم عليه ويسد عنه كل منافذ النور فلا مجال بعده إليه من نور: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾(١).

وهنا ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أمراً ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ نهياً هما سيان في واقع الاستغفار ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وليس الاستغفار إلّا لغفر برجائه، وحين لا رجاء فالاستغفار لغو ينزَّه عنه ساحة الرسول ﷺ.

ذلك ومثَلَه كثير مثل ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾(٢) ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٣).

والمستفاد من «لن يغفر» بعد ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ﴾ ومن بعد ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ...﴾ أنه يحرم الاستغفار لمن تبين أنه من أصحاب الجحيم، وقد تبين الرسول ﷺ ببيان الله تعالى ذلك فلم يستغفر لهم ولن، إذ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾(٤).

أفبعد ما تبين للنبي ﷺ بعد بيان الله أن هؤلاء المنافقين لا يُستغفر لهم، يخلد بخلده أن يستغفر لهم مائة مرة تأويلاً لـ ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ المحظورة بنفس العدد، وهذه القرائن القاطعة تؤكد أنه فقط للتكثير، فلو استغفر لهم مليارات المرات إلى يوم القيامة فلن يغفر الله لهم.

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٣.
(٣) سورة المنافقون، الآية: ٦.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

أفهكذا تهتك ساحة الرسول ﷺ القدسية أنه لم يتبين ببيان الله حرمة الاستغفار لهم فاستغفر مائة أو حاول؟!.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾:

﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ هم الذين خُلِّفوا عن الجهاد بما تخلَّفوا استئذاناً لقعودهم وهم فرحون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ حيث خالفوا أمر قائد القوات الرسولي نفاقاً عارماً ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كراهية هي طبيعتهم المنافقة الكافرة، ومن قالهم في قعودهم خلاف رسول الله: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾[1] تظاهراً بمصلحية الحفاظ على نفوسهم، رغم أن واجب الجهاد - ولا سيما في استنفاره العام - لا يعرف حراً ولا برداً وما أشبه ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ المؤججة على المخلَّفين المخالفين ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما تزعمون ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ الحق المُرام، بتفقه صالح ينتج لهم علماً غائباً بعلم حاضر، ولكنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[2] - وهنا «لو» تحيل فقههم عن تقصير تحول إلى قصور، كما أن «لن يغفر» إحالة بما اختاروا ذلك النفاق وثبتوا عليه قصوراً عن تقصير.

وهنا ﴿خِلَٰفَ﴾ دون «خَلف» تعني معنى زائداً عن الخَلْف وهو أنه خَلف الخُلف، حيث تخلفوا أم خُلِّفوا، فإنهم بين من استاذن متخلفاً ومن نُهي عن

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٦٥ عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال رجال: يا رسول الله الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفروا في الحر فقال الله: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١] فأمره بالخروج.
وفيه أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: استدار برسول الله ﷺ رجال من المنافقين حين أذن للجد بن قيس ليستأذنوه ويقولون: يا رسول الله ائذن لنا فإنا لا نستطيع أن ننفر في الحر فأذن لهم وأعرض عنهم فأنزل الله في ذلك: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا...﴾ [التوبة: ٨١].

(٢) سورة الروم، الآية: ٧.

الخروج، فـ ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ دون «المتخلفون» لكي تشمل إلى المستأذنين للقعود آخرين منعوا عن الخروج، سواء الذين استأذنوا منهم للخروج: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا. . . فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾[1] أم لم يستأذنوا للخروج أم قعود وهم مُنعوا عن الخروج، ثالوث منحوس من «المخلَّفين» هم فرحون بمقعدهم خلاف رسول الله، وما ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ إلّا الأولين، ولكن ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ تعم إليهم الآخرين.

ذلك، وإن كانوا هم يشفقون من ذلك الحر، ويؤثرون راحة الجسد المسترخية في ظلال، على راحة الرُّوح برَوح ورضوان، فما هم فاعلون - إذاً - بحر جهنم وهي أشد حراً وأمدَّ طولاً وطولاً؟. . إنها لسخرية مريرة وهي حقيقة لهم حقيقة بهم، إذاً:

﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

هل الأمران هنا تكليفيان؟ والمنافق لا يأتمر بأمر فكيف يكلف به؟! إنهما تعجيزيان ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا﴾ هنا كما هم ضاحكون فرحون بمقعدهم خلاف رسول الله، ومهما حسبوه كثيراً ولكنه في الحق قليل[2]: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[3] ثم ﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ هنا لو يعلمون ما هو حالهم بمآلهم، وبعد الموت تحسراً وتأسفاً على ما مضى وتخوفاً على الحاضر هناك والمستقبل.

إذاً فلا واقع لأمر ضحكهم بعد الموت، وإنما ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ﴾ هنا قليلاً

---

(١) سورة الروم، الآية: ٨٣.

(٢) الدر المنثور ٣: ٦٥ عن ابن عباس في الآية قال: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤوا فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

وكل حياة الدنيا قليل، ﴿وَلْيَبْكُوا﴾ هنا وهناك ﴿كَثِيرًا﴾ وهو في نفسه كثير فضلاً عن نسبته إلى ما هنا.

وهنا ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ كما تختص البكاء الكثير باليوم الأخير، كذلك تختصهما جميعاً بالمنافقين والكافرين، فلا تشمل المؤمنين، اللَّهم إلا غضاً عن ﴿جَزَآءً﴾ تأويلاً لـ ﴿فَلْيَضْحَكُوا...﴾ وكما يروى عن النبي ﷺ: «والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»(١).

ذلك، فقد يعني الأمران هنا إلى التعجيز التكليفَ مهما لا يأتمرون، أن على الكفار والمنافقين أن يقللوا من ضحكهم هنا ويكثروا من البكاء بما قدمت لهم أنفسهم ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هنا، ثم ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ جزاءً هناك.

وكذلك الأمر للمؤمنين تغاضياً عن الجزاء السوء، بل حصولاً على الحسنى في الحياة الأخرى حيث الضحك الكثير آية الغفلة والغفوة، مهما كان المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه، فهو حين يضحك حزين على ما يرى في الأرض من الفساد.

ذلك، وعلى كل مقصر مؤمناً أو كافراً أن يبكي كثيراً على تقصيره وقصوره، وتخضعاً لله.

---

(١) المصدر أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً والله لا تعلمون ما أعلم... وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرة تعضد.

وفي مفتاح كنوز السنة مثله نقلاً عن: بخ - ك ١٦ ب ٢، ك ٦٧ ب ١٠٧، ك ٨١ ب ٢٧، ك ٨٣ ب ٣، تر - ك ٣٤ ب ٩، مج - ك ٣٧ ب .١٩ مى - ك ٢٠ ب ٢٦، حم ثان ص ٢٥٧ و٣١٢ و٤١٧ و٤٣٢ و٤٥٣ و٤٦٧ و٤٧٧ و٥٠٢، ثالث ص ١٠٢ و١٢٦ و١٥٤ و١٨٠ و١٩٢ و٢١٠ و٢١٧ و٢٤٠ و٢٤٥ و٢٥١ و٢٦٨ و٢٩٠، خامس ص ١٧٣، سادس ص ٨١ و١٦٤، ط - ح ٢٠٧١.

وطبيعة الحال في الكافر الغافل والمؤمن المستغفل أن يكون فَرِحاً، وتُعاكسها في المؤمن النابه أن يكون قَرِحاً، فالكافر فَرِح بحريته في شهواته وله رفاق فيها كثير، وليس قرحاً إلا قليلاً فيما لا ينال شهوة أو تناله مصيبة.

والمؤمن قَرِح حيث الإيمان هو قيد الفتك، ولما يرى في الأرض من الفساد الكثير ورفاقه في الإيمان قليل.

والضحك المحظور للمؤمن هو الناشئ عن الغفلة، دون الضحك بُشراً تلطيفاً لجو المجتمع الذي يعيشه، فإنه محبور، وقد كان النبي ﷺ مبتسماً.

إذاً فالضحك والبكاء هما ظاهرتان - في الأغلب - لفرَحَ أو قَرحَ في القلب، فلأن قلب المؤمن قَرِح بما يرى من نفسه ومن سواه، فهو باكٍ وإن لم يظهر بكاءه، حيث الأصل في البكاء هو انكماش النفس، كما أن قلب الكافر فَرِح مَرِح حيث يعيش حرية أهوائه ومعه رفاقه الكثير مهما لم يظهر فرحَه.

فالأصل في ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ هم غير المؤمنين، هنا لو عرفوا مآلهم بحالهم الكافرة، وهناك ليس إلا البكاء شاؤوا أم أبوا.

ثم الأصل في المؤمنين أن يكونوا فرحي القلب ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾ بمظهره وقلوبهم باكية، ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ بمظهره وسواه وقلوبهم حاكية.

ولا يعني حديث النبي ﷺ بقوله: «والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» إلا تأويلاً للآية دون تفسير، لأن مآل الضحك إلى فرح القلب والمؤمن قرح القلب بما يعلم الأمثل فالأمثل.

ولأن «فليضحكوا وليبكوا» أمران غائبان فلا يعنيان إلّا حتمية قليل الضحك وكثير البكاء، والأول لا محالة واقع في الدنيا حيث إن الضحك فيها مهما كان كثيراً فهو بجنب بكاء الآخرة قليل.

ثم الثاني لا محالة واقع في الأخرى شاؤوا أم أبوا دونما حاجة إلى أمر.

ثم لو كانوا يفقهون هنا ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ حين الغفلة ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ عند النبهة بما قدمت لهم أنفسهم لأخراهم.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

هنا نفاق معاكس من هؤلاء الأنكاد، فقد رضوا بالقعود أول مرة باستئذان، وهم أولاء يستأذنون للخروج هنا ثاني مرة، والجواب كلمة واحدة:

﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ فسواء عليكم استأذنتم للقعود أم للخروج فالقصد واحد هو القعود ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ مستأذنين للخروج أو القعود، وغير مستأذنين.

هنا ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ بعد الانتصار ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ لم يخرجوا دون استئذان أم قعدوا باستئذان ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ لغزوة أخرى نَظِرة الانتصار أم تعميةً لقصد القعود، ﴿فَقُل...﴾ لـ ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فما أنتم إلا قاعدين، إذاً ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ فلا حاجة إليكم بعدُ على أية حال، فإنكم أنتم الخالفون على أية حال، فمهما كانوا هم خالِفين صراحاً فأنتم خالفون قصداً حيث كنتم معهم أوّل مرة، والخالف لغوياً هو المخالف وهو الفاسد، فلا يعني الخَلَف الصالح حيث العبارة الشاملة للكل «القاعدين» ثم ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾[1] هي الأخرى شاهدة على معنى الخالف.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٧.

فقد نزلت هذه الآية على الرسول ﷺ وهو في غزوة تبوك، وهذه الطائفة منهم كان لهم مزدوج النفاق حيث استأذنوه للخروج لغزوة أخرى بعد ما استأذنوا للقعود عن تبوك، وهذه من الملاحم القرآنية أن يخبر جمعاً من المنافقين أن لن يخرجوا ولم يخرجوا وإن تكذيباً لهذه الملحمة، وكما في جمع من الكافرين ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] والخالفون هنا هم القاعدون الأولون المستأذنون للقعود، وهم هنا لا يستأذنون للخروج، فلا تعني معهم المعذورين من المؤمنين حيث المعية المعنية هي المحظورة، فإنما الخالفون هم المخلَّفون الفرحون بمقعدهم خلاف رسول الله، دون الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون.

وهكذا يواجَه الجندي المتخلف الخالف ألا حاجة إليه في غزوة سهلة حين يرفض النفر في غزوة صعبة ملتوية، حيث يتبين القصد من الخروج إذاً أنه تعمية القعود الأول نفاقاً بعد نفاق.

والدعوات الربانية ولا سيما القتال في سبيل الله بحاجة ماسة إلى صالحين صلبين مستقيمين مصممين صامدين في طويل الكفاح الشاق المرير، والصف الفاشل، المتخلل فيه الضعاف المسترخون، ليس ليصمد كما يرام، حيث يخذلونه في ساعة الشدة والعسرة، فليُنبذوا بعيداً عن ذلك الصف، مقاتلين في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص غير واهٍ ولا مرضوض، خالصين عن كل دَخَل ودَجَل.

فالتسامح مع الخالفين في ساعة العسرة لساعة الرخاء واليسرة - حيث يعودون بمظهر المتطوعين - ذلك التسامح هو خيانة للصف كله، وجناية على الدعوة كلها، فإلى المفاصلة التامة لكي يخلص الصف عن تسرب

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

النفاق ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ المجانسين إياكم، وابعدوا عن المناضلين غير المجانسين لكم.

هذه هي حياتهم الجهنمية، وإلى حياتهم الأخرى حيث لا يشاركون مع المؤمنين في صلاة عليهم ولا تجهيز جنازة اللّهم إلّا غسلاً وكفناً ودفناً هي قضية ظاهر الإسلام:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)﴾:

وتراه صلى على أحد منهم مات أو قام على قبره فنهى بعدُ عن ذلك؟ طبيعة الحال في إجراء أحكام الإسلام على المنافقين تقتضي أن يصلي عليهم أو ويقوم على قبورهم كسائر المسلمين، اللّهم إلّا أن يُنهى عن البعض من الطقوس الإسلامية بحقهم، ومن ناحية أخرى نهى ﷺ من ذي قبل أن يستغفر لهم، ومن مفروضات الصلاة على الميت الاستغفار له، وقضية الجمع بين الأمرين أن يصلي عليهم(١) دون استغفار، فلسائر المسلمين تكبيرات خمس ولهم أربع(٢) حيث تنقص صلاتهم الدعاء لهم،

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٦٦ - أخرج ابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال لما مرض عبد الله بن أبي ابن سلول مرضه الذي مات فيه عاده رسول الله ﷺ فلما مات صلى عليه وقام على قبره، قال: والله إن مكثنا إلا ليالي حتى نزلت ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا...﴾ [التوبة: ٨٤] وفيه أخرج ابن ماجة والبزاز وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن جابر قال: مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلي عليه النبي ﷺ وأن يكفنه في قميصه فجاء ابنه إلى النبي ﷺ فقال: أبي أوصى أن يكفن في قميصك فصلى عليه وألبسه قميصه وقام على قبره فأنزل الله ﴿وَلَا تُصَلِّ...﴾ [التوبة: ٨٤].

وفيه عن أنس أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أبي فأخذ جبرئيل عليه السلام بثوبه وقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤].

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٥٠ عن الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يكبر على قوم خمساً وعلى قوم آخرين أربعاً وإذا كبر على رجل أربعاً اتهم بالنفاق.

فلما نهى عن الصلاة عليهم ترك هذه الأربع أيضاً خلاف ما يروى، فإنها صورة الصلاة وقد نهى عنها مطلقاً[(١)] اللَّهم إلا أن يعني من الصلاة الدعاء.

ذلك ومما يزيد الصلاة عليهم ترجيحاً حرمة أقاربهم المؤمنين وجذب آخرين من المنافقين إلى الإيمان، قضيةَ هذه الرحمة الواسعة الإسلامية.

فلو أنه صلى على عبد الله بن أبي رأس المنافقين وبعث بقميصه ليكفن فيه، أم وقام على قبره - وذلك قبل نهيه عن هذا وذلك - لم يكن بذلك موبَّخاً مؤنَّباً، بل وكان ترك الصلاة قبل نهيه محظوراً، مهما انقلب بعد نهيه محبوراً، فإنه ﷺ وَقفٌ لأمر الله ونهيه، دون هواه أم أهواء من سواه إلا سبيل الله وهداه.

إذاً فكيف يتجرأ عمر أن ينهى رسول الله ﷺ عما أمره الله وإن كان ينهاه الله بعدُ، ينهاه ويجذب ثوبه هتكاً لساحته ومساً من كرامته؟ فهل هو أعلم منه بأحكام الله، أو أحوط منه على شرعة الله، وهل يعد ذلك - بعدُ - من مكارم الخليفة أن نزل وحي الله بعدُ على هواه، خلافاً لهوى رسول الله ﷺ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[(٢)].

إن هذه القولات الغولات إلا هرطقات حمقاء والله ورسوله منها براء، فإنها تفضيل رذيل لعمر على رسول الله ﷺ فالغريق يتشبث بكل حشيش.

هذا ومن غريب الهرطقات أن عمر ينهاه ﷺ عن الصلاة عليهم بعد نزول هذه الآية، ويكأنه ﷺ يعارض الوحي وعمر يحارزه؟[(٣)].

---

(١) المصدر عن الكافي عنه عن محمد بن مهاجر عن أمه عن أم سلمة قالت سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كان رسول الله ﷺ إذا صلى على ميت كبر وتشهد ثم كبر وصلى على الأنبياء ثم كبر ودعا للمؤمنين ثم كبر الرابعة ودعا للميت ثم كبر وانصرف فلما نهاه الله عزّ وجلّ عن الصلاة على المنافقين كبر وتشهد ثم كبر وصلى على النبيين صلى الله عليهم ثم كبر ودعا للمؤمنين ثم كبر الرابعة وانصرف ولم يدع للميت.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

(٣) المصدر في الدلائل عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي ابن سلول أتى ابنه عبد الله=

فسواءٌ أصلى عليه قبل نزول النهي عنها، أم وقف أمامه كهيئة المصلي عليه، فلا مغمز عليه في شيء منهما، وقد أجابه الرسول ﷺ في الثاني: «وما يدريك ما قلت له: فإني قلت له: اللّهم احش قبره ناراً وسلط عليه الحيات والعقارب».

ذلك، والجهاد من أكبر الواجبات، والتقاعس والتواني عنه من أكبر المحرمات «فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة، وجُنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه، ألبسه الله ثوب الذل وشملة البلاء، ودُيِّث بالصَّغار والقماء، وضُرب على قلبه بالإسهاب، وأديل الحق منه بتضييع الجهاد وسيمَ الخسف ومُنع النَّصف - ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلّا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم، حتى شُنَّت عليكم الغارات، ومُلكت عليكم

= رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال: يا رسول الله ﷺ أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين فقال: إن ربي خيرني وقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم.. » وسأزيد على السبعين، فقال: إنه منافق فصلى عليه فأنزل الله ﴿وَلَا تُصَلِّ...﴾ [التوبة: ٨٤] أقول هنا متناقضة بين صدر الحديث وذيله ونسبة سوء الفهم إلى الرسول ﷺ في ﴿ٱسْتَغْفِرْ...﴾ [التوبة: ٨٠] فيا له من مختلق يراد منه تبجيل الخليفة وتخجيل الرسول ﷺ! وفي نور الثقلين ٢: ٢٥٠ في تفسير العياشي عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام توفي رجل من المنافقين فأرسل إلى ابنه أن إذا أردتم أن يخرجوا فأعلموني فلما حضر أمره أرسلوا إلى النبي ﷺ فأقبل نحوهم حتى أخذ بيد ابنه في الجنازة فمضى، قال فتصدى له عمر ثم قال: يا رسول الله أما نهاك ربك عن هذا أن تصلي على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره؟ فلم يجبه النبي ﷺ قال: فلما كان قبل أن ينتهوا به إلى القبر قال عمر أيضاً لرسول الله ﷺ: أما نهاك الله عن أن تصلي على أحد منهم مات أبداً أو تقوم على قبره؟ ذلك بـ ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] فقال النبي ﷺ لعمر عند ذلك: ما رأيتنا صلينا على جنازة ولا قمنا له على قبر ثم قال: إن ابنه رجل من المؤمنين وكان يحق علينا أداء حقه، وقال له عمر: أعوذ بالله من سخط الله وسخطك يا رسول الله.

الأوطان، وهذا أخو غامد وقد وردت خيلُه الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلَكم عن مسالحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حِجلها وقُلبها وقلائدها ورِعاثَها، ما تمنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلاً منهم كلْمٌ، ولا أريق لهم دمٌ، فلو أن امرأً مسلماً مات بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً - فيا عجباً عجباً، والله يميت القلب ويجلب الهمَّ اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم، فقبحاً لكم وتَرَحاً حين صرتم غَرَضاً يُرمى، يغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزَزون ولا تَغزُزون، ويُعصى الله وترضَون - فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم هذه حمَّارة القيظ، أمهلنا يُسبَّح عنا الحَرّ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبَّارة القُرِّ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فراراً من الحر والقُر، فإذا كنتم من الحر والقُر تفرون، فأنتم والله من السيف أفرُّ - يا أشباه الرجال ولا رجالُ، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفةٌ والله جرَّت ندماً، وأعقبت سَدَماً، قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرَّعتموني نُغَب التهمام أنفاساً، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخِذلان حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم! وهل أحد منكم أشدُ لهما مراساً وأقدم فيها مَقاماً مني، لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع»[1].

ومهما يكن من شيء فلم يقف عمر موقفه في نهيه ﷺ إلَّا محظوراً يدل على نقصه في إيمانه أو نقضه إيمانه أن يبادر الرسول ﷺ بلفظة قول أم جذبة ثوب تأنيباً عجيباً كأنه خالف وحي الله أم لم يعرف معناه!.

(١) (الخطبة ٢٧).

فالرسول ﷺ هنا بين حالات ثلاث: أنه صلى على ابن أبي دونما استغفار له لآية النهي عنه، وقبل آية النهي عن الصلاة، فقد أدّى واجبه، فكيف ينهى - إذاً - عن واجبه؟.

أم لم يصل عليه إذ سبقه النهي عن الصلاة، وإنما وقف أمامه كصورة المصلي، حرمةً لابنه المؤمن وعلّه يؤمن بذلك ألفٌ من المنافقين وقد آمنوا، وهو في الأول أولى، ولا تطارده: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾[(١)] لأنها ليست بشأنه مع المنافقين، وأن هذه الملاينة هي ليست مع المنافق بل هي مع ابنه، ثم لا تعني - على أية حال - ركوناً إلى المنافقين، أو ترى إعطاء نصيب من الزكاة لهم تأليفاً لقلوبهم ركوناً إليهم؟، وقد أمر به الله! أم ترى وعد الغفران لهم إن تابوا ركوناً إليهم؟ وهو نص كتاب الله!.

أم صلى عليه دون استغفار بعد النهي عنها؟ وهذا مس من كرامته في عدالته فضلاً عن عصمته! ومهما اختلفت الروايات بين هذه الثلاث فهي متفقة على أمرين أمرَّين: أن عمر نهاه قبل النهي عن الصلاة وبعده، وكما اتفقت في أنه ﷺ أرسله بثوبه ليغطي به ولما ذكروا القميص قال: «وما يغني عنه قميصي، والله إني أرجو أن يسلم به أكثر من ألف من بني الخزرج»[(٢)].

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٧٤، ٧٥.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٦٦ - أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: وقف نبي الله ﷺ على عبد الله بن أبي فدعاه فأغلظ له وتناول لحية النبي ﷺ فقال أبو أيوب: كف يدك عن لحية رسول الله ﷺ فوالله لئن أذن لي لأضعن فيك السلاح، وأنه مرض فأرسل إلى النبي ﷺ يدعوه فدعا بقميصه فقال عمر: والله ما هو بأهل أن تأتيه، قال: بلى فأتاه فقال: أهلكتك موادتك اليهود، قال: إنما دعوتك لتستغفر لي ولم أدعك لتؤنبني، قال: أعطني قميصك لأكفن فيه، فأعطاه ونفث في جلده ونزل في قبره فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾=

أجل، ولماذا لا يبعث إليه قميصه ﷺ وقد طلبه وطلبه ابنه قضيةَ وصيته، وابنه هذا من كرام المؤمنين، وقد يلمح طلبهُ قميصَه أنه آمن واهتدى حتى أخبره جبرئيل أنه مات كافراً، ثم العباس عم النبي ﷺ لما أخذ أسيراً يوم بدر لم يجدوا له قميصاً وكان رجلاً طويلاً فكساه عبد الله قميصه، وهكذا المشركون لما قالوا له يوم الحديبية: إنا لا ننقاد لمحمد، فقال لا، إن لي في رسول الله أسوة حسنة، فقد يشكره الرسول ﷺ على هذه المواقف وكما يشكر ابنه على موقفه المشكور في الإيمان، ثم الله نهاه عن رد السائل.

أفلا يكفي كل ذلك مبرراً لإجابة طلبته في قميصه، وأن يصلي عليه - إن كانت قبل النهي عنها - أو يقف أمامه كهيئة المصلي وهو لا يصلي؟!.

أجـــــل ﴿وَلَا تُصَلِّ... وَلَا تَقُمْ... إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فليس - فقط - الكفر بالله ورسوله مانعاً عن سماح الصلاة عليهم والقيام على قبرهم، بل ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله متظاهرين بباطن كفرهم، حيث الفسق يخص ظاهر التخلف، وتقدم الكفر هنا دليل أنه فسق الكفر، فحين يظهر الكفر من الفاسق والمنافق يلحق بالكفار الرسميين الخارجين عن كل أحكام الإسلام.

فلا مجرد الفسق يكفي ولا مجرد الكفر في الباطن دون تظاهر به، إنما هو الجمع بين كفر الباطن والظاهر، وأن يموتوا وهم فاسقون بذلك الكفر، فمن مات بكفر باطن دون ظاهر الكفر، أو مات بفسق دون باطن الكفر، فهما محكومان بمظاهر أحكام الإسلام اللَّهم إلا ما استثناه الدليل كالصلاة عليه والقيام على قبره كما هنا.

= [التوبة: ٨٤]. . قال: فذكروا القميص، قال: وما يغني عنه قميصي والله لأرجو أن يسلم به أكثر من ألف من بني الخزرج.

ولا تعني الصلاة هنا فقط الدعاء فإن صيغته السائغة هي الدعاء، وقد سبق النهي عن الدعاء لمن تبين أنهم من أصحاب الجحيم، فهي - إذاً - الصلاة على الأموات، فقد كانت أربع تكبيرات دون دعاء قبل نزول هذه الآية، ثم منع عنها مهما ليس فيها دعاء.

ذلك، فالمستفاد من الآية حرمة الصلاة على الكافر منافقاً وسواه، إلا إذا لم يظهر الكفر حيث التكاليف مبنية على الظاهر وكما يروى عن النبي ﷺ: «نحن نحكم بالظاهر والله تعالى يتولى السرائر»، ثم ووجوبها على المسلم أياً كان، فـ «صل على من مات من أهل القبلة وحسابه على الله»[١] و«صلوا على المرجوم من أمتي وعلى القاتل نفسه من أمتي لا تدعوا أحداً من أمتي بلا صلاة»[٢].

ومهما كانت أمثال هذه الأخبار ضعيفة السند أو المتن فالآية هي قوية المتن والسند، ولم تستثن من واجب الصلاة على الأموات إلّا المنافقين الرسميين ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ سواء أكان كفرهم صراحاً خروجاً إليه بعد إسلامهم، أم خفية فإنهم كذلك كافرون مهما شملتهم أحكام الإسلام في الظاهر، ولكن الآية نصت على استثناء الصلاة عليهم والقيام على قبورهم والاستغفار لهم.

والولد البالغ ست سنين ولا سيما الذي يعقل الصلاة يصلى عليه لتظافر المعتبرة عليه، وهذا من قضايا إلحاق من لم يبلغ الحلم من المسلمين بمن بلغه.

---

(١) هو خبر أبي طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: صل.. (الوسائل كتاب الطهارة أبواب صلاة الجنازة ب ٣٧ ح ٢).

(٢) هو خبر السكوني عن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول الله ﷺ: ... (المصدر ح ٣).

ذلك، والخبر المشهور للميت المسلم في «اللَّهم إنا لا نعلم منه إلا خيراً» ليس يعني إلّا خير الإسلام فقط أمام سواه اللاإسلام ودون إسلام، لا وخير الأعمال، وإلّا كان كذباً بالنسبة لفساق المسلمين، أم كان المفروض ترك هذه الشهادة؟ وهي من ضمن الصلاة!.

فهؤلاء المنافقون لا كرامة لهم أحياءً وأمواتاً، فلا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره...:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

ولقد مضت نظيرتها (٥٥) بعد المنع عن قبول نفقاتهم بتلك المناسبة، وهنا تكرارها إلا بقليل من ألفاظها بعد منع الصلاة عليهم والقيام على قبرهم، فلا تكرار في متطلَّب الموقف مهما كان تكراراً في لفظ الآية.



﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ

بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

﴿سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ قد تعني إلى ﴿سُورَةٌ﴾ كاملة تحمل الأمر بالإيمان والجهاد، مجموعة آيات تحملهما، بل ولا سورة في القرآن كاملة تحمل أمرهم بالإيمان والجهاد، فإن سورة «المنافقون» الخاصة بهم لا تحملهما، فالمعني من ﴿سُورَةٌ﴾ هنا هو مجموعة من آيات تعني غرضاً واحداً.

﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾: بسعة في المال وقوة في البدن، حيث الطول يعمهما، فرغم أنهم الذين يجب عليهم أن يستقدموا نراهم يستأخرون قائلين: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾.

هم يقولون: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ الذين قعدوا عن القتال معذورين، ولكنهم في الحق قاعدون مع سائر الخالفين:

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

﴿ٱلْخَوَالِفِ﴾ جمع خالفة وتاؤها للتأنيث اعتباراً بأنهن النساء[1]، وسائر الضُّعفان، والمعذورين مهما كانوا من أشجع الشجعان المناضلين.

وذلك لأنهم أجمع يظلون في أمكنتهم دون خروج للحرب مهما اختلفت أعذارهم، ومنهم غير معذورين.

(١) نور الثقلين ٢: ٢٥١ في تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧] فقال: النساء إنهم قالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣] وكان بيوتهم في أطراف البيوت حيث ينفرد الناس فأكذبهم الله قال: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣] وهي رفيعة السمك حصينة.

ومن الخالفين النساء حيث يقمن في دور الحي بعد رحيل الرجال، سُمِّين بها تشبيهاً لهن بالأعمدة تكون في أواخر البيوت المضروبة، لأنهن كماهيه خوالف في البيوت لكثرة لزومهن إياها.

أم وهي للمبالغة، وهم المتخلفون على مكنتهم بدنياً ومالياً، فالخوالف تشمل المتخلفين قاصرين ومقصرين، وكون القادرين على الخروج كالخوالف المتخلفين قصوراً أو تقصيراً تنديد بهم شديد فـ ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أكثر ممن سواهم «فهم يفقهون» الحقائق المعنية، وفاعل الطبع هنا هم أنفسهم، ثم الله طبع على قلوبهم بما طبعوا ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] فـ «الخالفين» هنا تعني المقصرين منهم إلى القاصرين، وقد يُعنى معهم العدول الصالحون.

فيا لهم - على طَولهم - من بؤسٍ وخذلان حيث رضوا بأن يكونوا مع الخوالف المتخلفين المقصرين والمخلّفين القاصرين، فهم على طَولهم بين مقصر وقاصر.

ذلك ومن ﴿ٱلْخَوَالِفِ﴾ الصالحين مَن خلَّفهم رسول الله ﷺ من أشجع الشجعان كما خلف رسول الله ﷺ علياً في غزوة تبوك وهو يبكي ويقول تخلفني مع الخوالف فقال رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا النبوة»[2].

ولأن ﴿رَضُوا...﴾ هنا في موقف التنديد فالقصد من مثلث الخوالف - إذاً - هم دون الأخير المخلّف على قوته ليكون خليفة الرسول ﷺ بعد غيابه وحتى إيابه.

ذلك، وهنا «أن آمنوا» خطاباً موجهاً إلى المنافقين دليل أنهم ليسوا

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) الدر المنثور ٣: ٢٦٦ - أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن علي بن أبي طالب عليه السلام خرج مع النبي ﷺ حتى جاء ثنية الوداع يريد تبوك وعلي يبكي...

داخلين في المؤمنين، مهما شملتهم خطابات الإيمان فيما لا قرينة فيه على اختصاصها بإيمان القلب.

وهنا ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ هم الرؤساء الذين عليهم التقدم في أمر الجهاد، لطَولهم ولكونهم يُقتدى بهم، ففي تركهم الجهاد - إذاً - ثالوث من التخلفات، تخلف دون عذر، وتخلف على طَول، وتخلف يخلِّف تخلف الآخرين التابعين لهم.

فمن الناس من لا حول له ولا طَول وهو يتقدم للجهاد وما أكرمهم! ومنهم من يملك كل حول وطول ولا يتقدم وما ألأمهم وألعنهم، ومنهم عوان بينهما متوسطين، فهم عوان بينهما ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

وأولو الطَّول من المنافقين هم متخاذلون على طولهم، استخذاءً أمام واجب الجهاد، فهنا خطتان، خُطة الالتواء والانكماش والتخلف والرضى بالأدنى، هي خطة المنافقين، وخُطة الاستقامة والبذل والكرامة، هي خطة المؤمنين، ومهما لم يعرِّف الله - ما عرف من المنافقين - لغير الرسول ﷺ والحاضرين معه زمن الوحي، ولكنه عرَّفهم بكل معالمهم في أقوالهم وأحوالهم وأفعالهم، ما يرسم لنا خُطة لهم لئيمة معروفة على مدار الزمن.

فكما أن معرفة الشيطان بخطواته تكفينا عن معرفته بشخصه، كذلك معرفة المنافقين مهما كانوا أشطن من الشياطين.

ذلك، وإن للذل ضريبة كما أن للعز ضريبة، ولكن ضريبة الذل أفدح بكثير وأقدح، فرغم ما يخيل إلى بعض النفوس أن ضريبته الكرامة باهظة فتختار الذل هَرَباً من تكاليف الكرامة، الباهظة، فتعيش عيشة رخيصة تافهة، قلقة مفزعة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها فـ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

عَلَيْهِمْ﴾[١] و﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ...﴾[٢] رغم كل ذلك نجدهم يؤدُّون ضريبة أفدح من ضريبة الكرامة، حيث يؤدون ضرائب الذل من كل أنفسهم ونفائسهم وهم لا يفقهون أن لهم كل الشرور وهم الفالجون المفلجون:

﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿لَٰكِنِ﴾ هؤلاء هم طراز آخر حيث أدوا كل ضرائب الإيمان، رسولياً من الرسول ورسالياً من الذين آمنوا معه، فـ ﴿جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ في كل ميادين الجهاد ﴿وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَٰتُ﴾ كلها ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في ملتويات الحياة هنا وفي الأخرى، ومن الأخرى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَجَآءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾:

هنا ﴿الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هم قسم آخر من الخالفين، فالأعراب هم أهل البوادي، البعيدون عن صالح المعرفة الإيمانية، وإنما ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ دون «العاذرون - أو - المعتذرون» لتشمل إلى هؤلاء من يعتذر لمن سواه، اعتذاراً لأنفسهم إعذاراً ولمن سواهم.

ثم ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ﴾ دون «قعدوا» تلمح أن المعذِّرين لم يقعدوا كلهم، إنما هم ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ والآخرون خرجوا كما خرج الآخرون،

(١) سورة المنافقون، الآية: ٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٦.

ولذلك ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾ وهم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ منهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم ﴿كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾: ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ دليل أنهم بين كافر نفاقاً، وبين معذور يعتذر لنفسه ولمن أشبهه، وبين غير معذور قد يخرج وقد لا يخرج والأولون من المعذرين هم المهدَّدون بعذاب أليم.

فلو أنهم كلهم كانوا قاصرين معذورين، فما هو المرجع لضمير الجمع في ﴿مِّنۡهُمۡ﴾؟ ولا يصلح ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ...﴾ له مرجعاً حيث الكاذبون الله ورسوله كلهم كافرون.

ولكن ﴿كَذَّبُواْ﴾ مخففة دون مثقلة ليست لتنافي الإيمان، حيث المعذِّر إذا كذب في اعتذاره فقد كذب الله ورسوله، إذاً فـ ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ تشمل الصادقين منهم والكاذبين، والآخرون هم أعم من الكافرين وسواهم، والكافرون منهم هم المهدَّدون بعذاب أليم.

إذاً فـ ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هم بين كافرين منهم وسواهم لاشتراكهم في ذلك الكذب فإنه دركات، كما الصدق درجات.

ذلك، وإلى الإفصاح عن المعذورين بين المعذِّرين وسواهم، حيث أعذرهم الله:

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۝٩٢﴾:

هؤلاء الأربعة ليس عليهم حرج إذا قعدوا[1] وإن كان الخروج لهم أرجح

(١) في الدر المنثور ٣: ٢٦٧ عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ براءة فكنت =

لمكان ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا غفر إلا عن متروك واجب أو راجح، فحين لا يجب الجهاد فقد يبقى راجحاً، فإن بإمكان الضعيف على ضعفه والمريض على مرضه والفقير على فقره، بإمكانهم الجهاد قدر وسعهم، أم - ولأقل تقدير - أن يكثِّروا عديد المجاهدين في المنظر، فإن له أثراً في تخويف العدو، فلذلك قد يجب خروجهم كما في الاستنفار العام وقد مضى[1].

ثم ونفي الحرج عن هؤلاء مشروط بما ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إحساناً إلى الجهاد وتقوية للمجاهدين، وليس فقط أن يسكتوا عن تفشيلهم وتفليلهم فتقليلهم فإنه كفر في حقل الجهاد، بل ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ نصحاً موجهاً إلى المجاهدين، تقوية لهم وتشويقاً، أم توجيهاً لتكتيكات حربية، أم حفاظاً على أهليهم وما أشبه من حذمات وراء الجبهة، ونصحاً للخاملين المعذِّرين دون عذر، أن يتسابقوا إلى جبهات النضال.

فحين يُعذر المؤمن ويُحرج أن يجاهد بنفسه وماله، فلا يعذر - إذاً - عن سائر الجهاد المعني بالنصحية لصالح المجاهدين والجهاد، توجيهاً وجيهاً كما يستطيعون لتقوية العَدد والعُدد في هذه السبيل.

= أكتب ما أنزل الله عليه وإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول الله ﷺ ينظر ماذا ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله ﷺ وأنا أعمى؟ فنزلت ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ...﴾ [التوبة: ٩١] وفي المجمع نزلت في ابن أم مكتوم وكان ضرير البصر جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله إني شيخ ضرير خفيف الحال نحيف الجسم وليس لي قائد فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله الآية.

(١) نور الثقلين ٢: ٢٥٢ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: وكذلك إذا نظرت في جميع الأشياء لم تجد أحداً في ضيق ولم تجد أحداً إلا ولله عليه الحجة ولله فيه المشية ولا أقول إنهم ما شاؤوا صنعوا ثم قال: «إن الله يهدي ويضل»، وقال: وما أمروا إلا بدون سعتهم، وكل شيء أمر الناس فهم يسعون له وكل شيء لا يسعون له فهو موضوع عنهم ولكن الناس لا خير فيهم ثم تلا: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ...﴾ [التوبة: ٩١] فوضع عنهم ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١] ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ...﴾ [التوبة: ٩٢] فوضع عنهم لأنهم لا يجدون.

فهؤلاء هم المحسنون في حقل الجهاد، غير المحرَجين قضيةَ إعذارهم للخروج ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ الإحراج للإخراج ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، إذ لم يقصِّروا في الجهاد مهما تركوا راجحاً في سبيله.

ولقد بلغت النصيحة لله ولرسوله لحد يقول عنها الرسول ﷺ «الدين النصيحة» ولمن؟ «لله ولكتابه ولرسوله ولدين الله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(١) و«على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»(٢) وهنا في حقل الجهاد ترغيباً إليه وإعانة عليه.

وبصيغة أخرى «الناصح لله الذي يؤثر حق الله على حق الناس وإذا حدث له أمران، أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ الذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا»(٣).

ولقد اعتبر الناصح لله ولرسوله هنا من قمة المحسنين، ثم أطلقت كضابطة: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ لإحراجهم فيما يفلت من أيديهم غير مقصرين، وهناك فروع عدة متفرعة على هذه الضابطة:

١ - الإحسان في حقل العقيدة يكفِّر لمما فيها.

---

(١) المصدر أخرج مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال: . . قالوا لمن يا رسول الله ﷺ؟ لله . . ، ورواه عنه ﷺ بإسقاط «ولكتابه» ابن عمر.
وفي نور الثقلين ٢: ٢٥٣ في كتاب الخصال عن تميم الداري قال قال رسول الله ﷺ: من يضمن لي خمساً أضمن له الجنة، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: النصيحة لله عزّ وجلّ والنصيحة لرسوله والنصيحة لكتاب الله والنصيحة لدين الله والنصيحة لجماعة المسلمين.

(٢) وفيه أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن جرير قال بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم وفيه أخرج أحمد والحكيم الترمذي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: قال الله عزّ وجلّ: أحب ما تعبدني به عبدي إلى النصح لي.

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٦٧ - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم عن أبي ثمامة الصائدي قال قال الحواريون: يا روح الله أخبر من الناصح لله؟ قال: الذي . .

٢ - الإحسان في حقل العمل كفارة لتقصير فيه كالتوبة عن الذنب[1] واجتناب كبائر السيئات، والإتيان بكبائر الحسنات، وسائر المكفِّرات المسرودة في القرآن.

٣ - الإحسان في الحفاظ على الأمانة يكفر عن ضياعها فلا بديل عنها على المؤتمن، بل وكل محسن إذا تفلَّت عنه - قصوراً دون تقصير - إضرار مالي على غيره، فلا سبيل إلى تحريجه في أخذ بديله عنه، اللَّهم إلّا بدليل قاطع لا مردَّ عنه، أم يقال إنه خارج عن ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مهما لم يكن من المسيئين أيضاً، فكما أن دم المسلم ليس ليذهب هدراً في قتل الخطأِ، كذلك مال المسلم، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه.

فالذي يضيِّع مال المسلم أمانةً وسواها، هو مسيءٌ عاص لله، وهو مديون ما ضيَّعه، وأما الذي يَضيع مال مسلم عنده دون تقصير، فإن كان محسناً شملت الآية، وأما القاصر في ضياع مال المسلم فلا هو محسن ولا مسيءٌ، فكيف يدخل في نطاق الآية؟ وهنا ضابطة الغرامة محكَّمة بمجرد ضياع مال، فإنما الإحسان حسب هذه الآية هو الذي يستثني الغرامة.

وهنا ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعني الذين يحسنون في عملٍ مّا، فلا سبيل عليهم فيه مهما كان عليهم سبيل فيما يسيئون، أم عمل خارج عن كلا الإحسان والإساءة.

وفي حقل الأمانة لا يصدق الإحسان إلّا ما كانت مجانية الحفاظ عليها أم أقل من القدر المستحق على تأمل فيه، وأما الأمانة المستأجر فيها بأجرة عادلة، فهي تجارة قد لا تدخل في نطاق الآية، فإن موردها هو النصح لله ورسوله في حقل الجهاد، وليس له فيهما بديل من مال وسواه.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢٥٢ في الفقيه قال الصادق عليه السلام: شفاعتنا لأهل الكبائر من شيعتنا، فأما التائبون فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

فالتجارة العادلة وإن كانت مرضية لله محبورة في شرعة الله ولكنها ليست إحساناً حيث يتطلب تقديماً دون مقابل أم زيادة على المستحق.

فالقدر المعلوم من نفي السبيل هو حقل الإحسان الخالص، دون ما دونه مهما لم يكن إساءَة.

ثم الحرج المنفي هنا وفي كل مجالات المسؤوليات يختص بالمحسنين في سبيل الله، الناصحين لله ورسوله، وليس المستثنى إلّا الضعف المُحرج، والمرض المُحرج، والنفقة المحرجة، فأما الذين لا حرج عليهم للخروج من هؤلاء فهم خارجون عن الاستثناء كسائر الخارجين.

ولأن ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ طليقة، فالسبيل المنفية بحقهم ليست إلا في طليق إحسانهم، فما عليهم من سبيل في الدنيا والآخرة، وأما الذين خلطوا إحساناً بإساءَة، في متن الأمر أو مقدماته الآفاقية أو الأنفسية، فلا تُنفي عنهم هذه السبيل.

ذلك، ثم ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾ هم كل هؤلاء الذين لا يستطيعون جهاداً لضعيف ذاتي كالشيخوخة وما أشبه، لحدّ لا نفع في جهادهم اللَّهم إلا قليلاً لا يُجبر زهاق أنفسهم.

و﴿ٱلْمَرْضَىٰ﴾ هم غير المستطيعين لضعف عارض، فإن استطاعوا علاجاً غير محرج قبل فوات الأوان فمفروض قضية استطاعة الجهاد باستطاعة ما يُعدُّ له.

و﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ لا تعني وجدان المال الحاضر، بل وهو وجدان ما يحصل به مال قدر المقدور، من شغل وأية محاولة أخرى صالحة في شرعة الله غير محرجة ولا معسرة.

فكما أن ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾[1] لا تعني عدم الوجود، بل هو عدم

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

الاستطاعة لاستعماله في الطهارة، كذلك «لا يجدون هنا» فإن وجده بعمل فيه أجرة، أم قبول هدية أو هبة أو صدقة، أو استقراض وما أشبه، ما لا يمس من حرمته وكرامته الإيمانية، فهو واجد لما ينفقه في الجهاد.

ثم الذي عنده مال قدر نفقة العيال، هو غير واجد لما ينفقه لتقدم واجب النفقة على العيال، على نفقة الجهاد.

وأخيراً حين لا يجد هو ولكن يجد عند الرسول ﷺ فهو أيضاً واجد حيث المعذور هنا: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ... أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ لا من عند أنفسهم ولا عند الرسول ﷺ.

ذلك، ولأن الذين يأتون الرسول ﷺ ليحملهم فلا يتحملهم، هم بالغون أعلى قمم النصح عملياً للجهاد، لذلك لم يشترط في عدم تحريجهم ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإنهم من أحسن المحسنين.

وقد نزلت الآية الثانية في البكائين[١] وقد يروى أنهم سألوه الحملان من النعال[٢] و هي أقل ما يحملهم للجهاد! وقد قال فيهم رسول الله ﷺ أمام المجاهدين: لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً ولا نلتم من عدو نيلاً إلّا وقد شركوكم في الأجر ثم قرأ الآية[٣].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٦٧ - أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يستحملونه فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فأنزل الله ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ...﴾ [التوبة: ٩١] قال: وهم سبعة نفر من بني عمر بن عوف بن سالم بن عمير ومن بني واقن حرمي ابن عمرو ومن بني مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بني المعلى سلمان ابن صخر ومن بني حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عبلة ومن بني سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله ابن عمرو المزني.

(٢) المصدر أخرج ابن المنذر عن علي بن صالح قال حدثني مشيخة من جهينة قالوا: أدركنا الذين سألوا رسول الله ﷺ الحملان فقالوا ما سألناه إلا الحملان على النعال، وفيه أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم بن أدهم في الآية قال: ما سألوه الدواب ما سألوه إلا النعال.. وعن الحسن مثله.

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٦٧ - أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ:.. وفيه =

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

هنا يختص السبيل في الوجد والإنفاق بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ والقصد من الغنى هنا ما يتمكن فيه من الإنفاق للجهاد بنفسه إن أمكن وبمن سواه، وتجهيزاً لمن لا يجد، إن لم يمكن، فمسؤولية الجهاد طليقة قدر الإمكانية بالنفس والنفيس، بالدم والمال والتوجيهات الحربية والنصائح الراجعة إلى صالح الحرب وما سواها من سبل الله.

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾(١) المتخلِّفين عن مكنتهم أو القاصرين العُجَّز نساء ورجالاً وأطفالاً ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مدى جريمتهم النكراء في التخلف عن الجهاد في سبيل الله.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾: المجاهدين، غادرين إذ مضى ما مضى وأنتم سالمون ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من النضال ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾ إذ ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ ثقة بصدقكم قضيةَ اعتذاركم.

ولأن «لن» تؤيد السلب فقد تدل على أنهم غادرون في اعتذارهم وسواه على طول الخط حتى يلاقوا يومهم الذين كانوا يوعدون.

= أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن معقل المزني فقالوا يا رسول الله ﷺ احملنا فقال: أجد ما أحملكم عليه فتولوا ولهم بكاء وعز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً فأنزل الله عذرهم ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ . . .﴾ [التوبة: ٩٢].

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٧.

إذ ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أن لن تؤمنوا فـ ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ إيمان التأمين لتصديقكم وأمنه ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ في المستقبل كما مضى «ثم» بعد مثلث زمان الغدر والنفاق، المحلق على حياة التكليف ككل ﴿تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وهناك ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إنباء عرض الأعمال كما صدرت، وإنباء النتيجة كما أنتجت: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾(١).

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ معتذرين أنهم صادقون، أم ومهما يكن في أمرٍ ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ دونما تنديد واستجواب ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ إعراضاً قضية النفاق، فقد لا يعني الإعراض المأمور به الإعراض المطلوب لهم، بل هو بعد التنديد والتنكيد إعراض عنهم بجعلهم في عزلة كأنهم لا شيء، فلا تحدثوهم بعدُ ولا تعاشروهم ولا تواصلوهم أبداً، فقد وقعت المفاصلة التامة لـ ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ فلا ترجسوا أنفسكم الطاهرة بمصاحبتهم، ولا يرجى منهم أي خير حيث سدوا على أنفسهم كل منافذه ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وليس التلطُّف مع منافق أو كافر إلَّا بغية انجذابه إلى الإيمان.

وهنا ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ قد تؤيد عدم نجاسة أبدان الكفار، حيث الرجس وهو أنجس من النجس - وكما اختص بـ «لحم خنزير» مع ردْفه بالميتة والدم ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾(٢) - إنه لم ينجس أبدان المنافقين فكيف ينجس النجس

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

أبدان المشركين، فإنما هي رجاسة روحية لهم هي أرجس وأنجس من أرواح الكافرين، ولذلك ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(١).

فذلك - إذاً - تجسيم حسي للدنس المعنوي، ترجيساً لأرواحهم النحسة، مما يدعو إلى التقذر والاشمئزاز، فهم رجس يلوث الأرواح، ونجس يدنس المشاعر، كالجثة المنتنة في وسط الأحياء حيث تؤذي وتعدي.

وهنا نتبين أن التجنب عن الأرجاس الروحية هو واجب المؤمنين، اللّهم إلّا إذا أثرت فيهم الدعوة الربانية أو احتمل التأثير، فأما إذا كان ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢) فهنا الإعراض عنهم للمؤمنين، مهما كان للرسول ﷺ موقف آخر هو أوسع من سائر المواقف.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾:

فالمؤمن لا يرضى إلا ما يرضاه الله فكيف ترضون عنهم بحلف وسواه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وفي حديث النبي ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»(٣) وعن الإمام الرضا عليه السلام: «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء».

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٣) نور الثقلين ٢: ٢٥٤ عن المجمع جاء في الحديث.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٩٧) وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٩٨) وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٩٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ (١٠١) وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٠٥) وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (١٠٦)﴾

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾:

تأتي ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ في عشرة كاملة من نصوص القرآن، في كلها تنديدات بهم إلّا واحد هو: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾[1] مما يدل على أنهم ككل إلا نزر قليل غارقون في الضلالة والمتاهة[2]، اللّهم إلّا نص ثان قد يعذرهم إذ لمّا يصلوا إلى الإيمان وهم يتحرون عنه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾[3].

ولا تعني ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ - على كل حال - الأمة العربية، إنما هي من العرب: الظهور، كإعراب الكلمة فإنه إظهارها في حالتها الأدبية في الجملة، والعربي هو الظاهر كما و﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[4] هو الظاهر المُظهر، وفي عربية القرآن ظهوران اثنان: أصل اللغة فإنها أعرب اللغات وأظهرها تأدية لمعانيها، وشاكلة البيان المتميز في القرآن. فهم - إذاً - أهل البوادي، البعيدون بطبيعة المناخ الصحراوي، عن الثقافة الإسلامية، سواء أكانوا من الأمة العربية أم سائر الأمم، دون اختصاص بمن يتكلم باللغة العربية، حيث اللغة ولا سيما العربية لا تُخرف أو تُضل حتى يكون المتكلم بها أشد كفراً ونفاقاً ممن سواهم، وأجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ممن سواهم.

فطبيعة البدوية المحشورة مع الدواب، غير المحشورة مع المثقفين في

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٩.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٦٩ - أخرج أبو الشيخ عن ابن سيرين قال: إذا تلا أحدكم هذه الآية ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ...﴾ [التوبة: ٩٧] فليتل الآية الأخرى ولا يسكت ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩].

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

الدين، والبعيدة عن مراكز الثقافة الإسلامية، إنها تبعدهم عن صالح العقلية الإنسانية فضلاً عن العقلية الإيمانية، حيث الغفلة والجفوة والجفاء كأنها أدغمت في طبايعهم، فهم إلى النسناس أقرب منهم إلى الناس.

إذاً فهكذا البلاد - مهما كانت عظيمة - البعيدة عن الثقافة الإيمانية بأي سبب كان، إنهم من هؤلاء الأعراب الذين ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا...﴾.

فلقد حق قول الرسول ﷺ: «مَن بدا جفا - من سكن البادية جفا»[1] وكان زيد بن صوحان يحدث فقال أعرابي: إن حديثك ليُعجبني وإن يدك لتريبني، فقال: أم تراها الشمال؟

فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال، قال زيد: صدق الله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا...﴾[2].

ففي حقل الكفر والنفاق نجد الأعراب ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فكفارهم أشد كفراً ممن سواهم، ومنافقوهم أشد نفاقاً ممن سواهم، وجهالهم بحدود ما أنزل الله على رسوله أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله وهذه الجدارة ناشئة من ظروف حياتهم القاسية العاصية المستعصية وما تنشئه في طباعهم من جفوة ونكدة، وبعد بعيد عن صالح المعرفة، فالمادية الأصيلة في حياتهم لها دور سائد صامد في القيم القمم عندهم من الحصائل المادية.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٦٩، الأول عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: من بدأ جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن، وما ازداد من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً، والثاني عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: من سكن..

(٢) المصدر أخرج ابن سعد وابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال:..

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٦٨ - أخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] قال: من منافقي المدينة ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧] يعني الفرائض وما أمروا به عن الجهاد.

فهم - إذاً - في ذلك الثالوث أردأ من المؤمنين، وهذه طبيعة الحال لمن سكن البادية، بادية بادية عن الثقافة الإسلامية مهما كانت مدنية متحضرة بالحضارة المادية.

لذلك نسمع متظافر الحديث يقول: «تفقهوا في الدين فإنه من لم يتفقه في الدين فهو أعرابي - عليكم بالتفقه في الدين ولا تكونوا أعراباً فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يزك له عملاً»[١].

وهذا هو المعني من حديث الصادق عليه السلام: «نحن بنو هاشم وشيعتنا العرب وساير الناس الأعراب»[٢] فالعرب هنا هم الظاهرون الباهرون، الفاهمون شرعة الحق بمشايعة الشرعة الهاشمية المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم والأعراب هم البدويون البعيدون عن ذلك.

وهكذا يُعنى من حديثه الآخر «نحن الناس وشيعتنا أشباه الناس وسائر الناس نسناس» حيث القصد من «شيعتنا» أشياع الحق الصُّراح القُراح، دون خليط بالباطل أياً كان.

إذاً ففي حقل الكفر والنفاق والجهل ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ بمعناها الصالح هم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ وجهلاً بحدود الله، وفي حقل الإيمان والوفاق والعلم، هم - بطبيعة الحال - أقل حظاً في هذه الزوايا الثلاث.

لذلك كله لم يبعث الله رسولاً قط من الأعراب: البدويين، وإنما من القرى مدناً وسواها: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[٣].

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢٥٤، الأول في الكافي عن علي بن أبي حمزة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:.. إن الله يقول في كتابه: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ...﴾ [التوبة: ١٢٢] والثاني فيه عن المفضل بن عمر قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:..

(٢) المصدر.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.

وحين يُهدي أعرابي لرسول الله ﷺ هدية فيرد عليه بأضعافها حتى يرضى يقول: «لقد هممت ألا أقبل هدية إلّا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو أوسي» لأن هؤلاء ليسوا من الأعراب البدويين.

ذلك، ومن قسوتهم أن «قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكنا والله ما نقبل فقال رسول الله ﷺ: وما أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»[1].

وهكذا نسمع تاريخ الأعراب قبل إسلامهم وبعده عن طابع الجفوة والفظاظة في نفوسهم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾:

﴿وَمِنَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين هم أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ مصلحيةَ الحفاظ على ظاهر الإيمان ﴿يَتَّخِذُ﴾ه ﴿مَغْرَمًا﴾ تألفاً، إذ لا يؤمن بالله حتى يكون إنفاقه في سبيل الله فيرجو ثواب الله، ثم ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ السيئة أن تدور بكم وتحور حولكم[2] جبراً لكسرهم - ولأقل تقدير - رجعاً لما أنفقوه من غنيمة وسواها، ولكن ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أنفسهم ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ إذ يرجع إنفاقهم النفاق عليهم وزراً ووبالاً، ولا تدور الدوائر المتربصة لهم على المؤمنين إلّا عليهم أنفسهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بقالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بحالهم وفعالهم، وهذه طبيعتهم الشريرة القاحلة الجاهلة إلّا من هدى الله.

---

(١) من حديث مسلم قال حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا حدثنا أبو أسامة وابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: قدم...

(٢) الدوائر هي الحالات والأزمنة التي تدور حول الإنسان بأعيانها وأشيائها وكأنها هيه وقد اختصت بالمواضع المكروهة التي تدور على الإنسان وتحيره أو تغيره.

ولأن المغرم من الغَرم وهو نزول نائبة بالمال، لازبة به، فقد خيِّل إلى هؤلاء أن الإنفاق في سبيل الله نائبة لازبة لا مخلص عنها، ثم الدائرة هي الحالة التي تدور بين مختلف الناس، وتتغلب على الحالات السيئة التي تحيط بمن تدور عليه، وهنا ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ تختص بهم سيئاتهم، فقد تدور على المؤمنين دوائر هي ابتلاءات لهم فهي لهم خيِّرة مهما تظهر بمظهر السيئة، بل وكضابطةٍ كلُّ ما يصيب المؤمن قضيةَ إيمانه هو خير له مهما كان عليه صعباً ملتوياً، وكل ما يصيب غير المؤمن قضيةَ فسقه فهو شر له مهما كان له سهلاً وفقاً لما يشتهيه.

إذاً ف ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ إخبار في موقف دعاء، وفي تقديم الظرف حصر لدائرة السوء فيهم وحسر عن المؤمنين، فمهما تربص الضالون بالمؤمنين دوائر السوء فليس ليصيبهم إلّا خير، وعليهم أنفسهم دائرة السوء.

فلقد رُدت عليهم دائرة السوء فلا تفلتهم، وتطبَّق عليهم فلا تدعهم، وهكذا نرى المنافقين الجُفاة كيف يعيشون ضنك الحياة الجهنمية هنا قبل الجحيم هناك: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ. . .﴾[1].

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾:

هؤلاء الأكارم بين أولئك اللئام هم نزر نذر حيث ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فلتة منهم في اللفتة إلى إيمان، وشذوذ عن البدوية البعيدة إلى منجزات الإيمان ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ في سبيل الله ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهناك

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

إنفاق مَغرم وهنا إنفاق مغنم، وعلّ جمعية القربات رغم إفراد ﴿مَا يُنفِقُ﴾ هي قضية جمعية النيات والطويات الصالحة في مختلف مجالات الإنفاق في سبيل الله.

هكذا ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ حيث أمر أن يصلي عليهم في صدقاتهم: «وصل عليهم» ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ وهنا الإفراد علّه يعني جنس القربة الشاملة لـ «قربات وصلوات» قربة لهم في الدارين حسب نياتهم واندفاعاتهم الإيمانية، ومن قربة لهم ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ جزاءً وفاقاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ عن قصوراتهم وتقصيرات لهم ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم.

فمهما كانت طبيعة الأعرابية بعض الجفوة والغفلة، ولكن الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق في سبيل الله، هما حسنيان عظيمتان يستحقون بهما قربة ورحمة.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾:

هنا زوايا ثلاث لهندسة الإيمان الصالح هي: ﴿مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ وهم كلهم ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ حيث الثلاث كلهم مصاديق لهم فلا تعنيان - إذاً - سبقاً زمنياً وأولية زمنية، إنما هما السبقة والأولية في الصبغة الإيمانية في مثلث الزمان، فالذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، أولئك هم مع هؤلاء على سواء ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ...﴾ بدرجاتها حسب الدرجات.

فرغم ما يهواه الخليفة عمر ومن ينحو منحاه لا رجاحة للمهاجرين على الأنصار لسبقهم عليهم في زمن الإيمان، ولا لهما فضل على الذين اتبعوهم بإحسان، فإن فواصل الزمان والمكان، والموقعية التأريخية والجغرافية

أماهيه ليست بالتي تفضّل زاوية من هذه الثلاث على الأخرى اللّهم إلّا بسبقة الصبغة الإيمانية مهما كان صاحبها بعيداً زماناً ومكاناً ونسبة عن الرسول ﷺ والذين معه(١).

فحين يهوى الخليفة إسقاط الواو بين ﴿وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ ليجعل الأنصار من أتباع المهاجرين لأنه منهم، يصرخ صارخ الحق: أين الواو يا خليفة رسول الله ﷺ؟! وخلافاً لما يهواه عمر نسمع الرسول ﷺ يبجل الأنصار أكثر من المهاجرين بكثير لأنهم نصروه أكثر منهم ومن ذلك قوله ﷺ: لولا الهجرة كنت امرءاً من الأنصار(٢).

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٦٩ - أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال: مر عمر برجل يقرأ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ...﴾ [التوبة: ١٠٠] فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ قال: أبي بن كعب، قال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم، قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا فقال أبي تصديق ذلك في أول سورة الجمعة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجُمُعَة: ٣]، وفي سورة الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، وفي الأنفال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].
وفيه أخرج أبو الشيخ عن أبي أسامة ومحمد بن إبراهيم التيمي قالا مر عمر بن الخطاب برجل وهو يقرأ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] فوقف عمر فلما انصرف الرجل قال: من أقرأك هذا؟ قال: أقرأنيها أبي بن كعب قال فانطلق إليه فانطلقا إليه فقال: يا أبا المنذر أخبرني هذا أنك أقرأته هذه الآية؟ قال: صدق تلقيتها من في رسول الله ﷺ قال عمر: أنت تلقيتها من في رسول الله ﷺ؟ قال فقال في الثالثة وهو غضبان: نعم والله لقد أنزلها الله على جبرئيل عليه السلام وأنزلها جبرئيل عليه السلام على قلب محمد ﷺ ولم يستأمر فيها الخطاب ولا ابنه فخرج عمر رافعاً يديه وهو يقول: الله أكبر الله أكبر، وفي تفسير الفخر الرازي ١٦ : ١٧١ روي أن عمر بن الخطاب كان يقرأ والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان، فقال له أبي: والله لقد أقرأنيها رسول الله ﷺ على هذا الوجه - بالواو - وإنك لبيع القرظ يومئذ بالمدينة فقال عمر: صدقت شهدتم وغبنا وفرغتم وشغفنا.

(٢) المصدر أخرج أحمد عن أنس قال قال رسول الله ﷺ اللّهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأزواج الأنصار ولذراري الأنصار الأنصار كرشي وعيبتي ولو أن الناس أخذوا شعباً وأخذت =

. . . .

= الأنصار لأخذت شعب الأنصار ولولا الهجرة كنت امرأً من الأنصار، وفيه عن معاوية بن أبي سفيان سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أحب الأنصار أحبه الله ومن أبغض الأنصار أبغضه الله، وفيه عن مسلم قال قال رسول الله ﷺ: آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار.

وفيه عن ﷺ أنه قال: اللّهم صلِّ على الأنصار وعلى ذرية الأنصار، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: لو سلك الناس وادياً وشعباً وسلكتم وادياً وشعباً لسلكت واديكم وشعبكم، أنتم شعار والناس دثار ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ثم رفع يديه حتى آتي لأرى بياض إبطيه فقال: اللّهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار، وقال ﷺ ألا إن عيبتي التي آوي إليها أهل بيتي وأن كرشي الأنصار فاعفوا عن مسيئهم واقبلوا من محسنهم، وقال ﷺ: لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر.

وفيه أخرج الطبراني عن السائب بن يزيد أن رسول الله ﷺ قسم الفيء الذي أفاء الله بحنين في أهل مكة من قريش وغيرهم فغضب الأنصار فأتاهم فقال: يا معشر الأنصار قد بلغني من حديثكم في هذه المغانم التي آثرت بها أناساً أتالفهم على الإسلام لعلهم أن يشهدوا بعد اليوم وقد أدخل الله قلوبهم الإسلام يا معشر الأنصار ولم يمن الله عليكم بالإيمان وخصكم بالكرامة وسماكم بأحسن الأسماء أنصار الله وأنصار رسوله ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ولو سلك الناس وادياً لسلكت واديكم أفلا ترضون أن يذهب الناس بهذه الغنائم والنعم والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ؟ فقالوا: رضينا، فقال: أجيبوني فيما قلت قالوا: يا رسول الله ﷺ وجدتنا في ظلمة فأخرجنا الله بك إلى النور ووجدتنا على شفا حفرة من النار فأنقذنا الله بك ووجدتنا ضلالاً فهدانا الله بك فرضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فقال: أما والله لو أجبتموني بغير هذا القول لقلت صدقتم، لو قلتم: ألم تأتنا طريداً فآويناك ومكذّباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك وقبلنا ما رد الناس عليك، لو قلتم هذا لصدقتم، قالوا: بل لله ولرسوله المن والفضل علينا وعلى غيرنا.

وفي نور الثقلين ٢: ٢٥٤ عن أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن بكر بن صالح عن القاسم بن بريد قال حدثنا أبو عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: إن للإيمان درجات ومنازل يتفاضل المؤمنون فيها عند الله؟ قال: نعم، قلت: صف لي رحمك الله حتى أفهمه، قال: إن الله سبق بين المؤمنين كما يسبق بين الخيل يوم الرهان ثم فضلهم على درجاتهم في السبق إليه فجعل كلّ امرئٍ منهم على درجة لا ينقصه فيها من حقه ولا يتقدم مسبوق سابقاً ولا مفضول فاضلاً، تفاضل بذلك أوائل هذه الأمة وأواخرها ولو لم يكن للسابق إلى الإيمان فضل على المسبوق إذاً للحق أواخر هذه الأمة أولها نعم ولتقدموهم إذا لم يكن لمن سبق إلى الإيمان الفضل على من أبطأ عنه ولكن بدرجات الإيمان قدم الله السابقين=

وحين لا يجرؤ عمر على هيبته وجرأته أن يسقط حرفاً واحداً من القرآن، فكيف يجرؤ مثل عثمان بن عفان أن يسقط أو يزيد سوراً أو آيات؟ والله تعالى ضمن صيانة القرآن عن كل تحريف وتجديف بتأكيدات منقطعة النظير كـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[1] وما أشبه.

وهنا ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ تشمل - فيما تشمل - سبقة هؤلاء الثلاث على هؤلاء الأعراب، فإن للقروية والبدو دوراً في تأخر الإيمان على أية حال.

لذلك يلحق هؤلاء الأكارم من الأعراب بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بعد «قربة لهم - و - في رحمته» وهنا التلحيق ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وذلك لعظيم الفوز في حقل الإيمان الصالح لغير الأعراب من السابقين الأولين.

ثم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ﴾ ليست لتفضل المتبوعين على التابعين، فإن المقتدي هدى مَن قبله قد يفوقه أو يساويه أو ينقص عنه، فحين يقول الله

= وبالإبطاء من الإيمان أخر الله المقصرين لأنا نجد من المؤمنين من الآخرين من هو أكثر عملاً من الأولين وأكثرهم صلاة وصوماً وحجاً وزكاة وإنفاقاً ولو لم يكن سوابق يفضل بها المؤمنون بعضهم بعضاً عند الله لكان الآخرون بكثرة العمل مقدمين على الأولين ولكن أبى الله عَزَّوَجَلَّ أن يدرك آخر درجات الإيمان أولها ويقدم فيها من أخر الله أو يؤخر فيها من قدم الله، قلت: أخبرني عما ندب الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين إليه من الاستباق إلى الإيمان؟ فقال: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ...﴾ [التوبة: ١٠٠] فبدأ بالمهاجرين الأولين والأنصار على درجة سبقهم ثم ثنى بالأنصار ثم ثلث بالتابعين لهم بإحسان فوضع كلّ قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده...

وفيه في روضة الكافي علي بن إبراهيم عن ابن أبي عمير عن عمرو بن أبي المقدام قال سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: خرجت أنا وأبي حتى إذا كنا بين القبر والمنبر إذا هو بأناس من الشيعة فسلم عليهم ثم قال: إني والله لأحب ريحكم وأرواحكم فأعينوني على ذلك بورع واجتهاد واعلموا أن ولايتنا لا تنال إلا بالورع والاجتهاد ومن أئتم منكم بعبد فليعمل عمله، أنتم شيعة الله وأنتم أنصار الله وأنتم السابقون الأولون والسابقون الآخرون، السابقون في الدنيا والسابقون إلى الجنة.

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

تعالى لرسوله ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[1] لا يعني أنه أدنى منهم، وإنما ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ فإنها هدى الله، دون هدى من سواهم فإنها متخلفة عن هدى الله.

فهكذا ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ﴾ اقتداءً بهداهم لأنها هدى الله، ولكلّ درجات مما عملوا حسب الدرجات.

فلا تفضل فواصل الزمان والمكان أم أياً كان بين رعيل الإيمان، إنما هو فاضل الإيمان، فصلاً بين أصل الإيمان وفصله، أم فصلاً بين درجات الإيمان، فقد يجمع بين علي عليه السلام وسلمان في هذه السبقة السبغة الإيمانية، وبينهما في الإيمان فصل الزمان، وقد جمع علي عليه السلام بين سبقي الزمان ومكانة الإيمان[2] فـ ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾[3] إنما تعني المعية الرسالية، دون أية معية أخرى.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٢) في ملحقات إحقاق الحق (٣: ٣٨٦) أن الآية نزلت بحق علي وسلمان عن ثمانية من فطاحل العامة وهم الثعلبي في تفسيره المخطوط رواه بسند عن علي عليه السلام أنه قال: أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذاب مفتر صليت قبل الناس سبع سنين، والموفق بن أحمد المكي في المقتل ص (٤٠) والقرطبي في تفسيره والهيثمي في الصواعق عن المحرقة ص (١٥٩) ومجمع الزوائد (٩: ١٠٢) وخواند مير في حبيب السير (٣: ١١) وابن تيمية في رسالة رأس الحسين ص (٢٣) كلهم رووا أنه عليه السلام هو السابق الأول، وابن مردويه في المناقب (كما في كشف الغمة ٩٤) روى أن السابقون الأولون علي وسلمان.
وفي الملحقات ١٤: ٣٣٣ - ٣٣٤ مستدركا عما في (ج ٣) ومنهم ابن قايماز الذهبي في ميزان الاعتدال (١: ٣٥) والعسقلاني في لسان الميزان (١: ٢٢٧) والأمر تسرى في أرجح المطالب (٧٤ و٢ و٣) والحسكاني في شواهد التنزيل (١: ٢٥٤) ومما رواه عن الحسن بن علي عليه السلام أنه حمد الله وأثنى عليه وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠] فكما أن للسابقين فضلهم على من بعدهم كذلك لعلي بن أبي طالب فضله على السابقين بسبقه السابقين، وروى عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في علي سبق الناس كلهم بالإيمان بالله وبرسوله وصلى القبلتين وبايع البيعتين وهاجر الهجرتين ففيه نزلت هذه الآية.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

فقد يفوق مؤمنون - في زمننا أم فيما نستقبل - مؤمنين زمن الرسول ﷺ حيث يحملون في إيمانهم معية رسالية فوق السابقين الأولين زمناً، ولذلك لما أنزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: هذا لأمتي كلهم وليس بعد الرضا سخط[1].

وفي رجعة أخرى إلى الآية نجد الهجرة في الله والنصرة لله هما الركنان الركينان في حقل الإيمان، فالمؤمن يتراوح بين مهاجرة بدين الله ومناصرة في دين الله.

فهنا ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ تعني متابعة المهاجرين في الهجرة المناصرة ومتابعة الأنصار في النصرة المهاجرة، فإنهما صبغتان سابغتان سابقتان في ميادين الإيمان.

وهنا الاتباع في كلا الهجرة والنصرة يحمل مثلثاً من المواصفات، عطفاً بسبقة وأولية، وردفاً ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾ فالذين اتبعوهم بإحسان في السابقة والأولية هم منهم أم وأعلى منهم إذا علوهم فيما هم فيه.

ذلك، وقد يتعلق ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾ إضافة إلى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ بـ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ أيضاً، فكما اتباعهم المرضي ليس إلّا بإحسان، كذلك المهاجرة والنصرة لا بد وأن تكونا بإحسان.

فالمؤمن أياً كان وأيان يعيش مهاجرة في دين الله ونصرة لدين الله والدينين، ومتابعة للمهاجرين والناصرين، دونما اختصاص بزمان دون زمان.

فقد يشكل صرح الإسلام مهندَساً بهذه الثلاث: والسبعة السابغة في

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٧١ - أخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعي حدثني يحيى بن أبي كثير والقاسم ومكحول وعبدة بن أبي لبابة وحسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: لما أنزلت هذه الآية...

هذه الثلاث هي المرضية عند الله مهما تأخر الزمن، وغيرها غير مرضية وإن سبق الزمن، فإنما القاعدة هنا هي أصل الإيمان بأبعاده، سواء أكان متقدماً أو متأخراً، إلا إذا كان في التقدم الزمني تقدم رتبي، كما والمتقدم الرتبي في المتأخر زمناً داخل في نطاق ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

١ - ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ٢ - «السابقون الأولون من الأنصار» ٣ - «السابقون الأولون من الذين اتبعوهم بإحسان» محلِّقة على مثلث الزمان منذ يوم البعثة إلى يوم البعث، وليس التقدم إلّا للأسبق الأسبغ في المهاجرة الحسنة والنضرة الحسنة مهما بعد الزمان والمكان، فهنا لا تتحكم فواصل الزمان والمكان لفاصل الإيمان، إنما الحُكم هنا لفاضل الإيمان مهما كان للمتأخرين في الزمان.

ثم الاتباع المحبور هنا بإحسان محظور هناك بغير إحسان، فمن إحسان الاتباع أن يكون على بصيرة تعني اتباع صُراح الحق، وهو بغير إحسان أن يكون على عمىً وعمهٍ دون أية بصيرة، فـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

وهنا الباء في ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ تعني كل السببية والمصاحبة والظرفية، اتباعاً بسبب إحسانهم أولاء في المهاجرة والنصرة، ومصاحباً للإحسان معرفياً وعملياً، وفي ظرف الإحسان بكل ملابساته الصالحة، وليس من اتباعهم بإحسان حسن القول فيهم مهما كانوا محسنين، ولو أنه يشمل حسن القول فيهم لم يشمل المسيئين من المهاجرين والأنصار الذين لا يرضى الله عنهم.

ثم سواء أكان السبق والأولية هنا في الزمان مع سبق الإيمان وأوليته في الكيان أم دون زمان، فالسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هم

(١) سورة الزمر، الآية: ١٨.

الرعيل الأعلى في حقلي الهجرة والنصرة أياً كانوا وفي أي زمان، إذاً ف ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ هم مَن دونهم في الثانية، وهم - إضافة إليهم - من يفوقهم أو يساويهم في الأولى.

ف «من» على أي الحالين تبعيضية إذ ليس كل المهاجرين والأنصار في القمة المرموقة المتبوعة من الإيمان حتى يصبحوا أئِمة المؤمنين.

ثم ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[(١)] ليست لتشمل كافة المؤمنين، إنما هم القمة في الإيمان، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[(٢)] فـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ...﴾[(٣)].

إذاً فلا يختص رضى الله بالمهاجرين والأنصار - الأصحاب - والتابعين، بل ولا تعمهم كلهم، إنما مرضاة الله تحلِّق على كافة المؤمنين المهاجرين في الله، المناصرين لدين الله، تابعين ومتبوعين، درجات حسب الدرجات ولا يظلمون نقيراً.

وإذاً فلا دور لأفضلية أبي بكر ومن أشبه لأصل المهاجرة والمناصرة، أم سبقه في الهجرة على علي عليه السلام حيث المقام بمكة بأمر الرسول ﷺ لإدارة شؤون المسلمين المحطَّمين أفضل من مصاحبة الرسول في الغار وإلى الهجرة، مهما كانتا - أيضاً - بأمره ﷺ حيث التضحية ليلة المبيت تفوق الصحبة في الغار.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾:

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٩.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٩٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

صحيح أن ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا...﴾[(١)] كأكثرية ساحقة أو مطلقة، ولكن ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۙ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أكثر من الأعراب، فـ ﴿مُنَٰفِقُونَۖ﴾ وصفاً لـ ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ تعني طليق النفاق، ثم ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ وصفاً لـ ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۙ﴾ تعني النفاق الطليق، وأين طليق النفاق من النفاق الطليق حيث ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾: تجرداً عن أي وفاق، فدخولاً في أي نفاق، حيث المرد هو الجرد وهو هنا التجرد عن أصول الإيمان وفروعه.

فأنت الرسول ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ علامةً وعِلْماً إذ هم متسترون في نفاقهم بما مردوا، وإنما ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ فـ ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ مرة لأصل نفاقهم، وأخرى لغلظه حيث ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾ وذلك ثالوث العذاب، فترى ما هما ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾ قبل ﴿عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾؟ هما عذاب في الدنيا وكما يروى[(٢)] وعذاب في البرزخ ومن ثم عذاب عظيم في الأخرى.

ذلك، وقد تعني ﴿مَرَدُواْ﴾ إلى ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۙ﴾ ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٧.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٧١ عن ابن عباس في الآية قال قام رسول الله ﷺ يوم جمعة خطيباً فقال: قم يا فلان فاخرج فإنك منافق فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم ولم يكن عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياءً أنه لم يشهد الجمعة وظن الناس قد انصرفوا واختبؤوا هم من عمر وظنوا أنه قد علم بأمرهم فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا فقال له رجل: أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم فهذا العذاب الأول والعذاب الثاني عذاب القبر، ورواه مثله أبو مالك، وفيه عن أبي مسعود الأنصاري قال: لقد خطبنا النبي ﷺ خطبة ما شهدت مثلها قط فقال: أيها الناس إن منكم منافقين فمن سميته فليقم قم يا فلان يا فلان حتى قام ستة وثلاثون رجلاً ثم قال: إن منكم وإن منكم وإن منكم فسلوا الله العافية فلقي عمر رجلاً كان بينه وبينه إخاء فقال: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ خطبنا فقال كذا وكذا فقال عمر: أبعدك الله سائر اليوم.

﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ حيث تعطف ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۙ﴾ إلى ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم. . .﴾ فهما - إذاً - ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ ومما يؤيده أن ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ فكيف تختص ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ بـ ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۙ﴾ فهم - كما هنا - يتقدمون على ﴿أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۙ﴾ لأن نفاقهم أشد وأمرد.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾:

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ من الأعراب، لا هم من المنافقين العاديين، ولا الماردين على النفاق والشقاق - وهما مشتركان في عدم الاعتراف بذنبهم نفاقاً مارداً وسواه - «فاعترفوا بذنبهم» في نفاقهم اعتراف التوبة أم لـمَّا يتوبوا وهم متحرُّون عنها، حيث الاعتراف بالذنب هو من تقدِمات التوبة وليس هو بنفسه التوبة، وهم قضيةَ اعترافهم بذنبهم - تابوا أم لـمَّا يتوبوا - ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ قضيةَ إيمان بعد اعترافهم ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ إذ لـمَّا يتوبوا توبة نصوحاً، أم تابوا وهم ناقصون فيها ناقضون إياها أحياناً ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فهم ﴿مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾[1] فإن عذبهم فبما يستحقون، وإن تاب عليهم فبما اعترفوا وعملوا صالحاً خليطاً بآخر سيئاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ وقد تدل ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أنهم تابوا.

فآيتا ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ و﴿مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ هما وسطٌ عوانٌ بين آيات تعد قاطع العذاب وأخرى تعد قاطع الرحمة والثواب، فالرحمة هي قضية اعترافهم بذنبهم ليتوب عليهم في سيئاتهم بعد توبتهم، والعذاب هو قضية ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ إذ لم يتوبوا أم لم تتم توبتهم وتطم، أم نقضوا توبتهم فتفلتت عنهم سيئات، فهم على أية حال من أهل النجاة بما اعترفوا وعملوا من

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.

الصالحات، وإنما الرجاء هنا بالنسبة لـ ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ فـ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ عساها ترجح توبته عليهم، دون «إما يعذبهم أو يتوب عليهم» فإن عساها مرددة بين الأمرين.

و﴿عَسَى﴾ هنا و«إما» هناك من الله لا تعني تردداً وترجياً لله، بل هما بيان لموقفهم من الله، أنه بين هذين دون تحتُّم لأحدهما.

ذلك، وفي رجعة أخرى إلى الآية، هنا عملاً في ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ قد تعم عمل الجانحة إلى عمل الجارحة، فإن كلًّا من الإيمان والعمل الصالح حين يفرد عن قرينه يشمل قرينه، فكما العمل الصالح هو من الإيمان كذلك الإيمان هو من العمل الصالح، بل هو أقدم وأحرى أن يسمى عملاً صالحاً، فقد ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ عقيدياً وعملياً وكذلك ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ فلم يخلص إيمانهم ولا عملهم عن سوءٍ، ولأنهم اعترفوا بذنبهم يوم الدنيا، حيث الاعتراف بعد الموت لا يفيد، بل وكلّ معترف بسيئاته شاء أم أبي، وإنما هو الاعتراف قبل الموت، مما يجعله كأنه تائب، فإن التائب عن الذنب كمن لا ذنب له، وغير المعترف مذنب، والمعترف بذنبه عوان بينهما، ولذلك قد يتوب الله عليه هنا بعد الموت إذا لم يكن مانع عن هذه التوبة الربانية، وهنا ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ بيان لظروف مختلفة في بعضها يتوب الله وفي بعض لا يتوب، وكل قضية الرحمة الصالحة الربانية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولو أن ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ اختصا بغير العقيدة والطوية، فـ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ هم غير العدول من المؤمنين وهم الأكثرية الساحقة منهم، إذ العدول قلة قليلة، والله يعد من رجحت حسناته على سيئاته، ومن يجتنب كبائر السيئات، يعدهم ومن أشبه، المغفرةَ والتكفير، فلا موقع لـ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ بل هو الذي وعد التوبة عليهم.

ولقد وردت روايات حول شأن نزولها[١] ولكنها كسائر القرآن ليست لتختص بمنزل خاص، فإنما العبرة بعموم اللفظ دون خصوص المورد.

وهنا ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ نص في الرجاء، إلّا أن الرجاء المنصوص من الله في العفو نص في العفو، فإن الله لا يعفو إلّا فيما يصلح فيه العفو ويصح، وأما ما لا يصلح أو يصح فلا مورد فيه لـ ﴿عَسَى﴾ ومما تلمح له ﴿عَسَى﴾ سلبياً أنهم قد يرجعون إلى ذنبهم ويموتون عليه، فكيف يعفى عنهم، فقد تعني ﴿عَسَى﴾ بما عنت، أنهم إن ماتوا على توبتهم فاللّه تائب عليهم.

وهنا مسائل مستفادة من آية الخلط: ١ - العمل الصالح لا يحبط بالعمل السيّئ اللّهم إلا فيما يستثنى بثابت النص وناصعه، كالإشراك بالله وما أشبه.

٢ - ﴿عَسَى﴾ من الله حتم، وعساه يعني فيما يقول ﴿عَسَى﴾ - إضافة إلى ما مضى - تدليلاً على أنه ليس ملزماً بالرحمة غير المستحقة، وإنما هي تفضل يعبر عنه بـ ﴿عَسَى﴾.

٣ - ﴿ٱعْتَرَفُواْ﴾ ماضياً دليل على سابق اعترافهم بذنبهم ثم ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل مستقبل التوبة المرجوة عليهم، وعلّ الفصل يعني تكميل التوبة حيث الاعتراف بالذنوب ليس نفسه التوبة، بل هو تقدمة لها.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٧٢ عن ابن عباس في الآية قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر النبي ﷺ إذا رجع في المسجد عليهم فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله ﷺ أوثقوا أنفسهم وحلفوا أنهم لا يطلقهم أحد حتى يطلقهم النبي ﷺ ويعذرهم، قال: وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا فأنزل الله عز وجل: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] وعسى من الله واجب إنه هو التواب الرحيم.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم[1] وغيرهم من أصحاب الأموال ﴿صَدَقَةً﴾ هي الزكاة المفروضة، ولأن ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ جمع مضاف يفيد الاستغراق، إذاً فمستغرَق الأموال هي كلها مجالٌ واسعٌ لأخذ واجب الصدقة، دون اختصاص بالتسعة الشهيرة، فحتى لو دل دليل على ذلك الإختصاص لكان ناسخاً لهذه الآية إذ لا تقبل ذلك التخصيص فإنه مستهجن، وإذ لا ناسخ لها في القرآن، بل الآيات الآمرة بالزكاة والصدقات هي بين مستغرِقة للأموال وصريحة في التخطي عن هذه التسعة[2] ثم السنة لو دلت على ذلك الاختصاص - ولا تدل - فليست لتنسخ القرآن على أية حال، لا سيما وأن قرابة مائة من الروايات تدل على تحليق الزكاة على كافة

---

(١) في قصة أبي لبابة يروي القمي في تفسيره. . . فلما كان بعد ذلك ورسول الله في بيت أم سلمة نزلت توبته فقال: يا أم سلمة قد تاب الله على أبي لبابة فقالت: يا رسول الله ﷺ أفأوذنه بذلك؟ فقال: لتفعلن فأخرجت رأسها من الحجرة فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك فقال: الحمد لله فوثب المسلمون ليحلوه فقال: لا والله حتى يحلني رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ فقال: يا أبا لبابة قد تاب الله عليك توبة لد ولدت من أمك يومك هذا لكفاك فقال يا رسول الله ﷺ أفأتصدق بمالي كله؟ قال: لا، قال: فبثلثيه؟

قال: لا قال فبنصفه؟ قال: لا قال: فبثلثه؟ قال: نعم، فأنزل الله: ﴿وَءَاخَرُونَ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٢-١٠٣] ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة.

أقول: وأبو لبابة هذا هو الذي خان رسول الله ﷺ حيث أرسله أميناً إلى بني قريظة لما حوصروا. فقالوا له: يا أبا لبابة ما ترى أننزل على ما حكم محمد، فقال: انزلوا واعلموا أن حكمه فيكم هو الذبح وأشار إلى حلقه ثم ندم على ذلك فقال خنت الله ورسوله ونزل من حصنهم ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ ومر إلى المسجد وشد في عنقه حبلاً ثم شده إلى الأسطوانة التي تسمى أسطوانة التوبة - إلى آخر القصة. .

(٢) كآية الأنعام: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

الأموال، واليتيمة القائلة «عفى رسول الله ﷺ عما سوى ذلك» إما مطروحة أو مأولة، إذ ليس من شأن الرسول العفو عما فرضه الله.

لذلك كله فهذه من عداد الآيات الدالة على تحليق الزكاة على كافة الأموال.

والقول إن ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ تبعِّض الأموال المأخوذة منهم لمكان «من» قرينةً على ذلك التبعيض؟ مردود بأن المأخوذ على أية حال بعض من المال الزكوي، فلا يصح «خذ أموالهم» وإنما ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: بعضاً من كل الأموال، ولو عنى البعض من البعض لكانت عبارته «خذ من بعض أموالهم».

ولأن ﴿خُذْ﴾ أمراً دليل الوجوب، فهو ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ المفروض الأخذ منها، فهو - إذاً - الزكاة المفروضة، أمّا شئت أن تسميه إذ لا مشاحة في الألفاظ.

وقد قدر ذلك البعض في البعض من الأموال بـ ٢ / ٥ - أو - ٥ - أو - ١٠ في المائة كضريبة لأقل تقدير، ومن ثم ضريبة غير مستقيمة مستفادة من آية العفو، وهو الزائد عن الحاجة المتعودة.

﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ تطهيراً لهم عن أدناس الأموال والذنوب والبخل وطموحات الفقراء، وتزكية لهم بترفيع درجات، فقد تعني ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ واجهة السلب: «لا إله» ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ واجهة الإيجاب «إلا اللّٰه» فقد تحلق كلمة التوحيد على كافة الأحوال والأموال دونما استثناء.

ثم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ مزيداً للرحمة ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ عما يعرضهم من بأس وبؤس في دفع الأموال واندفاع الأحوال.

ذلك وقد «كان رسول الله ﷺ إذا أتي بصدقة قال: اللّٰهم صلِّ على آل

فلان فأتاه أبي بصدقته فقال: اللَّهم صلِّ على آل أبي أوفى»[١].

ذلك، وليس ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ يختص بمن يأخذ من أموالهم صدقة، بل هو يعم المؤمنين على درجاتهم وكما يروى رحمته وصلواته الشاملة لهم[٢].

وترى ﴿خُذْ﴾ تعني الأخذ البدائي، أم الأخذ عند الإعطاء، أم تعنيهما قضيةَ طليق الأخذ الشامل لهما، فالذين يؤتون الصدقات المفروضة يأخذها رئيس الدولة الإسلامية، والذين لا يؤتونها يبعث عمالها ليأخذوها بحدودها وشروطها.

وظاهر النسبة في ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ أن الصدقة حق متعلق بذمم أصحابها دون عيون الأموال، ولكن واجب الأخذ منها يجعل مستحقيها شركاء لأصحابها فيها، ولا فرق بين زوال المال المستحق قبل إخراج زكاتها، بين تعلق الحق بأعيانها أم بالذمة، فإن فرط ضمن على أية حال.

ثم الأموال تشمل الحقوق المالية مع عيون الأموال، لأنها من الأموال كما العيون.

ولأن ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ لا مورد لهما إلا البالغين، إذاً فليست أموال غيرهم متعلقة للزكوات.

ولا بد أن يكون ذلك الأخذ مطهراً لهم ومزكياً، فالأخذ قهراً وغلظة غير مسموح، بل اللين المكين هو واجب الأخذ أدبياً.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٧٥ - أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن أبي أوفى قال: . . .

(٢) المصدر أخرج ابن أبي شيبة عن جابر بن عبد الله قال: أتانا النبي ﷺ فقالت له امرأتي: يا رسول الله ﷺ صل عليّ وعلى زوجي فقال: صلى الله عليك وعلى زوجك، وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن خارجة بن زيد عن عمه يزيد بن ثابت وكان أكبر من زيد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فلما وردنا البقيع إذا هو بقبر جديد فسأل عنه فقالوا فلانة فعرفها فقال: أفلا آذنتموني بها؟ قالوا: كنت قائلاً فكبر هنا أن نؤذيك فقال: لا تفعلوا ما مات منكم ميت ما دمت بين أظهركم إلا آذنتموني به فإن صلاتي عليه رحمة.

وهنا ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ خطاباً للنبي ﷺ يقرر أن الأخذ لا بد أن يكون من ناحية رئيس الدولة الإسلامية، وقد يحتمل أن ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ تعني الصدقة ثم ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ تعني الآخذ، فطبيعة الحال في الصدقات أنها تطهر أصحابها، ثم الآخذ الرسولي أو الرسالي يزكي أصحابها بها بما يرفع به من نفسيتهم، أم إن ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ تعم الآخذين إلى نفس الصدقة فإنهما مطهران.

ذلك، وهنا في أخذ الضرائب أدب بارع أن ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ وهكذا يجب أن يراعى الأدب والحنان في أخذ الصدقات، ومن نماذجها البارعة بعد النموذج الرسولي ما كتبه علي أمير المؤمنين إلى عمال الصدقات:

«انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروِّعنَّ مسلماً، ولا تجتازنَّ عليه كارهاً، ولا تأخذنَّ منه أكثر من حق الله في ماله - فإذا قدمت على الحي فانزِل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم امض إليهم بالسكينة والوَقار حتى تقوم بينهم فتُسلِّم عليهم، ولا تُخدج بالتحية لهم، ثم تقول:

عباد الله! أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائل: لا، فلا تراجعه، وإن أنعم لك منعِم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعِده أو تعسفه أو ترَهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإن أكثرها له، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه، ولا عنيف به، ولا تُنفِّرنَّ بهيمةً ولا تفْزعَنَّها، ولا تسوءنَّ صاحبها فيها، واصدع المال صدعين، ثم خيِّره، فإذا اختار فلا تَعَرَّضَنَّ لما اختاره، ثم اصدع الباقي صدعين، ثم خيِّره، فإذا اختار فلا تَعَرَّضَنَّ لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاءٌ لحق الله في ماله، فاقبض حق الله منه، فإن استقالك فأقله، ثم اخلِطهما، ثم اصنع مثل الذي صنعتَ أولاً

حتى تأخذَ حق الله في ماله، ولا تأخذنَّ عَوداً، ولا هَرِمةً، ولا مكسورةً، ولا مهلوسة، ولا ذات عَوار، ولا تأمَننَّ عليها إلَّا من تثق بدينه رافقاً بمال المسلمين حتى يوصِّله إلى وليهم فيَقسمه بينهم، ولا توكِّل بها إلَّا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً، غيرَ مُعنِّف ولا مُجحفٍ ولا مُلغِب ولا مُتعِب، ثم احدُر إلينا ما اجتمع عندك، نصيِّره حيث أمر الله فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه أن لا يحول بين ناقة وبين فصيلها، ولا يمصِّر لبنها فيضرَّ ذلك بولدها، ولا يَجهدنَّها رُكوباً، وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها، وليُرفِّه على اللّاغب، وليستعين بالنقْب والظَّالع، وليُوردها ما تمر به من الغُدرُ، ولا يعدل بها عن نبْت الأرض إلى جواد الطرق، وليروِّحها في الساعات، وليُمهلها عند النِّطاف والأعشاب حتى تأتينا بإذن الله بُدَّناً منُقيات، غير مُتعبَات ولا مجهودات، لنَقسمها إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فإن ذلك أعظم لأجرك، وأقرب لرشدك إن شاء الله» (الوصية ٢٥).

ومن عهد له عليه السلام إلى بعض عماله «وأمره أن لا يجبههم، ولا يعضههم، ولا يرغبَ عنهم تفضلاً بالإمارة عليهم، فإنهم الإخوان في الدين، والأعوان على استخراج الحقوق - وإن لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً، وحقاً معلوماً، وشركاءَ أهل مسكنة، وضعفاءَ ذوي فاقة، وإنا موّفوك حقك فوفِّهم حقوقهم، وإلّا فإنك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة، وبؤساً لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين، والسائلون والمدفوعون والغارم وابن السبيل، ومن استهان بالأمانة، ورتع في الخيانة، ولم ينزِّه نفسه ودينَه منها، فقد أحلَّ بنفسه في الدنيا الذُّل والخِزي، وهو في الآخرة أذل وأخرى، وإن أعظم الخيانة خِيانة الأمة، وأفظع الغِش غِش الأئمة والسلام» (العهد ٣٦).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾:

أجل، إنه فقط ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾[1] لا سواه، فإنه هو المعصي دون سواه، فكيف يقبل التوبة من سواه، فالخرافة الجارفة المسيحية أن الأقاسسة يغفرون الذنوب ويتوبون على العصاة، إنها تعني لهم ربوبيةً أمام الله، أم وكالة عن الله في غفران الذنوب وقبول التوبات! فليس لأحد قبول التوبة حتى رسول الله، فضلاً عمن سواه.

وهنا ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ تجعلنا نراعي كل حرمة وتبجيل لأيدي الفقراء، إذاً فحق للمتصدق أن يسترجع ما تصدق ويقبّله ثم يرجعه[2] كما على الأخذ مثل ذلك.

ذلك لأن الآمر بالصدقة هو الله، ففي أخذها وإيتائها ملتقى يد الله،

---

(١) سورة غافر، الآية: ٣.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٧٥ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما من عبد يتصدق بصدقة طيبة من كسب طيب ولا يقبل الله إلّا طيباً ولا يصعد إلى السماء إلّا طيب فيضعها في حق إلّا كانت كأنما يضعها في يد الرحمن فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى أن اللقمة أو التمرة لتأتي يوم القيامة مثل الجبل العظيم وتصديق ذلك في كتاب الله العظيم: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وفي نور الثقلين ٢: ٢٦١ عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه وإذا ناولتم السائل شيئاً فسلوه أن يدعو لكم فإنه يجاب له فيكم ولا يجاب في نفسه لأنهم يكذبون، وليرد الذي يناوله يده إلى فيه فيقبلها فإن الله عزّ وجلّ يأخذها قبل أن تقع في يده كما قال عزّ وجلّ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وفيه عن تهذيب الأحكام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله لم يخلق شيئاً إلا وله خازن يخزنه إلّا الصدقة فإن الرب يليها بنفسه وكان أبي إذا تصدق بشيء وضعه في يد السائل ثم ارتده منه فقبله وشمه ثم رده في يد السائل.

وفيه عن تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول الله ﷺ: خصلتان لا أحب أن يشاركني فيهما أحد، وضوئي فإنه من صلاتي وصدقتي من يدي إلى يد السائل فإنها تقع في يد الرب.

وفيه كان علي بن الحسين عليه السلام إذا أعطى السائل قبل يد السائل فقيل له: لِمَ تفعل ذلك؟ قال: لأنها تقع في يد الله قبل يد العبد وقال: ليس من شيء إلا وكل به ملك إلا الصدقة فإنها تقع في يد الله.

وكما على مؤتيها كامل الحرمة عند إيتائها، كذلك على آخذها حيث يأخذها من يد الله، فهنا ملتقىً رباني على طرفي الإيتاء والأخذ أن يراعيا حرمة التصدق في سبيل الله، ولأن الآخذ قد يحس بذُلّ فقد يحق على المؤتي أن يسبقه إلى ذلك تطامناً لأمر الله وتضامناً مع الآخذ وترفيعاً لمنزلته، إضافة إلى أن النص أن الله ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ فليرجح جانب الآخذ لها على مؤتيها.

وصحيح أن الآخذ هنا هو رسول الله ﷺ: خذ من أموالهم، ولكنه أخذٌ بأمر الله، فالله هو الآخذ في الحق كما ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(١) ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(٢).

وقد يلمح قرن ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ بـ ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ بأن الصدقة هي من مصاديق التوبة، ولم لا؟ وهي تطهر وتزكي أصحابها!.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

﴿وَقُلِ﴾ لكلا الصالحين والطالحين ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ على مكانتكم، فليس العمل أيّاً كان يذهب هباءً منثوراً، بل هو ثابت منشور في المسجلات الربانية، صوتية وصورية ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ ما ستعملونه هنا ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ بما يشهده الله ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الأئمة هنا وغيرهم يوم يقوم الأشهاد، فمهما خفيت هنا رؤية الله عن الجاهلين بالله فضلاً عن رؤية رسول الله، ثم ولم تكن هنا رؤية للمؤمنين بالله ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ كما كان يراه ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ كما كان يريه الله ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بعد أن لم يكونوا يرون مهما كان

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

يراه أئمة المؤمنين كما الرسول ﷺ[1] فالرؤية الربانية مستمرة هنا ويوم يقوم الأشهاد، بل وقبل العمل حيث يعلمه الله من قبل ومن بعد، والرؤية الرسولية هي بعد العمل بإراءة الله، وهكذا الرؤية الرسالية لعترته المعصومين عليهم السلام، والرؤية لسائر المؤمنين هي يوم يقوم الأشهاد.

فلا تعني ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ أصل الرؤية بالحيطة العلمية، بل هي واقعها المشهود يوم الجمع لأهل الجمع فضلاً عن الله.

وهذه نُبهة الغافلين والمتجاهلين كأن الله لا يرى أعمالهم، فضلاً عن رسوله والمؤمنين، وأما الله تعالى شأنه فـ : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] فلا يفلت أي عمل من أي عامل هباءً انمحاءً في الهواء، بل الأعمال مسجلة في سجلاتها التي قررها الله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[3]: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[4]، وهكذا ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[5]: رداً إلى حسابه وجزائه.

ذلك، فقد استعملت «سيرى» في مختلف معانيه ومصاديقه، مما يدل على جواز استعمال اللفظ في معان عدة، فإن رؤية الله بعد رؤية العلم في أصله هي رؤيته بما يُرى الناس أنه كان يرى، ثم رؤيته حساباً للأعمال،

(١) نور الثقلين ٢ : ٢٦٢ عن العياشي عن بريد العجلي قال قلت لأبي جعفر عليه السلام في قول الله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ١٠٥] فقال: «ما من مؤمن يموت ولا كافر يوضع في قبره حتى يعرض عمله على رسول الله ﷺ وعلي فهلم إلى آخر من فرض الله طاعته على العباد»، أقول: وهذا متظافر معنوياً في روايات عدة.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

ومن ثم رؤية جزاء الأعمال، وهما منذ الموت، و﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ تعمها كلها مهما كانت الرؤية الأولى دائمة خارجة عن «سيرى».

ثم رؤية الرسول هي رؤية الشهادة - بما تلقاه من الأعمال يوم يقوم الأشهاد -، ورؤية ما كتبه الكرام الكاتبون، وسائر المرئي مما تنطق به الجوارح والأرض بفضائها.

ومن ثم رؤية المؤمنين فإنها رؤية دون الرسول ﷺ إلّا ما هي للأئمة من آل الرسول ﷺ.

والمستقبل المستفاد من «سيرى» هو لجمعية الرؤية إلّا ما كانت ظاهرة حاصلة من ذي قبل.

وقد تعني «سيرى» طليق مستقبل الرؤية في النشآت الثلاث، ومن ثَم «ثم تردون» هي رؤيته الأخيرة يوم الأخير رداً إلى جزاء الأعمال.

و﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ للصالحين تحريض على صالح الأعمال، وللطالحين تعجيز بمستقبل الأعمال، إذ لا يفلت عنه تعالى فالت ولا يعزب عازب، فكله لازب من صادق وكاذب.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إنباءً عملياً إظهاراً لملكوت أعمالكم بعد ظهورها بكل مظاهرها المرئية: ولو أن أحدكم يعمل في صخرة صمّاء ليس لها باب ولا كُوَّة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان[1].

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾:

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ هنا هم غير ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾[2] لمكان «آخرون»

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٧٦ عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: . .

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

بعد «آخرون» الأولون، فهم أولاء ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ والآخرون الأولون فقط ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[١] دون «أو يعذبهم» فهم - إذاً - أبعد حالاً ومآلاً منهم، ولكن نفس «إما» تجويزاً لـ ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ قد تفرض برحمته الواسعة أن يتوب عليهم، حيث الرحمة سابقة على العذاب ما كان إليها سبيل، ولم يكن العذاب مفروضاً لكي يكون تركه مرفوضاً في عدل الله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ بما يصنع بهم، فهناك لمن ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] قضية ذلك الخلط، وهنا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قضية ما هو أدنى من ذلك الخلط، فمن هم - إذاً - ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾؟.

هؤلاء.... ثم إنهم دخلوا في الإسلام فوحدوا الله وتركوا الشرك ولم يعرفوا الإيمان بقلوبهم فيكونوا من المؤمنين فتجب لهم الجنة، ولم يكونوا على جحودهم فيكفروا فتجب لهم النار، فهم على تلك الحال ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[٤].

وأما المستضعفون الذين ليسوا من المؤمنين ولا الكافرين، فإن كان استضعافهم قصوراً مطلقاً فلا يستحقون عذاباً مطلقاً قضيةَ عدم التقصير، وإن كانوا مستضعفين بتقصير فهم صنوف مِنهم مَن هم مرجون لأمر الله، فليس المستضعفون ككّل منهم[٥].

ذلك، فهم على أية حال بين الإيمان والكفر، وبينهما منازل منهم

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٤) نور الثقلين ٢: ٢٦٥ في أصول الكافي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ...﴾ [التوبة: ١٠٦] قال:...
(٥) المصدر في تفسير العياشي قال حمران: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المستضعفين؟ قال: هم ليسوا بالمؤمن ولا بالكافر وهم المرجون لأمر الله.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وبينهما المستضعفون، وبينهما آخرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً[1].

فبالكفر يستحق النار وبالإيمان يستحق الجنة، فالعوان بينهما لا يستحق ناراً ولا جنة، ولأن دار الحساب لا تخلو من جنة أو نار، فهم - إذاً - من أهل الجنة قضيةَ رحمة الله الواسعة، ثم المقصرين غير الكافرين مُرجون لأمر الله إما يعذبهم بما قصَّروا، أو يتوب عليهم بما قصروا فـ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾[2].

فهؤلاء الآخرون ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[3] وهم بين من ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[4] ومن هم ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ و﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ تقدم الأوَّلين حيث الآخرون ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ قضية استحقاق للعذاب[5].

وعلى أية حال هم التائبون لمكان ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ حيث التوبة من الله ليست إلّا بعد التوبة من العبد.

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٢٦٦ عن تفسير العياشي عن الحارث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته بين الإيمان والكفر منزلة؟ فقال: نعم ومنازل لو يجحد شيئاً منها أكبه الله في النار وبينهما آخرون. . .

(٢) سورة النساء، الآيات: ٩٧-٩٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

(٥) تفسير الفخر الرازي ١٦ : ١٩١ قال ابن عباس نزلت هذه الآية في كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية فقال كعب: أنا أفره أهل المدينة جملاً فمتى شئت لحقت الرسول فتأخر أياماً وأيس بعدها من اللحوق به فندم على ضيعه وكذلك صاحباه فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قيل لكعب: اعتذر إليه من ضيعك، فقال: لا والله حتى تنزل توبتي وأما صاحباه فاعتذر إليه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما خلفكما عني؟ فقالا: لا عذر لنا إلا الخطيئة فنزل قوله =

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ

= تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦] فوقهم الرسول ﷺ بعد نزول هذه الآية ونهى الناس عن مجالستهم وأمرهم باعتزال نسائهم وإرسالهن إلى أهاليهن فجاءت امرأة هلال تسأل أن تأتيه بطعام فإنه شيخ كبير فأذن لها في ذلك خاصة وجاء رسول من الشام إلى كعب يرغبه في اللحاق بهم فقال كعب: بلغ من خطيئتي أن طمع فيّ المشركون، قال: فضاقت علي الأرض بما رحبت وبكى هلال بن أمية حتى خيف على بصره فلما مضى خمسون يوماً نزلت توبتهم ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [التوبة: ١١٧] و﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [التوبة: ١١٨].

ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

هنا آيات أربع تتحدث عن أخطر مشاكلة لعارم النفاق ومارده أن يُتخذ بيت الله إرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، يواجههم الله بشديد النكير والتعبير، كما ويؤمر الرسول ﷺ بإحراقه، ونراه لحد الآن غير عامر بأية عمارة:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾:

فلذلك البنيان قواعد أربع لعينة - مهما سمي مسجداً - هي: «ضراراً - كفراً - تفريقاً - إرصاداً» يكفي كل واحدة من هذه القواعد لكي يُهدَّم ذلك المسجد تهديماً، للمحادَّة والمشاقة الكافرة ضد بنيان الإيمان الرصين.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ علّها عطف على السابقين من صنوف المنافقين لمكان الواو، وأنه ليس له خبر حتى نهاية الآيات الأربع، لكن الخبر على أية حال ضرورة لـ «الذين» وعلّه هو خبر لمبتدأ محذوف هو «ومن هؤلاء المنافقين الماردين». . . وما أشبه، أم خبره «هم من مردة المنافقين» وما أشبه، ثم لا فرق أن تكون الواو عاطفة أم استئنافية.

ف ﴿ضِرَارًا﴾ هي الغاية الأولى لاتخاذ مسجد الضرار، مضارة بمسجد قبا الذي أسس على التقوى، وبأهله المؤمنين الآهلين للمحبة والوداد، وذلك الضرارُ هو من محاربة المسجد بالمسجد، هو من أخطر الضرار ضد كتلة الإيمان، فلتكن المساجد وسائر الأبنية الإيمانية متناصرة إلى توحيد الكلمة وكلمة التوحيد، وتوحيد صفوف المؤمنين وتوطيدهم بصفوفهم، فأما إذا كانت لهدف الضرار فلا قيام لها ولا إقامة لصلاة فيها.

ومهما كان التنديد الشديد هنا بمربع الشيطنات ولكن كل واحدة منها محظورة على حدها ومدها.

ف ﴿ضِرَارًا﴾ هي ضابطة ألّا ضرار في الإسلام، وإنما هو مقابلها ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] ثم المعبر عنها ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[2].

فكل إضرار وضرار ممنوع في شرعة الله، اللّهم إلّا الاعتداء بالمثل حسب الحدود المقررة في شرعة الله.

وكما أن التعاون على البر والتقوى يعم كل النواميس الخمس، كذلك

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

الضرار والتعاون على الإثم والعدوان يشملها كلها، وكلٌّ محبورٌ أو محظورٌ على حدِّه.

فخلق جو الضرار، ابتداءً ممن يضر بأخيه فيدفعه إلى الدفاع ثم هلم جراً، ذلك ضرار محظور في شرعة الله، فحين تضر بغيرك ولا دفاع فهذا إضرار دون ضرار، فمحظور في أصله، ولكن الإضرار الذي يجلب الدفع اعتداءً بالمثل أم يزيد، فمحظور في أصله ونسله حيث يخلف جو الضرار بين الجماهير، وذلك تعاون على الإثم والعدوان.

والحكم الضرري ليس من الإسلام ابتداءً أو استمراراً، مما يحلق على سلب الشرعية عن كل حكم يخلِّف ضرراً على المسلمين فرادى وجماعات، اللَّهم إلا الأحكام الضررية في موضوعاتها بدائياً كأصل دائمي أو أكثري، ومن الأوّل الإنفاقات المجانية، ومن الثاني الجهاد أمراً بالمعروف أو نهياً عن المنكر أو قتالاً في سبيل الله.

وأما الأحكام غير المبتنية على الضرر كلًّا أو في الأكثر فلا تحمل إضراراً فردياً أو جماعياً فليست إذاً إسلامية، كتصبر الزوجة على حياة سيئة بئيسة مع زوجها سواء انضرت فقط هي بها أم هي حياة المضادّة المضارَّة، وكما تؤيدها آيات الحظر عن الزواج الذي فيه ترك لحدود الله، حيث الإبقاء عليه تثبيت لتركها فمعارضة بين حكمي الله.

وهكذا تكون الصلاة المضرة والوضوء المضر والحج والصوم المضران وما أشبه، إذ إن الله يريد بنا اليسر ولا يريد العسر، فالقول بأن الحالة الضارة الفلانية محكومة بحكم الله، قول بالإضرار في حكم الله.

ذلك، فلا يباح أي مباح فيه إضرار بالنفس أو بالغير، أمّا يغلب ضره على نفعه وكما يقول الله في الخمر والميسر ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ

﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾[١] ففي الضر أو الإضرار دون أي نفع يكون الحظر أكثر.

وأما فعل الواجب أو ترك المحرم إذا كان في أحدهما إضرار بالغير كأصل فهو محرم دون ريب، إلّا إذا كان الغير ينضرُّ به دونما مبرر، كالذي يغضب إذا أنت تصلي أو تؤدي فرضاً آخر أو تترك محرماً، إنما الضرر أو الإضرار المحظور هو الضرّ بحالة عاديّة غير عادية معتدية.

فكل مضرٍّ في شرعة الله محرم حتى تعلّمه: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[٢] وهكذا المضارة في كل حقولها من حقل الزوجية: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾[٣] و﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾[٤] وفي المبايعة: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾[٥] وفي الوصية: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾[٦].

ذلك، والاستقراء الأحكامي يؤكد تحليق الحظر على كل ضر وإضرار من قِبَلنا، فترى - إذاً - يحكم الله بأحكام تضر بنا أو تجعل مضارة بيننا، ومهما كان في بعض الموضوعات كالأمر والنهي والجهاد أضرار فهي مجبرة بمنافع دنيوية أو أخروية أم فيهما.

ذلك ولا فحسب هنا ﴿ضِرَارًا﴾ بل ﴿وَكُفْرًا﴾ أن تكون الغاية لبناية المسجد الكفر بالله، محاولة لحمل جماعة على الكفر، ولآخرين على أن يكون لهم مكاناً ومكمناً ونادياً.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٢.

ومن ثم ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ باسم الإيمان، وأخيراً ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ ليكون لهم مرصداً مقوياً لساعد الكفر ومكسِّراً لساعد الإيمان.

فقد جاءه ﷺ قوم من المنافقين فقالوا: يا رسول الله ﷺ أتأذن لنا فنبني مسجداً في بني سالم للعليل والليلة المطيرة والشيخ الفاني، فأذن لهم رسول الله ﷺ وهو على الخروج إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله لو أتيتنا فصليت فيه؟ فقال: أنا على جناح الطير فإذا وافيت إن شاء الله أتيته فصليت فيه، فلما أقبل رسول الله ﷺ من تبوك نزلت هذه الآية في شأن المسجد وأبي عامر الراهب، وقد كانوا حلفوا لرسول الله ﷺ أنهم يبنون ذلك للصلاح والحسنى فأنزل الله هذه الآيات الأربع(١).

فهنا ﴿ضِرَارًا﴾ خطوة أولى منافقة ضد الإيمان والمؤمنين، ثم ﴿وَكُفْرًا﴾ هو ضد رسول الإيمان محاولة لإخراجه عن مهجره كما أخرج عن عاصمة دعوته ثم ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بذلك الضرار أن يتفرقوا بعضهم عن بعض(٢) وبذلك الكفر أن يتفرقوا عن رسول الله ﷺ، ومن ثم ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ وهم أبو عامر الراهب ورهطه(٣) ومن أشبه هؤلاء.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢٦٦ في تفسير علي بن إبراهيم حول الآية... وفي الدر المنثور ٣: ٢٧٦ عن ابن عباس في الآية قال: هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة سلاح فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا عند فراغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة فأنزل الله ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا...﴾ [التوبة: ١٠٨] وفيه عن قتادة في الآية قال: إن نبي الله ﷺ بنى مسجداً بقبا فعارضه المنافقون بآخر ثم بعثوا إليه ليصلي فيه فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك.

(٢) وذلك لأن المنافقين قالوا: نبني مسجداً فنصلي فيه ولا نصلي خلف محمد ﷺ فإن أتانا فيه صلينا معه وفرقنا بينه وبين الذين يصلون في مسجده فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة وبطلان الألفة.

(٣) أبو عامر هذا والد حنظلة غسيل الملائكة، وسماه رسول الله ﷺ الفاسق وكان قد تنصر =

فاتّخاذ مسجد ضراراً وكفراً و. . . هو من ضابطة ثابتة مدروسة من شيطنات المنافقين أن يحاربوا الدين بالدين والدينين بالدينين، حرباً ضارية مختلقة بين مظاهر الدين وأصله، فصلاً للدينين عن الدين وللدّين عن الديِّنين.

ذلك ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾: النية الحسنى، والعملية الحسنى، فالبداية الحسنى والغاية الحسنى، توسعة للضعاف ولأمكنة العبادة، وتوفيراً على جموع المسلمين، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في حلْفهم.

ويا لمسجد الضرار من أخطار، فقد اتُخذ على عهد الرسول ﷺ كما نسمع الله يقول، مكيدة على الإسلام والمسلمين، إضراراً بهم وكفراً بالله وبرسوله، وستر المتآمرين على المؤمنين، الكائدين لهم في الظلام والعتام، والتعاون ضدهم مع أعدائهم، ولمّا يقوى ساعد الجماعة المؤمنة في المدينة، فهو أول كيد لئيم ضد الإسلام ورسول الإسلام والذين آمنوا معه.

وذلك المسجد ليس ليقف عندما اتخذ زمن الرسول ﷺ بل هو لا يزال يتخذ في شتى الصور الكائدة، بنشاط ظاهر للإسلام ومكيدة باطنة لسَحق الإسلام وتشويهه وتمويهه وتمييعه، ككل الأحزاب المتترسة وراء أسماء براقة، المتحاربة مع بعضهم البعض وكل باسم الإسلام، تتخذ على مدار الزمن في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها تترسُّاً وراءها ضده، وفي صورة تشكيلات وتنظيمات ودعايات وادعاءات تتحدث عن الإسلام، ولكنها تكمن محق الإسلام ومحوه، وهذه شيطنة خطيرة ماكرة هي أخطر من الجاهرة.

= في الجاهلية وترهب وطلب العلم فلما خرج رسول الله ﷺ عاداه لأنه زالت رياسته وقال: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ولم يزل يقاتله إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن خرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر وآتٍ من عنده بجند فأخرج محمداً وأصحابه فبنوا هذا المسجد وانتظروا مجيء أبي عامر ليصلي بهم في ذلك المسجد.

وهنا الإذاعة القرآنية ترسم صورة حافلة بالحركة عن مصير كل مسجد ضرار يتخذ إلى جوار مسجد أسس على التقوى، لتقوى الطغوى وتضعف التقوى.

فكما المسلمون يد واحدة بألسنتهم وألوانهم وقومياتهم وإقليمياتهم وطبقاتهم العدة، كذلك - وللحفاظ على صالح الوحدة - يحظر عليهم اختلاق مختلف الجمعيات بمختلف التسميات التي تفضل بعضهم عن بعض ولا سيما باسم الإيمان.

فلا تسمح لجماعة عدة أن تتسمى باسم «حزب الله» أما أشبه بتنظيم خاص متميز أم سواه، حيث تعد - إذاً - سائر المسلمين خلاف حزب الله فهم حزب الشيطان!.

وهكذا اختلال أسماء وسمات عامة إسلامية لجماعة خصوص كجمعية أنصار محمد ﷺ وأنصار القرآن أو أنصار الله، مما تجعل المسلمين شذر مذر، تناسياً للفاعليات والقابليات الإسلامية والإيمانية وتغاضياً عنها إلى أسماء ليست لها مسميات خاصة.

ذلك، وكما أن التسمِّي باسم الإيمان لغير المؤمن محظور، كذلك اختصاص اسم الإيمان وما أشبه من أسماء عامة للمسلمين، ذلك الاختصاص بفرقة دون آخرين هو اختصاص ضرار، يعمل بين المسلمين تضاداً خاوياً عن أي أصل إلا مختلق هذه الأسماء المحتلة.

ذلك والضرار بدركاته ليس إلا من الأشرار، ولا سيما المعنون بعناوين الأخيار، كالمسجد الضرار، وإمامة الجماعة الضرار، وتأسيس حفلات الضرار، والدروس الضرار، فكلما كان الضرار أضر بالمسلمين وبالإسلام، كان أشر وأخطر، يجب على المسلمين الحياد عنه دفاعاً صارماً لكيلا يفشو بين المسلمين فيتفشى الفساد بينهم في أي من النواميس الخمس.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

نهي صارم عن القيام في مسجد الضرار، فلا تصلح أو تصح فيه صلاة من الرسول ﷺ والذين معه، فلماذا - إذاً - يبقى قائماً على ساقه؟ ألكي يستمر الضرار والكفر والتفريق والإرصاد؟

لذلك أمر رسول الله ﷺ بإحراقه بمن فيه وما فيه حيث كان فيه ما فيه[1]، ثم لم ير التاريخ الإسلامي بعد إحراقه عمارة وبنياناً في مكانه لأي غرض كان.

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ وهو مسجد قباء أول مسجد بني في الإسلام[2] أو مسجد النبي ﷺ، أم هما وأمثالهما، وقد يروى

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٧٦ عن أبي رهم كلثوم بن الحصين الغفاري وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة. . . . فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أحد بلعجلان فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرج يشتدان وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه.

(٢) تضاربت الروايات في المعني من ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٨] منها المروي عنه ﷺ أنه مسجدي هذا، ومنها الجامع بينهما كما في الدر المنثور ٣: ٢٧٧ عن أبي سعيد الخدري قال: اختلف رجلان رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ وقال العمري: هو مسجد قباء فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: هو هذا المسجد لمسجد رسول الله ﷺ وقال: في ذلك خير كثير يعني مسجد قباء، ورواه مثله بحذف ذيله سهل بن سهل الساعدي وأبي بن كعب وزيد بن ثابت.

وفيه عنه ﷺ قال: صلاة في مسجد قباء كعمرة، وروي بطرق عدة عنه ﷺ أن قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ. . .﴾ [التوبة: ١٠٨] نزلت بشأن أهالي مسجد قبا وفي نور الثقلين ٣: ٢٦٧ وفي الكافي عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن المسجد الذي أسس على التقوى قال: مسجد قبا، وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام مثله.

عنه ﷺ أنه قال: هو مسجدي هذا، وفي أخرى أنه مسجد قباء، والجمع بينهما أن قبا تنزيلها ومسجد النبي ﷺ تأويلها، ومن تأويلها كل مسجد أسس على التقوى، كما ومن تأويل مسجد الضرار كل مسجد أسس على الطغوى.

فذلك المبني عن التقوى ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ فإن ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ بطهر الإيمان والتقوى خلاف هؤلاء المنافقين الذين يحبون أن يندلسوا أو يدلّسوا ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾.

فلمسجد التقوى أساسان اثنان: ١ - ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾، و٢ - ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ - طهارة تعاكس مربع الدناسة لأهالي مسجد الطغوى -[1]، كما لمسجد الطغوى اثنان آخران: ١ - أسس على الطغوى، ٢ - وفيه رجال يحبون أن يتدهوروا ويطغوا:

﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩﴾:

فمن «بنيانه على تقوى من الله أنه لما أسس رسول الله ﷺ المسجد الذي أسسه على التقوى كان كلما رفع لبنة قال: اللهم إن الخير خير الآخرة، ثم يناولها أخاه فيقول ما قال رسول الله ﷺ حتى تنتهي اللبنة

---

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٦: ١٩٦ روى صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكت القوم، ثم أعادها، فقال عمر: يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم فقال ﷺ أترضون بالقضاء؟
قالوا: نعم، قال: أتصبرون على البلاء؟ قالوا: نعم، قال: أتشكرون في الرخاء؟ قالوا: نعم قال: مؤمنون ورب الكعبة ثم قال: يا معشر الأنصار إنّ الله أثنى عليكم فما الذي تصنعون في الوضوء؟ قالوا: نتبع الماء الحجر فقرأ النبي ﷺ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ...﴾ [التوبة: ١٠٨].

منتهاها، ثم يرفع الأخرى فيقول: اللّهم اغفر للأنصار والمهاجرة، ثم يناولها أخاه فيقول ما قال رسول الله ﷺ حتى تنتهي اللبنة منتهاها»[١].

هذا «وكل عبادة مؤسسة على غير التقوى فهي هباءٌ منثور» طغوى[٢] فالمؤمنون الذين وضعوا المسجد على قواعد من الإيمان وأساس من الرضوان.

أذلك خير ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾: قائم على حافة جرف منهار، على تربة مخلخلة مشرفة على الانهيار، فكأنهم وضعوه على شفا جرف هارٍ متقوض، وأساس واه منتقض - إذاً - فكأنما انهار بهم في نار جهنم، فأيهما خير في قسطاط الحق والعدل؟

فلنقف لحظات متطلّعين إلى بناء التقوى وبناء الطغوى، التقوى الراسي المطمئن الراسخ، والطغوى الجاسي المتزلزل الفاسخ، المنزلق المتأرجح المتزحلق، المنهار في نار جهنم.

إنه مشهد عُجاب، حافل بالحركة المثيرة المغيرة ليُطَمئن البُناة على أساس التقوى على مسيرهم، إلى مصيرهم النور، في مواجهة دعاة الكفر والنفاق والطغوى على مسيرهم إلى مصيرهم النار.

فهذان هما صراط الحق لأهليه، وصراط الباطل لأهليه، «فهنيئاً لأهل الرحمة رحمتهم، وشنيعاً لأهل النار مثواهم»[٣] وزحمتهم.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٧٩ - أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: لما أسس..

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٦٨ عن مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام.

(٣) المصدر في أمالي الشيخ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ليس عبد من عباد الله ممن امتحن الله قلبه بالإيمان إلا وهو يجد مودتنا على قلبه فهو محبنا وليس عبد من عباد الله ممن سخط الله عليه إلا وهو يجد بغضنا على قلبه فهو مبغضنا فأصبح محبنا ينتظر الرحمة وكأن أبواب الرحمة قد فتحت له وأصبح مبغضنا على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم فهنيئاً...

ذلك، ولأن لأساس البنيان دور في كلا الحق والباطل، فقد يقدِّم الإمام علي عليه السلام لإمرة المؤمنين دون مناوئيه إذ أسس بنيانه عليه السلام على تقوى من الله منذ عرف نفسه، وأسس بنيانهم على الشرك والطغوى مهما آمنوا بعد، فتقوى الله ورضوانه بادئان في تبني صرح الإيمان لأمير المؤمنين عليه السلام ثم طغواه وسخطه بادئان في تبني الخلفاء الثلاثة وأضرابهم!.

ولقد ترتسم تقوى من الله ورضوان كلمة لا إله إلّا الله، فالتقوى هي واجهة السلب، ورضوان هو واجهة الإيجاب، فلما لم تتق الله ابتعاداً عن سخطه، لم تحصل على رضوانه، ولأن علياً عليه السلام هو أول من أسلم فقد تقدم على من سواه في رسم كلمة التوحيد.

ولأن شفا الشيء هي حرفه وطرفه، والجُرُف هو مُنحرَفه من منعطف الطين الواهي المشرف على السقوط، والهار هو الانصداع من الخَلف، فقد أسس هؤلاء الأنكاد بنيان مسجد الضرار على الطرف المنحرف الواهي المنصدع من الخلف بشفير جهنم ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فقد والله رأيت أنا فُسحة مسجد الضرار خاوية بين بنايات دون عمار فسألت عنها كيف لا يُبنى عليها فكان الجواب كلمة واحدة كلما عمّر احترق وتهدَّم[١]!.

---

(١) ومن أشباه مسجد الضرار، قبر معاوية الضرار، فإنه خربة منذ قرون، رغم كونه في أوساط دمشق عاصمة حكومته، وحين نسأل عن أهل دمشق كيف نرى قبر معاوية خربة منتنة؟ نسمع الجواب كلمة واحدة: كلّ قائد سياسي من رؤساء الوزارات وسواهم صمم على تعميره أو أخذ يعمره دمّر هو نفسه قبل أن يعمّر، ومنهم عبد السلام عارف من رؤساء الجمهورية العراقية حيث أخذ في جمع متبرعات لتعمير قبر معاوية فاحترقت طائرته بين البصرة وبغداد. ذلك، ويقابله قبر معاوية بن يزيد إذ كان من الصالحين نسبياً وينقل عنه أنه رقى المنبر بعد أبيه يزيد وقال: يا ليت كنت مضغة ساقطة وما جلت هذا المجلس اغتصاباً لحق أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد نرى قبره عامراً يزار، وقد اتفق كراراً أنه لما يسأل عن قبر معاوية، يشير=

ذلك مشهد مُشهد آخر يرسمه هذا التعبير العبير منقطع النظير لآثار مسجد الضرار في نفوس بناته الأشرار وبُناة كل بنايات الضرار ضد صرح الإيمان:

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾:

فلقد انهار مسجد الضرار في جحيم النار، ولكن رماداً منه بعد قار في قلوب بناته وهو ريبة، قلوب اندغمت فيها ريبة ذلك البنيان دائبة ما هي باقية باغية ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بهذه الريبة المصيبة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبهم ﴿حَكِيمٌ﴾ بما هو فاعل بهم، وهم يخافون مع هذه الريبة إنزال ضروب العقوبات والمكاره بهم، أو بسط المؤمنين عليهم لما ظاهروهم من العناد والشقاق، فهم أبداً بنفوسهم مستريبون، وعليها خائفون مشفقون، فلا يزالون على ذلك إلا أن تقطع قلوبهم، حسرة، وتزهق نفوسهم خيفة.

وهكذا يعيش صاحب الكيد الخادع الهارع، مزعزع العقيدة، حائر المكيدة، فهو جحيم من داخل، محروقاً بجحيم نفسي ومن خارج، مارج من نار، جهنم يصلونها وبئس القرار.

أترى ألّا توبة لهم حتى تقطَّع قلوبهم موتاً وفوتاً؟ قد يعني تقطُّع قلوبهم إلى موتهم مضطربين، حالتهم بعد توبتهم، أنهم كلما يذكرون فعلتهم تتقطع قلوباً تحزُّناً على ما فعلوه، فقد لا يزالون في تقطع قلوبهم كافرين ومؤمنين، مهما يُطَمئِنهم الإيمان فيقل ذلك التقطع قدر ماكن الإيمان، وإلى أن يقطِّع

= جماعة من المتعصبين له إلى قبر معاوية بن يزيد، حفاظاً على كرامة معاوية بن أبي سفيان حتى لا يرى قبره في عاصمته خربة نتنة، في حين نجد قبر رقية بنت الحسين عليه السلام - ولم يمض من عمرها إلّا ثلاث سنين - نجده بقرب قبر معاوية عامراً يزار، وقد وسّعوه أخيراً وكلفوا في توسعته ملايين من الليرات!.

الإيمان قلوبهم المقلوبة إلى قطاع صالح مطمئن، فتقلُّب القلب الخاوي عن ذكر الله هو اطمئنانه بالله، كما أن تقلب القلب المطمئن بذكر الله هو إخلاده إلى الأرض، رضىً بالحياة الدنيا واطمئناناً بها.

فتقطُّع القلوب بدوام الريبة بالموت أو المعيشة الضنك هو لمن يبقى على نفاق وكفره، وتقطُّعها بزوال الريبة هو لمن آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى.

فللأولين بنيان الريبة في قلوبهم من ذلك البنيان المنهار الهار في النار، ريبة على ريبتهم إذ لم يُفلحوا بكيدهم أو يُفلجوا بميدهم إلَّا أن تَقطَّع قلوبهم بموتهم فتزول الريبة حيث يُكشف الغطاء، وللآخرين هدْمٌ لبنيان الريبة بتقطُّع قلوبهم المُظلمة إلى النيِّرة فتزول بذلك الريبة.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾:

هنا المشتري هو الله، والمشترى به هو الحياة الدنيا: ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ والمشترى هو الجنة: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١) (٢).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٤.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٨٠ - أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي وغيره قال قال عبد الله ابن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة، قال: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت هذه الآية، وفيه أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: نزلت هذه الآيـة على =

فأنفُس المؤمنين وأموالهم في هذه التجارة المربحة هي بمنزلة العَروض المبيعة، والأعواض المضمونة هي بمنزلة الأثمان المنقودة، والصفقة رابحة خالصة غير فالسة ولا كالسة، لزيادة الأثمان على السِّلَع، وإضعاف الأعواض على القيم.

وهنا الجنة جنتان جنة الجنان وجنة الرضوان، ومبتغى أهل الله في الأصل هو الثاني: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1] إذ ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2].

وهنا ﴿ٱشْتَرَىٰ﴾ منذ الفطرة إلى العقلية الإنسانية، إلى العقلية الإيمانية، وهم قابلون هذه التجارة الرابحة المربحة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾[3].

ثم ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ تعني إلى أنفسهم الذاتية، الذين يتعلقون بِهم كأنفسهم نسبياً أو سبباً، كما أن ﴿وَأَمْوَٰلَهُم﴾ تعم إلى الحاضرة، الأموال التي بإمكانهم الحصول عليها، مضحِّين بكل طاقاتهم وإمكانياتهم فـ ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ثم لهم إحدى الحسنيين ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ وهي حسنى الغلبة على أعدائهم ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ كخطوة أخيرة حين لا يتمكنون أن يَقتلوا أو يحافظوا على حياتهم فيقدِّمون حياتهم لإحياء سبيل الله وهي الحسنى الأخرى، وقد

= رسول الله ﷺ وهو في المسجد فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم فقال الأنصاري: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٣) سورة الصف، الآيتان: ١٠، ١١.

يجمعون بينهما أن يَقتلوا ثم يُقتلوا وهما على سواء لهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وعن النبي ﷺ قال: «من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله»[(١)].

وذلك ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ بمراتبها حسب مراتبهم في هذه التجارة، وعُلياها هي جنة الرضوان.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ إذ كتب على نفسه هذه الرحمة الغالية المتعالية ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ فإن في هذه الكتب الثلاثة تشجيعات وذكريات عن المقاتلين في سبيل الله بما كتب الله على نفسه ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ ومن هذه الجنة هنا إحدى الحسنيين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ. . .﴾ فمنهم من ينسى عهده توانياً عن القتال، ومنهم الموفي بعهده «ومن أوفى بعهده الذي عاهد عليه الله» يقال لهم: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ وبيعهم هنا مبيعهم: ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ حيث بايعوا به ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ - ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

هنا ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ تسوِّي في حقل الجهاد بالأنفس فاعلية القتل ومفعوليته، فإن قَتلَ وقُتلِ فقد جمع بين الجهادين، وإن فاز بأحدهما فهو شهيد في جانب واحد، وعلى أية حال فالشهيد القتيل في سبيل الله له درجة عند الله عالية غالية، وإليكم مقتطفات مما روي عن النبي ﷺ بحق الشهداء في سبيل الله: «لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل. . .»[(٢)]

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٨٠ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: . .

(٢) مفتاح كنوز السنة بخ - ل ٥٦ ب ٧ و١١٩، ل ٩ ب ١ ونس - ل ٢٥ ب ٣ و٢٠ ومج - ك ٢٤ ب ١ وما - ل ٢١ ح ٢٧ و٤٠ وحم - ثان ص ٢٣١ و٣٨٤ و٤٢٤ و٤٧٣ و٤٩٦ و٥٠٢.
أقول وبياناً لهذه الرموز: بخ صحيح البخاري - مس صحيح مسلم - بد سنن أبي داود - تر سنن الترمذي - نس سنن النسائي - مج سنن ابن ماجة - مي سنن الدارمي - ما موطأ مالك - ز مسند زيد بن علي - عد طبقات ابن سعد - حم مسند أحمد بن حنبل - ط مسند الطيالسي - هش سيرة ابن هشام - قد مغازي الواقدي. =

و«توكل الله بالمجاهد في سبيله أن يدخله الجنة»[١] و«إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله»[٢] و«تمني الشهيد أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات»[٣].

وترى ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ﴾ شرطية جزاؤها ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾؟ وصالح الجزاء - إذاً - «فليستبشر» ليوافق فاعلَ الشرط، إنّ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ قد تلمح أن ﴿أَوْفَىٰ﴾ أفعل تفضيل!.

أم هو استفهامية استفحامية و﴿أَوْفَىٰ﴾ تفضيل؟ وفاصل ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾ بين المفضل والمفضل عليه لا يناسبه حيث الفصيح - إذاً - «من أوفى من الله بعهده»! ثم لا موقع للفاءِ إذ لا شرطَ!.

قد تتحمل ﴿مَنْ أَوْفَىٰ﴾ كلا الشرطية والاستفهام وأما ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ شرطاً فتحولٌ من الغياب إلى الخطاب «فاستبشروا أنتم الموفون...» ثم ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ هنا تعني: عهده النازل له من الله، المعنيّ من ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا...﴾.

وأما الاستفهام فلا، فاصلُ ﴿أَوْفَىٰ﴾ ينافيه، حيث يراد المعنيان، ولا أن الفاء لا موقع لها، حيث يفرِّع الاستبشار - إذاً - على ذلك الاشتراء والوعد والوفاء الأوفى.

= ثم: ك كتاب - ب باب - ح حديث - ص صفحة - ج جزء - ق قسم - قا قابل ما قبلها بما بعدها - م م م فوق العدد من جهة اليسار تدل على أن الحديث مكر مرات والرقم الصغير فوق العدد من جهة اليسار يدل على أن الحديث مكرر بقدره في الصفحة أو في الباب.

(١) بخ - ل ٥٦ ب ٢ ول ٥٧ ب ٨ - مس - ل ٣٣ ح ١٠٣ و١٠٤ - بد - ل ١٥ ب ٩ وتر - ك ٢٠ ب ١ ونس - ك ٢٥ ب ١٤ ومج - ل ٢٤ ب ١ ومى - ك ١٦ ب ٢ وما - ك ٢١ ح ٢ وحم - ثان ص ٢٣١ و٣٨٤ و٣٩٨ و٣٩٩ و٤٢٤، ٤٩٤.

(٢) بخ - ك ٥٦ ب ٥ ومس - ك ٣٣ ح ١١٦ ومى - ك ١٦ ب ١٩ وحم - أول ص ٢٦٦.

(٣) بخ - ل ٥٦ ب ٦ و٢١ ومس - ك ح ١٠٨ و١٠٩ و١٢١ وتر - ك ٢٠ ب ١٣ و٢٥ وك ٤٤ سورة ٣ ح ١٨ و١٩ ونس - ك ٢٥ ب ٣٣ و٣٤ ومج - ك ٢٤ ب ١٦ ومى - ك ١٦ ب ١٧ وحم - ثالث ص ١٠٣ و١٢٦ و١٣١ و١٥٣ و١٧٣ و٢٣٩ و٢٥١ و٢٧٦ و٢٧٨ و٢٨٤ و٣٦١، رابع ص ٢١٦، خامس ص ٣١٨ و٣٢٢ وط - ح ١٩٦٤ وقد - ص ١٢٦.

فالمعنيان - إذاً - معنيَّان حيث يوافقان أدب اللفظ وحَدَب المعنى، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه، وأحسنها الجمع بين الوجوه الحسنة مهما كانت درجات.

وإليكم تصريحات من كتابات الوحي بشرعة الجهاد:

١ - في «نِبوءِتْ هَيِّلِد»: وحي الطفل: لُحمان حَطُوفاه - النازل عليه قبل ميلاد الرسول ﷺ بسبعين سنة، يقول عنه ﷺ باللغة الأنقلوسية وهي العبرانية الرمزية: «**نَهَرا كَدْ مَطَا وَلَات قَصْ مِتِيعْبِد قَطَاطَاهْ وَهُوَاهْ طِينَا دَامَلْطَا**».

يُشرق العالم لمَّا يصل - ويُخمد نيران الخلافات - ويوصل إلى القيامة الكبرى - ويحارب في سبيل الله - ويُبعث من أمة محرومة مهدومة[1].

ذلك، وفي تصريحات متكررة في ﴿التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ وملحقاتها أن الشرعة المحمدية هي الشرعة النارية حيث تحرق الفتن والمفتتنين وأنها تزيل نفسية الاستبداد والاستكبار من أنفس المستكبرين، بالجهاد المتواصل، وتُخضع الفراعنة أمام شِرعة الحق -، والقيام بالسيف عَلَم من أعلام القدسية الإيمانية للذين معه - وعصا قوته لا تعني إلَّا بسط العدل، وهدم بساط الظلم - وأنها من علائم الحمية والغيرة -.

ثم توسع نطاق الجهاد في حقله الكتابي إلى حروب موسى وداود وشعيب عليهم السلام واستعداد المسيح عليه السلام للحرب ولكن تركه الحواريون فصُلب بزعم جمع منهم جامحين[2].

---

(١) لقد فصلنا القول حول وحي الطفل في كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) وبطيات الفرقان حسب المناسبات، وكذلك سائر الوحي بحق الجهاد الإسلامي وسائر ميزاته، فراجع.

(٢) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد نصوصاً وفيرة حول الجهاد.

ونموذجاً عالياً غالياً من وحي التوراة عن شرعة الجهاد النص التالي حيث يحمل بطيات البشارات الثلاث لنبوءات ثلاث، يحمل ميِّزةً للشرعة الأخيرة بارزة هي أنها الشرعة النارية، وإليكم النص بالأصل العبراني:

١ - «وزُئُتُ هَبَّراخاهْ اَشِرْ بِرَخْ مُوشِهْ إيشْ هٰا إلُوهيمْ إتْ بِني بِسرائِيل لِفنِي مُوتُو وِيُومِرْ ٢ يِهُواه مِسِّيني باوْ زارَح مِسِّعير لامُو هُوفيعَ مِهَرْ فاران وِآتاهْ مِرْ بِبُتْ قُدِش مي مينو إِشْ داتْ لامو. (سفر التثنية ١ - ٢).

١ - وهذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيلَ عند موته وقال ٢ - جاء الله من سيناء، تجلى من ساعير، تلعلع من جبل فاران: (حرى) وورد مع آلاف المقدسين وظهر على يده اليمنى الشريعة النارية».

ونموذجاً آخر هو من الإنجيل قول المسيح كما في (لوقا ١٢: ٤٩): «جئت لألقي ناراً على الأرمن. فماذا أريد لو اضطرمت. ولي صبغة اصطبغها وكيف أنحصر حتى تكمل. أتظنون أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. كلا أقول لكم بل انقساماً...».

وفي (لوقا ٢٢: ٣٥ - ٣٧): «ثم قال لهم حين أرسلتكم بلا كيس ولا مِزوَد ولا أحذية هل أعوزكم شيءٌ؟ فقالوا: لا (٣٦) فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه، ومزود كذلك ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفاً (٣٧) لأني أقول لكم إنه ينبغي أن يتم فيّ أيضاً هذا المكتوب وأحصى مع أَثَمة. لأن ما هو من جهتي له انقضاء (٣٨) فقالوا يا رب هو ذا هنا سيفان. فقال لهم: يكفي»[1].

«اللَّهم إنك علمت سبيلاً من سبلك جعلت فيه رضاك وندبت إليه أولياءك وجعلته أشرق سبلك عندك ثواباً وأكرمها لديك مآبا واجهاً إليك مسلكاً ثم اشتريت فيه من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون

---

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد نصوصاً وفيرة حول الجهاد.

في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليك حقاً، فاجعلني ممن اشترى فيه منك نفسه ثم وفى لك ببيعه الذي بايعك عليه غير ناكث ولا ناقض عهداً ولا مبدلاً تبديلاً»[١].

«ألا حرٌّ يدع هذه اللماظة لأهلها، إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلَّا بها» - «فلا أموال بذلتموها للذي رزقها ولا أنفس خاطرتم بها للذي خلقها»[٢].

و«أول الجهاد الدعاء إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ من طاعة العباد وإلى عبادة العباد من عبادة الله وإلى ولاية الله من ولاية العباد»[٣].

وترى لماذا ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ دون «بالجنة»؟ لأن «بالجنة» حتم لا مرد له وكأنها تقابل ذلك القتال باستحقاق أصيل، ولكن ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ هو وعد الجنة وليست هي هيه، فقد اشترى أنفساً خلقها وأموالاً رزقها، فليس - إذاً - إلا تلطفاً في الدعوة وتعطفاً على الخليقة، وكما يستقرضنا ربنا ويستعطينا، فواخجلتاه إن عصيناه على عطفه ورحمته!.

فيا ويلاه! أين التراب ورب الأرباب، حيث الرب على عُظمه يجعل نفسه مشترياً لنفس العبد وقد خلقها، ولِماله وقد رزقه، ففي الحقّ الحقُّ هو المشتري من نفسه وهو البائع لنفس ونفيس هما من خلقه، ثم «وعداً عليه»

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٢٧٢ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام كان إذا أراد القتال قال هذه الدعوات.

(٢) هما في نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

(٣) وفي نور الثقلين ٢ : ٢٦٩ في الكافي كتب أبو جعفر عليه السلام في رسالة إلى بعض خلفاء بني أمية ومن ذلك: من ضيع الجهاد الذي فضله الله تعالى على الأعمال وفضل عامله على العمال تفضيلاً في الدرجات والمغفرة والرحمة لأنه ظهر به الدين وبه يدفع عن الدين وبه اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة بيعاً مفلحاً منجحاً اشترط عليهم فيه حفظ الحدود وأول ذلك الدعاء إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ . . .

تجعله كأنه مديون ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ لا تقبل إقالة ولا إحالة!، ثم يستشهد لثابت وعده بما أنزله ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾.

وإنها لبيعة رهيبة وبيع رهيب، في عنق كل مؤمن، لا تَسقط عنها إلّا بسقوط إيمانه، فعونَك الله وعوذاً منك إليك في الإيفاء بذلك العقد العقيد!.

وهكذا الله «يكرمهم على لسان الحقيقة وعلى لسان المعاملة، اشترى منهم الأجساد لمواضع وقوع المحبة من قلوبهم فأحياهم بالوصلة»[١].

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾:

مواصفات تسع لأهل الجنة هي والموفين بعهد الله عشرة كاملة من صفات المؤمنين: «ومن أوفى بعهده من الله: التائبون...» فقراءة الجر[٢] جرٌّ إلى غير المتواتر زعم أنها أوصاف لمجرور ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ رغم أن الموصوف الأصيل الأقرب لفظياً ومعنوياً هو ﴿مَنْ أَوْفَىٰ﴾ وهؤلاء هم:

١ - ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ إلى الله من ذنب وغير ذنب حيث التوبة لا تختص بذنب فإنها الرجوع إلى الله على أية حال، والتوبة شعور بالندم على ما مضى - إن كانت عن ذنب - وتوجه إلى الله فيما بقي عن ذنب أم غير ذنب.

٢ - ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ الله دون سواه، ودون سمعة أو رئاء الناس، عابدون إياه عبادة وعبودية وإقراراً بالربوبية، العابدون معرفة وعقيدة وعملاً لله وكما يترجمها الاتجاه إلى الله بكل الكيان، و«العابدون» دون الذين يعبدون،

(١) مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٩١ عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٧٤ في روضة الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تلوت: التائبون.. فقال: لا، اقرأ «التائبين العابدين» إلى آخرها فسئل عن العلة في ذلك؟ فقال: اشترى من المؤمنين التائبين العابدين.

للتدليل على استمرارية العبادة والعبودية لله على أية حال، لا فقط حال العبادات.

٣ - ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ الله دون سواه إلَّا حمداً به لله، «الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء[١] حمداً بأقوالهم وأحوالهم وأفعالهم لله»[٢].

٤ - ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ سيحاً أنفسياً كالصيام[٣] وما أشبه، وسيحاً في سبيل الله جهاداً[٤] وسواه وهو مأخوذ من سيح الماء الجاري، فالمؤمنون الموفون بعهودهم من الله هم كالماء الجاري: فكما أن راكد الماء ينتن ويتعفن وجاريه ينظَف وينظِّف، كذلك المؤمنون هم سائحون جارون في مجاري الصلاح والإصلاح لأنفسهم وللآخرين، فمن الجري في أنفسهم الصوم حيث يطهِّر القلب بجاري مائه الحيوي، ومنه في أنفسهم ومَن سواهم الجهاد في سبيل الله وله مصاديق عدة.

كالسيح لطلب العلم في الله، وكسب الإخوان في الله، والسير في أرض الله وكل سيح آفاقي وأنفسي في سبيل الله، فالجامد الواقف ليس مؤمناً بالله، إنما هو الحركي السائح الكادح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[٥].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٨١ عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: . .

(٢) المصدر أخرج البيهقي في الشعب عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الأمر يسرّه قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: الحمد لله على كلّ حال.

(٣) المصدر أخرج ابن جرير عن عبيد بن عمير قال سئل النبي ﷺ عن الساكنين قال: هم الصائمون، ورواه عن أبي هريرة وابن مسعود عنه ﷺ.

(٤) المصدر أخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة أن رجلاً استأذن رسول الله ﷺ في السياحة قال: إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله.

(٥) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

ولقد ذكر الرسول ﷺ مصداقاً أنفسياً فردياً لذلك السيح هو الصيام، ومصداقاً آفاقياً هو الجهاد في سبيل الله، وهذا يشمل كل حركة للسالكين إلى الله.

فكما أن ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ تشمل كل حدوده، كذلك ﴿السَّائِحُونَ﴾ تشمل كل حركة ذات بركة في سبيل الله.

ولماذا ذكرت الواو مرتين بين هذه التسع؟ علّه لأن الثلاث الأخيرة هي المتميزة الهامة التي تشمل سائر العشر المذكورة من ذي قبل، وأنها من المسؤوليات الجماعية، أم وتعني التسوية بين الآمرين والناهين والحافظين، فإن مسؤولياتهم واحدة هي الحفاظ على حدود الله.

٥ - ٦ - ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ لله دون سواه حيث يختصان في مظاهر الاحترام بالله، ولأنهما أظهر مظاهر الصلاة فهي المعنية بهما كمصداق بارز بين مصاديقها، ثم هم راكعون لله ساجدون في كل أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم، وهما - على اختلاف درجتهما - تشملان كافة درجات الخضوع لله في كل الحقول.

٧ - ٨ - ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ بشروطهما المسرودة في القرآن والسنة.

٩ - ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ علمياً وعقيدياً وعملياً، دون زيادة عليها أو نقيصة عنها، وهؤلاء هم أئمة الدين في كل المحاور، وسائر الأمة حسب درجاتهم، ولا يثبت الحد حتى يرفع سببه إلى الإمام فـ «إنما الهبة قبل أن يرفع إلى الإمام فإن انتهى إلى الإمام فليس لأحد أن يتركه»[1]. ذلك، وهذا

---

(١) المصدر في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أخذ سارقاً فعفا عنه فذاك له فإن رفعه إلى الإمام قطعه فإن قال الذي سرق له: أنا أهب له لم يدعه الإمام حتى يقطعه إذا رفعه إليه وإنما الهبة قبل أن يرفع إلى الإمام وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]. فإن انتهى.

التاسع يحلق على كل المحاور الثمانية الأولى فإن حدود الله علمياً وعقيدياً ومعرفياً وعملياً شخصياً وجماعياً ودعائياً، تشمل المسؤوليات الجماعية إلى الشخصية دون إبقاء لأية مسؤولية، مهما اختلفت مراتب ذلك الحفظ رسولياً ورسالياً.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموصوفين بهذه العشر ابتداءً بـ ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾[١] فتلك إذاً عشرة كاملة في صفات الإيمان وقد جمعت كافة المسؤوليات الإيمانية فردية وجماعية.

ولأن المسؤوليات الجماعية التي تصنع الجماعة المسلمة ليست إلّا بعد تحقق الفردية، لذلك تقدمت هي عليها، تقديماً للجمع بينهما ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وتأخيراً له ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ وبينهما متوسطات بين فردية محضة أو جماعية محضة.

إن حدود الله المحدودة في القرآن والسنة لها حفاظات حسب مختلف الملابسات لا حول عنها أبداً، اللّهم إلَّا مِن حد إلى حد هو أهم منه حسب المقرر في شِرعة الله.

وهنا عديدٌ قاصد لـ ﴿لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ وفقاً بين الحافظين الأصليين لحدود الله الأربعة على الإسلام، وذكرها في القرآن بنفس العدد: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾[٢] - ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[٣].

وترى ماذا يعني الترتيب القاصد بين الست الأولى والثلاث الأخرى؟

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ تعبيدة لصالح العبادة، سواءً أكانت توبة عن ذنب، أم توبة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ١.

ارتقاء عن الحالة الحاضرة إلى أرقى منها وأعلى، حتى تحل العبادة موقعها الأعلى، تحلية بعد تخلية، حيث يتخلى عن ذنب أو نقص آخر ثم يتحلّى بالعبادة.

ثم ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ تحلق على كافة العبادات، توحيداً لصالح العبادة لله بعد توحيد التوبة والإنابة إلى الله، إذاً فـ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ هما عبارة أخرى عن: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ولأن الأصل العبادة هو الحمد لله كما يحق له، فـ ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ هي ثالثة الأوصاف للأوفياء المؤمنين، ثم الحمدُ العبادةُ والعبادةُ الحمدُ لا بد لهما من حراك وسيح دون جمود، فالسيح فيهما هو المرغوب المطلوب.

ولأن الصلاة هي خير موضوع، حيث هي عمود الدين وعماد اليقين، ثم الركوع والسجود هما أظهر مظاهر العبودية في الصلاة، إذاً فـ ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ هما مرحلتان أخيرتان مكملتان لمربع التوبة العبادة الحمد السيح.

ومن السيح في الصلاة أن تكون في جماعات، قصداً إليها من كل مكان قريب أو غريب، توحيداً للصفوف، وتوطيداً للألفة بجمع الألوف.

هذه هي الست الأولى التي تتبنى صناعة الإيمان الوفي لأشخاص المؤمنين، ومن ثم الثلاث الأخيرة كمسؤوليات هامة جماعية لهؤلاء الذين تخطوا الخطوة الأولى، تقديماً للأمر والنهي بما هما قائمتان لصرح الإسلام العام، وتأخيراً لـ ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ كضابطة للحفاظ على حدود الفرد والجماعية الربانية للأفراد والجماعات، فالإيمان الوفي على تفاصيل مواصفاته يختصر بجمعي الصفات الفردية والجماعية في ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ وهنا موقع البشارة السارة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ تعم الفردية والجماعية، بكل مراحل الحفظ:

تعلماً واعتقاداً وتعليماً، ودعوة ودعاية لها، وحفظاً عن التحريف والتعطيل والتجديف، وحفاظاً على صالح التطبيق دون زيادة عليها أو نقيصة عنها.

إذاً فالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وما أشبه من المحافظة على حدود الله، كل ذلك معني بـ ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ وإذاً ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بهذه الرسالة السامية، تطبيقاً لهذه الشروط الإيمانية.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾:

هنا روايات مختلَقة قضيةَ العصبية العمياء المذهبية أن رسول الله ﷺ استغفر لعمه وأبويه المشرِكين وقد ماتوا مشركين، فلكي يُمس من كرامة أبوي النبي ﷺ وأبي علي عليه السلام مسوا من كرامته هو ﷺ أن خالف أمر ربه في ذلك الاستغفار الاستهتار!.

فلقد نهاه الله تعالى أن يستغفر للمنافقين في آيات عدة مضت، فضلاً عن المشركين الرسميين الذين ماتوا على إشراكهم بالله، واستحال غفرانه لهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] فكيف - إذاً - يستغفر النبي ﷺ للمشرك معارضاً لما قرره الله من سلبية الغفران في حقل الشرك؟.

وترى كيف يفترى على رسول الهدى ﷺ الذي يعارض المشركين وهو مأمور بالإعراض عنهم: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾[1].

ففي هذه وفي مكيات أخرى أمر بمفاصلة المشركين والإعراض عنهم، وعدم الاستغفار لهم، ثم هو يستغفر لوالديه اللذين ماتا مشركين؟! أم ولعمه أبي طالب الذي مات مشركاً؟! كلّا، إن المشرك هو المفتري على الرسول تلك التخلُّفة النكراء، والمفتري على عمِّه وعلى والديه الذين ماتوا موحدين، أنهم ماتوا مشركين!.

فواعجباه بينما يقول الله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[2] رغم ذاك يسمح رسول الله ﷺ لنفسه أن يستحل - لأبويه وعمه المشركين -! الجنة باستغفار لهم؟! داخلاً في أنصار هؤلاء الظالمين!.

وبينما الله يحرم موادة من حادَّ الله ورسوله، وأحدُّه الإشراك بالله ونكران رسوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ... لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3] رغم ذاك يوادُّ الرسول أبويه وعمه خروجاً بذلك عن الإيمان بالله واليوم الآخر؟!.

وبينما الله يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[4] ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[5] رغم ذاك يقرب الرسول أقرباءه المشركين إليه ويستغفر لهم!.

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.
(٣) سورة المجادلة، الآيتان: ٢٠ و٢٢.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٨.
(٥) سورة المدثر، الآية: ٥.

وحين يقترف أمثال هذه الذنوب العظام فكيف يقول الله عنه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(١) وهي أسوة طليقة غير محدودة، بينما يحدد الأسوة بإبراهيم بغير استغفاره لأبيه وهو معذور في استغفاره له: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢) ومن قضايا البراءة - الأصلية - ترك الاستغفار لمن يتبرأ منه حيث هنا ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ومن قبل استغفر له ولـمَّا يتبين له أنه عدوٌّ لله، حيث لمَّع له ولمَّح قوله: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾(٣) كأنه يعده فرصةً ملياً ليكفر في أمره علّه يجدّد أمره، فاعتبره وعداً للإيمان فوعده الاستغفار ثم استغفر له ولـمَّا يتبين له أنه عدو لله.

فما لهم أولاء المفترين على الله وعلى رسوله، أنه استغفر للذين ماتوا مشركين، تخلفاً عن شرعة الإيمان بالله، فضلاً عن رسالة الله!.

أم كيف يفترى على رسول الهدى ﷺ أنه كان يستغفر لأبويه وعمه المشركين! وهم ماتوا في العهد المكي، يستغفر طوال تسع سنين أو يزيد حتى نزلت هذه الآية في السنة التاسعة، وهو كان منهياً عن موادتهم والاستغفار لهم منذ بداية الدعوة؟!.

وحين يبرّر هنا استغفار إبراهيم لأبيه أنه كان قبل ما تبيَّن له أنه من أصحاب الجحيم، فكيف يبرَّر - بعدُ - استغفار محمد ﷺ لأبويه وعمه بعد ما تبين له أنهم من أصحاب الجحيم إذ ماتوا مشركين؟!.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.
(٣) سورة مريم، الآية: ٤٦.

أجـل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ - فـ ﴿مَا كَانَ﴾ تضرب إلى أعماق الماضي تحريماً عريقاً لذلك الاستغفار الاستهتار، فلا سبيل - إذاً - للمفتري على النبي ﷺ أن يقول: إنما حرم من بعد ما استغفر، ولو كان حلاً من ذي قبل لم يُعتذر لإبراهيم في استغفاره أنه ما كان يتبين له أن أباه من أصحاب الجحيم، و﴿مَا كَانَ﴾ ضاربة إلى أعماق الزمن الرسالي، أن النبوة والإيمان يمنعان من الاستغفار للمشركين على مدار الزمن الرسالي دونما استثناء، حيث علّق السلب بوصف النبوة والإيمان، وكما يدل عليه الاستدراك لإبراهيم وليس معنياً بشخص النبي هنا.

إذاً فكيف يستغفر النبي ﷺ لأبويه وعمه الميتين على الشرك وقد تبين له من ذي قبل أنهم من أصحاب الجحيم! ثم كيف يُعتذر لإبراهيم ولا يُعتذر لمحمد ﷺ وهو أول العابدين وأفضل النبيين؟!.

وحين يعد الله الميتين على الشرك أليم العذاب في مئات الآيات، فالاستغفار لهم - إذاً - يعني أن يُخلف الله وعده وهو خارج عن أدنى الآداب الإيمانية فضلاً عن الأدب الرسالي لمن هو في أعلى قمم الرسالة.

وتبيُّن كون المشرك ومن أشبه هو من أصحاب الجحيم قد يكون بتبين الله كالذين يقول عنهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] أم بموتهم وهم مشركون.

فالمشرك - فضلاً عن سواه من الكفار - الذي يرجى إيمانه، أم لم يتبين أنه يموت مشركاً ليكون من أصحاب الجحيم، إنه يجوز أن يُستغفر له فضلاً عن المتحري عن إيمان، أو الذي يلمح بوعده الإيمان، وهكذا يعتذر ربنا لإبراهيم عن استغفاره لأبيه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

﴿مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ وتراها موعدة لإبراهيم وعدها إياه؟ والموعدة المحرمة لا تبرر إيفاءها! أم هي موعدة أبيه وعدها إياه؟ ولا تتبين موعدته من ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾! وحتى لو أنها كانت تتبين موعدته منها، فلأنها لا واقع لها فلا يصلح إخباراً بها من الله أنه ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾!.

إنها موعدة إبراهيم وعدها إياه بقوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾[١] إذ تلمح لمحة التحري عن إيمان من قوله: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾[٢] وعلى هامشها موعدة آزر إياه أن يتحرى.

فلو أنه مصرٌّ على رجمه حيث قال: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾[٣] ما كان يقول دون فصل ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ إذاً فمليُّ الهجر دون دوامه، وهيمَان إبراهيم لإيمان آزر، هما خيَّلا إليه أنه يعني بمليِّ هجره مليَّ تفكيره وتروِّيه فيما يدعوه إليه[٤] فلذلك أم وللعطف عليه أن يهديه الله بما يستغفر له، وعده أن يستغفر له فور وعده الذي خيل إليه[٥]: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ ثم استغفر له - ولمَّا يتبين أنه كاذب في لمحة الوعد -: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[٦].

ولأن وعد الاستغفار وتحقيقه ما كان حققا في الواقع مهما كان هو

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٧.
(٢) سورة مريم، الآية: ٤٦.
(٣) سورة مريم، الآية: ٤٦.
(٤) نور الثقلين ٢: ٢٧٥ في تفسير القمي في الآية قال: قال إبراهيم لأبيه: إن لم تعبد الأصنام استغفرت لك، فلما لم يدع الأصنام تبرأ منه إبراهيم.
(٥) المصدر في تفسير العياشي عن إبراهيم بن أبي البلاد عن بعض أصحابه قال قال أبو عبد الله عليه السلام: ما يقول الناس في قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] قلت: يقولون: إبراهيم وعد أباه ليستغفر له قال: ليس هو هكذا وإن إبراهيم وعده أن يسلم فاستغفر فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه، أقول: وعده يعني آزر أن يسلم..
(٦) سورة الشعراء، الآية: ٨٦.

معذوراً فيهما، فقد خرج فيه إبراهيم عن أن يؤتسى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ... إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[1] وإن كان قاصراً في العلم ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ حيث القاصر لا يؤتسى في قصوره كما المقصِّر، ومهما كان القاصر معذوراً دون المقصر، ولكن الله ليس ليأمر أن يؤتسى إمام فيما هو قاصر.

وهكذا تبرر ساحة إبراهيم عن خاطئ الاستغفار لأبيه أنه استغفر له بما وعده إياه و﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ فهو من أصحاب الجحيم ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فلم نسمعه بعد حتى آخر عمره وخلاص أمره أن يستغفر له، اللّهم إلّا لوالديه حين كان يرفع القواعد من البيت وإسماعيل بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[2].

ذلك، والأب هو أعم من الوالد، فقد يعني العم كما: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[3] حيث يعد إسماعيل من آباء يعقوب وهو عمه.

أم جداً لأم حيث يعد «عيسى» عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذرية إبراهيم ﴿... وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾[4].

فلأن جد الأم والد كما جد الأب فضلاً عن الوالد، دون العلم إذ ليس والداً بأي وجه، فالقصد من «أبيه» غير والده في مثلثه، إنما هو عمه.

وإنما عبر عن عمه في ثمانية موارد بـ «أبيه» تأشيراً إلى المحتد القمة

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٤.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.
(٤) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

التوحيدية لإبراهيم حيث تربى في جو الشرك وبيت الإشراك، وتحت الولاية التربوية لآزر الذي كان مكان والده، ولم يتأثر بوصمة الشرك، بل وعارض آزر معارضة صارخة صارخة دونما أية مساهلة.

ذلك، وقد يسمى بالأب من لا صلة له نسبية بأولاده، كما يروى عن النبي ﷺ قوله لعلي عليه السلام: «أنا وأنت أبوا هذه الأمة فمن عقنا فعليه لعنة الله»، «أنا وهو أبوا هذه الأمة»، «أنا وأنت أبوا هذه الأمة»[1].

ولو أن والده في «والدي» هو أبوه آزر، لكان في ذلك مسٌّ من كرامة العصمة الربانية حيث أخبر تعالى أنه: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ والاستغفار ينافيه! وهكذا العصمة الإبراهيمية حيث كانت براءته مفروضة فتركها مرفوض في شرعة الله.

فقد كان إبراهيم يستغفر لوالديه عند رفع قواعد البيت وهو في أخريات عمره الطويل، ومات أبوه آزر في شبابه، فلا يعني من ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾[2] أباه آزر وقد تبين له - من ذي قبل - بموته مشركاً أنه من أصحاب الجحيم[3] ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ أواه إلى الله راجعاً إليه عن خطئهِ غير العامد ﴿حَلِيمٌ﴾ مع أبيه المشرك حتى يلتقط من ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أنه واعده التحري عن الحق، فالأوّاه هو كثيره الأوه واللَّهف والتّلهُّب في الدعاء، والرجوع إلى الله[4].

---

(١) ملحقات إحقاق الحق ٤: ١٠٠، ٢٢٧ و٧: ٢١٦ و١٥: ٥١٨ - ٥١٩ و٥: ٩٥ و٢٠: ٢٣٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.

(٣) نور الثقلين ٢: ٢٧٤ - أبو إسحاق الهمداني عن الخليل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: صلى رجل إلى أجنبي فاستغفر لأبويه وكانا ماتا في الجاهلية فقلت تستغفر لأبويك وقد ماتا في الجاهلية؟ قال: فقد استغفر إبراهيم لأبيه، فلم أدر ما أرد عليه فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ...﴾ [التوبة: ١١٤] قال: لما مات تبين أنه عدو لله فلم يستغفر له.

(٤) تفسير الفخر الرازي ١٦: ٢١١ يروى أن زينب تكلمت عند الرسول ﷺ بما يغير لونه =

فقد تعني ﴿مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ كلتا الموعدتين، الأولى موعدة آزر إبراهيم أن يتحرى، والثانية موعدة إبراهيم آزر لنفس الموعدة أن يستغفر له، بفارق أن موعدة إبراهيم كانت واقعة دون آزر، وقد استغفر له، ثم لمّا تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ولم يستغفر له، وإنما استغفر لوالديه وللمؤمنين رافضاً أباه آزر، وأما أن تعني - فقط - وعد إبراهيم إياه، فهو لا يبرر الاستغفار، إنما يبرره عدم تبنيه أنه عدو لله حسب النص، ثم آزر هو أقرب مرجعاً أدبياً كما هو أقرب في «ملياً» وعداً ملياً.

وهنا المختلقة الزور أن الآية ليست «لوالدي» بل هي «لولدي» إسماعيل وإسحاق والحسن والحسين عليهم السلام [1] إنها ليست إلّا من المجاهيل الذين لا يتدبرون القرآن، ففيما تبدو لهم ظاهرة بدائية من آية أنها تخالف ما يعتقدون يبتدرون بفرية تحريف الآية بكل توسُّع وسخاء حمقاء، والله تعالى منهم ومن أمثالهم من المختلقين الزور براء.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾:

هنا ﴿هَدَىٰهُمْ﴾ بما اهتدوا فليس ﴿لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ إلّا إذا ضلوا، وهُدى

= فأنكر عمر فقال صلى الله عليه وآله وسلم: دعها فإنها أواهة قيل يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما الأواهة؟: قال: الداعية الخاشعة المتضرعة، وفي الدر المنثور ٣: ٢٨٥ عن جابر أن رجلاً كان يرفع صوته بالذكر فقال رجل: لو أن هذا خفض صوته فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: دعه فإنه أواه وفيه عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل يقال له ذو البجادين إنه أوّاه وذلك أنه كان يكثر ذكر الله والدعاء، وفيه عن أبي ذر قال: كان رجل يطوف بالبيت ويقول في دعائه: أوّه أوّه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنه لأوّاه.

(١) نور الثقلين ٢: ٢٧ في تفسير العياشي عن جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [إبراهيم: ٤١] قال: هذه كلمة صحفها الكتاب إنما كان استغفاره لأبيه عن موعدة وعدها إياه وإنما كان ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [إبراهيم: ٤١] يعني إسماعيل وإسحاق والحسن والحسين والله ابناً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!.

الله هي الهدى الكاملة ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ على ضوء هُداه، ف «يعرفهم ما يرضيه وما يسخطه»[(١)] فإن ضلوا بعد هُداه وبيانه أضلهم جزاءً وفاقاً بما ضلوا.

﴿وَمَا كَانَ﴾ تحلّق هذه السلبية على فسيح زمن التكليف، فحين يهدي الله قوماً بما اهتدوا وعملوا لها، فالله مستمر في هُداهم مبيناً لهم ما يتقون، وهو من هُداهم، فإذا ضلوا بعد هدى الله وبيانه فقد يضلهم، و: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[(٢)].

وهنا ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ يعني - كأصل - كتاب الوحي وعلى هامشه السنة الرسولية، ولأن السنة تختلط بسواها فقد يخفى بيانها، فلا بد من كون الكتاب بياناً صارحاً ليكون حجة كافية، فلو أن القرآن محرّف، أم ليس بياناً كافياً بنفسه، فلا عذاب إذاً ولا إضلال على من يخالف شرعة الله، بسناد عدم البيان الوافي في كتاب الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾:

له الولاية الطليقة في مطلق الكون تكويناً وتشريعاً، إحياء وإماتة، للأرواح هدىً وضلالاً، وللأجساد حيث ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ تعنيهما كليهما، ولا سيما حياة الهدى وضلال الردى اللتين يتحدث عنهما.

(١) نور الثقلين ٢: ٢٧٦ في كتاب التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: حتى يعرفهم..
وفيه عن أصول الكافي عن شاهويه بن عبد الله الجلاب قال: كتب إلي أبو الحسن عليه السلام في كتاب: أردت أن تسأل عن الخلف بعد أبي جعفر عليه السلام وقلقت لذلك فلا تنعم فإن الله عز وجل لا يضل قوماً بعد إذا هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وصاحبكم بعدي أبو محمد ابني وعنده ما تحتاجون إليه يقدم ما يشاء الله ويؤخر ما يشاء ما ننسخ من آية أو ننسها قد كتبت بما فيه بيان وقناع لذي عقل يقظان.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

ثم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أموركم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم في الهزاهز.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾:

هنا قلوب كادت تزيغ فتوبة الله عليها هي الرجوع بالرحمة المطمئنة لها، وقلوب ما كادت تزيغ وهي قلب النبي ﷺ والناحين منحاه، فلا تعني التوبة عليهم معنى واحداً لكي تعني في النبي ﷺ توبة عليه في زيغ اعتراه.

فقد يتوب على الساحة المعصومة فهي التسديد في ساعة العسرة، وأخرى على غير المعصومين وهم غير مأثومين إذ ﴿كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ﴾ طمأنَةً لها عما كاد، وثالثة يتوب على من تاب إلى الله من زَيغ واقع وضيق مانع: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾[1] ورابعة يتوب عليهم ليتوبوا، ثم أخرى قبولاً لتوبتهم في عظائم الذنوب كما:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾:

فالتوبة على النبي واحدة هي مستمرة تسديداً له بما عصم الله ولا سيما في ساعة العسرة، فمن الجهالة غيار ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ بـ «بالنبي» كما في مختلقة[2].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٩.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٧٧ في تفسير القمي قوله عزَّ وجلَّ: لقد تاب الله بالنبي.. قال الصادق عليه السلام هكذا نزلت، أقول: ولا معنى لتوبة الله بالنبي فإنه يتوب دونما وسيط اللهم إلّا بما يستغفر النبي، ولكن النصر «عَلَى النَّبِيِّ» كما بيناه، وفيه عن الاحتجاج للطبرسي عن أبان ابن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قرأ: «لقد تاب الله بالنبي..» قال ابان: فقلت له يابن =

والتوبة على من كاد أن تزيغ قلوبهم مرتان، توبة لاطمئنان بعد ما كادت تزيغ، وأخرى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ مزيداً للرحمة والحنان ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] ولا حاجة فيهما إلى توبة العبد مهما تاب كما كان النبي ﷺ توبة إلى الله على أية حال.

ثم التوبة على من عصى هي مشروطة بأن يتوب إلى الله حتى يتوب الله عليه، وهي في الذنوب المتعددة غير المتعدية، ومن ثم على أمثال ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ حيث التوبات لهم أربع، توبة الله عليهم ليصلحوا لِرَحمة كما ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ عطفاً على ﴿لَّقَد تَّابَ﴾ وأخرى عليهم ثانية ليتوبوا، ثم ثالثة هي توبتهم إلى الله، ومن ثم رابعة ليتوب الله عليهم غفراً لعظيم الذنب.

فتوبات الله على عباده نوبات، كما وتوبات العبد نوبات، ولا تعني كلُّها معنىً واحداً، حتى إذا سمعنا الله يقول: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾

= رسول الله إن العامة لا تقرأ كما عندك؟ قال: وكيف تقرأ يا أبان؟ قال قلت: إنها تقرأ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ...﴾ [التوبة: ١١٧] فقال: ويلهم وأي ذنب كان لرسول الله ﷺ حتى تاب الله عليه منه إنما تاب الله به على أمته.

أقول: لقد جاء «تاب على» في آيات عدة كما في دعاء إبراهيم ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: ١٢٨] وفي نبينا ﷺ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣] وهكذا ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ...﴾ [التوبَة: ٤٣] وما أشبه، ولكل معنى صالح لساحة النبوة القدسية دون أي غيار في هذه الآيات.

وفي المجمع قد روي عن الرضا عليه السلام «بالنبي» وقراءة علي بن الحسين وأبي جعفر وجعفر بن محمد عليهم السلام «خالفوا» بدلاً عن «خلفوا».

وفي تفسير العياشي عن فيض المختار قال قال أبو عبد الله عليه السلام كيف تقرأ هذه الآية ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨] قال قلت: «خلفوا» قال: لو خلفوا لكانوا في حال طاعة - وزاد الحسين بن مختار عنه: لو كان «خلفوا» ما كان عليهم من سبيل ولكنهم خالفوا عثمان وصاحباه أما والله ما سمعوا صوت كافر ولا قعقعة حجر إلا قالوا أتانا فسلط الله عليهم الخوف حتى أصبحوا، قال صفوان قال أبو عبد الله عليه السلام كان أبو لبابة أحدهم يعني في ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨].

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٧.

نحسبها توبة عن عصيان، أم يقال: كانت الآية «بالنبي»! كما وأن الذنب ذنبان، ذنب يُستوخم عقباه في العقبى وهو أوخم عصيان، وذنب يستوخم عقباه في الأولى ومنه قمة إيمان، كذنب الرسول ﷺ في ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فإنه ذنب الرسالة القدسية الأخيرة بملابساتها وعرقلاتها من قبل المناوئين إياها حيث سترها الله بفتح العاصمة الرسالية.

وهؤلاء الثلاثة الذين خلفوا هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة ابن ربيعة، وكلهم من الأنصار، ولم يكونوا هم من المنافقين[1] وإنما ﴿خُلِّفُواْ﴾ بما خلفتم أموالهم وأهلوهم، خلفتهم عن اللحوق برسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فـ ﴿خُلِّفُواْ﴾ إذاً عن توبة الله عليهم حيث التخليف في اللغة هو التأخير، فقد أُخِروا عما أخروا بما أخَروا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ

(١) الدر المنثور ٣: ٢٨٦ - أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: لما نزل رسول الله ﷺ بذي أوان خرج عامة المنافقين الذين كانوا تخلفوا عنه يتلقونه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: لا تكلمنّ رجلاً تخلف عنا ولا تجالسوه حتى آذن لكم فلم يكلموهم فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أتاه الذين تخلفوا يسلمون عليه فأعرض عنهم وأعرض المؤمنون عنهم حتى أن الرجل ليعرض عنه أخوه وأبوه وعمه فجعلوا يأتون رسول الله ﷺ ويعتذرون بالجهد والأسقام فرحمهم رسول الله ﷺ فبايعهم واستغفر لهم وكان ممن تخلف عن غير شك ولا نفاق ثلاثة نفر الذين ذكر الله تعالى...

وفيه أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال: لما غزا رسول الله ﷺ تبوك تخلف كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، قال: أما أحدهم فكان له حائط حين زها قد فشت فيه الحمرة والصفرة فقال غزوت وغزوت وغزوت مع النبي ﷺ فلو أقمت العام في هذا الحائط فأصبت منه فلما خرج رسول الله ﷺ وأصحابه دخل حائطه فقال: ما خلّفني عن رسول الله ﷺ وما استبق المؤمنون في الجهاد في سبيل الله إلّا ضن بك أيها الحائط، اللّهم إني تصدقت به في سبيلك، وأما الآخر فكان قد تفرق عنه من أهله ناس واجتمعوا له فقال غزوت مع رسول الله ﷺ وغزوت فلو أني أقمت في أهلي فلما خرج رسول الله ﷺ وأصحابه قال: ما خلفني عن رسول الله ﷺ وما استبق إليه المجاهدون في سبيل الله إلا ضنّ بكم أيها الأهل، اللّهم إن لك علي أن لا أرجع إلى أهلي ومالي حتى أعلم ما تقضي في، وأما الآخر فقال: اللّهم إن لك عليّ أن ألحق بالقوم حتى أدركهم أو انقطع فجعل يتبع الدقع والحزونة حتى لحق بالقوم فأنزل الله ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ .. وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨].

﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ تأسفاً على ذلك التخلف العارم عن رسول الله ﷺ ثم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ تحزُّناً على ما خُلِّفوا ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ ثم بعد هذه الثلاثة التي هي من مؤهِّلات التوبة ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

فهؤلاء الثلاثة ابتلوا بثلاثة كل واحدة منها تكفي لأهليتهم للتوبة، فقد ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أرض العشرة السليمة مع المسلمين حيث رفضوهم واعتزلوهم كما رفضهم رسول الله ﷺ «ضاقت بما رحبت» من أموال وأهلين تركوا الجهاد لها ولهم، فضاقت عليهم أنفسهم بتلك العُزلة والندامة عن تلك التخلّفة العارمة[1]، ثم انقلبوا وانعزلوا إلى الله حيث ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ وبهذه الخطوات الثلاث التي هي من مؤهِّلات التوبة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ذلك، وزَيْغ قلوب فريق منهم الذي كاد، علَّه نوع نفرة منهم لتلك السفرة الشاقة البعيدة في الرمضاء، وما أشبه من هذه الحوادث والوساوس والهواجس، فأدركهم الله بتوبته عليهم جزاءَ ما أقدموا على الخروج رغم تلك المروج، واتباعهم الرسول ﷺ في ساعة العسرة العسيرة، فجعلها الله عليهم بتوبته سهلة يسيرة، فلاتباع الحق في ساعة العسرة موقعه العالي في ميزان الله، يستحق صاحبه به أن يتوب الله عليه برحمة خاصة راصَّة.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٦ : ٢١٨ ثم إن رسول الله ﷺ نهى عن مجالسة هؤلاء الثلاثة وأمر بمباينتهم حتى أمر بذلك نساءهم فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وجاءت امرأة هلال بن أمية وقالت: يا رسول الله ﷺ لقد بكى هلال حتى خفت على بصره حتى إذا مضى خمسون يوماً أنزل الله تعالى ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ . . . وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ . . .﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨] فعند ذلك خرج رسول الله ﷺ إلى حجرته وهو عند أم سلمة فقال: الله أكبر قد أنزل الله عند أصحابنا فلما صلى الفجر ذكر ذلك لأصحابه ويبشرهم بأن الله تاب عليهم فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ وتلا عليهم ما نزل فيهم فقال كعب: توبتي إلى الله تعالى أن أخرج مالي صدقة فقال: لا - قلت: فنصفه، قال: لا، قلت: فثلثه، قال: نعم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ
لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا
يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ
وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا
يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً
وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ
فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ
إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم
مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ
﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ
قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾:

الصادقون هنا هم الصادقون في إيمانهم بأيمانهم وسواها من قالاتهم وحالاتهم وفعالاتهم، فـ ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾ صدقاً طليقاً حقيقاً بصالح الإيمان.

فالكون مع الصادقين في كينونة الصدق هو من معارج تقوى الله، وهنا مدارج ثلاثة:

﴿آمَنُوا - اتَّقُوا اللَّهَ - وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فمن كمال الإيمان هو تقوى الله عملياً كما آمنتم لفظياً وقلبياً، تقوىً عن كل ما لا يرضاه الله، ثم من كمال التقوى هو الكون مع الصادقين[1] وهم أئمة المؤمنين المتقين

---

(١) في الدر المنثور ٣: ٢٩٠ عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» وفيه عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ خطب فقال: ما يحملكم على أن تتبايعوا على الكذب كما يتتابع الفراش في النار كلّ الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها، وعن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال: الكذب مجانب للإيمان، وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: يطبع المؤمن على كلّ شيء إلا الخيانة والكذب، وعن أبي بررة عن النبي ﷺ قال: الكذب يسود الوجه والنميمة عذاب القبر، وعن أسماء بنت عميس قالت كنت صاحبة عائشة التي هيأتها فأدخلتها على النبي ﷺ في نسوة فما وجدنا عنده قرى الأقداح من لبن فتناوله فشرب منه ثم ناوله عائشة فاستحيت منه فقلت: لا تردي يد رسول الله ﷺ فأخذته فشربته ثم قال: ناولي صواحبك فقلت: لا نشتهيه فقال: لا تجمعن =

الصادقين، فهم - لأكمل مصداق - أئمة الدين[١] وكما تظافر به الحديث عن المعصومين عليهم السلام.

ذلك، ولأن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تعم كافة المؤمنين بدرجاتهم، فـ «الصادقون» فيهم هم الرعيل الأعلى منهم بطبيعة الحال، وكما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إجابة عن سؤال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعامة هذه الآية أم خاصة؟، فقال: أما المأمورون فعامة المؤمنين أمروا بذلك، وأما الصادقون فخاصة لأخي علي وأوصيائي من بعده عليهم السلام إلى يوم القيامة..[٢].

= كذباً وجوعاً فقلت إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه لا نشتهي أيعد ذلك كذباً؟ فقال: إن الكذب يكتب كذباً حتى الكذيبة تكتب كذيبة، وعن الحسن بن علي عليه السلام سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة، وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته: إن أعظم الخطيئة عند الله اللسان الكاذب ذلك ومن طرائق الالتزام بالصدق ما يروى أن واحداً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: إني رجل أريد أن أؤمن بك إلا أني أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب والناس يقولون إنك تحرم هذه الأشياء ولا طاقة لي على تركها بأسرها فإن قنعت مني بترك واحد منها آمنت بك فقال صلى الله عليه وآله وسلم: اترك الكذب فقبل ذلك ثم أسلم فلما خرج من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم عرضوا عليه الخمر فقال: إن شربت وسألني الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن شربها وكذبت فقد نقضت العهد، وإن صدقت أقام الحد علي فتركها ثم عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه وكذا السرقة فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: ما أحسن ما فعلت لما منعتني عن الكذب انسدت أبواب المعاصي علي وتاب عن الكل.

(١) الدر المنثور ٣: ٢٩٠ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: مع علي بن أبي طالب عليه السلام وأخرج ابن عساكر عن أبي جعفر مثله.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٨٠ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في أثناء كلام له في جمع من المهاجرين والأنصار في المسجد أيام خلافة عثمان: أسألكم بالله أتعلمون أن الله عز وجل لما أنزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] فقال سلمان: يا رسول الله عامة...؟ قالوا: اللّهم نعم. أقول: وممن روى تفسير الصادقين بهم عليهم السلام: الثعلبي في تفسيره (٢١٩) والگنجي في كفاية الطالب (١١١) وسبط ابن الجوزي في التذكرة (٢٠) وصاحب كتاب شرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مناقب الكاشي، والخركوشي في شرف المصطفى بنقل ابن شهر آشوب في كفاية الخصام (٣٤٨) وأبو يوسف يعقوب بن سفيان في نفس المصدر (٣٤٧) والخطيب الخوارزمي =

فقد تعني الصادقون الصديقين في أخرى ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[1] ولأن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يحلق على طول الزمان وعرض المكان فلا بد لهم أن يكونوا مع الصادقين على طول الخط، فهم - إذاً - المعصومون من الأمة، حيث الأمر بالكون مع غير المعصوم إغراء بالجهال، وجمع ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دليل عديد المعصومين فلا تختص العصمة - إذاً - في هذه الأمة بشخص الرسول ﷺ ولم يذهب أحد من الأئمة إلى عصمة الخلفاء أو الأئمة الأربعة، وقد ذهبت جماعة منهم إلى عصمة الأئمة الاثني عشر، فليكونوا هم المعصومين، وإلّا فلا مصداق إذاً للصادقين، ثم ومعيتهم كما المعية مع الرسول ﷺ لا تختص بحضورهم، بل الأصل فيها هي معية سنتهم الثابتة الموافقة لكتاب الله، وإنما أمر المؤمنون في تقواهم بهذه المعية لأنهم يخطئون ويجهلون فلا بد لهم - إذاً - من سناد يسندهم ومولىً يليهم في كل أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم، وهؤلاء هم المعصومون الذين لا يجوز عليهم الخطأ، وإلا فلا طائل تحت الكون معهم وهم كأمثالنا يخطئون!، والقول إن ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لا يجب أن يكونوا أشخاصاً خصوصاً فإن إجماع الأمة معصوم صادق، هو زخرف من القول وغُرر من الغَرور قضية الدور المصرح أن يكون الراجع والمرجع كلاهما كل الأمة!، وإذا عنى من إجماع الأمة الضرورة القطعية الإسلامية، فهو الكاشف قطعياً عن سنة الصادقين المعصومين.

﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ

= والسيوطي في الدر المنثور ٣: ٢٩٠ والترمذي في مناقب مرتضوي (٤٣) والشوكاني في تفسيره ٢: ٢٩٥ والألوسي في روح المعاني ١١: ٤١ والقندوزي في ينابيع المودة (١١٩).

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾:

هنا بركات سبع تقابل دركات سبع قضاءً عليها في حركات في سبيل الله، يوصف بها الذين مع رسول الله ﷺ فـ ﴿مَا كَانَ﴾ تستأصل كل تخلُّف عن رسول الله فيما يأمر أو ينهى على طول خط الرسالة منذ بزوغها إلى يوم الدين، ثم ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ تستأصل كل رغبة قلبية عنه، فعلى المؤمنين أن يعيشوا رهن إشارته، ويرغبوا فيه فوق رغبتهم في أنفسهم، سواءٌ في ذلك أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أم سائر أهالي المدن وحولهم من الأعراب: سكان البوادي، وذكر ﴿لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ يعني ذكر الأقرب إليه مكاناً فالأقرب، وهنا ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ تعني لا ينبغي لهم أن يكرموا أنفسهم عما يبذل النبي ﷺ فيه نفسه، ولا يحفظوا منهجهم في المواطن التي تحضر فيها نهجه، اقتداءً به واتباعاً لأثره.

ذلك، وهم الذين تبنَّوا هذه الحركة المباركة الإسلامية بمناصرة المهاجرين، فهم أهلوها الأقربون، فهم بها ولها ولهذا الدين الجديد كأس وأثافي، فقد آووا رسول الله ﷺ ونصروه وعزروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، فباتوا يمثلون القاعدة الصلبة الرصينة المتينة للإسلام في الجزيرة كلها، وإلى كل المعمورة، وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة منذ أسلمت وباتت تؤلف الحزام الخارجي للقاعدة، فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه في صالح الإسلام ودولته.

ذلك، ولكنه ليس يختص بهم حيث التكاليف الإيمانية عامة لا تختص بفريق دون آخرين.

فقد تحلق طاعة الرسول ﷺ فيما يفعل أو يقول، والرغبة فيه، تحلقان على كل عصر ومصر من ساكني القصور إلى ساكني الأكواخ، حيث التكليف رسالي تعم كل زمان ومكان وأياً كان من المكلفين إلى يوم الدين وأيان.

ولقد كان الرسول ﷺ يقود الأمة إلى كل خير وهو السبَّاق إليه، ومن قوله في السرايا التي كان يتركها: «والذي بعثني بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها»[(١)].

ذلك، ولا يعني التخلُّف عن رسول الله إلّا التخلف عن أمره، فإذا نهى عن الخروج معه كان الخروج معه تخلفاً عنه، كما أن عدم الخروج معه حين يأمر به تخلف عنه.

ثم ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ تعني لا تحجبهم أنفسهم بمشتهياتها ورغباتها أن يرغبوا لها عنه ﷺ فالباء هنا للسببية والمصاحبة: لا تكن أنفسهم سبباً للرغبة عنه ولا مصاحبة لها، بل عليهم أن يقدِّموا رغباته على رغباتهم فـ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[(٢)].

وليست الآية لتأمر بالقتال معه ﷺ وإنما الائتمار بأمره ﷺ مهما كان قعوداً، كما للقاصرين والعُجَّز وغير المحتاج إلى حضورهم، أم خروجاً وهو لقدر الكفاءة، فلا تنافي آية النفر - التالية - حتى تنسخ بها.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٩٢ - أخرج ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن مالك عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ...﴾ [التوبة: ١٢٠] قال رسول الله ﷺ: ...

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.

هذا، وذلك التأليب والتأبيب بمن يتخلف عن رسول الله أو يرغب بنفسه عن نفسه، وذلك التشجيع بطاعته وولايته الطليقة، كل ذلك يرجع إلى صالحهم أنفسهم كمؤمنين بهذا الدين، فـ : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ (١) ظَمَأٌ وَلَا (٢) نَصَبٌ وَلَا (٣) مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٤) وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ (٥) وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فظمأٌ في سبيل الله في الهاجرة الحارقة ونَصبَ في سبيل الله تعباً ناصباً، ومخمصة في سبيل الله جوعاً مُدقعاً، ووطأة في سبيل الله موطئاً يغيظ الكفار، ونيلاً من عدو الله في سبيل الله في نفس أو نفيس، كلٌّ ﴿كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ في مخمسه.

ومن ثم ﴿(٦) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ في سبيل الله ﴿(٧) وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في سبيل الله ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ به عمل صالح ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ بهذه الوفرة الغالية ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهو هنا هذه السبعة المباركة لهؤلاء السالكين إلى الله.

ولقد أثر ذلك البلاغ البالغ في قسم من المؤمنين لحد عزموا على النفير في سبيل الله فحددهم عند حده، إخراجاً لهم عن جزره ومده قائلاً:

﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)﴾:

هنا يقتسم المؤمنون إلى قسمي القاعدين للتفقه في الدين والخارجين النافرين لصيانة الدين في جبهات الحرب، مما يدل على واجب التفقه في الدين وجوباً عينياً دونما أية وقفة، حيث الحرب أحيانية، وهي على بالغ فرضها ضد أعداء الدين واجب كفائي، فكما الفتنة أكبر وأشد من القتل، فالتفقه في الدين حفاظاً على صالح العقيدة الصامدة أوجب من القتال،

حيث العدو المقاتل يشكِّل خطراً على الأبدان، والداعية المضللة تشكل خطراً على العقيدة والأرواح في الأديان، فالحفاظ على الروحية الإيمانية أولى من الحفاظ على الدماء وأوجب.

ولأن النفر - وإن كان في الاستنفار العام - لا يعم كافة المؤمنين، ضرورة بقاء المعذورين، وآخرين يتفقهون في الدين، لذلك ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ نفراً جماعياً للكف عن دين الله، وحين لا يمكن ولا يجوز أن ينفر المؤمنون كافة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ والفرقة هي الجماعة الفارقة بينها وبين جماعة أخرى بمختلف الأشغال والمسؤوليات، ومختلف الطاقات والإمكانيات، ومختلف الأواصر والقرابات، فِرَقٌ مجتمعة على دين الله، مفترقة فيما يفرق بعضهم عن بعض في هذه وما أشبه.

وطائفة من كل فرقة، جمع منها مرابطة تطوف حول الآخرين مِراسة في حراسة عليهم، حفاظاً على الدينين بنواميسهم وبلادهم، فالذين بإمكانهم ذلك التطواف، عليهم ذلك النفر حفاظاً على الحدود والثغور الظاهرة، ثم الباقون ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ بردح النفر لهؤلاء ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الطائفين النافرين ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ المحاذير والمحاظير بما يتفقهون عندهم، وهي الحدود والثغور المعرفية والعقيدية والعملية.

فهنا ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ لا ترجع - فقط - إلى النافرين، فإن مجال النفر هو الجهاد وليس التفقه في الدين، فالمحور الذي تحور حوله الآية هو ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ و - إذاً - ف ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ هم غير النافرين.

ذلك، وإن تكن جبهات الحرب أيضاً مجالات لعملية التفقه في الدين، ولكنها ليست إلّا على هوامش الجهود من المتفقهين الرسميين للدِّين، فهم الأساتذة الأولون في إنذار النافرين، مهما تلمذوا عليهم هؤلاء تفقهاً عملياً للجهاد في سبيل الله.

وفي إرجاع ضمير الجمع في ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ - فقط - إلى النافرين جمع لمسؤولية التفقه مع الجهاد فيهم، وسلب لهما عن الباقين، رغم أن مجال التفقه للباقين أوسع بكثير من النافرين.

ذلك، وقد يُعنى من ضمير الجمع كلا الباقين[1] والنافرين[2] مهما كان الأولون هم الأصلاء والآخرون هم الهوامش لاختلاف، مجال التفقه بينهما.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٩٢ - أخرج أبو داود في ناسخه وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: نسخ هؤلاء الآيات: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا...﴾ [التوبة: ٤١] قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]، يقول: لينفر طائفة ولتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ فالماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون في الدين وينذروا إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو لعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله في كتابه وحدوده، أقول: وأخرجه مثله عن عبد الله بن عبيد بن عمير.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٨٢ عن الكافي عن يعقوب بن شعيب قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إذا حدث على الإمام حدث كيف يصنع الناس؟ قال: أين قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ...﴾ [التوبة: ١٢٢] قال: هم في عذر ما داموا في الطلب وهؤلاء الذين ينتظرونهم في عذر حتى يرجع إليهم أصحابهم، وفيه عنه عن عبد الأعلى قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول العامة: إن رسول الله ﷺ قال: من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية؟ قال: الحق والله، قلت: فإن إماماً هلك ورجل بخراسان لا يعلم من وصيه لم يسعه ذلك؟
قال: لا يسعه، إن الإمام إذا هلك وقعت حجة وصيه على من هو معه في البلد وحق النفر على من ليس بحضرته إذا بلغهم أن الله عز وجل يقول: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ...﴾ وفيه عن عيون الأخبار في باب العلل التي ذكر الفضل بن شاذان أنه سمعها من الرضا عليه السلام فإن قال: فلِمَ أمر بالحج؟ قيل العلة الوقادة وطلب الزيادة - إلى أن قال: مع ما فيه من التفقه ونقل الأخبار الأئمة عليهم السلام إلى كلّ صقع وناحية كما قال الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ...﴾ «وليشهدوا منافعهم» وفيه عن العلل عن عبد الله المؤمن الأنصاري قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن قوماً يروون أن رسول الله ﷺ قال: اختلاف أمتي رحمة؟ فقال: صدقوا، فقلت: إن كان اختلافهم رحمة فاجتماعهم عذاب؟ قال: ليس حيث تذهب وذهبوا، إنما أراد قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ...﴾ فأمرهم أن ينفروا إلى رسول الله ﷺ ويختلفوا إليه فيتعلموا ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلموهم، إنما أراد اختلافهم من البلدان لا اختلافاً في دين الله إنما الدين واحد، وفيه عنه عن عبد الأعلى قال قلت لأبي الحسن عليه السلام: إن بلغنا وفاة الإمام كيف نصنع؟ قال: عليكم النفير، قلت: النفير جميعاً؟ قال: إن الله يقول: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ...﴾.

فلأن التفقه في الدين جهاد كمال القتال، فقد يصدق على الخارجين لذلك أنهم من النافرين ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ لكلا الجهاد القتال، والجهاد التفقه في الدين، فـ «طائفة من كل فرقة» هي القادرة على التطواف حول كل فرقة، حفاظاً عقيدياً وثقافياً، أو حفاظاً على الثغور الإسلامية.

فالتفقه في الدين فرض على كل قاعد ونافر مهما اختلفت مراتبه ومجالاته حسب اختلاف الملابسات، فعلى الذي لم يتفقه من نبعته عليه أن يتفقه عمن تفقه ما لا يصل إلى النبعة، ومن تفقه قليلاً فعليه أن يتفقه ممن تفقه أكثر منه، فلا حدَّ - إذاً - للتفقه في الدين، وهو على فرضه الأعياني يجب أن يكون متعاوناً عليه بين المؤمنين أجمع، ولكن النفر للجهاد ليس فرضاً على الأعيان وحتى في الاستنفار العام قضية أنه غير مستطاع لكافة المؤمنين، والتفقه في الدين من المستطاع لهم أجمعين مهما اختلفت درجاته ومجالاته.

ذلك، فـ «طائفة» هي بين طائفة النفر للتفقه في الدين وأخرى طائفة النفر للجهاد للحفاظ على الدينين، فقه علمي للقاعدين، وفقه عملي للنافرين، ولكي يتفقه المؤمنون كلا الفقهين، فعلى كلٍّ من القاعدين والنافرين أن يفقِّه الآخرين.

وعلى أية حال فالتفقه في الدين بحاجة إلى حركة فقهية سواء للقاعدين أو النافرين، فإنه منهج حركي لا يفقه إلا من تحرك به، لذلك نسمع الإمام الصادق عليه السلام يقول فيمن لزم بيته ولم يتعرف إلى أحد من إخوانه : وكيف يتفقه هذا في دينه؟.

فالفقاهة العملية التي ندرسها من خلال جبهات الحروب في سبيل الله هي من حصائل الفقاهة العلمية، ثم الفقاهة العلمية هي أيضاً بحاجة إلى فقاهة عملية تكافلاً وتكاملاً للمتفقه بين الفقاهتين.

نحن نجزم بالتجارب بأن الذين لا يندمجون في الفقه الحركي، تفرغاً لدراسة الدين في الكتب والحوزات بصورة باردة جامدة، هؤلاء لم يتفقهوا في الدين كما يصح، فكيف يقودون الحركة الإسلامية السامية في حقول الجهاد بمختلف صوره؟.

ثم التفقه في الدين لا يختص بالفقه الأصغر وهو فقه الأحكام، بل والفقه الأكبر وهو أحرى من جهات شتى، لأنه أصول المعارف الدينية، وهي لا تقبل التقليد، والتفقه في الفقه الأكبر يسهّل التفقه في الفقه الأصغر دون عكسه.

وهل الدين يختص بأحكامه الفرعية دون قواعده وأثافيِّه حتى يختص التفقه في الدين بها دونها؟ ولأن الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب فالتفقه إذاً هو التكلُّف في هذا الحقل قدر المستطاع، فـ «تفقهوا في الدين فإنه من لم يتفقه في الدين فهو أعرابي»[1].

ذلك، وإذا دار الأمر بين التفقه في الدين والجهاد دون إمكانية الجمع بينهما فالمتعين هو التفقه فإنه يتبنَّى إيمان المتفقه والمجاهدين ولا عكس، والحفاظ على فقاهة الإيمان أوجب من الحفاظ على نفوس المؤمنين، ثم وكلٌّ من طائفة التفقه والجهاد ينوب عن الآخر، فللمجاهدين من أجر

---

(١) الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام وفيه عن المفضل بن عمر قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا أعراباً فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يزك له عملاً، وفيه عن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا، وفيه عنه عليه السلام قال له رجل: جعلت فداك رجل عرف هذا الأمر لزم بيته ولم يتعرف إلى أحد من إخوانه، قال فقال: وكيف يتفقه هذا في دينه؟، وعن الخصال عن الحارث الأعور قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: ثلاث بهن يكمل المسلم: التفقه في الدين والتقدير في المعيشة والصبر على النوائب، وعنه عن موسى بن أكيل قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا يكون الرجل فقيهاً حتى لا يبالي أيّ ثوبيه ابتذل وبمَ سدّ فورة الجوع.

المتفقهين وللمتفقهين أجر الشهداء فإن «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء» حيث الشهادة في سبيل الله ترسمها مداد العلماء، مداً لها إلى الشهادة وسواها من الحيويات الإيمانية.

وهل يستفاد من الآية وجوب أو جواز العمل بخبر الواحد أو الخبر الواحد - عن القرائن العلمية - اعتباراً بـ «ينذروا» و﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إذ لا مجال لرجاء الحذر إلّا بعد واجب أو راجح قبول الإنذار؟ كلّا حيث الطائفة المتفقهة سواء أكانت الباقية أو النافرة هي جماعة فيها مجالة القبول للمنذرين، بحجة الكتاب والسنة الصالحة للتقبل، وقد أمرنا ألّا نقفُ ما ليس لنا به علم، وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً، ولعل «العلّ» هنا تعني ترجيين اثنين: ترجي الحذر برجاء الحجة في ذلك الإنذار الإعذار، وترج ثان بعد واقع الحجة فيه.

فعلى المنذر أن ينذر بما يملكه من حجج الحق، فإن حقت الحجة للمنذَرين فهناك واجب الحذر عما منه ينذرون، ومما ينذرَ منه المنذَرون تصديق ما ليس لهم به من علم في حقل الإنذار، كتكذيب ما لهم به علم.

ولأن التفقُّه يحمل الحجة على مادة الإنذار، فالمنذرون - إذاً - ينذَرون بتلك الحجة التي تثبت مادة الإنذار، اجتهاداً أو تقليداً صالحين.

ولمكان الفرض المستفاد من ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ نرى واجب التفقه على الذين عليهم أن يفقِّهوا، أثقل مادةً وكيفيةً من واجبة على الباقين، على أنهم سواء في واجب أصل التفقه قدر القناعة الذاتية، ثم المفروض على الآخرين التفقه في تقبل ذلك الفقه بأذن صاغية وقلوب واعية، فإن بلغت لهم حجته تقبلوه، وإلا فإلى مَن في إنذاره حجة دون أية وقفة في حقل التعلم.

وهكذا يبشَّر عباد صالحون في حقول المعرفة الدينية: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ١٧﴾

ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾[١].

ثم التفقه في الدين ليس يختص بالأحكام حتى يحاول الحصول بالآية على حجية الخبر الواحد، بل الأصل فيه هو أصل الدين وعلى هامشه فرعه، فهل يتقبل أصل من الدين بخبر الواحد تقليدياً؟ أم هو بحاجة إلى اقتناع بحجة مقبولة، وهكذا شأن الفروع كما تقول آية الذكر: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾[٢]. اسألوهم بالبينات والزبر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وهم أهل الذكر بالبينات والزبر.

فقد ينحصر القبول في حقل الدين بالكتاب والسنة القطعية، اجتهاداً تفصيلياً هو الاجتهاد، أم إجمالياً هو التقليد، فليكن التقليد أيضاً بالاجتهاد قدر المستطاع، فالمسلمون كلهم متفقهون في الدين دونما استثناء مهما اختلفت الفاعليات والقابليات.

وحين يجب على غير النافرين إلى الجهاد أن يتفقهوا في الدين بوجه صالح مقبول، كذلك على النافرين إذا رجعوا إليهم أن يتفقهوا منهم بوجه صالح مقبول وهو اتباع علم أو أثارة من علم، دون اعتماد على ظن وما أشبه، ودونما تقليد أعمى.

وأصل الفقه وأثافيه أحكامياً وعقيدياً وسياسياً وعسكرياً وسواها من الفقه الإسلامي إنما هو القرآن وعلى هامشه السنة القطعية، فالمشي وراء سائر الأدلة المتخيلة، ولا سيما المجانية للكتاب والسنة، إنه سفاهة وليس فقاهة.

ذلك، والآيات القرآنية كهذه وما أشبه، ومن كتابات السماء[٣]

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٢) سورة النحل، الآيتان: ٤٣ - ٤٤.

(٣) فمما في كتب السماء ما ينقله في منية المريد عن الإنجيل في السورة السابعة عشرة منه: =

والروايات هي فوق حد الإحصاء، بكلمة واحدة هي فرض العلم دينياً فرض عين، ودنيوياً فرض كفاية.

ومما يروى عن رسول الهدى ﷺ قوله: «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام كان بينه وبين الأنبياء درجة واحدة في الجنة»(١).

و«نوم مع علم خير من صلاة مع جهل»(٢) - و«إذا جاء الموت إلى طالب العلم وهو على هذه الحال مات شهيداً»(٣) و«طالب العلم أفضل عند الله من المجاهدين، والمرابطين، والحجاج، والمعتمرين، والمعتكفين، والمجاورين، استغفرت له الشجر والبحار والرياح والسحاب والنجوم والنبات وكل شيء طلعت عليه الشمس»(٤) - و«من أراد أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فلينظر إلى العلماء»(٥) - و«تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، سالك بطالبه سبيل الجنة، ومؤنس في الوحدة، وصاحب في الغربة، ودليل على السرَّاء والضرَّاء، وسلاح على

= «ويل لمن سمع بالعلم ولم يطلبه كيف يحشر مع الجهال إلى النار، اطلبوا العلم وتعلموه فإن العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم، وإن لم يرفعكم يضعكم، وإن لم يغنكم لم يفقركم، وإن لم ينفعكم لم يضركم، ولا تقولوا: نخاف أن نعلم فلا نعمل، ولكن قولوا: نرجو أن نعلم ونعمل، والعلم يشفع لصاحبه، وحق على الله أن لا يخزيه، إن الله يقول يوم القيامة: يا معشر العلماء ما ظنكم بربكم؟ فيقولون: ظننا أن ترحمنا وتغفر لنا، فيقول تعالى: فإني قد فعلت، إني استودعتكم حكمتي لا لشر أردته بكم، بل لخير أردته بكم، فادخلوا في صالح عبادي إلى جنتي ورحمتي» (العوالم ٢ - ٣: ١٢٥).

(١) العوالم (٢ - ٣: ١٣١) نقلاً عن منية المريد للشهيد الثاني.
(٢) المصدر ١٣٢.
(٣) المصدر (١٣٣) عن أبي ذر قال: باب من العلم تتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً وقال سمعنا رسول الله ﷺ يقول: إذا جاء الموت..
(٤) المصدر عن عيون المعجزات وإرشاد الديلمي عن النبي ﷺ.
(٥) المصدر (١٣٣).

الأعداء، وزين الأخلّاء، يرفع الله به أقواماً يجعلهم في الخير أئِمة يُقتدى بهم، ترمق أعمالهم، وتقتبس آثارهم، وترغب الملائكة في خلتهم، لأن العلم حياة القلوب، ونور الأبصار من العمى، وقوة الأبدان من الضعف، وينزل الله حامله منازل الأنبياء، ويمنحه مجالس الأبرار في الدنيا والآخرة، بالعلم يطاع الله ويُعبد، وبالعلم يُعرف الله ويوحَّد، وبه توصل الأرحام، ويُعرف الحلال والحرام، والعلم إمام العقل والعقل وزيره، يلهمه الله السعداء، ويحرمه الأشقياء»(١).

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «... إن العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأسباب بالأمور، ويده الرحمة، وهمته السلامة، ورجله زيادة العلماء، وحكمته الورع، ومستقره النجاة، وفائدته العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلام، وسيفه الرضا، وقوسه المداراة، وجيشه محاورة العلماء، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، ومأواه الموادعة، ودليله الهدى، ورفيقه صحبة الأخيار»(٢).

وعنه عليه السلام: «العلم أفضل من المال بسبعة: الأوّل: أنه ميراث الأنبياء والمال ميراث الفراعنة، الثاني: العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص بها، الثالث: يحتاج المال إلى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه، الرابع: العلم يدخل في الكفن ويبقى المال، الخامس: المال يحصل للمؤمن والكافر والعلم لا يحصل إلا للمؤمن خاصة، السادس: جميع الناس يحتاجون إلى صاحب العلم في أمر دينهم ولا يحتاجون إلى صاحب المال، السابع:

---

(١) المصدر ١٣٣ عن تحف العقول قال النبي صلى الله عليه وآله: ..

(٢) المصدر ١٣٥ تحف العقول عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث..

العلم يقوي الرجل على المرور على الصراط والمال يمنعه»[١].

وعنه ﷺ: «طالب العلم بين الجهال كالحي بين الأموات»[٢]

وعنه ﷺ: «أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه وأشجع الناس من غلب هواه، وأكثر الناس قيمة أكثرهم علماً، وأقل الناس قيمة أقلهم علماً»[٣].

وعنه ﷺ: «من خرج يطلب باباً من علم ليرد به باطلاً إلى حق أو ضلالة إلى هدىً كان عمله ذلك كعبادة متعبد أربعين عاماً»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من عبادة سبعين ألف عابد»[٥].

وعنه ﷺ: «الأنبياء قادة، والفقهاء سادة، ومجالستهم زيادة»[٦].

وعنه ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي - ثلاث مرات - قيل له: يا رسول الله ﷺ ومن خلفاؤك؟

قال: الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي فيعلمونها الناس من بعدي»[٧].

وهنا «حديثي» قبل «سنتي» وقرنُه، لا ريب أنه يعني القرآن: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[٨] فكما النبي ﷺ مزدوج الشخصية الرسولية من

(١) المصدر ١٣٨ منية المريد عنه عليه السلام.
(٢) المصدر ١٤٣ عن أمالي الطوسي.
(٣) المصدر ١٤٣ مكارم الأخلاق.
(٤) المصدر ١٤٨ - أمالي الطوسي.
(٥) المصدر ١٤٩.
(٦) المصدر ١٦٧ - أمالي الطوسي.
(٧) المصدر ١٧٤ عيون أخبار الرضا عليه السلام.
(٨) سورة الجاثية، الآية: ٦.

الكتاب والسنة، كذلك الذين يخلفونه من معصومين عليهم السلام وسواهم، إنما هم يروون كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله رواية صادقة حاذقة حادقة إلى الحق المُرام من الثقلين.

وقال صلى الله عليه وآله: «... ومن خرج من بيته يلتمس باباً من العلم كتب الله له بكل قدم ثواب (ألف) شهيد من شهداء بدر»[١]

وقال صلى الله عليه وآله: «سألت جبرئيل عليه السلام فقلت: العلماء أكرم عند الله أم الشهداء؟ فقال: العالم الواحد عند الله أكرم من ألف شهيد فإن اقتداءَ العلماء بالأنبياء، واقتداء الشهداء بالعلماء»[٢].

وقال صلى الله عليه وآله: «إذا كان يوم القيامة وُزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»[٣].

وقال صلى الله عليه وآله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[٤] وعن الصادق عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل حال»[٥].

ذلك، ولأن الفقه أخص من العلم، حيث الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، لذلك أصبح الفقه والتفقه في الدين من ميزات العلم البارعة وكما في متواتر الحديث: «متفقه في الدين أشد على الشيطان من ألف عابد»[٦] و«لكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه»[٧].

---

(١) المصدر ١٧٦ جامع الأخبار.
(٢) المصدر ١٧٦ عن عيون المعجزات.
(٣) المصدر ١٨٥ - أمالي الطوسي.
(٤) المصدر ١٩٧ - غوالي اللآلي عنه صلى الله عليه وآله.
(٥) المصدر ٢٠٠ - بصائر الدرجات.
(٦) المصدر ٢٤٥ غوالي اللآلي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ...
(٧) المصدر ٢٤٥ بصائر الدرجات عن أبي جعفر عليه السلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾:

صحيح أن ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[١] تعم الذين يلونكم والبعيدين عنكم، إلّا أن القدر المستطاع قبل قيام صاحب الأمر بالدولة الإسلامية العالمية، ليس المستطاع قبله إلا قتال الذين يلونكم[٢] وكما الإنذار والدعاية الإسلامية آخذان في خطواتهما من الأقربين الملاصقين، كذلك القتال، فهما الحد الأدنى والخطوة الأولى من الناحيتين السلبية والإيجابية الممثلة لكلمة التوحيد، سلباً للكفر وإيجاباً للإيمان.

ذلك ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ تحذروهم - أولاء وسواهم من الكفار - عن النيل منكم، فلا بد للمؤمنين إضافة إلى واقع القتال قوة إرهابية عادلة ترهب أعداء اللّه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ...﴾[٣].

ثم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في القتال والغلظة، اتقاءً عن الإفراط والتفريط، مشياً على معتدلَ الجادة في سبيل الله كما أمر الله، وبصورة جادة.

فحين تشكَّل دولة إسلامية بغياب صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف، فلا عليها ولا لها إلّا أن تقاتل جيرانها الأقربين من الكفار

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٨٥ في تفسير القمي في الآية قال: يجب على كلّ قوم أن يقاتلوا ممن يليهم ممن يقرب من بلائهم ولا يجوزوا ذلك الموضع.

وفي الدر المنثور ٣: ٢٩٣ - أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه سئل عن قتال الديلم فقال: قاتلوهم فإنهم من الذين قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وفيه ابن مردويه عن ابن عمر أنه سئل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] قال: الروم.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

المقاتلين المفسدين، اتقاءً عن التجاوز عنهم إلى الآخرين، حيث الكفر ملة واحدة، فقد يجنِّد جنوده دفعة واحدة وحملة فاردة لاجتثاث الدولة الإسلامية التي غاية قوتها الحفاظ على نفسها من بأس الذين يلونهم من الكفار.

ذلك، ولأن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لا تختص بدولة إسلامية، وهم مبعثرون في المعمورة، فعليهم القتال الدائب قدر المستطاع بصورة متواصلة سوماً للعذاب على الكفار المفسدين الخَطِرين عليهم، حتى تُعبَّدَ الطريق لدولة المهدي عليه السلام العالمية.

فهنالك للمجموعة المسلمة مثلث من الجهاد في مثناه: دعائياً وحربياً، فالضلع الأوّل ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ لكل دولة أو دويلة أو مجموعة أو منظمة إسلامية سليمة، والثاني أن تتعاون كافة المجموعات الإسلامية في شتى أنحاء المعمورة، مترابطين مع بعضهم البعض ومرابطين وكما قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ...﴾[1] والثالث والأخير - وهو من حصائل ذلك الجهاد الإسلامي المتكافل وفصائله - هو تأسيس الدولة الإسلامية العالمية بقيادة صاحب الأمر وولي العصر الحجة بن الحسن العسكري عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه، وأما الحرب الباردة الدعائية فلا حد لها إلا كافة الدعايات الكافرة، أن نحاربها بألسنتنا وأقلامنا.

وقيلة القائل الغائل إنها منسوخة بـ ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾[2] منسوخة بأن ﴿كَآفَّةٗ﴾ هي وصف للمقاتلة المستفادة من ﴿قَٰتِلُواْ﴾ فلتكن مقاتلة كافَّة بأسهَم عن المسلمين، تكفهم عنهم وتجعلهم في أمن منهم، فهم - إذاً - ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ يلونكم جوارَ المكان والحدود الجغرافية

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

- أم ويلونكم جوار البأس مهما كانوا بعيدين، وهما ليسا إلّا قتال الدفاع، دون هجوم بدائي أيّاً كان.

ولقد كانت سنة الحروب للقائد الرسولي ﷺ هكذا في خطوات، من ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[(١)] في العهد المكي حرباً عقيدية، تبنياً لأعضاء الدولة وأعضادها في المدينة، وإلى حرب المشركين المدنيين ثم المكيين ثم سائر الجزيرة وإلى الشام والروم، حيث الجمع بين كل الأعداء في حرب واحدة منذ البداية، انسحاق لأصل الدعوة بمجموعتها الدينين، ما لم يفعله قائد القوات الرسولية في زمنه فضلاً عمن سواه!.

فلمحاربة الأعداء الأقربين، ولا سيما الدخلاء الداخليين، تقدم حسب كل التكتيكات الحربية، كما وهي أقل مؤنة وأكثر معونة وأوجب دفعا للخطر الحادق الحاذق.

ثم ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ إن كانوا أقوياء، كان تعرُّضهم لدار الإسلام أكثر وتبرزهم أخطر من البعيدين، فهم أولى بالدفع ممن سواهم، وإن كانوا ضعفاء كان استيلاؤهم عليهم أسهل، وإبقاؤهم على حالهم اشتغالاً بالبعيدين يخلق لهم مجالاً للاستعداد، وعلى أية حال فـ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[(٢)] فقد ابتدأ في كلا الغزو والدعوة بالأقربين، مراعياً سياسة الخطوة الخطوة حتى ملك الجزيرة بكاملها، ثم إلى غير الجزيرة من الروم وما أشبه، سنة سارت عليها الفتوحات الإسلامية. تواجه من يلون دار الإسلام مرحلياً، فلما أسلمت الجزيرة أو كادت، ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف طاقة خطرة بعد فتح مكة، كانت غزوة تبوك على أكناف الروم، ثم انساحت

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

الجيوش الإسلامية إلى الروم وفارس إلى أن وحّدت الرقعة الإسلامية وتواصلت حدودها ببعضها البعض، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، واسعة الأنحاء، متماسكة الأطراف، ثم لم تمزقها إلّا الحدود المختلفة المختَلقة المتخلِّفة بين ديار الإسلام فأصبحت دويلات فشكلت ويلات على المسلمين أجمع.

ذلك، وترى ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ تعني الخشونة والفظاظة التي تنافي في صالح الدعوة؟ إنها غلظة رهيبة في القوات المسلحة وسائر الاستعدادات أمام المحاربين دون سائر الكفار فضلاً عن المؤمنين، فقد تعني ﴿غِلْظَةً﴾ منكرةً، الغلظة التي لا بد منها أمام المعاندين، فلا تنافي اللينة في الدعوة والرحمة في الدعاية فـ ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾[١] فحين لا تؤثر الرحمة إلّا زحمة فهنالك الغلظة أمام غلظة، حيث الرحمة أمام الظالم المعاند العامد، إنها زحمة وقسوة على المظلوم، فهي - إذاً - غلظة أمام غلظة، بلا هوادة ولا تميُّع ولا تراجع، إنها قوة وصلابة ومهابة ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[٢].

ذلك، وكما أن الرأفة والرحمة في الدعوة الربانية من تقوى الله، كذلك الغلظة في محالها من تقوى الله، فالرأفة مكان الغلظة كما الغلظة مكان الرأفة هما خارجتان عن تقوى الله إلى الطغوى على حكم الله.

ولقد كانت الحروب الإسلامية بقيادة القائد الرسولي أو الرسالي، مبنية على تقوى الله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٣] فلا يحب الطاغين.

ولقد كان رسول الله ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٦.

خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم وادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة شيءٌ إلّا أن يجاهدوا مع المسلمين، وإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم...»[1].

إذاً فلا تعني الغلظة معهم إلّا في ضوء التقوى، وليست هي الوحشية

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي، وأخرج أبو داود عن رجل من جهينة أن رسول الله ﷺ قال: لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم فيصالحونكم على صلح، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم.

وعن العرباض بن سارية قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين وكان صاحب خيبر رجلاً ماردا متكبراً فأقبل النبي ﷺ فقال: يا محمد! لكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟

فغضب رسول الله ﷺ وقال: يابن عوف اركب فرسك ثم ناد: إن الجنة لا تحل إلّا لمؤمن وإن اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قال فقال: أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته، قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن، ألا وإني قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم.

ورفع إليه ﷺ - بعد إحدى المواقع - إن صبية قتلوا بين الصفوف فحزن حزناً شديداً فقال بعضهم: ما يحزنك يا رسول الله ﷺ وهم صبية للمشركين، فغضب النبي ﷺ وقال ما يعني: إن هؤلاء خير منكم، إنهم على الفطرة، أو لستم أبناء المشركين، فإياكم وقتل الأولاد إياكم وقتل الأولاد.

والبربرية مع الأطفال والنساء والشيوخ وسائر العُجَّز غير المحاربين، إنما هي الخشونة التي لا تميِّع الحركة ولا تفسح مجالاً لأعداء الدين أن يهاجموا المؤمنين، فهذا الدين - كما هو الله - «أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة».

ذلك، وأحرى من الدفاع والحرب الحارة الحارقة، الدفاع والحرب الباردة وهي الدِّعائية بعد تقديم البراهين البينة الدُّعائية.

وهنا خطوات أولاها وأولادها الدعوة الداخلية بمختلف واجهاتها، كيلا ينصدم المسلمون بدعايات مضللة يحملها المتظاهرون بالإسلام، ومن ثم سائر المهاجمين على المقدسات الإسلامية السامية.

فهؤلاء الربانيون الحافظون لحدود الله هم ثقات الإسلام وحصونه، الذين يصدون الهجمات الهمجات المضلِّلة للمسلمين.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾:

رجعة في نهاية السورة إلى تتمات من مواصفات المنافقين والكافرين، أنهم ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يتساءلون هازئين أنفسهم والمؤمنين ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ والجواب الحاسم القاصم ظهورهم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ على إيمانهم ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ببشائرها ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وريبة رَجِسة ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ بمزيد كفرهم ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ من كفرهم ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ -: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[١].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

أجل وقضية اختلاف القلوب سعة وضيقاً هي اختلاف انعكاس القرآن عليها، فالظاهر القلب، المنشرح الصدر، المتحري عن الحق يزيدُهم القرآن إيماناً كلما نزلت آياته البينات أو تليت عليه، فـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[١].

والنجس القلب ورَجِسه الضال الشاك[٢]، والضيِّق الصدر يزداد به ضلالاً ورجساً إلى رجسه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

فـ ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ تعني ضلالاً على ضلالهم، حيث سمي الضلال هنا رجساً، وهو مرض القلب، فـ «بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، وبالنقصان دخل المفرطون النار»[٤] والإيمان يبدو لمظة - نقطة بيضاء - في القلب كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة[٥].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٨٦ في تفسير العياشي عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام في ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] يقول: شكاً إلى شكهم.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٤) نور الثقلين ٢: ٢٨٥ في أصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل قال: إن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها وبين ذلك، قلت: قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه فمن أين جاءت زيادته؟ قال: قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ... - إلى - رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] وقال: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] ولو كان كله واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على أخيه ولاستوت النعم فيه ولا استوى الناس وبطل التفضيل ولكن...

(٥) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾:

ألا يرون الحق ناصعاً ناصحاً تترى عليهم آياته ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ...﴾ ومن هذه الفتنة الحروب المستجدة في كل عام مرة أو مرتين وهم فيها مخلَّفون، ومنها السورة التي تفضحهم بما في قلوبهم ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

فلقد كانت الفتنة الربانية تتواتر عليهم عاماً مرة وعاماً مرتين، كشفاً لسترهم الستير وتركاً لهم للنفير، وانتصاراً للمؤمنين دونهم، فتحسراً لهم وتكسراً حيث ينتصرون دونهم، وما أشبه من صور الفتنة، ومنها:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

﴿سُورَةٌ﴾ هي بصورة عامة تعني المسوَّر باستقلال المعنى، آية مستقلة، أم آيات مستقلات، أم سورة مصطلحة، أم سور مترابطات، أم القرآن كله.

وآياتها على الترتيب: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾[(١)] إذ تعني عناية مستقلة تعني واجب الإيمان والجهاد، إن في آية أم في آيات.

ثم ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[(٢)] إذ تعني سورة النور برمتها.

ثم آيات عدة تجمعها سورة أم عناية واحدة مهما كانت في سورة أم سور: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ...﴾[(٣)].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٦.
(٢) سورة النور، الآية: ١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

ومن ثم القرآن كله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾[1] فإن ضمير الغائب في مثله راجع إلى القرآن كله، فقد تعني: فأتوا بمجموعة مثل المجموعة القرآنية.

وهنا ﴿سُورَةٌ﴾ قد تعني التي ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾[2] - ضمن سائر ما عنت من السور - لمحة من ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ حتى يعرفكم بما يعرفكم الله بمخابئ قلوبكم ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ عنها كما هم منصرفون عن سائر السور ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن القرآن جزاءً بما صرفوا ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الحقَّ رغم تواتر آياته وتوافر بيناته.

هؤلاء المقلوبة قلوبهم تتغير ألوانهم تغيظا على نزول القرآن ولا سيما السور التي تفضحهم، ثم يقول بعضهم لبعض: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ بغيار لونه والقلق الظاهر على صفحة وجهه ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ لكيلا يسمعوا القرآن ولا يراهم أحد بغيار ألوانهم فيُعرفوا بنفاقهم من جهتين أم واحدة.

أم هم في ثالوث من قلقهم ثالثة أنهم يستهزئون بالقرآن عند نزوله، متخفين من أن يراهم أحد فيتساءلون خائفين ذعرين ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أم ورابع أنهم يريدون الخروج عند نزول سورة فيتساءلون ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ تخرجون، ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ زعماً منهم أنه لا يراهم من أحد، حيث تلوح لهم غرة من المؤمنين وانشغال بال، فإذا هم يتسللون على أطراف الأصابع في حذر ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ تلاحقهم من العين التي لا تغفل ولا تنشغل دعوة قاصمة تناسب فعلتهم المريبة.

إلى هنا - والسورة تتم بعد آيتين - سمعنا مواصفات للمنافقين تحتل

(١) سورة يونس، الآية: ٣٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٤.

زهاء نصف وزيادة من آيات السورة، ثم نسمع الإمام علياً أمير المؤمنين عليه السلام يصفهم على ضوء القرآن قائلاً:

«وأوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحذِّركم أهل النفاق، فإنهم الضالون المضلُّون، والزالون المزلون، يتلونون ألواناً، ويَفتنون افتناناً، ويعمدونكم بكل عماد، ويرصدونكم بكل مرصاد، قلوبهم دوية، وصفاحهم نقية، يمشون الخَفاء، ويدبون الضراء، وصفهم دوائر، وذكرهم شِفاءٌ، وفعلهم الداء العَياء، حَسَدة الرخاء، ومؤكدو البلاء، ومقنِّطو الرجاء، لهم بكل طريق صريع، وإلى كل قلب شفيع، ولكل شَجْوٍ دموع، يتقارضون الثناء، ويتراقبون الجزاء، إن سألوا ألحفوا، وإن عدلوا كشفوا، وإن حكموا أسرفوا، قد أعدوا لكل حق باطلاً، ولكل قائم مائلاً، ولكل حيّ قاتلاً، ولكل باب مفتاحاً، ولكل ليل مصباحاً، يتوصلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم، وينفقوا به أعلاقهم، يقولون فيشبِّهون، ويصفون فيموِّهون، قد هوَّنوا الطريق، وأضلعوا المضيق، فهم لُمَّة الشيطان، وحُمَةُ النيران، أولئك حزب الشيطان ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1] [2]».

هؤلاء المنافقون الأنكاد «زرعوا الفجور، وسقَوه الغُرور، وحصدوا الثُّبور» «والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه، وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبَّره في نفسه، فإن كان خيراً أبداه، وإن كان شراً واراه، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه، لا يدري ماذا له وماذا عليه»[3].

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٩.
(٢) (الخطبة ١٨٥).
(٣) (الخطبة ١٧٤).

«رجل منافق مظهر للإيمان، متصنع للإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج، يكذب على رسول الله ﷺ متعمداً.

وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده، فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله»(١).

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)﴾:

«كم» هنا تعني كافة المؤمنين بمن معهم من سائر الناس المخاطبين بالقرآن، وهنا مواصفات خمس لهذا الرسول تشجِّع على اتباعه:

١ - ﴿رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ فلو كان الرسول إلى الناس من غير الناس لكان في ترك اتباعه عذراً(٢) فـ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فهو من أنفُس الناس بشراً مثلهم(٣) ثم هو من أنفَس الناس فإنه من أنفُس وأنفَس المؤمنين وكما يروى عنه ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله أن يبعث نبياً نظر إلى خير أهل الأرض قبيلة فيبعث خيرها رجلاً»(٤).

---

(١) (الخطبة ٢٠٨).

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٩٤ - أخرج ابن مردويه عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: يا رسول الله ما معنى ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ: أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ليس في ولأخي آبائي من لدن آدم سفاح كلها نكاح.

(٣) المصدر أخرج ابن سعد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: . . .

(٤) المصدر أخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن أنس قال: خطب النبي ﷺ فقال: أنا محمد بن عبد الله . . .

وفيه أخرج ابن سعد والبخاري والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت فيه.

أجل إنه ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ ومن أنفسكم، فقد نسب نفسه بسلسلة الآباء إلى نزار ثم قال: «وما افترق الناس فرقتين إلَّا جعلني الله في خيرهما فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لون آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً» فقد تعني ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ من جنس أنفسكم وخلقكم إنساناً كما أنتم لتكونوا إليه أسكن، وإلى القبول منه أمكن، ثم واعتباراً بمنطلَق دعوته تعني من قبيلكم وعشيرتكم، ومن ثم اعتباراً بصالح شخصه تعني من أنفُس المؤمنين وأنفَسهم إيماناً، أم هو من أرواحكم فإن للأرواح جوانب أعمقها الفِطَر والقلوب، فهو قلب لكل الأرواح المؤمنة.

ذلك، فقد يحق له ﷺ قوله: «آدم وجميع خلق الله تستظل بظل لوائي»(١).

٢ - ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ ثقيل عليه ما تعبتم حيث العَنَت هو الوقوع في مشقة ومكروه، فيعز عليه أن تعنتوا وتعاندوا فتحرموا الثواب وتستحقوا العقاب.

٣ - ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ على إيصال الخيرات إليكم، حريص على إيمانكم رأفة بكم وإشفاقاً عليكم. ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

٤ - ٥ - وهنا ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ دون «منكم» هي أشد حساسية وأعمق صلة وأدل على نوعية الوشيجة التي تربطهم به، فهو بضعة من أنفُس الناس وأنفسهم لأنه من المؤمنين قبل الرسالة.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾:

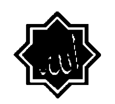
---

(١) ملحقات إحقاق الحق ٤: ٤٩٥ و١٥: ٤٨٣ - ٤٨٧ و٢٠: ٣٢٣ - ٣٢٤.

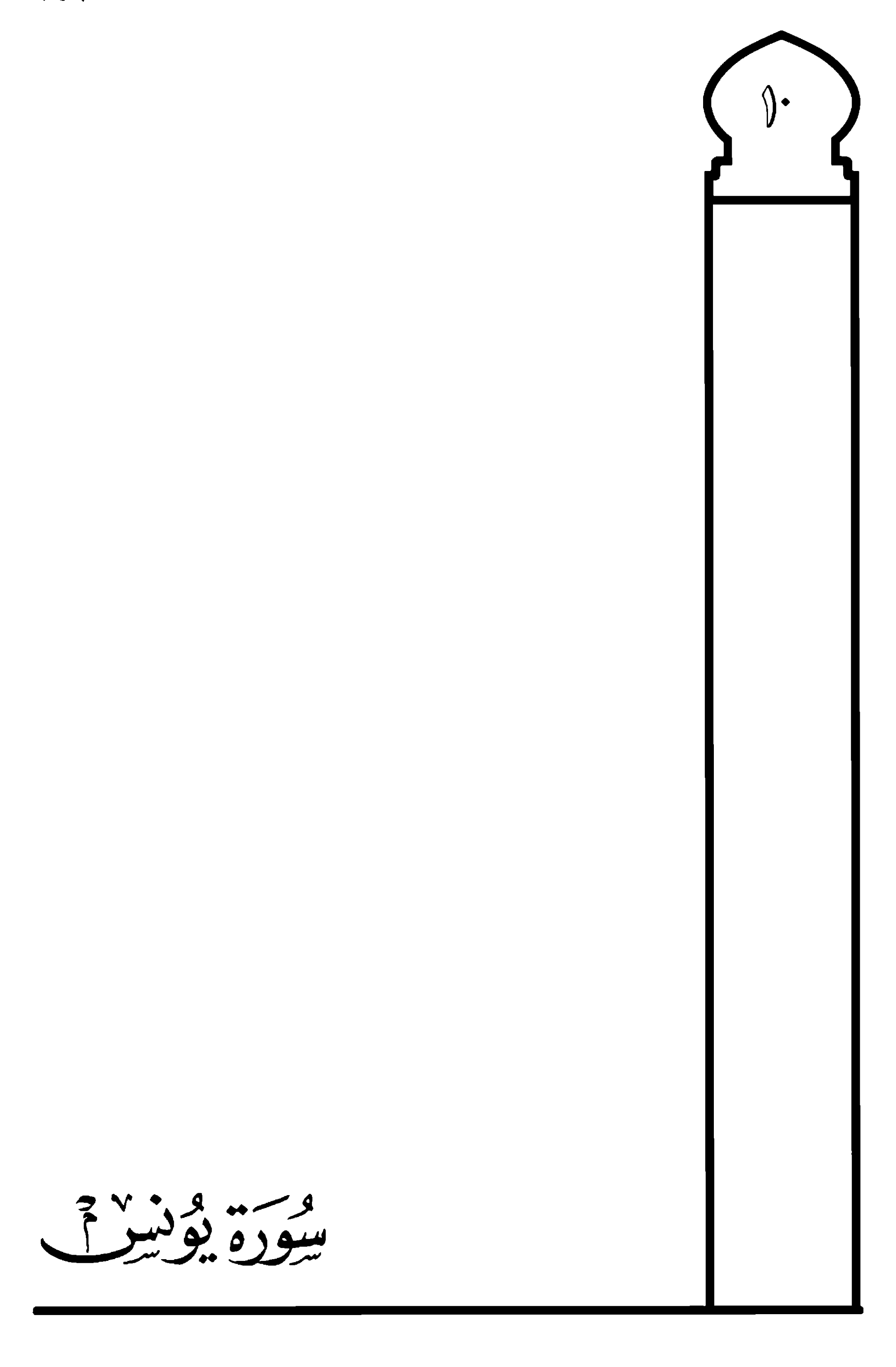
﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ بعد هذه المواصفات الرسولية والرسالية، وبعد كل الآيات البينات الدالة على صدقك ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عنك تصديقاً برسالتك أو طاعة لك فلا تأسف على توليهم ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ ربّاً لا سواه ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنما هو لا سواه متكئ ومتوكَّل عليه: ﴿عَلَيْهِ﴾ لا سواه ﴿تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي جعلني على عظيم عرش النبوة والرسالة الختمية العالمية.

وهكذا يجب أن يكون الداعية إلى الله، يلقي حججه كما أمره الله ثم لا يأسف على توليهم مهما يفرح بتصديقهم.

وهكذا يعيش رسول الهدى جامعاً بين صلابة المواجهة لأعداء الله، وليونته مع سائر عباد الله، فقد حارب الأعداء طوال ثمان سنين من العهد المدني - باستثناء سنة أولى وأخرى أخيرة - حاربهم زهاء (٦٥) مرة، ففي كل خمسين يوماً كانت له حرب غير ماضية ومستقبلة، وهو في نفس الوقت ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].



(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.


١٠
سورة يونس

سُورَةُ يُونُسَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ
رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ
رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن
شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٣﴾ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ
لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ
مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ
ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ
﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾

دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

«سورة يونس» تستحق هذه التسمية، لا - فقط - لذكره فيها: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾(١) فإنه مذكور بسمة الرسالة وخلفيات لها في: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٢) وباسم صاحب الحوت في (١٨: ٦٣) و(٣٧: ١٤٣) وباسم ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ في: (٢١: ٨٧) وهذه هي جماع الآيات التي تذكره برسالته وذهابه عن قومه مغاضباً وسجنه في بطن الحوت بما ذهب، وآية ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ لا تذكر إلا نجاتهم بصورة استثنائية بين كافة هؤلاء الذين آمنوا عند رؤية البأس.

فقد اختصت هذه السورة باسم يونس إيناساً لحالة منقطعة النظير بين الكفار، وليُعلم أن الأصل في النجاة هو التوبة الصالحة وإن كانت عند رؤية

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٣٩.

البأس وقليل ما هي، وتحريضاً على محاولة صالح التوبة لهؤلاء الذين لم يؤمنوا حتى أشرف عليهم البأس واليأس.

وهذه السورة هي من عداد السور التي أعطيها الرسول ﷺ مكان الإنجيل وكما يروى عنه ﷺ: «إن الله أعطاني الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل»[(١)].

و«الرائيات» هي خمس أو ست، هذه وهود ويوسف وإبراهيم والحجر تتخللها ﴿الٓمٓرۚ﴾ الرعد، وقد تكون منها، وهي متشابهة مع بعضها البعض في هذه الافتتاحية الرائية، وكذلك ما تتلوها من ذكر آيات الكتاب، مما قد يدل على أن هذه السور الخمس أو الست هي نموذجة عن القرآن كله، ومن الرائع اختتام السورة كما بدئ بذكر الكتاب، بدءاً بالإعلام وختما بواجب اتباع قرآن الوحي: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾[(٢)] مما يدل على بالغ الاهتمام الرباني بشأن القرآن، وليعلم العالمون أنه هو المحور الأصيل لشرعة الله حيث يجمع في دفتيه كافة الأصول العقيدية والفروع الأحكامية.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾:

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[(٣)] - ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾[(٤)] - ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[(٥)] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٩٩ - أخرج ابن مردويه عن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: . .
(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٩.
(٣) سورة هود، الآية: ١.
(٤) سورة يوسف، الآية: ١.
(٥) سورة الرعد، الآية: ١.

إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾(١) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

وهنا ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قد تشير إلى ﴿الٓر﴾ أنها وأضرابها هي إجماليات عن القرآن الحكيم تفصلها تفاصيل آياته في تفاصيل السور، وقد تؤيده آية «هود»: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فقد أحكمت بين ما أحكمت في هذه الافتتاحيات والبرقيات الرمزية، كما أحكمت في أم الكتاب أولاً ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾(٣) ثم أحكمت فيما نزلت على الرسول ﷺ ليلة القدر، ثم أحكمت في الكتاب المفصل بصورة هذه الافتتاحيات، كما وأحكمت في محكماته التي هي المراجع للمتشابهات ف: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾(٤) ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾(٥) كما وأحكمت في كل آياته وهي تفصِّل بعضها البعض.

ذلك، ولكن الحروف المقطعة ليست هي كل الآيات مهما كانت حكيمة من آيات الكتاب بل هي برقيات رمزية تختص صاحب الوحي الرسولي، مفاتيح له خاصة لكنوز القرآن.

واحتمال ثان أن ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة نفسها، أم هذه السور الخمس أو الست المصدرة بها، أم كل الآيات التي تحملها كل السور.

وقد يعني ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ كتاب الدين الذي منه تنشعب الشرائع

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١.
(٢) سورة الحجر، الآية: ١.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤.
(٤) سورة الواقعة، الآيتان: ٧٧، ٧٨.
(٥) سورة البروج، الآيتان: ٢١، ٢٢.

كلها، ف ﴿تِلْكَ﴾ الآيات القرآنية هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ بأسره، فقد جمع القرآن كل ما كتبه الله على عباده في كل الشرائع الخمس.

وتلك البعيدة في إشارتها - على قرب هذه الآيات - بيان عن المحتد البعيد القرآني السامي لنزوله عن منزل الوحي الرباني إلى مهبطه الأمين محمد ﷺ.

ف ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ عند الله قبل تنزيله، والحكيم النازل على رسوله قبل تفصيله، هذه الآيات المفصلات هي آياته دون زيادة ولا نقصان.

ثم هنا ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ حيث تحلق الحكمة الصالحة الربانية على كل ما فيها وفي يوسف والحجر «مبين» فإن الكتاب الحكيم يبين بمحكمه كل تفاصيل القرآن المفصل كما وهو كتفسير يبين الكتاب الحكيم.

ولأن «الآية» هي العلامة الممثلة المفصلة للأصل، فطالما لا يُنال محكم الكتاب عند الله ولا محكمه عند رسول الله ﷺ فقد تنال آياته، كما وأن الله لا يُعرف بذاته، إنما يُعرف بآياته: وفي كل شيء له آية.

فالآيات القرآنية كلها دلالات مستقلات على أصلها الأصيل وهو علم الله الممكن إنزاله على الخلق، واحتمال ثالث أن ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ هو هذا الكتاب المفصل ف ﴿تِلْكَ﴾ المسرودة هنا بين الدفتين هي آياته، كما يقال: تلك بيوت مكة المكرمة وما هي إلا مجموعة بيوت.

ولا نعرف عن المعني من ﴿الٓر﴾ وأضرابها من الحروف المقطعة إلا ما يُعرِّفنا مهبط الوحي فإنها برقيات رمزية بين الله ونبيه ﷺ تختص به كما يختص به التأويل، ولسنا لنصدق الروايات في تأويلها دون حساب، فقد نطرح ما هو خلاف الضرورة(١) أم ليس له شاهد من علم أو أثارة من علم.

---

(١) مثل ما رواه العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل: وليس من حروف مقطعة حرف ينقضي أيامه إلا وقام من بني هاشم عند انقضائه - إلى قوله - ثم كان بدء خروج الحسين بن =

ذلك، وفي التعبير عن مقاطع السور بالآيات آية قاطعة أنها ذوات الدلالات البينة في حدود ذواتها المقررة بين الله والمعنيين بها، وما فرية إجمال القرآن وإعضاله في دلالة فإعزاله عن صالح الاستدلال، إلا شيطنة مدروسة تعني جعل القرآن في زاوية منعزلة عن أهليه، في حين أن الروايات والاجتهادات التي لا تتبنى القرآن هي داخلة في الميدان.

فقد قيل فيما قيل على القرآن إنه غاية علم الله النازل على خلقه فكيف بالإمكان أن نفهمه؟ كما قال المشركون إنه تعالى أعلى من أن نعبده نحن الأدنون فلنعبد الرعيل الأعلى من عابديه!.

وليس غريباً من هؤلاء الذين غربت عقولهم وعزبت أن ينحُّوا القرآن عن الوسط الإسلامي، حيث يرونه حياةً طيبة مستقلة وليست مستغلة لهؤلاء الأوغاد الأنكاد، ويليهم من تابعهم عارفين أم غافلين في الوسط الإسلامي، مختلقين حواجز بين القرآن وبين أمته وشعبه، مرتكنين على روايات متناقضة متعارضة، ويكأن الأصل عندهم هو غير الأصيل، والفرع عندهم هو الأصيل، تقديماً للمفضول على الفاضل.

وهذا القرآن هو بصيغة واحدة يحث المكلفين على التدبر فيه دون حث على وسيط، اللّهم إلا للبسيط في تفهم غامراته، وأما الحجة القرآنية للتكاليف العامة فهي حجة بالغة تعم العالي إلى الوسيط وإلى البسيط.

أو إن كلام الله على محتد الألوهية لا يفهمه إلا إله آخر ولن يكون، أمن أوحى إليه بما يفهمه دون من سواه؟.

= علي عليه السلام : ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١] فلما بلغت مدته قام قائم ولد العباس عند ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] ويقوم قائمنا عنه انقضاءها بـ ﴿الٓمٓرٰ﴾ [الرّعد: ١] فافهم ذلك ودعه واكتمه» أقول أولاً أن تحسب عناية الحروف المقطعة معانيها بحساب الأعداد هو خلاف الصحيح من تفسيرها الثابت عند الرسول ﷺ وإن كانت تعني أحياناً هذه الأعداد، ثم قيام قائمنا عنه انقضاء ﴿الٓمٓرٰ﴾ [الرّعد: ١] خلاف الضرورة القائلة «كذب الوقاتون».

وذلك ينافي المحتد الرباني أنه كلم عباده بلسان الألوهية فلا يفهمه عباده، نقضاً للهدف الأسمى من إنزال الكتب وهو تفهُّم المكلفين أجمعين! بل ولا يفهم الرسول لغة الألوهية!.

أو إن ظواهره، بل ونصوصه، ظنية لا تفهم إلا بالسنة؟ وقضية الفصاحة والبلاغة القمة أن يكون هو البيان للسنة وسواها من منقولات سواه، وقد سمى نفسه نوراً وتبياناً وممسّكاً وحيداً غير وهيد.

أم إن الدروس الحوزوية هي تقدمات ضرورية لتفهُّم القرآن كما يرام؟.

ولا صلة بها لتفهُّم القرآن إلا إجادة اللغة العربية وأدبها البارع، ثم القرآن ليس فقط حيازة للحوزات لا يعدوهم إلى سائر المكلفين، وهل أنزل القرآن على الرسول ﷺ وهو يعيش حوزة؟

ثم هذه العلوم الحوزوية أكثرها تصدّ عن القرآن علمياً وزمنياً، وكما نرى أن الأكثرية المطلقة من خريجي الحوزات لا يصلون إلى القرآن حتى أخريات الأنفاس العلمية ولحد الإفتاء.

ولو أن هذه العلوم كانت ضرورية أو راجحة لتفهُّم القرآن كما يرام فكيف لم يشر إليها القرآن ولا رسول القرآن وأئمة القرآن، فهل هي خيانة مثلثة منهم على المكلفين، أم هم الذين ظلموا أنفسهم وخانوها باختلاق صُدود عن حوزة القرآن.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾:

فعجب من هؤلاء الناس النسناس عجابهم من الإيحاء إلى رجل منهم كرامة لهم مرتين، مرة أن لم يتحول عنهم إلى غير الناس تدليلاً على جدارة الناس أنفسهم أن يوحى إلى رجل منهم، وأخرى أن ذلك الوحي يحمل الإنذار والتبشير اللذين يبلغان بهم إلى مدارج من الكمال المقصود للإنسان،

المخلوق له الإنسان، حيث ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾[١]... ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٢].

ولقد كان السؤال المتواتر الذي قوبل به كل رسول ما يعنيه: «أبعث الله بشراً رسولاً» إذ لم يدركوا قيمة الإنسان وهم منهم، إلا أن يتنازلوا عن درجة الإنسانية إلى دركة الحيوانية كما تنزلوا.

فبديلاً عن أن يعجبوا فرحين من هذه الكرامة الغالية، عجبوا معترضين: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ تحسُّباً للحق المبين الذي يحافظ على كرامتهم أنه ساحر مبين.

ذلك، وكما عجبوا من أصل الوحي توحيداً لله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾[٣].

ولقد كان أهل مكة يقولون: إن الله ما وجد رسولاً إلى خلقه إلا يتيم أبي طالب! ثم بصورة عامة ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[٤].

وهنا تقدم ﴿أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ على ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ لتقدم الإنذار على التبشير، فمن أثر فيه الإنذار يبشّر ومن لا يؤثر فيه لا يبشّر، فالمنذَرون هم أعم من المبشَّرين، فهناك ﴿ٱلنَّاسَ﴾ وهنا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وبشراهم ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فهم ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٥] فهو المنزلة عند الله وقد تشمل المنازل التالية وما أشبه:

(١) سورة الرحمن، الآيات: ١-٤.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٣) سورة ص، الآيتان: ٥، ٦.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.
(٥) سورة القمر، الآية: ٥٥.

فـ ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قد تعني قدم الرحيم الرحمن وقدم الإنسان، فمن الإنسان قدم الصدق في مثلث الإيمان قالاً وحالاً وأعمالاً النابع من قدم الفطرة والعقلية السليمة الصادقة، ومن الرحمن قدم الجزاء عليه منذ الدنيا إلى البرزخ وإلى الآخرة، قدماً ربانياً يناسب فضله ورحمته[1] ولأن الرسول ﷺ وسيط في الإقدام على قدم الصدق في الأولى رسالة وفي الأخرى شفاعة[2] فقد يصدق عليه ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهكذا عترته المعصومون عليهم الصلاة والسلام[3].

وقدم التوفيق والتأييد والمزيد على أقدامهم رحمة من الله، وقدم رضوان من الله وهو أكبر حيث هو أطول الأقدام وسائرها تقدمة له.

ولأن المصداق المذكور هنا لـ ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ هو الإيمان، وهو نقطة الانطلاق الأولى لسائر الخطوات عملاً صالحاً وتسليماً بمراتبهما ومراتبه للسالك إلى الله، فـ ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ لا تعني فقط ظاهرة القدم، بل كجنس يشمل كافة الأقدام الأنفسية والآفاقية على ضوء شرعة الله في سبيل الله، ابتداء من الإيمان بالله إلى التسليم لله، قدماً منهم، وابتداءً من مزيد التوفيق والإيمان من الله إلى رضوان من الله.

وقدم آخر في ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أنه القدم المقدّم في علم الله[4] أنهم سوف

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٠٠ عن الربيع في الآية قال: ثواب صدق.

(٢) المصدر أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله: إن لهم قدم صدق عند ربهم، قال: «محمد ﷺ شفيع لهم يوم القيامة» وفيه عن غيره بطرق عدة مثله، وفي نور الثقلين ٢: ٢٩٢ عن تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هو رسول الله ﷺ ورواه مثله عنه عليه السلام في روضة الكافي، وفيه عن المجمع عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هو شفاعة محمد ﷺ.

(٣) نور الثقلين ٢: ٢٩٢ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: ولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

(٤) المصدر عن ابن عباس في الآية قال: ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأول.

يؤمنون، وسابع هو ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ في انعكاس أعمالهم لا يغيَّر ولا يبدَّل إلّا أن يبدلوها من عند أنفسهم(١).

فمن قَدَم رباني للذين كفروا: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾(٢) ويعاكسه ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ هذا، كما صدقوا، وإقدام صدق كما أقدموا، فـ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾(٣).

ذلك، فأول أقدام الصدق عند الله هو الإيمان بالله، ثم عمل الصالحات، ثم التسليم السليم لرب العالمين: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٤) وذلك يشمل عمل الإيمان وعمل الصالحات وعمل التسليم.

فطليق الصدق هو الصدق في مثلث الأقدام بكل إقدام، ثم يليه العوان بين الصدق والكذب، ومن ثم طليق الكذب كما في المنافقين والكافرين.

هذه أقدام صدق ليست إلّا قضيةً لصادق الإيمان، وهي درجات حسب درجات الإيمان، علينا أن نتعرف إليها حتى نعرف أقدام صدق فيها، فـ: «الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد - والصبر منها على أربع شعب: على الشوق والشَّفَق والزهد والترقب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات، ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات،

---

(١) المصدر عن ابن مسعود في الآية قال: القدم هو العمل الذي قدموا قال الله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ﴾ [يس: ١٢] والآثار ممشاهم قال: مشى رسول الله ﷺ بين أسطوانتين من مسجدهم ثم قال: هذا أثر مكتوب.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.

واليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة، وتأوّل الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين، فمن تبصّر في الفطنة تبيَّنت له الحكمة، ومن تبينت له الحكمة عَرَف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين - والعدل منها على أربع شعب: على غائص الفهم، وغَور العلم، وزُهرة الحُكم، ورَساخة الحلم، فمن فهم عَلِم غور العلم، صدر عن شرائِع الحُكم، ومن حلُم لم يفرِّط في أمره وعاش في الناس حميداً - والجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنئَ الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة - والكفر على أربع دعائم: على التعمق والتنازع والزيغ والشقاق - فمن تعمق لم يُنب إلى الحق، ومن كثر نزاعه بالجهل دام عمَاه عن الحق، ومن زاغ ساءَت عنده الحسنة وحسنت عنده السيئة، وسَكَر سُكر الضلالة، ومن شاقَّ وَعُرت عليه طرقه، وأعضل عليه أمرُه، وضاق عليه مخرجه - والشك على أربع شعب: على التماري والهَول والتردد والاستسلام، فمن جعل المراء ديناً لم يصبح ليلُه، ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه، ومن تردد في الريب وطئته سنابك الشياطين، ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما»[١].

﴿. . . قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أساحر هو ببليغ قرآنه وفصيح تبيانه؟ والسحر ليس ليبطل العقل أو يعزله، فإنه جُنّة بعواملها، ولئن كان تأثير بيان في عقلية الإنسان دليلاً على أنه سِحرٌ، إذاً فالبيان الخاوي عن تأثير هو الحق الواقع موقع القبول، فلنرفض كل بيان تقبله العقول، ونفرض ما لا تقبله.

(١) (الحكمة ٣٠).

والمروي عن النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً» ناحٍ منحى زخرفة البيان الخاوي عن الحق، حيث يؤثر فيمن لم يكمل عقله بتزويقه وزخارفه، وحسن معارضه ومطالعه، حتى يستنزل الإنسان من حال الغضب والمخاشنة إلى حال الرضا والملاينة، وينزع حمات السخايم، ويفسخ عقود العزائم، ويكتح الجامح حتى يرجع، ويسف بالمحلق حتى ينفع، ويعود بالخصم الضالع موافقاً، وبالعدو الأبعد مقارباً.

وأما الكلام الخاوي عن زخرفات الكذب، وزبرجات تعني قلب الحق عن مُرامه، دونما معنى تقبله العقول، فليس سحراً، ثم إذا كان خارجاً في لفظه ومعناه عما يعرف ممن سوى الله كان آية ربانية.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾:

إنه ليست الربوبية بالتي تنفصل وتنعزل عن الألوهية، وحق لها في حكمة الخلق أن لن تنفصل، حيث الربوبية الناتجة عن الألوهية هي كما الألوهية كاملة غير مائلة، وسائر الربوبيات المدّعاة لا أصل لها ولا فرع صالحاً.

وهكذا ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ - ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ - ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ - ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ - ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ - ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟.

فالله تعالى شأنه يملك هذه الخماسية من الربوبية خلقاً وتدبيراً وتيسيراً فمعبودية ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ؟.

ذلك، وقضية الألوهية لم تكن محل إنكار للمشركين إذ كانوا معترفين مصرحين بوحدة الألوهية، ولكنه لم تكن تتبعه مقتضياته، فلقد كان من

قضايا ذلك الاعتراف أن يعترفوا لزاماً بربوبيته الوحيدة في حياتهم، ثم الربوبية الإلهية تتمثل في الدينونة له وحده، إذا فلا تقدّم الشعائر والشعورات التعبدية إلا له وحده، فـ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ لا سواه.

هذا ولكن هؤلاء المجاهيل وأضرابهم يحصرون الألوهية في الخالقية ثم يحسرونها عن الربوبية والمعبودية.

والعرش هنا هو عرش تدبير الخلق بعد خلقه: «ثم استوى على العرش لتدبير الأمور»[(١)] قد ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾[(٢)] قبل أن يخلق منه الأرض والسماء، ثم له عرش يوم القيامة لتدبير الحساب فالثواب والعقاب: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[(٣)] فمثلث العرش هو لمثلث النشآت فلا عرش له - إذاً - قبل خلقه الخلق إذ لا مخلوق حتى يدبَّر.

تدبير حكيم لا حِوَل عنه وكما في حديث قدسي: «إني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم فإني عليم خبير»[(٤)].

ذلك، وقد ذكر «العرش» بـ «عرشه» وحده وعشرين مرة في الذكر الحكيم في تسع عشرة سورة، وهي كلها تعني عرش الربوبية، دون مجرد الألوهية، فقد كان ولا عرش إذ لا خلق يستولي على أمره.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢٩٢ عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله جلّ ذكره وتقدست أسماؤه خلق الأرض قبل السماء ثم...

(٢) سورة هود، الآية: ٧.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

(٤) المصدر في كتاب التوحيد بإسناده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن جبرئيل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى حديث طويل وفيه: وإن من عبادي المؤمنين لمن يريد الباب من العبادة فأكفه عنه لئلا يدخله العجب فيفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لأفسده، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالسقم ولو صححت جسمه لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك إني أدبر...

وهذه بين العرش الأول قبل خلق السماوات والأرض حيث ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾(١) والعرش الأخير ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾(٢) - ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(٣) ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾(٤).

وبينهما سائر عروش الربوبية من عرش الرحمن وهو السيطرة الرحمانية على الخلق أجمع: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(٥) ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾(٦) ذلك المعبر عنه بعرش التدبير كما هنا في ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ وعرش العلم: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ...﴾(٧).

فعرش الربوبية في ذلك المثلث مرتكن على علمه المحيط وقدرته الطليقة وقيوميته المطلقة دون أي ندّ ولا شريك، فكما لا شريك له في ألوهيته وخالقيته، كذلك في سائر ربوبيته لما خلق.

فلا توكل - إذاً - إلا عليه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(٨) لأنه الملك الحق ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾(٩) ثم ولا شفيع من دونه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾(١٠).

فلا يعني العرش لربنا سبحانه وتعالى إلا حيطة علمه وقيوميته في كافة شؤون الربوبية.

---

(١) سورة هود، الآية: ٧.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٥.
(٣) سورة غافر، الآية: ٧.
(٤) سورة الحاقة، الآية: ١٧.
(٥) سورة طه، الآية: ٥.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٥٩.
(٧) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٨) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.
(٩) سورة المؤمنون، الآية: ١١٦.
(١٠) سورة السجدة، الآية: ٤.

فكما أنه إله لا إله إلا هو، وخالق: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾[(١)] كذلك هو رب لما خلق لا رب إلّا هو، ولا مدخل لغيره تعالى في خلقه، وإنما هو القيوم الديموم في ألوهيته وخالقيته وسائر ربوبيته، لا شفيع له في خلقه خلقاً وتدبيراً، ثم ولا جزاءً إلّا بإذنه فـ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[(٢)] ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ في تدبير الأمر ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ فالشفاعة الوساطة في أصل الخلق لا أصل له إذ هو الخالق لا سواه، وكذلك الشفاعة في التشريع، اللّهم إلا شفاعة شرعية لبلاغ الرسالة، ثم شفاعة في ظاهرة آيات الرسالة، ومن ثم شفاعة في غفران الذنوب وما أشبه، فالشفاعة المسموحة هي على أية حال خارجة عن شؤون الربوبية الخاصة به تعالى وتقدس، كما وهي أيضاً خاصة بإذنه، فلا يستقل أحد في هذه الشفاعات المسموحة حيث تنحصر «بإذنه».

وذلك الإذن مشروط بشروطات عدة مسرودة في الكتاب والسنة، ومن السنة ولاية حملة السنة المعصومين عليهم السلام، بعد ولاية الله وولاية الرسول وصالحة الأعمال، وكما يروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم : «شفاعتي لأمتي من أحب أهل بيتي»[(٣)] و«من أبغض أحداً من أهل بيتي فقد حرم شفاعتي»[(٤)] «من آذاني في عترتي لم تنله شفاعتي»[(٥)] «أول من أشفع له من أمتي أهل بيتي»[(٦)] «شيعتك على منابر من نور مبيضة وجوههم حولي أشفع لهم»[(٧)] و«الشفعاء خمسة..

(١) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٣) ملحقات إحقاق الحق ٩: ٤٢٣ و١٨: ٤٥٨ - ٤٥٩.
(٤) المصدر ٦: ٤١٣ و٩: ٤٨ و١٨: ٤٦٠، ٤٦٦.
(٥) المصدر ٩: ٤٨٦.
(٦) المصدر ٩: ٣٨٠ - ٣٨١ و١٨: ٤٦٤، ٤٦٨، ٥٤٣.
(٧) المصدر ١٥: ٤٠٦، ٢٢١ و٤: ٤٨٤ - ٤٨٥.

وأهل بيت نبيكم»[١] و«من أراد التوسل وأن يكون له عندي يد أشفع بها فليصل أهل بيتي ويدخل السرور عليهم»[٢].

وهكذا ينقسم تدبير الأمر ككل إلى أقسام خاصة بالله ككل شؤون الربوبية الإلهية، فلا تعدوه إلى سواه بإذن أو دون إذن، أم خاص به يعدوه إلى من يأذن له، أم هو لمن سوى الله دون خاصة الإذن حيث جعل الخيرة لخلقه فيه.

وهنا ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يشمل الأولين، اختصاصاً بشأن الربوبية مهما كان الثاني بإذن، ثم والثالث بما أذن تكوينياً بصورة عامة كسائر شؤون الخلق التكليفية وسواها، فلا تدبير لأي أمر من الخلق استقلالاً عن إذن الله، مهما اختلف إذن خاص في شفاعة عن إذن عام.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ البعيد الممتد ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ لا سواه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هذه الخصائص الربانية التي تختصه، فالعبودية له وحده هي قضية ألوهيته وربوبيته الوحيدة غير الوهيدة.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ الذي كان إذ لا كان، لا عرش ولا معروش حيث يعني «عرشه» سلطته الفعلية بكل مراحل القيومية.

فـ «الله» قبل ظهور فعليات صفاته الخلقية، هو الله دون عرش ولا سواه من كائن.

ثم الله بعدما خلق الله - وقبل خلق السماوات والأرض - كان عرشه على الماء.

ومن ثم بعدما خلقهما ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ثم بعد خراب العالم كله له

---

(١) المصدر ٩: ٤٢٥.

(٢) المصدر ٩: ٤٢٤ و١٨: ٣٠٦، ٤٧٣، ٤٥٧، ٥٥٥.

عرش تدبير الحساب والجزاء حيث يحمله يومئذٍ ثمانية، المحمَّلين كموازين الأعمال موازين الحساب.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ فقد جُرِّد عرشه سبحانه عن عروش المخلوقين روحية أو زمنية أو مادية، كما وهو مجرد في ذاته وصفاته وأفعاله عن ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما رقم في كتاب الفطرة التي فطركم الله عليها، خاسرين أنفسكم الحاقة، خارجين عنها إلى أهوائكم المضلة المطلة عليكم!.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)﴾:

﴿إِلَيْهِ﴾ لا سواه ولا رسول الله ولا أي شركاء أو شفعاء ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أنتم العالمون ﴿جَمِيعًا﴾ مرجع بجميعه دون إفلات، و«كم» جميعاً دون إفلات، أعني ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ ثابتاً ولا حِوَل عنه ولا بداءَ فيه، أو أنه من قيام المفعول المطلق مقام فعله، ﴿إِنَّهُ﴾ بتحقيق حقيق وتأكيد بليغ أكيد «يبدأ الخلق» مصدراً وصادراً ﴿ثُمَّ﴾ بعدما يفنيه ﴿يُعِيدُهُ﴾ ولماذا ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ وهو فوق العدل، ولا يظلمون نقيراً ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾: حار حارق، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آلَمُ من حميم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ عدلاً جزاءً وفاقاً، فهناك درجات حسب الدرجات ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[1] وهنا دركات حسب الدركات دون مزيد إن لم ينقص.

هنا «يبدأُ» مضارعة تدل على استمرارية الخلق، مما يضيِّق نطاق الخلق

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٥.

بالمكلفين أم ويشمل سائر الخلق لأنه مما يعيشونه إبتلاءً، فالبدء على أية حال هو بدءٌ فيه حالة التكليف لمكان الجزاء لفريقي الإيمان والكفر، فلا تعني الإعادة هنا إلا إعادة الحياة للأحياء بعدما أماتهم، كما لا تعني إعادةَ المعدوم حتى تمتنع، إنما هي إعادة الأجساد إلى حالة تقبل الأرواح ورجعها إلى أجسادها فـ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1] ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2] - والإعادة أهون عليه فيما نقيس إذ لا أهون له، فكل خلقه هين: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[3] - ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[4] [5].

ذلك ولو لم تكن إعادة بعد الموت لكان خلافَ القسط تسويةً بين فريقي الإيمان والكفر، بل وخطوة زائدة للكافرين وحرماناً للمؤمنين وهذا ظلم لا يحصل إلّا من ضعيف، فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، ضعيفاً في قدرته أو علمه أو حكمته أو رحمته، فلولا الإعادة للجزاء بعد الخلق لكان البدء ظلماً عارياً عن الحكمة العادلة.

فقد بدء الخلق ﴿لِيَجْزِىَ...﴾ وهو يعيده «ليجزي» خلقاً قاصداً بإعادة قاصدة قاسطة ولا يظلمون نقيراً.

وهنا ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ قد تعني كل الخلق مكلفين وسواهم من الخلائق، فقد تلمح أنه يعيد السماوات والأرض كما بدأهما، أم ويعيد

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.
(٥) للاطلاع الواسع على المُعاد في المعاد راجع ج (٢٢: ١٠٨ - ١١٥) من الفرقان وآيات أشباهها. وفي «عقائدنا» ٦٩ - ٢٢٧٨.

خلقاً آخرين مكلفين وسواهم بعد القيامة الكبرى، ولكن احتمال خلق آخرين بعيد عن ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إذ ليس خلق آخرين إعادة للأولين، وأما احتمال رجع السماوات والأرض فوارد وكما تدل عليه ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[1] ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2].

ذلك، وكما أنه واحد في بدء الخلق لا شريك له أصيلاً ولا بديلاً، كذلك هو المرجع والمعيد لا شريك له أصيلاً ولا بديلاً، حيث البدء والإعادة والإرجاع هي أمور خاصة بساحة الربوبية فلا تقبل نيابةً وإذناً، وكما المستفاد من ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ حصره مرجعاً ومآباً فحساباً وثواباً وعقاباً.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾:

هذه وما يتلوها من اختلاف الليل والنهار هي من شؤون الربوبية البارزة، و﴿ٱلشَّمْسَ﴾ هنا هي هذه التي تشرق علينا نحن سكنة الأرض حيث الخطابات تخصنا، أم تعني كل شمس وقمر للعالمين أياً كانوا في الأنجم الحية العاقلة المكلفة بأهليها.

هنا ﴿ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ مرة وسراجاً أخرى تذكر بين (٣٢) مرة، ثم ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ بين (٢٦) مرة، وفيها ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[3] و﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[4] فالشمس ضياءٌ مرة وسراج

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ١٣.
(٢) سورة هود، الآية: ١٠٨.
(٣) سورة نوح، الآية: ١٦.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٦١.

مرتين، والقمر نور ومنير في ثلاث، فما هو الفرق بين الضياء والسراج وبين النور والمنير؟.

الضياء هو شدة النور كما السراج، مهما اختلفت السُّرُج في ضيائها، ولكن النور هو مطلقها وهو في القمر وجاه الشمس نور ضعيف ولا سيما إذا كان من إضاءَة الشمس حيث يتلألأ على ضوئها، والنور على حد تعبير رسول النور ﷺ: «تكلم ربنا بكلمتين فصارت إحداهما شمساً والأخرى قمراً وكانا من النور جميعاً ويعودان إلى الجنة يوم القيامة»(١) إذاً فالنور هي أعم من الضياء للشمس والنور للقمر، والكلمتان هنا هما التكوينيتان.

ثم «قدره» القمر ﴿مَنَازِلَ﴾ هنا ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ وفي البقرة: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾(٢).

فالمواقيت تعم عدد السنين والحساب حيث الحساب هو حساب السنين بالساعات والأيام والأسابيع والشهور.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ مصاحباً الحق وبسبب الحق، حق العلم وحق الحكمة التربوية وسائر الحق في الخلق.

وهاتان الآيتان هما من عساكر البراهين القرآنية على أصالة الشهور والسنين القمرية، ولقد فصلنا القول حول الشمس والقمر وأحوالهما في هذا الفرقان على ضوء آياتهما فلا نعيد.

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعلمون النظام عن الفوضى، والترتيب القاصد عن الصدفة العمياء، ففي تقدير القمر منازل على ضوء جعل الشمس ضوءً بأنه لا يزال يتباعد عنها حتى يوافيها من جانب آخر ارتساماً للأيام فالمشهور فالسنين، إن في ذلك لآيات لقوم يعلمون.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٠٠ - أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

مشهدان مألوفان معروفان ليلَ نهار لمن له بصر، يُعرَضان في مسرح التدليل على ربوبيته تعالى إثارة في مشاعرنا وهلة الجِدة وإحساس التطلُّع الحي والتأمل الذي لا يبلِّده التكرار.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾:

من اختلاف الليل والنهار هو مجيء كلّ خلف الآخر بنظام دون فوضى، وهكذا يفسر قول النبي ﷺ: «اختلاف أمتي رحمة» فإنه اختلافهم إليه وإلى رباني الأمة، ومنه اختلافهما عن بعضهما البعض في الطول والقصر حسب أيام السنة، وحسب مختلف الآفاق، واختلافهما في الآثار المترتبة عليهما: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾[١].

فالاختلاف قد يعني الائتلاف بإتيان شيء أو شخص خلف آخر إفادة أو استفادة، وأخرى هو التضاد بجعل كل خلف الآخر تخالفاً في المَرام وتضاداً في المُرام.

والقرينة الأدبية المميزة لكل عن الآخر هي الظرف المتعدى به الاختلاف، فالاختلاف «في» أو «عن» وما أشبه هو من الثاني، والاختلاف «إلى» أو «لـ» وما أشبه هو من الأوّل، والمجرد عن الظرف يحتملهما إلّا أن يتعين أحدهما بقرينة أخرى كـ ﴿ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فإنه من الأول ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[٢] حيث هو من الثاني.

فليس مجرد «الاختلاف» دليلاً على أحدهما حتى يقال: «اختلاف أمتي

(١) سورة النبأ، الآيات: ٩-١١.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٨.

رحمتي» هو اختلاف المذاهب؟ فإنه خلاف الرحمة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٩﴾﴾[1].

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بما خلقها وهو عبارة أخرى عن خلق كل شيءٍ ﴿لَآيَاتٍ﴾ دالات على النظام المقصود بربوبية قاصدة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ المحاظير، فحين تدل طبيعة الحال في الكون المنضَّد المنظوم على أن وراءَه منضِّد ومنظِّم، فنكران وجوده تعالى خلاف التقوى، وهو من الطغوى فـ ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾[2].

فحين يقف الإنسان لحظات يراقب أمامه من ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ويستعرض ذلك الحشد العظيم الحاشر الذي لا يُحصى من مختلف ألوان الخلق، يمتلئ مستفيضاً بما يغنيه ويعنيه من الحياة الإنسانية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾:

آيات اللقاء الأربع والعشرون هي بين ﴿لِقَاءَنَا﴾ كما هنا و«لقاءه» و﴿بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾[3] و﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾[4] و﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾[5] و﴿لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾[6] و﴿لِقَاءَنَا﴾ أشمل عنايةً لمعاني اللقاء من الكل لمكان الجمعية التي تعني لقاءه المعرفي والعبودي ولقاءه في العمل المرضي له ككل، فلقاء الزلفى هنا، ثم لقاءه معرفة زائدة وعبودية زائدة وزلفى زائدة، وجزاءً للأعمال في الأخرى.

---

(١) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.
(٢) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣١.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٤.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٤٧.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥١.

فمن الناس من يقول لا سبيل هنا إلى معرفة الله، حيث الطريقة العلمية التجريبية لا تثبته، وهو غيب مطلق لا يمكن الوصول إليه بأية وسيلة، فلو أنه كائن فلا سبيل لنا إلى معرفته فلا لقاء له معرفياً، ولِمَ لم يُرنا نفسه لو أنه كائن؟ أفعاجز عن إراءة نفسه فهو القاصر في حقل معرفته، وما نحن بمقصرين! أم قادر ويبخل؟ فهو المقصر في قصور معرفته دوننا!.

ثم لو أنه كائن وعرفناه، فما لنا أن نتعرف إليه كما يحق، أو نعبده كما يحق، فحق لنا - إذاً - أن نعبد من عباده الرعيل الأعلى العارفين إياه.

ولكن الطريقة العلمية نفسها مما تثبت وجود الله، إضافة إلى كافة البراهين الصالحة، فلا يملك أي كائن ما يملكه الله من البراهين الساطعة على وجوده وتوحيده، وليس من الممكن أن يرينا نفسه إلّا أن نحيط به علماً وهو ألوهية ثانية، والمحال الذاتي لا يتحول ممكناً حتى يحوِّله الله إلى الإمكان، فنتمكن - إذاً - من رؤيته!.

وأما عبوديته، فهي المستحقة له لا سواه، وقد رضيها لنفسه دون سواه، وذلك من حنانه ومنِّه الخاص أن رضي منا أن نعبده دون سواه.

ثم منهم من يعترف بوجوده تعالى ووحدته ولكنه يقول: لا سبيل لنا إلى معرفة الحياة بعد الموت، رغم أنها ضرورة لا حِوَل عنها قضية الحكمة العادلة الربانية؟ ولكنها ضرورة في ميزان العقل والعدل والوحي لا حِوَل عنها، والتصديق عقيدياً وعملياً بحقيقة لا يلازم الحيطة الكاملة على هذه الحقيقة، مبدأً ومعاداً، فقد تكفي المعرفة الإجمالية المستطاعة، إذ ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

ذلك، ولقاء الله بأسمائه الحسنى بين مفروض ومستحيل وواقع، فالواقع

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

على أية حال هو الصلة الذاتية لكلٍ الكائنات بدائب الرحمة الإلهية، حيث لا ينقطع أي مخلوق عن الخالق إلّا بانقطاعه عن كونه، لأن الفقر الذاتي للمخلوق كوناً وكياناً إلى الله يجعله دائم الصلة بالله وهذه هي اللقاء الواقع، حاصلاً دون تحصيل، والمستحيل هو لقاء ذاته تعالى وصولاً إليها بحيطة شاملة علمياً ومعرفياً، وهو باين عن خلقه وخلقه باين منه، لا هو في خلقه ولا خلقه فيه.

ثم المفروض هو اللقاء المعرفي بكونه تعالى وتوحيده وكل شؤون ربوبيته، هنا تكليفاً وما أشبه من شؤون نشأة الامتحان، وفي الأخرى حساباً وجزاءً وفاقاً.

و﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ هم كل هؤلاء الذين ينكرون كلَّ هذه اللقاءات أم بعضها، وذلك النكران كفر كله مهما اختلفت دركاته حسب دركات النكرانات.

هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ تاركين الحياة العليا، إنهم ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ وهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

هنا ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ تعم ناكري المبدأ والمعاد - حيث تعني آيات المبدأ والمعاد - وكذلك وناكري المعاد تصديقاً بالمبدأ مشركين وموحدين، و﴿ءَايَٰتِنَا﴾ تعم الآيات التكوينية - آفاقية وأنفسية - والتدوينية، و﴿غَٰفِلُونَ﴾ تعني الغفلة المتعمدة المقصرة حيث الغافل القاصر لا يعذب.

ذلك ومن قبل هؤلاء الذين يحملون ثالوث ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا - وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا - وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾. هم كلهم ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

هنا ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ معناه انحصار رضاهم بها وانحسارها عن الأخرى، كما ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ تعني ذلك الانحصار الانحسار.

ذلك و«من أحب لقاءَ الله أحب الله لقاءه»[(١)] ووفقه للقائه الصالح بكل حقوله.

ومما لا بد منه في الحياة هو الاطمئنان بما يُطَمئِن عن المضلات والمزلات، فالنفس المطمئنة بالله لا ترضى إلا ما يرضاه الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[(٢)]، والمطمئنة بالحياة الدنيا تختص رضاه وهواه بما يطمئن بها، وقد تخاطَب النفسان بـ ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾[(٣)].

فالمطمئنة بالحياة الدنيا، الفارة الفالتة عن ربها، تُدعى لترجع إلى ربها يوم الدنيا ما لم يفت الأوان، دخولاً في عباد الله الصالحين هنا فدخولاً في الجنة هناك.

ثم المطمئنة بربها تدعى لترجع إلى ربها هنا أكثر مما رجعت، وفي الأخرى ترجع إليه ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾[(٤)]: «والدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب»[(٥)] ذلك وسلبية الرجاء للقاء الله في يوم الحساب تسقط كل حساب فيسقط الوحي عن

---

(١) مفتاح كنوز السنة عن النبي ﷺ نقلاً عن بخ - ك ٨١ ب ٤١، ك ٩٧ ب ٣٥، مس - ك ٤٨ ح ١٥ - ١٨ تر - ك ٨ ب ٦٧، ك ٣٤ ب ٦ قا، نس - ك - ب ١٠، مى - ك ٢٠ ب ٤٣، ما - ك ٢٦ ح ٥٠، حم - ثان ص ٣١٣ و٣٤٦ و٤١٨ و٤٢٠ و٤٥١، ثالث ص ١٠٧ و١٢٢، رابع ص ٢٥٩، قا خامس ص ٢٣٨ و٣١٦ و٣٢١، سادس ص ٤٤ و٥٥ و٢٠٧ و٢١٨ و٢٣٦ قاط - ح ٥٦٤ و٥٧٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الفجر، الآيات: ٢٧-٣٠.

(٤) سورة الفجر، الآيات: ٢٨-٣٠.

(٥) الدر المنثور ٣: ٣٠١ - أخرج أبو الشيخ عن يوسف بن أسباط قال قال علي بن أبي طالب عليه السلام: ...

بكرته، ثم ينعطف همُّ الإنسان تماماً إلى الحياة الدنيا، واطمأنَّ بها حيث لا مُطمئَنَّ له إلّا إياها: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ ﴿٣٠﴾﴾[1] و﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾[2] فهم ﴿مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ وقدره، حيث إن ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾[3] دون اللانهاية المزعومة!.

فـ «يا أيها الإنسان ما جرّأك على ذنبك، وما غرك بربك، وما آنسك بهلكة نفسك، أما من دائك بُلول، أم ليس من نومك يَقظَة، أما ترحم من نفسك ما ترحم به غيرك، فلربّما ترى الضاحي من حرِّ الشمس فتُظله، أو ترى المبتلى بألَم يُمضُّ جسده فتبكي رحمة له، فما صبرك على دائك، وجلَّدك بمُصابك، وعزَّاك عن البكاء على نفسك وهي أعز الأنفس عليك، وكيف لا يوقظك خوف بيات نِقمة وقد تورطت بمعاصيه مدارج سطواتِه، فتداوَ من داء الفَزة في قلبك بعزيمة، ومن كَبْرَى الغفلة في ناظرك بيقظة، وكن لله مطيعاً، ويذكره آنساً، وتمثَّل في حال تولِّيك عنه إقبالَه عليك يدعوك إلى عفوه، ويتغمَّدك بفضله، وأنت متولٍّ عنه إلى غيره - فتعالى من قوي ما أكرمه، وتواضعتَ من ضعيف ما أجرأك على معصية وأنت في كنف سِتره مقيم، وفي سعة فضله متقلب، فلم يمنعك فضلَه، ولم يهتك عنك سِتره، بل لم تخلُ من لطفه مَطرف عين، في نعمة يحدثها لك، أو سيئة يسترها عليك، أو بلية يصرفها عنك، فما ظنك به لو أطعته، وايم الله لو أن هذه الصفة كانت في متفِقين في القوة، متوازنين في القدرة، لكُنتَ أولَ حاكم على

(١) سورة النجم، الآيتان: ٢٩، ٣٠.
(٢) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

نفسك بذميم الأخلاق، ومساوئ الأعمال - وحقاً أقول: ما الدنيا غرتك، ولكن بها اغتررت، ولقد كاشفتك العِظات، وآذنتك على سواء، ولَهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك، والنقص في قوتك، أصدق وأوفى من أن تكذبك أو تغُرك، ولرُب ناصح لها عندك متهَم، وصادق من خبرها مكذَّب، ولئن تعرفتها في الديار الخاوية، والربوع الخالية، لتجدنها مِن حُسن تذكيرك، وبلاغ موعظتك بمحلة الشفيق عليك، والشحيح بك، ولنعم دار مَن لم يرض بها داراً، ومحلّ من لم يوَّطنها محلاً، وإن السُّعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم»[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾:

تلك صفة الكفر وهذه صفة الإيمان وعمل الصالحات للإيمان، وترى كيف ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ وإلى مَ يهديهم؟ يهديهم ربهم بإيمانهم الذي طبقوه بعمل الصالحات إلى إيمان أعلى بربهم وكما يؤمرون به ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2] كما ويهديهم إلى صالحات هي أصلح مما سلف، ثم ويهديهم بعد موتهم بإيمانهم إلى جناته: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ حيث ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾[3].

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا﴾ على طول خط الخلود الأبد ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ عما وصفك

(١) (الخطبة ٢١٤).
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٦.
(٣) سورة التحريم، الآية: ٨.

به الجاهلون، وعن كل نقص وشين ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾ مما يدل على أن السلام هو أعلى قمم التحيات، تحيتهم من الله وتحية بعضهم بعضاً اعتباراً بوجهي الإضافة، إلى الفاعل أو المفعول، ثم ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ التي لا دعوى لهم غيرها ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقد جمعوا حياتهم في الجنة بين كلمة السلب والإيجاب من ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1] وكما عاشوها في حياة التكليف.

ولا تعني ﴿وَءَاخِرُ﴾ هنا آخر أعمارهم في الجنة إذ لا آخر لها ولا لأعمارهم، بل القصد إلى آخر دعواهم وجاه أول دعواهم اللذين يشكلان كلمة الإخلاص، فقد تشكل دعواهم من ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أم ليست لهم دعوى فيها إلا ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أجل، ولأنه الانطلاق من هموم الحياة الدنيا وشواغلها ومشاغلها والارتفاع عن ضروراتها وحاجاتها وحاجياتها، والرفرفة في آفاق الرضا والتسبيح والحمد والسلام، إذاً فأقصى ما يشغلهم حتى ليوصف بأنه ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ هو تسبيح الله وحمده والسلام على عباده حيث يتخلل بين التسبيح والحمد.

ومهما كان في حياة التكليف غشاوات عن صالح السلب هذا وإيجابه قضية الحجابات المسدولة بين أهل الحق وحاق الحق رغم أنهم به مؤمنون، فقد تزول هذه الغشاوات عن وجه السلب والإيجاب، سلباً يحلِّق على كل ما لا يليق بساحته سبحانه، وإيجاباً يحلق على كل ما يليق بجنابه، فقد يصفونه تعالى كالعباد المخلَصين فـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾[2]

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٩، ١٦٠.

وهم يصفونه في الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾[(١)] ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[(٢)] ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[(٣)].

صحيح أن كل عباد الله يحمدون الله ولا سيما في صلواتهم ليل نهار، ولكن أين حمد من حمد، هنا محجوب وهناك غير محجوب.

وعن النبي ﷺ: «إذا قال العبد سبحان الله سبح كل شيء معه ما دون العرش فيعطى قائلها عشر أمثالها، وإذا قال: الحمد لله أنعم الله عليه بنعيم الدنيا حتى يلقاه بنعيم الآخرة وهي الكلمة التي يقولها أهل الجنة إذا دخلوها والكلام ينقطع في الدنيا ما خلا الحمد لله وذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ...﴾»[(٤)].

وقد يعني من انقطاع الكلام في الدنيا الذي يختص بحاجيات الدنيا ومحاصيلها وكما في آخر «وينقطع الكلام الذي يقولونه في الدنيا ما خلا الحمد»، فلا كلام - إذاً - في الجنة إلا ما يحول حول التوحيد مع الله وعباده، أو ما يحول حول السلام مع عباده، إذ لا حاجة لهم إلى محاويج الدنيا حتى يتكلموا بها صناعة أو زراعة أو تجارة أو دراسة أماهيه.

ذلك وعلى حد المروي عن رسول الله ﷺ: «إذا قالوا سبحانك اللّهم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٤.

(٤) في الاختصاص بإسناده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي ﷺ: .. وفي العلل بإسناده إلى الحسن بن عبد الله عن آبائه عن جدّه الحسن بن علي عليه السلام عن النبي ﷺ حديث طويل في تفسير «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» وفي آخره قال: وإذا قال العبد الحمد لله أنعم الله عليه بنعيم الدنيا موصولاً بنعيم الآخرة وهي الكلمة التي يقولها أهل الجنة إذا دخلوها وينقطع الكلام...
وذلك قوله عز وجل: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم»[١] وتراهم - إذاً - بُكماً عن أي كلام إلا هذا، فلا محادثة بينهم ولا مؤانسة بأي كلام إلا إياه؟ إنهم يتحادثون ويتآنسون مع بعضهم البعض، ولكنها كلها تحوم حوم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وأية حظوة لهم روحية مثلها ثم الخطوات الجسمية هي رهن المشيئة ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٢]، فهم أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم هي كلها تفاصيل لـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كما المؤمن المخلص في حياة التكليف، مهما كان بين الحالتين بون قضيةَ اختلاف النشأتين، ثم ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ من الله ومن أنفسهم بعضهم بعضاً ﴿سَلَٰمٌ﴾ قولياً وعملياً، فليس لهم هناك من إله ومنهم إلا سلام يشمل كافة الخيرات والبركات في الجنة.

ذلك، وقد تعني ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ بدايتها ثم ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ نهايتها، فكل كلام لهم محتف بهما مهما كان، لا يخرج عن تفاصيلهما.

أو تعني ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ ذكرهم دعاءً وخطاباً، مهما كانت لهم قالات أخرى، حيث الدعوى وهي مصدر دعا تعني خصوص الدعوة الطالبة، ولا تطلب هنا إلا من الله دون سواه، خلاف الحياة الدنيا حيث هي حياة التداعي ذريعة إلى حاجياتها، ولكن المدعو هناك إنما هو الله لا سواه، وعلى أية حال فهم ليسوا ليُحرموا في الجنة من قالات الإيمان ومحادثاته ومؤانساته ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[٣].

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾:

(١) الدر المنثور ٣: ٣٠١ - أخرج ابن مردويه عن أُبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: . .
(٢) سورة ق، الآية: ٣٥.
(٣) سورة فصلت، الآيتان: ٣١، ٣٢.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾[١] ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٢].

«لو» هنا تحيل تعجيل الشر فقضاء الأجل إلى تأجيله وقت قضاء الأجل، إملالاً وإمهالاً واستدراجاً قضيةَ حياة التكليف الامتحان.

هنا الله يستعجل الناس بالخير رغم استحقاقهم الشر، فخير الحياة والأموال والبنين وما يشتهون يَستعجل لهم فيها لينظر كيف يعملون، وشرها يَستأجل لهم فيه إلى يوم لقائه جزاءً بما كانوا يعملون.

فتخلفات النسناس من الناس تقتضي عقاباً عاجلاً فيه قضاء أجلهم، إلا أن في ذلك قضاءً على فسحة الامتحان، وتبديلاً لدار البلية والامتحان إلى دار الجزاء الامتهان.

فلأن رحمته سبقت غضبه فقد يقدم رحمته على غضبه فيؤجل مؤاخذة العصاة إلى أجلهم المقرر لهم: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾[٣].

وهنا «استعجالهم» من إضافة المصدر إلى مفعوله وهو الله، أم وإلى فاعله حيث تعني استعجال الناس إلى الخير[٤] فلو أن الله يستعجل لهم الشر عقوبة كما يستعجلون الخير وهو ما يلائم أهواءهم فقد يعني «الخير» كما هنا

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٨.
(٢) سورة النحل، الآية: ٦١.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٨.
(٤) نور الثقلين ٢: ٢٩٥ في تفسير القمي في الآية قال: لو عجل الله لهم الشر كما يستعجلون الخير لقضي إليهم أجلهم أي فرغ من أجلهم.

ما يختارونه بأهوائهم الطائشة: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(١) أمّا هو أعم منه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾(٢).

وعلى أية حال ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ وهو تقديم لآجالهم المسماة إلى قضية العقوبة المستعجلة، ولكن ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ مشركين وموحدين كتابيين وسواهم ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فـ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(٣) ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾(٤).

ذلك ومن عمق الحمق لهؤلاء الأغباش الذين لا يرجون لقاء الله أنهم يتجرؤون على تطلُّب عاجل العذاب إن كان الرسل صادقين فيما ينذرون:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٥) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾(٦) ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٧) مما يصدر أبعاد العناد التي كانوا يواجهون بها رسل الله.

فلو أن الله قابل استعجالهم أنفسهم بالخير كما يهوون، باستعجال الشر الذي يطلبون أم لا يطلبون، لقضي إليهم أجلهم قبل حلوله.

ذلك، ولرجاء الله علامات دون اعتبار بمجرد الادعاء وكما يفصله

(١) سورة العاديات، الآية: ٨.
(٢) سورة الحج، الآية: ١١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.
(٥) سورة يونس، الآية: ٤٨.
(٦) سورة الرعد، الآية: ٦.
(٧) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام منددًا بمن يدعيه ولا يحويه: «يدعي بزعمه أنه يرجو الله، كَذَب والعظيم، ما باله لا يتبين رجاءه في عمله، فكل من رجا عرف رجاءه في عمله إلا رجاء الله فإنه مدخول، وكل خوف محقَّق إلا خوف الله فإنه معلول، يرجو الله في الكبير، ويرجو العباد في الصغير، فيعطي العبد ما لا يعطي الرب، فما بال الله جل ثناؤه يقصَّر به عما يُصنع لعباده؟ - أتخاف أن تكون في رجائك له كاذباً، أو تكون لا تراه للرجاء موضعاً، وكذلك إن هو خاف عبداً من عبيده أعطاه من خوفه ما لا يعطي ربه، فجعل خوفه من العباد نقداً، وخوفه من خالقه ضِماراً ووعداً، وكذلك من عظمت الدنيا في عينه، وكبر موقعها من قلبه، آثرها على الله فانقطع إليها وصار عبداً لها»(١).

ذلك، فبماذا نرجو لقاء ربنا؟ طبعاً بآيات الله آفاقية وأنفسية، وأنفَس الآيات الأنفسية والآفاقية هو القرآن يعرض إياهما سليماً عليماً معلماً واعظاً بناصع وحي الله وناصحه.

فبم نرجو لقاء الله بعد القرآن؟ أبالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعترته المعصومين عليهم السلام، وهم لم يرجوا لقاء الله إلا على ضوء القرآن، ثم وهم ارتحلوا إلى ربهم، فهلا يبقى للراجين لقاء الله وسيلة وصيلة معصومة لتعصمنا في هذه السبيل؟.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

هذه حالة المسرفين في مواجهة الضر والكشف عنه، إسرافاً في الدعاء ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ إذا مسهم الضر، وإسرافاً في الإعراض عن الله

(١) (الخطبة ١٥٩).

لمّا كشف عنهم الضر، فهم مسرفون في كلا الإنابة إلى الله والإعراض عنه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1] ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[2]. ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[3].

و﴿ٱلضُّرُّ﴾ هنا كلما يفر عنه من ضرر نفسي أو مالي وما أشبه مهما كان خيراً له، ثم ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ...﴾ قد تعني الحالات الثلاث التي تحلِّق على حياة الإنسان اضطجاعاً لاستراحة أو نوم، وقعوداً حين يحتاجه، وقياماً لحاجته، فلا يدع الدعاء على أية حال من الأحوال، فـ «أو» إذاً للتقسيم، أم وتعني كما يروى[4] حالة العلة ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ حيث هو مضطجع لعلته ﴿أَوْ قَاعِدًا﴾ لعلة لا يقدر على القيام ﴿أَوْ قَآئِمًا﴾ لا علة له في الحالات الثلاث الأول، و«أو» إذاً للترويد حيث لا تجتمع هذه الحالات الأخيرة له، فهو لا يزال يدعو مقعداً أو سليماً وفي كل حالاته، حيث يعرض كل حالة وكل وضع وكل مظهر ومنظر دون إبقاء في ذلك الدعاء!.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾: ذهب إلى ما كان يهواه من شهواته متغافلاً عن ربه ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ فلو ذكر دعاءه ربه إلى ضر مسه لكان معتدلاً في سلوكه، غير معرض عن ربه، ولكن ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ حيث ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا

(١) سورة الروم، الآيتان: ٣٣، ٣٤.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٥١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.
(٤) نور الثقلين ٢: ٢٩٥ عن تفسير القمي في الآية قال: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ [يونس: ١٢] العليل الذي لا يقدر أن يجلس ﴿أَوْ قَاعِدًا﴾ [يونس: ١٢] الذي لا يقدر أن يقوم ﴿أَوْ قَآئِمًا﴾ الصحيح.

يَهْتَدُونَ﴾[(١)] وهذا جزاءُ لمن لا يرجو لقاء ربه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾[(٢)].

ذلك، وإنها صورة سيئة ميِّعة لنموذج إنساني مكرور على مدار التأريخ حيث يظل مندفعاً بتيارات الحياة، يذنب ويطغى في ذنبه بصحة موفورة وملابسات مؤاتية.

ثم إذا مسه الشر والضر فإذا هو جزوع ذو دعاء عريض، ثم إذا كشف الله عنه ضره ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾! مر دون توقف ليفكر أو يشكر أو يعتبر، مندفعاً مع تيار الحياة، غريقاً في الشهوات دون أي زاجر أو كابح أو أية مبالاة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾:

تذكير بمصارع الغابرين نُبهةً للحاضرين وإلى يوم الدين ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ كقرن نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وفرعون وأضرابهم بمختلف ألوان الهلاك ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ ظلماً يجازي هنا قبل الأخرى «و» الحال أنهم ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ثم «و» الحال أنهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ فلو كانوا يؤمنون بعد كفرهم ما كنا مهلكيهم، و﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين يجرمون ثمرات الحياة قطفاً لها قبل إيناعها فإفساداً إياها، فهذه سنة الله الجارية بحق المجرمين كما تقتضيه الحكمة الربانية في حياة التكليف.

ولقد انتهى بالمشركين العرب إسرافهم وظلمهم لحد التهديد الشديد لهم بمصارع الغابرين، وهم أولاء يرون بقية لها في الجزيرة بمساكن عاد وثمود

---

(١) سورة النمل، الآية: ٢٤.
(٢) سورة النمل، الآية: ٤.

وقرى قوم لوط: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾[1] ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2] ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾[3] ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[4].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

وهنا ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع «خليفة» صيغة مكرورة عن آدم وبنيه أجمعين، في عامة الحقول وخاصتها، فآدم - بذريته - خليفة عن أمثاله الغابرين: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[5] ثم الناجون من قوم نوح خلفاء من غرقوا: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[6] - ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[7] وكذلك الباقون بعد عاد: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[8].

وهكذا كل قرن حاضر عن كل قرن غابر ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾[9] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[10] ثم قرن خاص وقرون خاصة للصالحين هم خلفاء الأرض على الإطلاق: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[11].

ذلك، وليست الخلافة إلا في حقل المتجانسين في كون أو كيان، بانقراض المستخلف عنه كوناً، أم بقاءهم وانقراضهم كياناً، فلا تعني الخلافة على أية حال خلافة عن الله، إذ لا مجانسة بينه وبين أي من الخلفاء، ولا انقراض له كوناً أو كياناً.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥٨.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٢٥.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٦) سورة يونس، الآية: ٧٣.
(٧) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ٧٤.
(٩) سورة فاطر، الآية: ٣٩.
(١٠) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.
(١١) سورة النمل، الآية: ٦٢.

ولا تعني خليفة الله في بعض الأدعية والروايات إلا من جعله الله خليفة عن آخرين أشباههم مهما اختلفوا في درجات.

أجل، ليس لله خليفة ولا نائب ولا وكيل ولا أي مثيل، اللَّهم إلَّا عباد، وهم في تعاليهم بدرجات العبودية رسل، ولا ثالث يعبر عن خلق الله.

أجل ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ أنتم المكلفين من الجنة والناس وسواهما أجمعين و﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ أنتم الحاضرين ككل، أم أنتم الكافرين ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ لهم تخلفونهم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ عائشين في حياة التكليف ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ نظراً إلى واقع أعمالكم بعدما هو عالم بما سوف تعملون.

فانظروا أنتم كيف تعملون فلا تأخذكم غِرَّة ولا عزَّة بالإثم، فقد كفت لكم مصارع الغابرين عظة ومعتبراً.

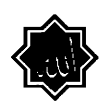
أجل وإن هذا التصور عن الواقع المكرور الذي يصوره القرآن يظل مثيراً في الإنسان يقظة وحساسية مرهفة إن ظل إنساناً غير متجاهل كرامته الإنسانية إلى دركات الحيوانية، يقظة هي له صمام الأمن والطمأنينة، فشعور الإنسان بأنه ممتَحن ومبتلىً بآياته على أرض التكليف، وبما ملَّكه الله وخوَّله إياه، إنه يمنحه مناعة ضد الاغترار والانخداع والغفوة، المناعة المانعة له عن مستغرق اللجة البهيمية والتكالب على عَرَض هذا الأدنى ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ ؟.

وتراه نظراً بعد جهل؟ عِلماً بعد جهل! كلّا، إنه عِلْم بعد عِلم، فـ ﴿كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ علماً، هو حاصل قبل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ ولكنه خارج عن الامتحان، إنما هو عَلَمٌ وعلامة واقعية لتقع موقع الامتحان.

إذاً فـ ﴿كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ تعني كيف الواقع دون كيف العلم، فالنظر هو النظر إلى الواقع المَرام، دون غير الواقع المَرام إذ لا محنة فيه.

أجل فـ ﴿لِنَنظُرَ﴾ هنا ناظر إلى نظر الواقع وهو مجال الامتحان بالتكليف، دون نظر العلم المجرد عن الواقع أنه إن وقع كان كذا إذ لا مجال فيه لامتحان بتكليف.

فكما أن ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾[1] وما أشبه لا تعني إلا العِلْم والعلامة بامتحان التكليف، كذلك ﴿لِنَنظُرَ﴾ وما أشبه.



(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ
بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ
نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ
يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ
فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ
مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ
ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ
وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨ وَمَا كَانَ
ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن
رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ
عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ
فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١ هُوَ
ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ
طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ
وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ

ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾:

﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ في أنها منَّا حيث الكلام بوزنه ووزانه يدل على كيان صاحبه، وقد سميت الجملات القرآنية آيات الله لأنها دالات على ربانية صدورها وكما تدل على الله، دلالة ذات بعدين اثنين، قاطعة لا محيد عنها ولا حِوَل عنها، ولكن: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لما يسمعون منها كل تحذير وتنذير بعاقبة السوء يوم الأخرى ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ﴾ غير هذا عن بكرته أو بدله إلى ما نهواه ألّا يحدِّد شهواتنا ولا يهددنا بعقوباتها.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ أي تبديل ﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ﴾ رغم محتدي الرسالي، حيث القضية الرسالية على طول خطها هي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾[1] فليس لي دون وحي أن أبدله ولو شطر كلمة أو حرف أو إعراب أو

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

نقطة، فمثلي مثلكم في أن الله يعذبني إن عصيته: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[١].

هنا ﴿بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ دليل أن هناك قرائين الوحي وهي كتابات الرسل، ومثلها: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[٢] [٣]فـ ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ كما هنا وفي آيات أخرى، تدل على أن هناك قرائين أخرى، مهما عنى بـ «القرآن» طليقاً هذا القرآن كَعَلم له[٤] كما «الكتاب» حيث يجمع كافة كتب الوحي وقرائينه، فطالما التوراة والإنجيل هما قرآنان ولكنهما أمام القرآن كأنهما ليسا به: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾[٥] كما أن سائر الوحي أمام وحي القرآن كأنها ليست بوحي: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾[٦] وكما أن سائر الرسل أمام هذا الرسول كأنهم ليسوا برسل، فلذلك لم يأت النبي ولا الرسول طليقاً مفرداً إلا لهذا الرسول النبي ﷺ.

ذلك ولا يعني هؤلاء الأنكاد من ﴿بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ إلّا ما يوافق شهواتهم وغاياتهم دون أية مضادة، جمعاً بينها وبين شرعة الوحي، أن يتبع الحق أهواءهم: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[٧].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.
(٣) للتفصيل حول القرآن بعديد ذكره السبعين إلا ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [الإسراء: ٧٨] و«قرآنه» وعديد أسمائه - الأربعين، وعديد معانيه السبعة: طهارة - تطهير - قراءة - إبلاغ - رؤية - جمع - اقتراب، راجع الفرقان (١٥ : ٧٨ - ٨٣).
(٤) كما في الأكثرية المطلقة في الآيات التي تحمل لفظ القرآن وهي (٦٨) آية.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١١١.
(٦) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٧) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

أجل ﴿ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ الذي يوحد الله وينذر بلقاء يوم الله ويكلفنا خلاف أهوائنا، وكما تطلَّب جماعة من مشركي الطائف منه ﷺ ألا يكسر صنمهم «اللات» ويضع عنهم فرض الصلاة حتى يؤمنوا، فأجابهم أن أهم أصول هذا الدين هو التوحيد الذي ينافي اللات وغير اللات، وأهم فروعه هي الصلاة، فكيف أجيبكم إلى تطلبُّكم هذا؟

وقولتهم هذه ﴿ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ هي بين شيطنة الجد والهزل، والفرق بين هذين الاقتراحين أن ﴿غَيْرِ هَٰذَآ﴾ هو المغاير تماماً إياه إلى ما تهواه أنفسهم، ثم ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ يعني تبديله إلى ما هو أسهل منه تقبلاً، تنازلاً عن ﴿غَيْرِ هَٰذَآ﴾.

ولو أنه ﷺ تقبل ذلك أو حاول أن يفعل لكان فيه تكذيب لنفسه فيما تلا عليهم من آيات التحدي والآيات التي تدل على خلود القرآن: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(١).

ذلك، ولكنها ليست لعبة لاعب ولغبة لاغب أو مهارة شاعر في مباريات الشعر وسواه في أسواق الجاهليات، إنما هو الدستور الجدي الجاد من رب هو لنا بالمرصاد، عليماً بما يصلحنا ويفسدنا، وليس تبديله كله أو بعضه يعني إلا خطأه سبحانه فيما أنزل، أو اتباعه لأهواء هؤلاء الأغباش فيما ينزل!.

ومن بديع الأدب الرسالي لهذا الرسول ﷺ أنه لم يرد عليهم ما هو باهر له من الرد حتى أمره الله بالرد عليهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ إذ ليس من شأني كرسول فعلُ الرب: ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ وإنما كياني الرسالي ككل ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ وكياني في المسؤولية أمام الله ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥.

وهنا حجتان بيِّنتان تَردان عليهم ما تطلبوه، إحداهما ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ حيث تبين أن هذا القرآن يحمل مرادات الله من المكلفين، وأخراهما: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ...﴾.

و﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ قلب عليهم لما يهوون من نكران ذلك اليوم العظيم أنني يمنعني عن الانفراط والانفلات عن أمر ربي والانخراط في سلكهم ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

فمن لا يخاف عذاب يوم عظيم هو الذي لا يخاف أي عصيان مهما وحد الله واعترف به.

ذلك، وكما ليس له الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله، كذلك ليس له أن يتخلف قيد شعرة عن سنته الموحاة إليه في تقرير مصير أو إقرار خلافة بعده أماهيه[١].

وهكذا استمرت منه ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ بعد الفتح كما قبله خلافاً لما يروى[٢] إذ لا يعني «ذنبك» عصياناً حتى لا يخاف عذاباً عليه بعد الفتح بما ضمنته آية الفتح!، وليس مصدر أشباه هذه المختلقات الزور إلا الجهل بمغازي القرآن، أو العناد.

وهنا «قرآن» تشمل إليه السنة لأنها واجبة الاتباع بنص القرآن، فقاطع السنة كقاطع الكتاب هما واحد في حقل الوحي قد يعبر عنها بـ ﴿بِقُرۡءَانٍ﴾

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢٩٦ عن تفسير القمي حدثني الحسن بن علي عن أبيه عن حماد بن عيسى عن أبي السفاح عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ [يونس: ١٥] يعني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وعن تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: قالوا لو بدل مكان علي أبو بكر أو عمر اتبعناه، وعن أصول الكافي عن مفضل بن عمر قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية قال: قالوا: أو بدل علياً.

(٢) وهي ما رواه العياشي عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أخاف..» حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام.

مهما كان قرآن الوحي الأصيل هو هذا القرآن وعلى هامشه قرآن الوحي السنة.

والرسول ﷺ غير مخول إليه أي تبديل لأي وحي، و﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾ لا يعني - فقط - تبديلاً دون تخويل، بل وتبديل التخويل فإنه أيضاً من تلقاء نفسه، لأن تبديل القرآن - على أية حال - هو من الاختصاصات الربانية.

وقولة القائل: إن الله فوض إلى رسوله تبديلاً في أحكامه، سناداً إلى روايات، مختلقات، ليست لتعارض نص القرآن حيث يجتث عن موقف الرسالة أي تبديل مهما كان بإذن الله، اللّهم إلّا أن يبدل الله بما يوحي إليه، فليس - إذاً - من تلقاء نفسه، وأما إذا بدل الرسول من تلقاء نفسه مأذوناً وسواه، فقد تشمله ﴿مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾.

أجل، فكما أن الربوبية الإلهية مختصة في الأصل بربنا ولا تتعدد أبداً، كذلك هي ليست لتقبل التفويض، فإنه تقويض لساحة الربوبية، وتبعيض لها بينه وبين خلقه.

ولئن أمكن أن يخلق الله إلهاً ثانياً، لكان بالإمكان أن يأذن في ربوبية ثانية!.

والولاية الطليقة تكوينية وتشريعية هي من ميزات الربوبية الوحيدة غير الوهيدة، أنها لا تقبل وكالة أو نيابة أو خلافة أو تفويضاً.

ذلك، وكل التنديدات بالمشركين في آياتها هي تأكيدات على عدم إمكانية - فضلاً عن وقوع - لانتقال الربوبية إلى خلق أياً كان وأيان.

وليست الرسالة من شؤون الربوبية حتى يتنقض بها هذه الضابطة السلبية، إذ ليس الله رسولاً، فإنما الرسالة كما العبودية هي من اختصاصات

الخلق بما قرر الله أو قدر، فالعبودية حاصلة دون حدّ، والرسالة تحصل بما يحدد الله.

فانتقال الربانية في أي حقل من حقولها مستحيل، كما ولا ينتقل من الله شيء فيما يخلق، إذ لم يلد ولم يولد.

ولو أن الربانية تنتقل إلى غير الرب فهي - إذاً - حادثة، إذ كل ما في الخلق بحذافيره هو حادث ليس إلّا، فترى أن ولاية التكوين والتشريع التي هي من شؤون الربوبية الأصلية، كيف تنتقل بوكالة أم نيابة أم خلافة إلى رسل، ليسوا إلا حملة أحكام الله، فليس من تلقاء أنفسهم شيءٌ في حقل الرسالة ولا نقير.

ذلك، فليس انتقال الربانية مستحيلاً - فقط - في حقل التجافي عنها، بل وخلق مثلها في الخلق، إذ كما أن الربانية الإلهية غير مخلوقة، وإنما المخلوقة هي الخلائق المربوبون، كذلك الربانية المخلوقة للخلق لا بد وأن تكون غير مخلوقة وذلك تناقض بيِّن، والمخلوقة منها ليست ربانية، بل هي مربوبية لا تعمل عمل الرب، سبحانه وتعالى عما يشركون.

إذاً فالولاية التكوينية والتشريعية، هما كسائر الربوبيات الإلهية خاصة بالله تعالى لا تعدوه إلى سواه، إذ لا إله إلا هو ولا رب سواه وليس كمثله شيءٌ.

فلو أن خلقاً من خلقه خول إليه شأن من شؤون الربوبية خلقاً لذلك الشأن لكان لربوبيته مثيل!.

ذلك، والأفعال بين أطوار ثلاثة: ١ - خاصة بالله قضية خاصة ربوبية الله، كالخلق الأول لا من شيء وسائر الخلق دون أسباب خَلقية متعوَّدة، سواء أكان - فقط - بسبب الإرادة الخالقية، أم بطي الأسباب طياً ودرجها في سرعة زمانية أو مكانية أماهيه، ليست في حول الخلق وقوتهم أبداً.

ومن ذلك التشريع حيث يحتاج إلى طليق العلم بكل الكائنات دون إبقاء، والعلم بصالح المكلفين دون أي خطإٍ قصوراً أو تقصيراً، فكما العلم الطليق والقدرة الطليقة لا يقبلان التنقل من الله إلى سواه تجافياً أم خلقاً لهما في الخلق فكذلك التشريع.

كما وأن الخلق لا من شيءٍ أو خلق شيء من شيءٍ - كحق الخلق - يحتاج إلى طليقهما، ولذلك لا يتنقل إلى مَن سوى الله.

٢ - ثم خاصة برسل الله رسالة ربانية من الله، وحياً يوحى إليهم، أم آيات تظهر بإذن الله على ألسنتهم أو أيديهم أمّا أشبه من مظاهر أفعالهم قرينة بفعل الله الآية.

٣ - ومن ثم عامة مهما اختلفت مراتبها من حيث الذرايع المحتاجة إلى مختلف المساعي والقدرات في الخلائق، فالمخترعون والمكتشفون لهم حظوة أكثر ممن سواهم، وهكذا الأمر بينهم أنفسهم وبين من سواهم أنفسهم.

فرسل الله لا يملكون من الله مثيلاً من الأول الخاص بالله، فإنه شركة مع الله تخويلاً وتوكيلاً وتفويضاً، تجافياً أم خلقاً فيهم مماثلاً لما عنده، وهم ليسوا إلا حملة وحي الله بلاغاً إلى عباد الله، كما ولا يملكون وحي الله اجتلاباً واجتذاباً من الله، فإن رسالاتهم ليست إلا من الله، فكذلك مادة الرسالة وهي الوحي، وآيتها وهي آيات رسالاتهم.

لذلك ترى عشرات من الآيات المستعرضة لرسالاتهم وآياتها، تفصل بينهم وبين العلم والقدرة في حقل رسالاتهم وحياً بآيات رسالاتهم إثباتاً لها.

وعلى أية حال ليس الرسل آلهة آخرين غير الله، مستقلين أمام الله، أو

مستغلين تفويض الله لكي يفعلوا ما يفعله الله، إنما هم رسل يحملون أحكام الله إلى عباده دون شطر كلمة أماهيه من تلقاء أنفسهم.

فسواء أكان التلقاء مستقِلاً، أو مأذوناً مستغَلاً، فإنه على أي الحالين تلقاء، و﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ﴾ تعم أي تلقاءٍ، ما لم يكن بوحي خاص ناصّ من الله في كل جليل أو قليل: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ فاتباعه نفسه في تشريع أم تبديل لحكم وسواه من الوحي خارج عن الحصر.

ثم الرسول الذي لا يسمح له أن يحرك لسانه بتفصيل القرآن بعد معرفة إجـمـالـه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[1] ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥۖ﴾[2] أنّى لهذا الرسول أن يأتي بغير هذا القرآن أو يبدله بصياغته اللفظية والمعنوية، المتحدى بهما على العالمين؟!.

ذلك، وكيف يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي وأنتم تشكون مفترين علي فيما يبدله الله من آية: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] فـــ ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ...﴾[4].

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾:

إجابات أخرى عن شطحاتهم المقترحات ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ

(١) سورة القيامة، الآية: ١٦.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

عَلَيْكُمْ...﴾ فـ ﴿لَوْ﴾ تحيل إيجابية المشيئة الإلهية في عدم تلاوته عليهم، تأشيراً عشيراً بواجب هذه التلاوة الرسالية، فإن طبيعة وحي القرآن هي الجماهيرية الشاملة كل المكلفين، كيف وهذه التلاوة هي أصل الرسالة وأثافيُّها بعد التوحيد: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾[1] - ثم ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم﴾ الله ﴿بِهِۦ﴾ أنه منه بآياته الدالة عليه وأنه ما هو رضاه منكم[2] فقد أدراكم به كأصل بما تلوته عليكم، وكفرع بما علمتكم إياه، فمشية الله في تلاوته عليكم وأنه أدراكم به هما دليلان باهران على أنه هو الهدى دون سواه، غياراً به أو تبديلاً له ولا كلمة واحدة.

ومن ثم يجتث جذور افترائه إياه على الله بعد شهادة آياته أن ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أميناً لا أخونكم أفا خون بعد ذلك العُمُر ربي؟ و﴿عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ لا أدري منه شيئاً ولا تعلمت من أحد علماً فكيف جئت بهذا القرآن العظيم من تلقاء نفسي؟.

فإن كان القرآن من عند الله كما تشهد آياته فكيف آتي بقرآن غير هذا أو أبدله ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ...﴾ ولو كان من تلقاء نفسي فلي أن آتي بغيره كما أتيت به أو أبدله وأن أفتريه على ربي ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

فقد استأصلت هذه البراهين الباهرة الساطعة كل جذور التشكيكات حول كيان القرآن، أنه من تلقاء نفسه ﷺ فليغيره أو يبدله، أم من عند الله

---

(١) سورة النمل، الآيتان: ٩١، ٩٢.

(٢) المفعول الثاني لـ ﴿أَدْرَىٰكُم﴾ [يونس: ١٦] محذوف معروف من سوق الكلام أنه تعالى أدراكم كيان القرآن وأدراكم شرعة الحق فيه، أدراكم به، فإن برهان البراهين كما وأنه برهان على رسالة من جاء به ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يس: ١-٣].

فليجبنا في اقتراحنا إن كان أنزله لصالحنا، وكلاهما افتراءٌ على الله أن يتلو عليهم قرآناً من تلقاء نفسه ويفتريه على الله، أم من الله ثم يفترى على الله أنه قد يغيره أو يبدله بهذه التطلبات، ويكأن الله يشرع شرعته حسب مرضاتهم أولائك الحماقى الأنكاد.

وهنا ﴿عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ وهو أربعون سنة، مما يدل على أنه متوسط العمر وكماله وأن الذي يعيش ذلك العمر على وتيرة خاصة، ليس ليبدلها إلى ما يضادها، ولا سيما الأمين الذي لم يخن الناس قبل دعوى الرسالة، فمحال أن يخون ربه بعد دعواها، ولو كان ممن يخون الله لكان يدعي الألوهية حيث القرآن آية ألوهية الصادر عنه، دون أن يتنازل عما يمكنه إلى رسالة لا يملك إلّا بلاغها من الله إلى العالمين!.

أجل ﴿عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ وما أدراك ما ذلك العمر المعمّر من قبل الله، المدمر من قبل جوِّه الذي ولد فيه وعاشه في ظاهر الأمر، وعين الله ترعاه طيلة طفولته حتى شبابه وحتى آخر عمره...

محمد ﷺ يتيم مكة الجدباء، حيث لا ماء فيها ولا كلاء، الفقيرة مادياً ومعنوياً، اللاهية الرمضاء، الصعبة المعاش، المعتمدة على بلاد أخرى في بلغة العيش.

نشأ لا كما ينشأ سائر الطفولة، فقد فقد أباه وهو جنين، أرهق الحزن أمه آمنة إثر وفاة زوجها، فهي - إذاً - غير آمنة على أريحية حياتها وحياة طفلها، وقد جف ثديها فارتضع من حليمة السعدية... وماتت آمنة ولما يبلغ محمد الثامنة، فكفله جدُّه عبد المطلب، وبعد أن مات كفله عمه أبو طالب...

وحين يترعرع ببالغ الصباوة وحالق الشباب يرى المجتمع المكي متصدعاً يعيش في تناقض وتباغض طبقي، يرى حفنة من الناس أغنياء أثرياء

يسكنون الراقيات ويأكلون بصحاف ذهبية وفضية، ويملكون الألوف ومشيدة القصور ومكثفة الحور، ويملكهم كل غُرور الغَرور.

ويرى بجنبهم «الأذلة» وهم السواد الأعظم من أهل مكة، الذين مزقهم الاستبداد، ومحقهم، فمنهم الصعاليك وذؤبان العرب ولصوص البادية وعصابات سوء ومنهم... طعامهم الجوع: من ورق الأشجار ولحائها.

فالصورة مخيفة مثيرة لمعدن الغيرة المحمدية، فهو - إذاً - مستعد لتصفية الجو، مستمداً من وحي الرحيم الرحمان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟[1].

ذلك عمرٌ من قبل الرسالة، حارساً على هذه الأحوال الأهوال، غير دارس في المدرسة المكية ولا قارئ، حيث لا دراسة ولا قراءة، اللّهم إلّا تكلبات وهمجيات، وتصلبات على جاهليات، ثم طلع طلوع شمس الرسالة الأخيرة من مشرق أم القرى، مشرقة على كافة العقول والقلوب ما لم يأت له مثيل.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾:

فالمفتري على الله كذباً أنه أوحي إلي ولم يوح إليه بشيء -: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾[2] - إنه من رؤوس زوايا الظلم.

وكذلك الذي ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ رسولاً بغير وحي الله، يغيره أو يبدله من تلقاء نفسه، أم غيره من هؤلاء الذين يكذبون بآيات الله، أم يفترون على

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

الله أنه لم يوح بشيء: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[١] - ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وقد أفلحتُ أنا حيث قمت بأمر هذه الرسالة القمة الشاملة لوحدي وأخذت تنمو وتربو، فلو كنت مجرماً في دعوى هذه الرسالة، أو كنت أجرمت في رسالتي على الله لكان الله يأخذني باليمين قضية ضرورة الحكمة الربانية، وصداً عن الإغراء بالجهل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾[٢].

وترى كيف تعدى ﴿كَذَّبَ﴾ هنا بالجار «به»؟ ذلك لأن المتعدى إليه هنا محذوف هو الله، أن كذب الله بآياته، نكراناً لها واستنكاراً بدلالاتها، رغم أنها آيات تصديقه، ومن أنحس الكفر أن يتذرع بذريعة التصديق بالتكذيب!: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[٣] ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾[٤].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)﴾:

﴿لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ سلبان اثنان لأمرين هما لزام العبودية لأقل تقدير أن يعبد معبود مخافة ضره أو مجلبة نفعه نتيجة عبادته، فهم يعبدون

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.
(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٣٨-٤٧.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٥.
(٤) سورة الانفطار، الآية: ٩.

ميتات لا حول لها ولا قوة لأنفسها فضلاً عن عابديها: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾[1] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[2].

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حيث يندد على مرّ التاريخ بما يسمونه له شركاء، فهلّا يعلم ما علموه وعرفوه من شركاء ما لا بد وأن يعلمها فيتخذها لنفسه شركاء ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ولقد كان المشركون يوجهون عبادتهم لهذه الأصنام أنها تمثل المقربين عند الله، وهم يمثلون الله، فلأننا أنزل وأنذل من أن نعبد ربنا دون وسيط لعلو ساحته وسمو سماحته فلنوسط بيننا وبينه من يحبه، ولأن هؤلاء الأكارم بين أموات ومن لا تصل إليهم أيدينا فلنوسّط هذه الأصنام التي هي أمثال لهم ولنعبدها لتشفع لنا عند الله، ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[3].

يقال لهم: يا أغبياء، ليست العبادة بالمواجهة، ثم الله هو الذي يأمركم بعبادته دون من دونه، وإن الشفاعة عنده ليست إلّا باذنه، وكيف يعبد الشفيع الميت ولا يعبد المشفّع عنده وهو رب كل شيء؟.

فما أسفههم وأسخفهم فيما يقولون، فجدير بهم ذلك الخطاب الساخر المستنكر ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ...﴾ أن هذه العبادة المنحرفة الحمقاء تدل على أنهم يعلمون ما لا يعلمه الله.

ولقد تشابهت قلوب هؤلاء الحماقى الأنكاد، قلوباً من المدعين أنهم أتباع شرعة القرآن، وهم يشتغلون بكافة الكتب الدراسية في حوزاتهم إلّا

---

(١) سورة يس، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٣) سورة النور، الآية: ٤٠.

القرآن قائلين غائلين: إن كلام الله أرقى وأعلى من أن نفهمه نحن، و«من فسر القرآن برأيه» يمنعنا عن التفكير في القرآن، وأن القرآن ظني الدلالة لا يفهم إلّا بدلالة الحديث، وهل إن ظواهر القرآن حجة، وما أشبه من هذه الدعايات الزور والغرور ضد القرآن بنقاب الحفاظ على كرامة القرآن.

ومن قولهم: إن هذه الدروس الحوزوية تشفعنا للوصول إلى معاني القرآن، ولا تمت بصلة للتعرف إلى معارف القرآن! بل هي تبعِّدهم عنها، ثم وأنَّى يصلون إلى القرآن بهذه المقدمات المدَّعاة وهي تشغل كل أعمارهم حتى الموت!.

أجل - أولئك يقولون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ - مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ وهؤلاء يقولون: هذه الدروس تشفعنا لتفهم القرآن، ونحن لا نليق أن ندخل بلدة القرآن دونها ودون الأحاديث التي تفسره!.

رغم أن القرآن هو أبين تفسير لنفسه وأفضل بيان، والكاتمون لكون القرآن بياناً وتبياناً هم من الملعونين في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[1] فسواءٌ أكانوا يكتمون القرآن عن بكرته، أم يكتمون كون القرآن بياناً للناس.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١] آية البقرة هذه المدنية تفسر آيتنا هذه المكية، وهذه طبيعة الحال في التفصيل المتأخر بعد إجمال، ولقد فصلنا القول حول كون الناس أمةً واحدة واختلافهم بعد الوحدة على ضوء آية البقرة فلا نعيد هنا إلا إجمالاً كما أجمل في نفس الآية.

﴿كَانَ﴾ قد تعني الكينونة الطبيعية الإنسانية دون نظرة إلى سابق زمان، فقد كانوا - وهم بعد كائنون - أمة واحدة في قضايا الفطرة، فأمة واحدة - قبل هدى الوحي - ضلّالاً عما يأتي به الوحي من تفصيل ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ بعد الوحي إلى مصدقين ومكذبين.

وأخرى تعني الكينونة السابقة الزمنية حتى نزل فيهم الوحي فاختلفوا إلى هذين، وعلى أية حال فذلك الاختلاف المقصر عن الوحي وفيه، ولا سيما ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ﴾ كان مما يحق به العذاب: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي كلمة الإمهال - دون إهمال - إلى أجل مسمى ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قضاءً واقعياً فيه الجزاء الحق فانقضاء أهل الباطل وبقاء أهل الحق، فلقد قضى الله دون جزاء بين كل هؤلاء المختلفين في كتابات وحيه، فـ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ تعني قضاء غير ذلك القضاء الذي هو قضية أصيلة للوحي الرسالي.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

هنا القصد من ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ بين آيات محسوسة كما كانت لرسل الله من قبل: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ...﴾[٢] وبين آيات مقترحة، غضاً للنظر عن هذا القرآن الذي هو أفضل وأبقى من كل آية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

والجواب هنا ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ لا أملك منه شيئاً من الله ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وفي أخرى ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(١) فآيات الغيب هي - فقط - لله وعند الله، فلا فارق بيننا في ذلك الانتظار إذ ليس الآية الغيب مني ولا أملكه من ربي حتى إذا استنزلها ينزِّلها علي، فإن ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ واردة مورد النقد على رسالته، كأنه قادر على أن ينزل آية من ربه، و﴿ٱلْغَيْبُ﴾ المحصور في الله هنا هو الآية الرسالية وكما في أخرى ﴿إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾(٢) بكل مراحل العندية، علمية وقيومية، وإنزالاً في أصلها وكمها وكيفها، فلا مدخل لي في الآيات الربانية، وقد فصلنا القول على ضوء آيات أن الآيات الرسالية محصورة بكل أبعادها في الله، هنا ينفض الرسول ﷺ - على محتده العظيم الرسالي القمة - ينفض يديه عن كافة اختصاصات الربوبية تخويلاً وتوكيلاً وخلافة ووزارة وأماهيه من ممثلات الربوبية، مصرحاً أنني وإياكم على سواء أمام الآية الربانية علماً وقدرة ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿ٱلنَّاسَ﴾ هم الناس حيث أكثرهم النسناس، فالنسيان يغمرهم في رحمة الله بعدما تعمرهم فـ ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَآۚ﴾ تحويلاً لها عن وجهها المتجه إلى الله إلى غير وجهها، استقلالاً لها أم استغلالاً إياها، منقطعة الرباط عن الله سبحانه وتعالى عما يشركون.

وهنا ﴿قُلِ﴾ لهم أولاء الماكرين الحاكرين آيات الله، الناكرين دلالاتها ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ﴾ استدراجاً لهم من حيث لا يعلمون وإملاءً لهم بكيد متين

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

ومنه ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ البشرية والملائكية والكونية والجوارحية ﴿يَكْتُبُونَ﴾ تسجيلاً للأفعال والأصوات والنيات كلًّا على حسبه ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾.

إن كل واجهة أمام آيات الله، إلا ما يتجه به إلى الله، إنها ﴿مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ تكذيباً لها قولياً أو عملياً، أم غضاً للنظر عنها دون تصديق ولا تكذيب أما ذا من غير واجهة الاعتبار والاستبصار.

و﴿ءَايَاتِنَاۚ﴾ هنا تعم مع سائر آيات الله، الآيات الرسولية والرسالية وفي قمتها القرآن العظيم، فبعد ضراء طويل وبيل مستهم من الجاهلية الجهلاء زمن الفترة الرسولية، إذا أذقناهم رحمة عالية غالية قرآنية هي كل رحمات الله الروحية الخالدة إلى يوم الدين ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ خوضاً فيها وتكذيباً واستهزاءً بها وفرية عليها أنها من أساطير الأولين وما أشبه من افتراءات زور وغرور يدسها إليهم الغرور ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ﴾ حيث يأخذهم من حيث لا يعلمون و﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فلا يفلتون عنا ولا نلفت عنهم فـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[1] و﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

ذلك ومن مكرهم ﴿فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ أن أصابت أهل مكة ضراء القحط سبع سنين ثم أذاقهم رحمة الأمطار النافعة فنسبوها إلى أصنامهم ناسبين الضراء إلى الله، معاكسة ظالمة ما أظلمها في تلك الفرية القاحلة.

فما ذا يصنع الله بهؤلاء الحماقى البعاد الأنكاد الذين دأبهم الدائب هو المكر ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[3] وكيف يستجيبهم في تطلب آيات يقترحونها على الرسول ﷺ؟!.

(١) سورة الفجر، الآية: ١٤.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.
(٣) سورة غافر، الآية: ٤.

وترى ما هو الفارق بين الرحمة المذاقة والضراء الماسة؟ علّه أن الذوق أكثر من المس مساً والمس أقل من الذوق ذوقاً، تلميحاً لسبق رحمته غضبه، فما تذاق من رحمة هو أكثر بكثير مما يُمس من ضراء.

ذلك، وطالما يتطلبون منه آيات رسولية حسية نزلت على رسل الله من قبل، وقد نزلت على هذا الرسول آية خالدة على مدار الزمن تناسب رسالته الخالدة، وبضمنها لمحات من آيات حسية كشق القمر وما أشبه.

ولقد فصلنا البحث حول انشقاق القمر في سورته وفي الهامش تأييدة تاريخية ننقلها عن بعض الأعلام المعاصرين(١).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

البرُّ هنا يشمل باطنه إلى ظاهره وإلى الجو حيث يقابل البحر، كما البحر يشمل تحته وعمقه، والجو أيضاً يشمل كل آماده من فضاء الأوكسجين إلى ما فوقه الخالي عنه، فالله هو الذي يسيرنا فيها كلها بوسيط ودون وسيط، وسائط كانت زمن النزول أم تكونت وستكون بعده إلى يوم القيامة، حيث الوسائل كلها من الله، سواء أكانت ظاهرة أم مكتشفة مخترعة،

---

(١) هو المرجع الديني سماحة الحجة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي دام ظله، قال لي: «رأيت في مجلة مصرية» المقطّم - أو - الهلال» أنه اكتشف في الصين قبل زهاء ستين سنة سرداب فيه رأس اسطوانة حجرية عثر عليه تحت تراب الأنقاض، مكتوباً عليه باللغة الصينية أنه «تمت هذه البناية في السنة التي انشق فيها القمر».

وقد بعث الجامع الأزهر في القاهرة مبعوثين إلى الصين ليأخذوا صورة فوتوغرافية من هذه الأسطوانة، طبعت في هذه المجلة وقتذاك.

فالمخترِع بتفكيره ومحاولاته وأسبابه التي يتذرع بها، والمخترَع، كلاهما من الله خلقاً وتقديراً وتيسيراً وتسييراً.

فـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ على أية حال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ سواء أكانت في الملاحة البحرية، أم الجوية بالطائرات والصواريخ ﴿وَجَرَيْنَ﴾ تلك الفلك ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ تسيِّرها دون شماس وبكل احتراس ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ مرحين حيث الرخاء الآمن والسرور الشامل فإذا تقع المفاجأة: ﴿جَآءَتْهَا﴾ الفلك ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ عصفها شذر مذر ويا للهول، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وتناوحت الفلك واضطربت عمن فيها ولاطمها الموج وحطها وشالها ودار بها كالريشة الضائعة في الخضم، وأهلها الهائلين في فزع ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ بعاصف الريح ومحلق الموج، عند ذلك وقد انقطعت ظاهرة الأسباب وحارت دونه الألباب برزت فِطَرِهم المحجوبة المغيبة ظاهرة متبلورة متعرية عما ألَمَّ بها من أوشاب وتنفضّ قلوبهم ما ران عليها من تصورات وتنبذ الفطرة الأصلية السليمة بالتوحيد الخالص عن الإشراك الكالس الفالس، فـ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ قائلين ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الورطة الهالكة الحالكة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لأنعم الله، غير ماكرين بآيات الله.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ بخارقة غير مترقبة فهدأت العاصفة وطمأن الموج وهدأت الأنفاس اللاهثة وسكنت القلوب الطائرة الحائرة، ووصلت الفلك إلى الشاطئ آمنة واستقرت أرجلهم على اليابسة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ متناسين العدل والحق، غافلين ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ فمهما بغيتم على غيركم فهم مظلومون فسيرحمون، فقد بقي بغيكم على أنفسكم لزاماً وحزاماً عن رحمة الله عليكم في الدارين، وليست فاعلية ذلك البغي مهما طال إلّا ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ جذوة من خطوة متخيلة ﴿ثُمَّ﴾ بعدها ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم﴾ إنباء علمياً، وعينياً بمشاهدة أعمالكم، وواقعياً بتحولها عقوبات ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وهذه طبيعة الإنسان الجهول الغفول أنه ينسى ربه عند الراحة والرحمة، ثم يذكره عند العاهة والزحمة، وريثما ينجيه الله عنها فإذا هو يبغي في الأرض بغير الحق و﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[١] وهذه الآيات هي من آيات حكم الفطرة المتكشفة إلى الحق المبين، دليلاً صارماً على الله»[٢].

والبغي متعدياً بنفسه هو الطلب، والبغي «على» هو الطلب الظالم، فـ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تأكيد بأنه غير الحق كما في ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[٣] أم وتقييد له بالمتعدي بـ «على».

أجل ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ لزاماً، حيث المبغى عليه ينجو منه حين يرجعون إلى الله وفي هذه الدنيا، ولكنا الباغي باق على نفسه بغيه، لا يدعه حتى يُقتص منه وكما يروى «ثلاث يرجعن على صاحبهن: النكث والبغي والمكر..»[٤] وقال رسول الله ﷺ: ثلاث هن رواجع على أهلها المكر والنكث والبغي، ثم تلا رسول الله ﷺ آيات ثلاث تالية[٥].

ذلك وقد يلمح ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ طليقة ولمكان ﴿عَلَىٰٓ﴾ أنه «لا

(١) سورة يونس، الآية: ١٢.
(٢) وفيه عن تفسير القمي قال أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه الذي كتب إلى شيعته ويذكر فيه خروج عائشة إلى البصرة وعظم خطأ طلحة والزبير فقال: وأي خطيئة أعظم مما أتيا، أخرجا زوجة رسول الله ﷺ من بيتها وكشفا عنها حجاباً ستره الله عليها وصانا حلائلهما في بيوتهما، ما أنصفا لله ولا لرسوله من أنفسهما ثلاث خصال مرجعها على الناس في كتاب الله: البغي والمكر والنكث قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يُونس: ٢٣] وقال: ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وقال: ولا يحيق المكر السيّئ إلا بأهله، وقد بغيا علينا ونكثا ومكرا بي.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦١.
(٤) نور الثقلين ٢: ٢٩٨ في تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام: ثلاث... قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ [البَقَرَة: ٢١].
(٥) الدر المنثور ٣: ٣٠٣ عن أنس قال قال رسول الله ﷺ.

يؤخر الله عقوبة البغي»[١]، وأنه مشهد شامل كامل آهل بالشهود إذ لم تفتأ منه حركة ولا خالجة، إنه مشهد نفسية الإنسان مع الحوادث الكوارث، مكروراً على مدار الزمن، فهل من منتبه؟.

وترى ﴿بَغْيُكُمْ﴾ - فقط - على غيركم هو ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾؟ و﴿بَغْيُكُمْ﴾ كما ﴿يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ﴾ طليق، بل وبأحرى البغي على النفس أن يكون عليها من البغي على غيرها.

فسواء أكان بغياً على النفس خاصة أم على خاصة النفس وعامتها من سائر الأنفس، بإيرادها موارد التهلكة، والزجّ بها في ركْب الندامة الخاسر بالعصيان والطغيان، أم كان بغياً على سائر الناس غير المستحقين لبغيٍ حيث الناس نفس واحدة كما انتشأت من نفس واحدة.

وقد يكون البغي في ثالوثه - حيث الثالث انعكاس البغي على النفس على سواها من أنفس - قد يكون معنياً من ﴿بَغْيُكُمْ﴾ حيث الباغي على نفسه يفسد عضواً من الأنفس وهي واحدة فتنضرب سائر الأنفس بها، كما ويقتدى بهذه النفس الباغية فتبغي تبعاً لها غيرها.

وطالما ﴿بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ تشمل ذلك الثالوث، إلّا أن أضلاعه دركات، كما أن كل ضلع منها أيضاً دركات، فهو على أنفسكم دركات حسب الدركات ولا تظلمون فتيلاً.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٠٣ - أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال قال رسول الله ﷺ: لا يؤخر الله... فإن الله قال: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس: ٢٣] وفيه أخرج البيهقي في الشعب عن أبي بكر قال قال رسول الله ﷺ: ما من ذنب أجدر من أن يعجل الله لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وفيه عنه ﷺ: لو بغى جبل على جبل لدكّ الباغي منهما، وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام قال: ما من عبادة أفضل من أن يسأل، وما يدفع القضاء إلا الدعاء وإن أسرع الخير ثواباً البر وأسرع الشر عقوبة البغي وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه وأن يأمر الناس بما لا يستطيع التحول عنه وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه.

فأين البغي على توحيد الله ورسالاته وشرائعه من البغي على أنفسكم في سائره وعلى عباد الله، فكلما كان المبغي عليه أعظم محتداً ومكانة، وأوسع رحمة، كان البغي عليه أعظم، فالجزاء - إذاً - أعزم وألزم.

والناس حين يبغون في هذه الدنيا يذوقون من خلفيته هنا قبل أن يُجزوا جزاءهم الأوفى.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1].

﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾: لبست زينتها بألوان الأزهار وأصابيغ الرياض، كما يقال: أخذت المرأة قناعها وسائر زينتها.

هنا «ماءٌ وغيث» مَثَل لأصل الحياة الإنسانية وما أشبه لعامة المكلفين، النازلة من سماء المشية الربانية إلى أرض الحياة الدنيا الدنية ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ...﴾ خلطاً للروح بالبدن في أرضه فإنه نبات من الأرض: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[2] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ البدن بحاجياتها ﴿زُخْرُفَهَا﴾ على ضوء الروح الحياة ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ بها ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ غير مغادرين عنها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ بتدميرها بعد تعميرها ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.
(٢) سورة نوح، الآية: ١٧.

حَصِيدًا﴾ يُحصد ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ إقامة طائلة في الحياة الأرضية بالأمس القريب ﴿كَذَٰلِكَ﴾ البعيد المحتد والمدى، القريب الهدى ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ المذكرات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في هذه الحياة.

تلك هي الحياة الدنيا الزهيدة الدنية «فازهدوا فيما زهدكم الله عزّ وجلّ فيه من عاجل الدنيا»[(١)] «فاجعلوا عباد الله اجتهادكم في هذه التزود من يومها القصير ليوم الآخرة الطويل، فإنها دار عمل والآخرة دار القرار والجزاء فتجافوا عنها، فإن المغتر من اغتر بها، لن تعدوا الدنيا إذا تناهت إليه أمنية أهل الرغبة فيها المحبين لها، المفتونين بها أن تكون كما قال الله: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ. . .﴾[(٢)].

فها هو الماء - الروح - ينزل من سماء الرحمة إلى دار الضيق والظلمة والزحمة، فنبات البدن يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر في الظاهر، وها هي ذي الأرض البدن كأنها عروس مجلوة متزينة لعريس ومتبرجة، ويظن أهلها أنها ازدهرت وبهرت وبما حاولوا تزينت فلا تتغير فإذا ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا. . .﴾! فهذه هي الدنيا بحذافيرها خاطفة غير عاطفة إلا جارفة خارفة، إلا لمن تزود منها للآخرة، ولذلك نسمع الرسول ﷺ يقول: «إنما أخشى عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من بركات الأرض»[(٣)] و«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[(٤)] و«من كانت الدنيا همه فرق الله عليه

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢٩٨ في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين عليه السلام في الوعظ والزهد في الدنيا يقول فيه: فازهدوا. . فإن الله عز وجل يقول وقوله الحق: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. . .﴾ [يونس: ٢٤].

(٢) المصدر خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام وفيها: فاجعلوا عباد الله. . . كما قال الله عز وجل: . . .

(٣) المصدر نقلاً عن مس - ك ٥٣ ح ١، تر - ك ٣٤ ب ١٦، مج - ك ٣٧ ب ٣ قا، حم - ثان ص ١٩٧ و٣٢٣ و٣٨٩ و٤٨٥.

(٤) المصدر - تر - ك ٣٤ ب ١٨ - ٢٠، مج - ك ٣٧ ب ٢،

أمره»[١] و«كن في الدنيا كأنك غريب»[٢] و«إنما مثلي ومثل الدنيا كراكبٍ ظلَّ تحت شجرة ثم راح»[٣].

«ألا وإن الدنيا قد تصرمت، وأذنت بالقضاء، وتنكر معروفها، وأدبر حذَّاء، فهي تحفز بالغناء سكّانَها، وتحدوا بالموت جيرانها، وقد أمرَّ منها ما كان صُلواً، وكِدِر منها ما كان صَفواً، فلم يبق منها إلا سَمَلة كسملة الأداوة، أو جرعة كجُرعة المَقلة، لو تمزَّزها الصَّديان لم ينفع، فأزمعوا عبادَ الله الرحيل عن هذه الدار المقدور على أهلها الزوال، ولا يغلبنكم فيها الأمل، ولا يطولن عليكم فيها الأمد، فوالله لو حننتم حنين الولَّه العِجال، ودعوتم بهديل الحَمام، وجأرتم جُؤار متبتل الرُّهبان، وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد، التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده، أو غفران سيئة أحصتها كُتُبه، وحفظها رسله، لكان قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه، وأخاف عليكم من عقابه، والله لو انماثت قلوبكم إيماناً، وسالت عيونكم - من رغبة إليه أو رَهبة منه - دماً، ثم عُمِّرتم في الدنيا ما الدنيا باقية، ما جرت أعمالكم، ولو لم تُبقوا شيئاً من جُهدكم أنعمه عليكم العظام، وهُداه إياكم للإيمان»[٤].

«أما بعد فإني أحذِّركم الدنيا، فإنها حلوة خَضِرة، حُفَّت بالشهوات، وتحببت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلَّت بالآمال، وتزينت بالغُرور، لا تدوم حَبْرتها، ولا تؤمن فَجعتها، غرَّارة ضرَّارة. حائلة زائلة، نافدة بائِدة، أكّالة غوَّالة، لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها، والرضا بها أن تكون كما قال الله تعالى:

(١) مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٩١ عن الإمام الصادق عليه السلام.
(٢) المصدر نقلاً عن بخ - ك ٨١ ب ٣، تر - ك ٣٤ ب ٢٥، حم - ثان ص ٢٤ و٤١ و١٣٢.
(٣) المصدر نقلاً عن تر - ك ٣٤ ب ٤٤، حم - أول ص ٣٠١ و٣٩١ و٤٤١، ط - ح ٢٧٧.
(٤) (الخطبة ٥٢).

﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ -

لم يكن امرؤٌ منها في حَبْرة إلا أعقبته بعدها غيره، ولم يلقَ من سرَّائِها بطناً إلَّا منحته من ضرائها ظهراً، ولم تطُلَّه فيها ديمة رخاء إلا هتنت عليه مُزنة بلاءٍ، وحريٌّ إذا أصبحت له منتصرة أن تُمسي له متنكرة، وإن جانبٌ منها اعذوذب واحلولى أمرّ منها جانب فأوبى، لا ينال امرؤٌ من غضارتها رَغَباً إلا أرهقته من ثوابها تَعَباً، ولا يمسي منها في جناح أمنٍ إلّا أصبح قوادمَ خوف، غرّارة غُرورٌ ما فيها، فانية فانٍ من عليها، لا خير في شيءٍ من أزوادها إلّا التقوى، من أقل منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه وزال عما قليل عنه، كم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة قد صرعته، وذي أُبّهة قد جعلته حقيراً، وذي نخوة قد ردته ذليلاً، سلطانها دُوَل، وعيشها رَنق، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سِمام، وأسبابها رِمام، حيُّها بعَرَض موت، وصحيحها بعَرَض سُقم، ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، وجارها محروب -

ألستم في مساكن من كان قبلكم أطولَ أعماراً، وأبقى آثاراً، وأبعد آمالاً، وأعدَّ عديداً، وأكثف جنوداً، تعبدوا للدنيا أي تعبد، وآثروها أي إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلِّغ، ولا ظهر قاطع، فهل بلَّغكم أن الدنيا سنحت لهم نفساً بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو حسنت لهم صحبة، بل أرهقتهم بالقوادح، وأوهنتهم بالقوارع، وضعضعتهم بالنوائب، وعفّرتهم للمناخر، ووطئتهم بالمناسم، وأعانت عليهم ريب المنون -

فقد رأيتم تنكُّرها لمن دان لها وآثرها وأخلد إليها حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد، وهل زودتْهم إلا السَّغب، أو أحلَّتهم إلّا الضنك، وأو نوَّرت لهم إلّا الظلمة، أو أعقبتهم إلّا الندامة -

أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون، فبئست الدار لمن لم يتهمها ولم يكن فيها على وجل منها -

فاعلموا وأنتم تعلمون بأنكم تاركوها وظاعنون عنها، واتعظوا فيها بالذين قالوا «من أشد منا قوة»؟ حُمِلوا إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً، وأنزلوا الأجداث فلا يُدعون ضيفاناً، وجُعل لهم من الصفيح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران، فهم جيرة لا يجيبون داعياً، ولا يمنعون ضيماً، ولا يبالون مَندبة، إن جيدوا لم يفرحوا، وإن قُحطوا لم يقنطوا، جميعٌ وهم آحاد، وجيرةٌ وهم أبعاد، متدانُون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون، حلماء قد ذهبت أضغانهم، وجُهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يُخشى فَجْعهُم، ولا يُرجى دَفعهم، استبدلوا بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة، فجاؤوها كما فارقوها حفاةً عراةً، قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية كما قال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1] [2].

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ هي الأولى السلام في الأولى، ومن ثم الأخرى في الأخرى، حيث الإسلام السليم يبني من الحياة الدنيا دار السلام.

فالحياة الأولى للمؤمن السلام هي طليق السلام، والأخرى له هي السلام الطليق، حيث الأولى تعرضها عوارض من غير السلام، والأخرى طليقة عن كل عارضة وسأم.

وهنا «الدعوة عامة والهداية خاصة»[3] وكما في كل دعوة ربانية.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٢) (الخطبة ١١٠).

(٣) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ - ك ٥٦ ب ٣٧، ك ٥٨ ب ١، ك ٣٤ ب ١٢ و١٧ و٢٧، ك ٨١=

فـ ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ هي الدار التي في الأصل سلام إلا لمن يجعلها ساماً بديل سلام.

و﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ هـو الله ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ﴾[1] [2] فهي بعد الأولى السلام بالإسلام داره الخاص لأوليائه بعد كل شَغَب وسَغَب في الدنيا، فهي الجنة و﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3] فدار السلام سلام وهي ﴿عِندَ رَبِّهِمْۖ﴾ سلام على سلام وأين سلام من سلام! ثم هو قالة التحية السلام ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾[4] وهو حالة السلام: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾[5] وهذه الحالة هي سلام من الله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[6] ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[7].

ذلك ومن حصائل الاستجابة للدعوة الربانية إلى دار السلام أن المؤمن تصبح دنياه آخرة لأنها لها مزرعة وليست مُزرِءَة، فـ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ

= ب ٧ قا ٥٢، مس ك ١٢ ح ١٢١ - ١٢٣، ك ٤٣ ح ٣٠ و٣١، ك ٥٣ ح ٦ قا ٧، تر - ك ٣٤ ب ٢٦، ك ٣٥ ب ٢٨، نس - ك ٢٣ ب ٨ حم - ثان ص ٥٣٩ ثالث ص ٧ قا ١٩ و٢١ و٢٢ قا ٦١ و٨٤ و٩١ و١٦٥ و١٦٧ قا ١٧١ و١٨٢ و٢٢٤، رابع ص ١٣٧ و١٤٩ و١٥٣ - ١٥٤ و٣٢٧ خامس ص ١٥٢ و١٥٤ و١٧٨ و٣٦٨ ط - ح ٢١٨٠.

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٣.

(٢) نور الثقلين ٢: ٣٠٠ في معاني الأخبار بإسناده إلى العلا بن عبد الكريم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] قال: إن السلام هو الله عز وجل وداره التي خلقها لعباده ولأوليائه الجنة، وفيه بإسناده إلى عبد الله بن الفضل الهاشمي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: والسلام اسم من أسماء الله.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٧.

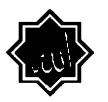
(٤) سورة يونس، الآية: ١٠.

(٥) سورة الحجر، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٦) سورة يس، الآية: ٥٨.

(٧) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ في الأولى والآخرة حيث المساعي الجميلة لتطبيق دعوة الله تعمر الدنيا قبل الآخرة وإن كانت ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾(١). فـ «يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى»(٢).



(١) سورة الأعلى، الآية: ١٧.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٠٤ عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: ما من يوم طلعت شمسه إلا وكُل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس... ولا آبت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين: اللّهم أعط منفقاً خلقاً وأعط ممسكاً تلفاً فأنزل الله في ذلك كله قرآناً في قول الملكين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وأنزل في قولها: اللّهم أعط منفقاً خلفاً واعط ممسكاً تلفاً: والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى - إلى قوله - للعسرى.

وفيه في الدلائل عن سعيد بن أبي هلال سمعت أبا جعفر محمد بن علي عليهما السلام وتلا: والله يدعو إلى دار السلام..

فقال حدثني جابر قال خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: إني رأيت في المنام كان جبرئيل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه ضرب مثلاً فقال: اسمع سمعت أذناك، واعقل عقل قلبك: إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من ترك، فالله هو الملك والدار الإسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد رسول فمن أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ
بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ
قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ
نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ
وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ
وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن
يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ
مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ
تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ
قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۚ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ
إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ
ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ قولة ومعرفة وعقيدة وطوية ونية وعملية فردية وجماعية بمرضاة الله ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهي الحياة الحسنى هنا وفي الأخرى الجنة، واللام لعهد لذكر المعروف فهو الجنة لمكان «دار السلام»، فـ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ هي أحسن من إحسانهم وعلّها المذكورة في ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[١] ثم وزيادة حسب زيادة الإحسان، فـ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ زيادة أولى على إحسانهم، ثم ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ زيادة أخرى في درجات حسب الدرجات ثم ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ ويغشى ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾: غبار وسواد وكدرة اللون من الحزن والضيق، فلا يُقتر بحقهم في حسناهم ولا تغبر وجوههم بغبار التخجُّل ولا ذلة وانكسار «بعد نظرهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ»[٢] فلا يغشى وجوههم قترة ولا تكسو ملامحهم ذلة، والتعبير يوحي أن قضية الموقف من الزحام والهول والكرب والمهانة ما يخلع آثاره على الوجوه إلّا الوجيهة بالله، فـ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣] وقد تعني «زيادة» زيادة على ما عنت «الدنيا» كما في رواية[٤]

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٠٧ عن صهيب عن النبي ﷺ: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: بعد نظرهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

(٣) في مجمع البيان روى الفضيل بن يسار عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: ما من عين ترقرقت بمائها إلا حرم الله ذلك الجسد على النار فإن فاضت من خشية الله لم يلحق دلك الوجه قتر ولا ذلة، وفي تفسير العياشي نحوه.

(٤) نور الثقلين ٢: ٣٠١ في أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه: قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] والحسنى هي الجنة والزيادة هي الدنيا، وفيه عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: أما الحسنى فالجنة وأما الزيادة فالدنيا ما أعطاهم الله في الدنيا لم يحاسبهم به في الآخرة ويجمع لهم ثواب الدنيا والآخرة، وفيه عن أصول الكافي قال أبو جعفر عليه السلام عندما قرأت عليه هذه الآية قال رسول الله ﷺ: إني لأعجب كيف لا أشيب إذا قرأت القرآن.

حيث الدنيا هي الحاضرة من حسنى الآخرة لمن يجعل دنياه آخرة وكما وعد الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[(١)].

وزاوية ثالثة من «زيادة» هي النظر إلى وجه الله، معرفة عالية غالية كما يمكن في حقهم وهو الأحق بالمعني من «زيادة» فإنه زيادة على دار السلام الجنة، وقد تعنيها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾[(٢)]، وفي الحق أنه هو الزيادة الغالية التي لا تقاس بشيء من الحسنى هنا وفي الآخرة.

أجل وفيما يروى لهذه الزيادة عن النبي ﷺ قوله: «ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حدود ولا صفة معلومة»[(٣)] وقد تعني - فيما عنت - هذه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٣) الدر المنثور ٣: ٣٠٥ - أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: ينظرون إلى ربهم...

وفيه عن صهيب أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون: وما هو؟ ألم تثقل موازيننا وتبيض وجوهنا وتدخلنا الجنة وتزحزحنا عن النار فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم -، وعنه قال رسول الله ﷺ: الزيادة النظر إلى وجه الله، وفيه عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي يا أهل الجنة بصوت يسمعه أولهم وآخرهم: إن الله وعدكم الحسنى وزيادة فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن، وفيه عنه ﷺ قال: للذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى وهي الجنة والزيادة النظر إلى وجهه الكريم، وفيه عنه ﷺ: من كبر على سيف البحر تكبيرة رافعاً بها صوته ولا يلتمس بها رياء ولا سمعة كتب الله له رضوانه الأكبر ومن كتب له رضوانه الأكبر جمع بينه وبين محمد وإبراهيم ﷺ في داره ينظرون إلى ربهم كما ينظر أهل الدنيا إلى الشمس والقمر في يوم لا غيم فيه ولا سحابة وذلك قوله: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، فالحسنى لا إله إلّا الله والزيادة الجنة والنظر إلى الرب» أقول: يعني من النظر إليه بلا حجاب كلّ حجاب إلا حجاب الذات القدسية فإنه لن يرتفع لأحد حتى أقرب المقربين وأول العابدين.

الزيادة ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[(١)] حيث الرحمة اللدنية الجامعة التي لا تقاس بسائر الرحمة هي النظر إلى وجه الله، خارجاً عن مأمولهم.

ذلك، فهؤلاء الأكارم هم في مُطبَق ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ ومثلث «زيادة» ورأس زاويته هو النظر إلى وجه الله، كما الإحسان هو القول والعقيدة والعمل لوجه الله.

أجـــــل ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾[(٢)] ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾[(٣)] ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[(٤)] وهي في القمة النظر إلى وجه الله.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)﴾:

هناك ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾[(٥)] زيادة على الحسنى، وهنا ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾[(٦)] وهما وجوه القلب لمكان «تظن» ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ . . .﴾ إذ ﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ كلها بكل حقولها وجاه كل الحسنات فلا تعني من عنتهم الفساق من المؤمنين إذ هم مهما فسقوا ليسوا ليكسبوا كل السيئات فإنما هم ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[(٧)].

ذلك إضافة إلى صراح آيات أن تلك هي وجوه الكفرة: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾[(٨)] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[(٩)] ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[(١٠)].

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٣.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٨.
(٤) سورة السجدة، الآية: ١٧.
(٥) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٦) سورة القيامة، الآيتان: ٢٤، ٢٥.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٨١.
(٨) سورة عبس، الآيات: ٤٠-٤٢.
(٩) سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.
(١٠) سورة الزمر، الآية: ٦٠.

فـ ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ دون زيادة، مما يدل على أن النار ليست أبدية دون نهاية إذ لا تماثل اللانهاية السيئات المحدودة التي لها ولآثارها نهاية: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ﴾[1] - ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾[2] - ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[3] - ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[4].

فهؤلاء ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ﴾ وتغشاهم ﴿ذِلَّةٌۖ﴾ ذليلة ثم و﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ ولا عاصم اليوم إلا الله، كأنما أغشيت وجوههم المقترة الذليلة المغبرة المظلمة ﴿قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ ظلمات بعضها فوق بعض ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[5] وفناء من في النار مع النار ليس خروجاً من النار، وقد حدد خلود النار بما شاء الله في آيات كـ ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾[6] فشمول الاستثناء لكل الخالدين في النار يجمع بين خروج عن النار للمستحقين الجنة، وعدمه لغيرهم حيث تخمد النار بمن في النار.

وما أمثله تمثيلاً لهذه الوجوه المظلمة ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾: الليل مظلماً وهو غسقه دون نور من القمر، ثم ﴿قِطَعٗا﴾ منه ركاماً، فلا نور فيه أبداً ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[7] فقد رقعت وجوههم المظلمة برقع من أظلم ظلم الليل فأصبحت ملفعة بأغشيته البهيمة.

ورغم أن الليل لا يوصف بقطع متفرقة وأجزاء منتصفة، فقد يعني هنا ﴿قِطَعٗا﴾ أنه لو كان مما يتبعض وينفصل لأشبه سواد وجوههم أبعاضه

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٢) سورة غافر، الآية: ٤٠.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.
(٧) سورة النور، الآية: ٤٠.

وقطعه، وهنا ﴿مُظْلِمًا﴾ حالاً من ﴿ٱلَّيْلِ﴾ لأنه قد يكون مقمراً وأخرى مظلماً، فالتشبيه هنا واقع بموقع أسود ما يكون الليل جلباباً وأبهم أثواباً.

فـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تغشاهم وتركبهم وتكربهم قتر وذلة وظلمة خالصة كالسة عن أي نور، فلأنهم كانوا هنا أصحاب العار فهناك هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في ظلام النار وقتامها، وهم رفاقها ما داموا ودامت جزاءً وفاقاً محدوداً بحدود سيئاتهم دونما مزيد لأنه من عدله، وهناك مزيد لأنه من فضله.

ذلك ومن الواجهة الأدبية للآية، الواو في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عطف على ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ فـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾، دون الأسوأ فضلاً عن «زيادة» لأنهما ظلم تعالى الله عنه، وإنما ﴿سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ فهي محدودة بحدودها دون خلود لا نهاية له كما يفترى على الله!.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ أولاء المحسنين، والمسيئين بشركائهم ﴿جَمِيعًا﴾ دون إبقاء فإنه يوم الجمع الأكبر حيث لا يبقي ولا يذر ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ بالله - ككل - دون إبقاء أياً كانوا من دركات الإشراك وأيان، الزموا ﴿مَكَانَكُمْ﴾ متميزين عن الموحدين في مكان كما في مكانة: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[١].

﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ دون أي حراك أو عراك ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ تزييلاً للحجب التي حجبت بعضهم عن بعض فأوردتهم في هوات الإشراك بهم كما حجَبت عنهم سائر الحقائق المعنية، وذلك تزييل ثان في الأخرى بعد

---

(١) سورة يس، الآية: ٥٩.

الأول في الأولى حيث زيل بين كل المشركين وشركائهم غشاء الإشراك بما فطرهم الله. كسائر المكلفين - على التوحيد، إضافة إلى سائر الآيات الأنفسية والآفاقية التي تصرخ من أعماق الكائنات بوحدانية الله بكل مراحلها، ومن الفارق بين التزييلين، أن الأول يعني التزييل بين المكلفين والحقائق المعنية بتذييل المساعي للحصول عليها جهاداً متواصلاً لإزالة كل الغشاوات والحجابات بينهم وبينها، سواء التي تحصل على أنفسهم الأمارة بالسوء، أو التي يختلقها شياطين الجن والإنس، ثم تبنِّي الفطرة العقلية الإنسانية والشرعة الربانية لتكامل المعرفة وصالح العقيدة والعملية وفقها.

ولكن التزييل في الأخرى لا يكلف تذييلاً لمساعي حيث انقضى دورها بانقضاء دار التكليف بدورها، فلا مغطي لما يزيل الله في الأخرى وفي الأولى غطاءات آفاقية وأنفسية، وحجج الله بالغة في التزييل هنا وليست الضلالة إلا ترك المساعي المعنية في دار التكليف.

ولا فارق بين التزييلين إلّا أن الأولى لم يكن عياناً قضيةَ دور التكليف، وإنما كان بياناً في كتابي التكوين والتشريع، ثم عياناً يوم الحساب قضيةَ كشف الغطاء عما يصح كشفه ويصلح، فرحة للصالحين وقرحة للطالحين.

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ ككل من جماد أو نبات أو حيوان أو ملك أو جان أو إنسان دونما استثناء لشريك مختلق إلّا و«قال» كما حشر مع عابديه.

وترى كيف «قال» ولا قال إلا لذوي القال المعروف قوله؟ «قال» هنا بالنسبة لغير ذوي القال باللسان هو «قال» الحال بعد ذلك التزيُّل، مسموعاً بسمع القلب بعيان الحال، وكما في السماء والأرض بعد قول الله لهما: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1] قولاً بحال التذلل والانقياد والطواعية لأمر الله دون أي تمنُّع.

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

ثم هو بالنسبة لذوي القال من ملك أو جان أو إنسان، هو قول اللسان كلمة واحدة: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

وتراه كذباً، إذ كانوا إياهم يعبدون؟ و﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾(١) وذلك كذب تباب، وحتى لو أذن لهم في كذب قضية الفضيحة هناك على رؤوس الأشهاد، فلا بد - إذاً - من الرد عليه قضية أن القرآن كتاب هدىً لا يحمل ضلالاً إلّا لتزييفه.

هنا ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ إن كانت «ما» نافية، تعني سلب الحصر قضية تقديم المفعول، كما العكس في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢) وهذا صدق دون ريب لأن العابدين من دون الله ما كانوا يحصرون عبادتهم فيما يعبدون، فهم كأصل إنما كانوا يعبدون أهواءهم، وعلى هامشها يعبدون ما يعبدون من شركائهم، إشراكاً بينها دونما توحيد.

فقد يتبرأ الشركاء تخفيفاً عن محظور عبادتها إن لم نكن في ذلك الميدان مختصين بتلك العبادة، فإن هناك الشريك الأكبر هو أهواؤهم، ومن ورائها عبادتنا كشركة متساهمة، إذاً فنحن كلنا مؤاخذون فيما دعونا إلى عبادتنا أم قبلناها دون دعوة، إلّا ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾(٣) وهم الصالحون إذ لا قصور لهم ولا تقصير ولا دعوة ولا استجابة في حقل عبوديتها للمشركين، ومعهم غير الطواغيت، من جماد ونبات وحيوان، قضيةَ خروجها عن محور الدعوة والتكليف.

وقد يتأيد ذلك السلب بـ ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(٤) إذ ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.
(٤) سورة النحل، الآية: ٨٦.

وباحتمال ثان إذا كانت «ما» استفهامية: ما الذي كنتم إيانا تعبدون ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فالصالحون هناك كما هنا يستنكرون، لماذا عبدتمونا، فرحين أن لم يقصروا، والطالحون هناك فَرِحون لماذا قصّروا هناك فقُصروا هنا عن جبره هنا إذ لات حين مناص، وقد مضى يوم خلاص.

إذاً ف ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ صادقة في وجهي الإخبار والإنشاء، أنكم كنتم تعبدون أهواءكم ومن خلفياتها أن عبدتمونا على هوامشها، فالمعبود الأصيل هو أهواؤكم، ثم سائر المعبودات كطقوس ظاهرة أم أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم.

ذلك، وأما ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ فتراهم ككل كانوا عن عبادهم لغافلين؟ والطواغيت يحاولون ليل نهار أن يعبِّدوا لأنفسهم المستضعفين، ولهم حظوة كبريائية حين يُعبدون من دون الله! فكيف ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾.

ثم الملائكة والنبيون الذين عُبدوا من دون الله لم يكونوا غافلين عن عبادتهم ولا سيما الآخرون، فإن قضية الرسالة بلاغياً صد العابدين لهم عن عبادتهم كزاوية أولى لدعواتهم الرسالية حيث «لا إله إلا الله» فكيف «إن كنا عن عبادتهم لغافلين» ؟.

فمهما كان غير العقلاء من المعبودين من دون الله ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ كالجمادات والنباتات والحيوان، فالعقلاء من المعبودين - الراجع إليهم ضمير الجمع كأصل - ما كانوا عن عبادتهم لغافلين!.

هنا في وجه «إن» النافية، ليس موقف المعبودين إلَّا تزييف العابدين إضافة إلى الأوّل، أننا لم نكن عن عبادتكم لغافلين، فيختص سلب الغفلة بعقلائهم، أم يعممهم إلى سواهم، إذ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا

﴿تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[(١)] ومن الممكن أنها كما تشعر تسبيح ربها كذلك تشعر من يعبدها فتشهد على عابديها يوم يقوم الأشهاد.

ثم في وجه «إن» المثبتة هي غفلة قاصرة من غير ذوي العقول منهم، وغفلة مقصرة لذوي العقول منهم القابلين لعبادتهم غير الرافضين إياها، إن ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ إيانا ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ عن التوحيد الحق، وعن كوننا كما أنتم عباد لله.

ثم بالنسبة للصالحين هي غفلة التغافل التناسي في واقع العبادة، مهما كانوا ذاكرين في حقل الدعوة.

فهم - إذاً - كانوا بين غفلة ولا غفلة، غفلة تصغيراً لأنفسهم وتعظيماً لله تناسياً لتلك العبادات الشركية، ولا غفلة اعتباراً بصدهم في دعاياتهم الرسالية عن الإشراك بالله.

ذلك، ومن واجهة أخرى قد يسمح للمشركين أن ينكروا إشراكهم حتى يكذبهم الله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[(٢)] فحين يضل عنهم ما كانوا يفترون بما زيل الله بينهم وبين ما كانوا يعبدون، يستجرون أنفسهم هناك إلى الدنيا مدعين أننا كنا على حالتنا الحالية من ذي قبل، فقد كانوا يشهدون يوم الدنيا لشركائهم ثم في الأخرى ينكرونهم: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾[(٣)].

وحين يدّعون أن شركاءهم هم الذين سيّروهم إلى الإشراك بهم

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ٢٣، ٢٤.
(٣) سورة فصلت، الآيتان: ٤٧، ٤٨.

يكذبون: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾[1].

فالإضلال المنفي هو الحمل على الضلال تسييراً، فلا ينافي واقع الإغواء تخييراً: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾[2].

فقد يتواتر على المشركين تكذيبهم في نكران إشراكهم وذلك عذاب فوق العذاب.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

«فكيف لو تناهت بكم الأمور وبعثرت القبور؟ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[3].

ذلك وعلى حد قول الرسول ﷺ: يمثّل يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونهم حتى يوردوهم النار ثم تلا ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ...﴾[4] ولكن ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[5] وإنما ورد النار خزياً هو للذين دعوا إلى أنفسهم ولعابديهم، أم لم يمنعوهم عن عبادتهم، ثم والأصنام المعبودة من دون الله خزياً لعابديها.

---

(١) سورة الفرقان، الآيات: ١٧-١٩.
(٢) سورة القصص، الآيتان: ٦٣، ٦٤.
(٣) نور الثقلين ٢: ٣٠٢ عن نهج البلاغة.
(٤) الدر المنثور ٣: ٣٠٧ - أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: ..
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

و﴿تَبْلُوا۟﴾ من البلوى الاختبار، فـ ﴿تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ تعني اختبارها حقيقة ما أسلفت دون غطاءٍ وغشاءٍ، فـ ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(١).

فاختبار الإشراك والشركاء فاصحاً واضحاً لا غبار عليه أنهم ما كانوا شركاء، وأن عبدتها ما كانت في الحق تعبدها، إنما كانت تعبد أهواءَها الناحية منحى رغباتها.

و﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ تعني كل نفس خيرة أو شريرة، وبمناسبة المقام الأخيرة إذ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

فكل ما أسلفت وقدمت من خير أو شر هنالك تبلوها، اختباراً بصورها المستنسخة الحاضرة يوم الحشر، وبسيرها الحاذرة شراً، والباهرة خيراً وهي هيه جزاؤها، وفي خيرها ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(٢).

ذلك وعين الحق تبلو هنا ما أسلفت، وكما زيل الله بين المكلفين والمعبودين من دون الله فطرياً وعقلياً وشرعياً، وبكل الآيات الآفاقية والأنفسية، وقد يعني المضي في: «زيلنا» ذلك التزييل المستمر مهما كان تزييله يوم الحساب أكثر وأوفر إذ لا يبقى أي غشاءٍ وغطاءٍ.

فحين يقول الله ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾(٣) الخير والشر على مرتفع باهر، فقد زيل بين المشركين وشركائهم، ولكنهم غطوا على أنفسهم الحق وتورطوا في الباطل، ثم الله يزيل بينهم تزييلاً لا يمكن الغطاء عليه يوم يكشف الغطاء.

وترى أن هنا تضاداً بين ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ و﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾(٤)

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٢) سورة ق، الآية: ٣٥.
(٣) سورة البلد، الآية: ١٠.
(٤) سورة محمد، الآية: ١١.

حتى يُخرف فيُهرف بأن الثانية ناسخة للأولى، ولا نسخ في حقل الحقائق الثابتة؟.

كلّا، فإنه ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ في كافة النشآت، ولكنهم تركوا ولايته يوم الدنيا، فهو لا يعاملهم معاملة المولى يوم الأخرى، إذاً فلا مولى لهم: إذ ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾[١].

وهكذا يتجلى المشهد الحي في ساحة الحشر بكل حقائقه ورقائقه الدقائق، وبكل وقائعه ومؤثراته واستجاباته، تعرضه تلك الكلمات الرفرافة القلة، فتبلغ أعماق الأنفس ما لا يبلغه مجرد الإخبار كقصٍّ عما يستقبل.

ومن جولة الحشر وحولته بهولته، حيث تتساقط الدعاوى الباطلة ويتجلى فيه أن الله هو الحق لا سواه، وهو المولى لا سواه، إلى جولة الواقع المعاش، وكل المشاهد الآفاقية والأنفسية التي يشهدونها ليل نهار:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾:

هنا عرض لجوانب هامة من الربوبية الوحيدة لله تعالى في خماسية رزق السماء والأرض، وملك السمع والأبصار وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي وتدبير الأمر كل الأمر في الخلق، وهؤلاء المشركون مصدقون أنها كلها لله ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، أن تتخذوا من عباده له شركاء، والأمر كله لله.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو الرزق كله من أكناف الكون؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢] ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾: ﴿قُلْ هُوَ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥١.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾(١) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾(٢) ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾(٣).

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؟ إنه هو ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾(٤) ومن قبل ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾(٥) ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾(٦) فـــــ ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾(٧) ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(٨): ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فقد اعترفوا بأن الأمر كله لله ثم خرفوا وهرفوا واحترفوا له شركاء ما نزل الله بها من سلطان!.

ذلك، ولأن العبادة في الأكثرية من العابدين تقصد الارتزاق من المعبودين، فحصر الرزق بالله يحصر العبادة فيه، ورزق «السماء» هو كل آت منها من بُعد أو قرب إلى الأرض وجوهاً، كما أن «رزق الأرض» هو كل ناتج منها من الثرى أو ما تحت الثرى براً وبحراً.

ثم الإنسان يستفيد من رزق السماء والأرض بسمعه وبصره الشاملان لسمع القلب وبصره، فهو بما أوتي من وسائل الاستثمار يستثمر الأرض ويستعمرها بمالَها من رزق السماء، والسمع والبصر كرزق السماء والأرض كلها من مُلكة ربنا.

كما وأن إخراج الميت من الحي وإخراج الحي من الميت، في الأحياء والميتات النباتية والحيوانية والإنسانية، وفيها الحياة المادية والروحية ومماتهما، كل ذلك يملكه ربنا.

(١) سورة الملك، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٦.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣.
(٤) سورة السجدة، الآية: ٥.
(٥) سورة يونس، الآية: ٣.
(٦) سورة الرعد، الآية: ٢.
(٧) سورة الروم، الآية: ٤.
(٨) سورة يونس، الآية: ٣١.

وفي جملة مختصرة محتصرة: هو الذي يدبر الأمر لا سواه خلافة أو وكالة أماهيه من تخويلات مزعومة.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله حيث تشركون به من لا يملك منها شيئاً، لا وحتى نفسه فضلاً عن عبيده!.

ذلك، وترى لماذا ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ دون «يخلق» حتى يكون كلٌّ من الحي والميت بديعاً؟.

﴿يُخْرِجُ﴾ تعبير قاصد يدل على أن الكائنات هي مزيجة من الحياة والموت، حياة كامنة في الميت وموت كامن في الحي، وكما الله خلقها كذلك، هو يخرج كلًّا من الآخر.

ففي إخراج النبتة من الحبة والحبة من النبتة، وإخراج الفرخ من البيضة والبيضة من الفرخ، وما إلى ذلك من مختلف أشكال الإخراجات يتبين تقدير القدير العليم.

ومثلاً ماثلاً بين أيدينا نحن أنفسنا حيث يخرج الله الروح من أبداننا الميتة كما يقول الله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1] فالروح الكامنة في الجنين ليس ليخرج من حصالة أجزائه وأعضائه إلّا بإنشاء أحسن الخالقين، فكما المادة تتبدل بغيار ذراتها وجزئياتها أصلاً أو فصلاً، كذلك حياةً وموتاً، فالحياة الكامنة في أصول المواد تخرج بإذن الله.

ذلك، فأين كانت تكمن السنبلة في الحبة، وأين فيها اللب واللحاء والساق السامقة والعراجين والألياف والطعم والنكهة واللون والرائحة والبلح والتمر والرطب والبسر؟.

وأين كان الفرخ في البيضة بعظمه ولحمه وزغبه وريشه ولونه وشياته ورفرفاته وأصواته؟.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

وأين كان الكائن الإنساني في البويضة، في النطفة الجرثومية، بملامحه وسماته المنقولة عن وراثات موغلة في الماضي، المتشعبة المنابع والنواحي؟ وأين كانت نبرات الصوت ولحظات العين ولفتات الجيد واستعدادات الأعصاب، ووراثات الجنس والعائلة والوالدين؟ وأين وأين كل هذه المخرجات الحية من الميتات والميتة من الأحياء بتفاصيلها ومحاصيلها؟.

نحن - على التقدم العلمي البارع - لا نستطيع أن نخرج أياً من هذه الإخراجات اللّهم إلّا أن نكون أسباباً قدرها الله للبعض منها كاللقاح حيث ينتج الحمل، والمخرج على أية حال هو الله تعالى شأنه العزيز.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

«ذلكم» البعيد الممتد عن معرفتكم حقاً، القريب بآياته حقاً، هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ دون غير الله من أرباب اتخذتموها له شركاء ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أياً كان بعده وإيان ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ وتُخرفون فتُهرفون وتُجرفون؟.

ذلك، فكل شيءٍ، وكل قول أو فعل أو نية أو علم وما أشبه، هو بين حق وضلال عن الحق، فلا عوانَ بينهما مهما كان الحق درجات والضلال دركات.

فالله الحق حق وغيره ضلال عن ذلك الحق، إلّا من هداه فهو على هامش الحق قدر نصيبه منه، وكل ما شك في حقه وضلاله فليعرف حقه وضلاله من إله الحق فإنه الحق المطلق المطَبق.

فليس الحق زاوية ثالثة من هندسة الكون حتى يقاس حتى الله بذلك الحق، بل هو بنفسه حق، والمدار الأصيل لكل حق نسبي سواه، فالحق الثابت الذي لا عِوَج له ولا حِوَل عنه، والحق الصدق الذي لا ضلال فيه ولا كذب، والحق في كل حقوله الحقة الحقيقية الطليقة هو الله الحق لا سواه.

ذلك ومن الناحية الأدبية قد يكون ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وصفاً لـ ﴿ٱللَّهُ﴾ كما يصف ﴿رَبُّكُمُ﴾ فـ «الله الحق هو ربكم الحق» والإله الباطل ليس ربكم، وهم يجعلون الله خالقاً وغيره أرباباً، وهذا خلع لساحة الألوهية عن الحق الحقيق بالربوبية.

ثم ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الأول هو الحق الأول، والحق الثاني يشمل الأول والثاني، فماذا بعد الله الحق ربكم الحق إلا آلهة الضلال، وماذا بعد طليق الحق - من الحق الأول إلى سائر الحق - إلّا الضلال.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ حيث تصرفكم الأهواء الغاوية الهاوية منكم وممن سواكم من شياطين الجن والإنس، ولأن «أنّى» سؤال عن الزمان فقد يشمل كل مكان وأياً كان من مُنصَرفٍ إليه، فأين وأيان وإلى مَ تصرفون عن الله الحق إلا إلى الضلال؟.

ولأن ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ سؤال تنديد شديد، فالصارف لهم عن الحق - إذاً - ليس هو الله، بل هو كل صارف آفاقي وأنفسي لا يصرفها الله حين ينصرف بها المنصرفون حتى لا يكون هناك جبر وتسيير على الهدى وترك الضلال، كما ليس على ترك الهدى وفعل الضلال، فلا يعني مثل ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(١) إلا مشيئة المضلّلين والمهتدين، وإلّا مشيئة الله بما يشاؤه هؤلاء وهؤلاء كما تقتضيه الحكمة العالية الربانية، فلكلٍّ نصيبه من مشيئة الله بما يختاره كلٌّ من المضلّل والمهتدي فـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى. . .﴾(٢) ولغيرهم ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٣) فـ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(٤).

(١) سورة النحل، الآية: ٩٣.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٣) سورة الصف، الآية: ٥.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.

ويمثل ذلك الانصراف عن الحق إلى الضلال بصوارف، وهم يعترفون بواضح الحق ناكرين نتائجه اللازمة، قدر الله في ناموس سنته أن هؤلاء الذين ينصرفون عن الفطرة والعقلية السليمة لا يؤمنون:

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

وهذه الكلمة هي كلمة العذاب للأخرى، ومعها العذاب للأولى ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلأنهم لا يؤمنون حقت عليهم كلمة العذاب، ولأنهم فسقوا حقت كلمة ربك أنهم لا يؤمنون.

ف ﴿أَنَّهُمْ﴾ ذات وجهين هذين، محذوفاً عنها اللام تعليلاً لـ ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾[1] وغير محذوف فـ ﴿أَنَّهُمْ﴾ بدل لـ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يوضحها، فالكلمتان - إذاً - معنيتان.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

تلك هي بداية الخلق وأصل التدبير حيث تعترفون أنهما لله ربكم الحق، وقضيته أن تعبدوه مخلصين له الدين، ثم من ناحية أخرى هي عود الخلق يوم الميعاد الحساب هي الأخرى الخاصة بالله ربكم الحق، ف ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ بحذافيره وتفاصيله ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ولأنهم ينكرون المعاد بعد إقرارهم بالمبدإ، فهنا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لا سواه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ حيث تؤخذون بكل إفك وزور إلى اتخاذ شركاء لله وكأنها آلهة من دون الله.

ذلك، ومن ناحية أخرى ثالثة بعد انحصار البدء والإعادة بالله وانحصارهما عما سواه:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧١.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)﴾:

هنا الفارق بين ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ و﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أن «إلى» للغاية و«ل» للنهاية، حيث الله يوصل من يشاء الحق، فله هدايتان اثنتان، أولاهما الهداية إلى الحق ببيناته وهي الدلالة إليه، وأخراهما الإيصال إليه مَن هو مهتد إليه فـ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[(١)].

إذاً فـ ﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ مختصة بالله، و﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ تعممه إلى سواه دلالة لطريق الحق، وهم كل من يحمل الرسالة الربانية من معصومين وسائر الربانيين.

وذلك السؤال المؤنب مطروح أمام كل هؤلاء الذين يتبعون ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ ويتركون الهداة إلى الحق بإذنه، المهتدين به: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا...﴾[(٢)].

من مشركين يتركون رب العالمين، عاكفين على ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لو كان لهم مجال الهدى كالعقلاء من المعبودين.

ومن تاركين رسول الحق إلى مَن سواه من الخاطئين غير المهتدين.

ومن تاركين أئمة الهدى عليهم السلام بعده صلى الله عليه وآله وسلم، متخذين الخاطئين لإمامة الأمة[(٣)] ولقد كثرت الأخطاء مَن الخلفاء فهداهم علي عليه السلام إلى

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.
(٣) نور الثقلين ٢: ٣٠٢ في روضة الكافي بسند عن عبد الرحمن بن مسلمة الجويري قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: يوبخونا ويكذبونا أنا نقول: إن صيحتين تكونان يقولون: من أين تعرف المحقة من المبطلة إذا كانتا؟ قال: فماذا تردون عليهم؟ قلت: ما نرد عليهم شيئاً،=

الصواب[1] لحد قال الخليفة عمر: لولا علي لهلك عمر. ومن سائر هؤلاء الذين يقدمون المفضول على الفاضل في أي حقل من حقول التفضيل.

= قال: قولوا يصدق بها إذا كانت من يؤمن بها من قبل إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿أَفَمَن يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

وفيه عن كشف المحجة لابن طاوس عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حديث طويل وفيه يقول: اسمعوا قولي يهدكم الله إذا قلت، وأطيعوا أمري إذا أمرت، فوالله لئن أطعتموني لا تغووا، وإن عصيتموني لا ترشدوا، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ...﴾ [يونس: ٣٥].

وفي ملحقات إحقاق الحق (١٤ : ٥٨٨ روى الحسكاني في شواهد التنزيل (١ : ٢٦٥) بسند عن ابن عباس قال: اختصم قوم إلى النبي ﷺ فأمر بعض أصحابه أن يحكم بينهم فحكم فلم يرضوا به فأمر علياً أن يحكم بينهم فحكم بينهم فرضوا به فقال لهم بعض المنافقين: حكم عليكم فلان فلم ترضوا به وحكم عليكم علي فرضيتم به بئس القوم أنتم فأنزل الله تعالى في علي ﴿أَفَمَن يَهْدِيَ...﴾ [يونس: ٣٥] وذلك أن علياً كان يوفق لحقيقة القضاء من غير أن يعلَّم، وبسند آخر عن أبي جعفر قال: أمر عمر علياً أن يقضي بين رجلين فقضى بينهما فقال الذي قضى عليه: هذا الذي يقضي بيننا؟ وكأنه ازدرى علياً فأخذ عمر بتلبيبه فقال: ويلك وما تدري من هذا؟ هذا علي بن أبي طالب هذا مولاي ومولى كلّ مؤمن فمن لم يكن مولاه فليس بمؤمن.

(١) المصدر في الكافي بسند متصل عن أبي بصير عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: لقد قضى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بقضية ما قضى بها أحد كان قبله وكانت أول قضية قضى بها بعد رسول الله ﷺ وذلك أنه لما قبض رسول الله ﷺ وأفضي الأمر إلى أبي بكر أتى رجل قد شرب الخمر فقال له أبو بكر: أشربت الخمر؟ فقال الرجل: نعم فقال: ولِمَ شربتها وهي محرمة؟ فقال: إنني أسلمت ومنزلي بين ظهراني قوم يشربون الخمر ويستحلونها ولو أعلم أنه حرام اجتنبتها، قال فالتفت أبو بكر إلى عمر فقال: ما تقول يا أبا حفص في أمر هذا الرجل؟ فقال: معضلة وأبو الحسن لها، فقال أبو بكر: يا غلام ادع لنا علياً، فقال عمر: بل يؤتى الحكم في منزله فأتوه ومعه سلمان الفارسي فأخبروه بقضية الرجل فاقتص عليه قصته فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبي بكر ابعث من يدور به على مجالس المهاجرين والأنصار فمن كان تلا عليه آية التحريم فليشهد عليه، ففعل أبو بكر ما قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فلم يشهد عليه أحد فخلى سبيله فقال سلمان لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ: لقد أرشدتهم فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنما أردت أجدد تأكيد هذه الآية فيّ وفيهم ﴿أَفَمَن يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] وفيه عن تفسير العياشي عن عمرو بن القاسم قال سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ وذكر أصحاب النبي ﷺ ثم قرأ هذه الآية فقلنا من هو أصلحك الله؟ فقال: بلغنا أن ذلك علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفي عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ في باب ما جاء عن الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصف الإمامة والإمام وذكر فضائل الإمام ورتبته حديث طويل يقول فيه الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن الأنبياء والأئمة يوفقهم =

فالأصل في الاتِّباع هو اتباع المهتدي الهادي إلى الحق وللحق دون ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ وهو في الكتب القرآن العظيم، وفي سائر الدُّعاة المعصومون الرساليون رسلاً وخلفاء لهم معصومون، ثم في زمن غياب العصمة الظاهرة هو القرآن بمَن يتبناه ويفتي به من الربانيين الذين هم دون العصمة الربانية، قاصرين فيما يخطئون غير مقصرين: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾[1].

ذلك ورأس الزاوية هنا في ﴿مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ هو الله تعالى شأنه العزيز إذ يهدي ولا يهتدي وهم قد يهتدون كالصالحين وقد ليسوا ليهتدوا كالطالحين وغير ذوي العقول والشعور، ثم الذين يهدون بما اهتدوا يتبع الأهدى منهم، فهم على هامش الهداية الطليقة الربانية، وفي غيار ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ الخاصة بالله إلى ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ لمحة للشمول، فالهادي إلى الحق لا بد وأن يكون هادياً بذاته وهو الله، أم مهتدياً قبل أن يهدي كسائر المهتدين على درجاتهم، حيث يحق لهم أن يهدوا قدر ما اهتدوا، وأما الذي لا يهدي إلا أن يُهدى فليس له أن يهدي قبل أن يُهدى فيصبح أهدى من هاديه أم مثله في الهدى، والمصداق الثالث لـ ﴿مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ هو علي والأئمة من ولده المعصومين عليهم السلام وكما تواتر عنه صلى الله عليه وآله وسلم مثل قوله: «علي مع الحق والحق مع علي»[2].

= الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم فيكون علمهم فوق كلّ علم أهل زمانهم في قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ...﴾ [يونس: ٣٥].

وفيه عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: فأما من يهدي إلى الحق فهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآل محمد عليهم السلام بعده وأما ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس: ٣٥] فهو من خالف من قريش وغيرهم أهل بيته.

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٢) ملحقات إحقاق الحق ٥: ٢٨، ٤٣، ٦٢٣ - ٦٣٨ و١٦: ٣٨٤ - ٣٩٧، وفيه ٥: ٧٧ «بل =

وهذه الآية من عساكر البراهين الدالة على فرض اتباع الأهدى فالأهدى، فرأس الزاوية هو الحق المطلق الهادي إلى حقه وهو نفسه الحق، دون مَن دون الله الذين لا يَهدُّون إلا أن يُهدوَا، فضلاً عمن لا يهدِّي وإن هدي.

وهنا الهداية تعم التكوينية والتشريعية أماهيه، فإن أزمة الأمور طراً بيده، والكل مستمدة من مدده.

ولأن الله هو الحق لا سواه فهو - إذاً - يهدي للحق، لا إلى الحق إلا بتأويل، ثم زاوية تالية هي الزاوية الرسالية لهندسة الهدى الحقة إلى الحق، إذ ليس الله ليهدي إلى شرعة إلا بوسائط رسله، فهم يهدون إلى الحق - لا للحق - بما هدوا بالوحي.

ومن ثم زاوية ثالثة هي خلافة العصمة الرسالية ما حضر منهم من حضر.

ثم زاوية رابعة هم ربانيو الأمة الأعلم الأتقى منهم فالأتقى.

فأما المفضول في هدى الحق فضلاً عمن لا يهدِّي وإن هدي، فلا يحق اتباعهم في سبيل الحق.

ذلك، وكل هذه المراحل هي بإذن الله وكما حده الله انتجاباً رسولياً أو

= هو مع الحق والحق معه» وفيه ٤ : ٢٧ : «إن علياً مع الحق والحق معه كيفما دار دار به» وفيه: «اللّهم أدر الحق معه» (٤ : ٤٤١ و٦ : ٢٩٠ - ٢٩١، ٣٠٣ وج ١٦ : ٣٩٣ - ٣٩٦ و١٧ : ١٣٥ - ١٣٦ و٢٠ : ٥٨٤ - ٥٨٥ و٢١ : ٨٨، وفيه: «تكون بين الناس فرقة واختلاف فيكون هذا وأصحابه على الحق - يعني علياً عليه السلام» (٥ : ٦٣٥، و١٧ : ١٦٩ و٢١ : ٣٩٦.
وبالنسبة للأئمة كلهم قوله: «فإنهم مع الحق والحق لا يفارقهم ولا يفارقونه» ٩ : ٤٧٩ و«لا يزايلوه ولا يزايلهم» ٥ : ٣٦ و«معنا راية الحق من تبعها لحق ومن تأخر عنها غرق» ٩ : ٤٧٦، فقال عمر: لا بل الملك عقيم والحق لابن أبي طالب ٤ : ٨١، و«هو أحق بالنبي من جبرئيل» ٦ : ٤٩٧ و١٧ : ٣٤ و«إن لعلي حقاً لا يعلمه إلا الله وأنا» ٥ : ١٢١.

رسالياً، بالنص الخاص، أم خيرة ربانية انتجاباً للأهدى فالأهدى في سبيل الحق.

وهكذا يكون دور كتب الهدى، فالقرآن - إذاً - يحتل القمة العليا في حقل الهدى، أفيُترك القرآن الهادي إلى الحق المطلق، إلى الحديث الذي لا يهدِّي إلا أن يُهدى، ولا سبيل في تصديقه بهداه إلّا وَفقه للقرآن.

ذلك، فإذا تحقق الحق إمرةً وسواها في أهله فالمفروض أن يُتبع، وكما في خطبة للإمام الحق علي أمير المؤمنين عليه السلام: «أما بعد فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقاً بولاية أمركم، ولكم عليّ من الحق مثل الذي لي عليكم، والحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحدٍ أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه، لقدرته على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءَهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهله»[1].

وفصل القول حول الآية أن الاتباع مخصوص لمن هو هادٍ لا يحتاج إلى الاهتداء، أم هو مهتدٍ فيهدي من ليس على هداه، ففي مسرح الهدى الطليقة الذاتية «من يهدي للحق وإلى الحق» هو الله تعالى شأنه ليس إلّا هو، وفي مسرح طليق الهدى فالحاصل عليها كأفضلها يتَّبع، وغير الحاصل أو غير الأفضل لا يُتَّبع، وهذه ضابطة ثابتة في كل الأعراف العاقلة أن المتَّبع لا بد وأن يتبع الأهدى فالأهدى، فإذا وجد الهادي الطليق في هداه فهو المتَّبع ليس إلّا، وإلّا فمن دونه وهو فوق سائر الهادين.

فهذه الآية هي من عساكر البراهين القرآنية الدالة على وجوب تقليد

(١) (الخطبة ٢٠٧).

الأعلم الأتقى فإنهما الهدى اللائقة بالاتباع، ثم الأتقى العالم أمام التقى الأعلم، حيث الهدى في أصلها في حقل التقى.

ثم «من لا يهدي إلَّا أن يُهدى» هو منطبق تماماً على من يهتدى حين يُهدى، ثم على من لا يهتدى وإن يهدَ فإن فيه أصل قبول الهدى مهما يرفضها، ثم من لا يمكن أن يهدي اللَّهم إلّا أن يخلق فيه قابلية الهدى، وهي الجمادات أو الأشجار المعبودة من دون الله وسواها، أو يقال إن الهدى هنا عامة تشمل الخلق كله إذ ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] فالخلق ككل ليس ليهدِّي إلّا أن يُهدى، والمهدي منه بين من يهدي إلى الحق ومن لا يهدي إلى حق أو باطل أم يهدي إلى ضلال، فهل إن الله الذي يهدي ولا يهدِّي أحق أن يتبع، أم الخلق الذي لا يهدِّي إلَّا أن يهدى مهما كان من الهداة، فضلاً عن الضالين أو الذين لا يهدون ولا يضلون.

إذاً فربنا هو الذي يهدي كأصل، ثم الذين يهدون بأمره قدر ما اهتدوا، الأهدى منهم فالأهدى.

وهنا ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ تعني غير الصالحين من الملائكة والنبيين إذ هم يهدون إلى الحق بإذن الحق، وحتى إذا شملهم إلى الطواغيت والأصنام فهم ممن لا يهدّي إلا أن يُهدى، فهل يترك هاديهم - وهو الله - إليهم وهم المهتدون بالله.

ولو أنهم اتبعوا الملائكة والنبيين كوسطاء بينهم وبين الله فقد اتبعوا الله، ولكنهم وهم يعبدونهم بين سائر المعبودين من دون الله، إنهم ليسوا - إذاً - يُتَّبعون أصالة، إذ ليسوا ليهدُّوا إلّا أن يُهدوا، والله هو الهادي غير المهدي، فهو الأصل في الهدى، فهو - إذاً - الأصل في الاتباع ليس إلا.

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ﴾ تكويناً وتشريعاً كما الله الذي ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] ففي حقل التكوين أن يضع نظاماً كونياً، وفي التشريع أن يرسل رسلاً وينزل كتباً توقظ غفلان القلوب وتهديهم إلى الحق المُرام، وحق الملائكة والنبيين إذ هم مهتدون بما هداهم الله في عمالة التكوين وحمل الشرعة إلى الرسل ولم يكونوا ليهدوا أنفسهم فضلاً عمن سواهم.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بواجب أو راجح الاتباع لغير الله طاعةً وعبادة أماهيه من شؤونه؟.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾:

هنا آيات عدة تندد بالظنون، وهي الاعتقادات غير المسنودة إلى علم قاطع من قاطع الفطرة والعقلية السليمة، أم قاطع الكتاب والسنة.

فالأصل عقلياً وشرعياً في كل إقبال وقبول هو العلم الهادي إلى سواء السبيل، في مثلث الفطرة والعقلية السليمة والشرعة الربانية.

وقد يعبر عن كل المحاصيل لهذه الثلاث ولا سيما الأخيرة بالعلم، وتقابلها محاصيل من غيرها حيث يعبر عنها بالظن مهما كان علماً.

فإنما الحجة المقبولة، القابلة للاستناد إليها في حقل الشرعة الربانية، إنما هيه محاصيل صالحة من المستندات الشرعية، دون ما سواها مهما كانت علمية مصدقة عند كافة الأعراف البشرية.

ولأن الآيات التي تندد باتباع الظن، وأنه لا يغني من الحق شيئاً، لأنها تحمل موضوع الظن، وهو كبرهان لتزييفه بنفسه، فقد لا تقبل الاختصاص بظن دون ظن، رغم ما خيّل اختصاصه بالظن في حقول الأصول العقائدية،

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

مهما وردت الكثيرة من آيات الظن في تلك الحقول، ولكن منها التي تعمها وسواها كـ ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[١] مما يدل على أن الظن بالكتاب - الحاوي لكلا الأصول والفروع - إنه مرفوض مرضوض، فإنما العلم هو الحجة لا سواه.

ذلك، إضافة إلى أن المحتاج إليه في الكتاب كأصل ليس إلّا الفروع، وأما الأصول العقيدية فلها حجج الفطرة والعقلية السليمة، مهما تتبلور بحجج الكتاب.

ذلك، وكما منها كالخاصة بالفروع كـ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ. . .﴾[٢] بعد كثير من المحرمات الكبيرة الفرعية.

ذلك، فحجية ظن أو شك أو احتمال، مسنودة إلى علم، هي نفسها حجية العلم، فالأصول العملية المسنودة إلى قاطع العلم، هي أصول علمية مهما لم تفد حتى الظن كما الاستصحاب والبراءة وما أشبه لضرورات موضوعية شخصية لا سبيل إليها بطليق العلم قضية قصور المكلفين.

وتقابلها الضوابط غير المسنودة إلى علم مهما حصل بها علم، كالإجماعات والشهرات والقياسات والاستحسانات والاستصلاحات، إما هو آت من غير المصادر العلمية المقبولة في شرعة الله.

فحين نستند إلى أحكام الأصول والأدلة غير العلمية، المسنودة إلى علم أو أثارة من علم، لسنا لنستند إلى أحكام غير مسنودة إلى الكتاب والسنة، كغير الكتاب والسنة من مراجع متخيلة.

وهنا على ضوء الآيات الناهية عن العمل والإفتاء بغير علم، روايات متواترة بنفس النمط وإليكم نماذج منها:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

١ - خطبنا أمير المؤمنين عليه السلام على منبر له من لِبن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس اتقوا الله ولا تفتوا الناس بما لا تعلمون، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال قولاً آل منه إلى غيره، وقال قولاً وُضع على غير موضعه وكُذِّب عليه، فقام إليه علقمة وعبيدة السلماني فقالا: يا أمير المؤمنين فماذا نصنع بما قد خُبِّرنا في هذه الصحف عن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: سلا عن ذلك علماء آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم [(١)].

٢ - «في وصيته عليه السلام للحسن عليه السلام: «لا تقل ما لا تعلم وإن قلّ ما تعلم».

٣ - وقال عليه السلام: «لو سكت من لا يعلم سقط الاختلاف»[(٢)].

٤ - وعن الباقر عليه السلام سئل: ما حق الله على العباد؟ قال: «أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند ما لا يعلمون»[(٣)].

٥ - وعنه عليه السلام قال: «لو أن العباد إذا جهلوا وقفوا لم يجحدوا ولم يكفروا»[(٤)].

٦ - وعنه عليه السلام قال: «من أفتى الناس بغير علم ولا هدى من الله لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ولحقه وزر من عمل بفتياه»[(٥)].

٧ - عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى عيَّر عباده بآيتين من كتابه: ألا يقولوا حتى يعلموا، ولا يردوا ما لم يعلموا، قال الله عز وجل:

---

(١) العوالم (٢ - ٣: ٤١٨) عن كتاب عاصم بن حميد عن خالد بن راشد عن مولى لعبيدة بن السلماني قال: . .

(٢) المصدر (٤٢٠) عن كنز الكراجكي ١٤٧.

(٣) المصدر (٤٢٠) عن أمالي الصدوق (٣٤٣).

(٤) المصدر (٤٢٠) عن المحاسن للبرقي.

(٥) المصدر عن المحاسن.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾(١) وقال ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾(٢).

٨ - عن أبي عبد الله عليه السلام: «إياك وخصلتين فيهما هلك من هلك، إياك أن تفتي الناس برأيك، أو تدين بما لا تعلم»(٣).

٩ - وعنه عليه السلام: «إن من حقيقة الإيمان أن تؤثر الحق وإن ضرك على الباطل وإن نفعك، وأن لا يجوز منطقك علمك»(٤).

١٠ - وعنه عليه السلام قال: «إنه لا يسعكم فيما ينزل بكم مما لا تعلمون إلا الكف عنه والتثبت فيه والرد إلى أئمة المسلمين حتى يعرّفوكم فيه الحق ويحملوكم فيه على القصد قال الله عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٥)»(٦).

١١ - وعن علي بن الحسين عليه السلام قال: ليس لك أن تقعد مع من شئت لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٧) وليس لك أن تتكلم بما شئت لأن الله عز وجل قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾(٨) ولأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو صمت فسلم، وليس لك أن تسمع ما شئت لأن الله عز وجل يقول:

(١) المصدر ٤٢٣ عن أمالي الصدوق (٣٤٣).
(٢) سورة يونس، الآية: ٣٩.
(٣) (٤٢٤) عن الخصال (٥٢).
(٤) المصدر عن الخصال ٥٣.
(٥) سورة النحل، الآية: ٤٣.
(٦) المصدر (٤٢٦) عن المحاسن ٢١٦ / ١ ح ١٠٤.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.
(٨) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[١] [٢].

ذلك، والأسوة الطليقة برسول الله تقتضي لزاماً ألا نعدو الكتاب والسنة فيما نفتي ونعمل به، كما والأئمة عليهم السلام ما كانوا يفتون إلا بالكتاب والسنة: فحين يُسأل الإمام الصادق عليه السلام: بأي شيء يفتي الإمام؟ يقول: بالكتاب. فما لم يكن في الكتاب؟ يقول: بالسنة، فما لم يكن في الكتاب والسنة؟ يقول: ليس شيء إلا في الكتاب والسنة، فيكرّر عليه، فيقول: يسدّد ويوفق، فأما ما تظن فلا»[٣] يعني أن يفتي من غير سناد إلى كتاب أو سنة.

وكما عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يا جابر! إنا لو حدثناكم برأينا وهوانا لكنّا من الهالكين، ولكنا نحدثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم»[٤].

وعنه عليه السلام قال: «لو أنا حدثنا برأينا ضللنا كما ضل من كان قبلنا ولكننا حدثنا بينة من ربنا بينها لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم فبيّنه لنا»[٥].

وعنه عليه السلام قال: «لو كنا نفتي برأينا وهوانا لكنا من الهالكين، نفتيهم بآثار من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصول علم عندنا نتوارثها كابراً عن كابر، نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم»[٦].

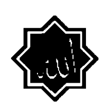
وعنه عليه السلام: «إنا على بينة من ربنا بينها لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم فبينها نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لنا، فلولا ذلك كنا كهؤلاء الناس»[٧].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.
(٢) المصدر (٤٢٧) عن العلل ٦٠٥ ح ٨٠.
(٣) العوالم (٢ - ٣: ٤٨٩) عن بصائر الدرجات ٣٨٧ ح ١.
(٤) المصدر ٤٨٦ عن الاختصاص ص ٢٧٤ والبصائر ٢٩٩ ح ١.
(٥) المصدر عن البصائر ٢٩٩ ح ٢.
(٦) المصدر أنه عليه السلام قال: يا جابر...
(٧) المصدر عن الاختصاص ص ٢٧٤ والبصائر ٣٠١،

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ [(١)].

وعن أبي الحسن عليه السلام قيل له: «كل شيء تقول في كتاب الله وسنته؟ أو تقولون فيه برأيكم؟ قال: بل كل شيء نقوله في كتاب الله وسنته»[(٢)].



(١) المصدر عن منية المريد ١٩٤.

(٢) المصدر ٤٩ عن الاختصاص ٢٧٤ والبصائر ٣٠١.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨) قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ

ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿وَمَا كَانَ﴾ هنا - وأياً كان - تضرب السلب المؤكد إلى أعماق الماضي وغيره من مثلث الزمان، فـ ﴿وَمَا كَانَ﴾ سلب لإمكانية هذه الكينونة للقرآن إذ يستحيل هكذا كلام منضد من الحق الطليق من غير الله، لأن من سوى الله أياً كانوا وأيان هم لا يحيطون علماً بكل شيء، والقرآن يحمل هذه الحيطة المطلقة المطبقة دون أي نقص أو إمكانية نقص في أدب اللفظ أو حَدَب المعنى.

فكما أنه ما كان الله ليصبح مألوهاً، كذلك ما كان كلام الله: القرآن ليصبح كلام مألوه، وهذا من القضايا التي قياساتها معها، فالقرآن هو بنفسه برهان لا مرد له على ربانية مصدره وصدوره دون حاجة إلى برهان سواه. فـ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾(1) حيث ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾(2).

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٦.

فالله نفسه هو الذي يشهد بكتابه على رسالته الربانية، فإن علمه البارع وحكمته البالغة باهرة في آياته، ظاهرة في بيناته، فلا بينة أبين ولا برهان أمتن على الله ورسالاته من هذا القرآن العظيم والتبيان الحكيم، وكأن الله جاء بنفسه إلى المكلفين بهذا القرآن وكما ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١) إذ تعني جئنا إليهم بكتاب، فمجيء الكتاب كأنه مجيء الله، فلو أمكن مجيء الله إليهم بنفسه سبحانه لما زادهم حجة على حجة الكتاب إذ جمع فيه كافة الحجج البالغة الدالة على الحقائق المعنية في حقول المكلفين.

فـ ﴿وَمَا كَانَ﴾ هنا بالنسبة للقرآن تنفي شأنية فريته من دون الله وإمكانيتها، دون فعليته فقط، فليس بالإمكان في مثلث الزمان أن يفترى هذا القرآن من دون الله لميزته الربانية المتميزة عن الميزات الخَلقية، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتاب لوحدة المصدر وتشابه الصادر قرآناً بغير قرآن مهما يربو القرآن على سواه في ربانية المصدر والصدور.

ولماذا ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو بعد كل كتاب وخلفه، حيث القرآن ناظر إليها ناظرة الهيمنة ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ...﴾(٢).

فليس القرآن كسائر الكتب الخلقية مدبراً عما سلفه من كتاب، ناقضاً له، بل هو مصدق للوحي كله قبله، ومكمل له ومهيمن حفيظ عليه عمَّا حرف ودُسَّ فيه بأيدٍ أثمية لئيمة.

ثم ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الحكيم عند الله، والحكيم الذي أنزله على محمد ﷺ ليلة القدر، فإنه ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٢.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

خَبِيرٍ﴾[1] فكما الكتاب الحكيم هو عنده ومنه كذلك ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الكتاب من رب العالمين، وتفصيل الكتاب من رب العالمين، وتصديق الذي بين يديه من رب العالمين.

وقد يعني ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بما عنى، طليق الكتاب النازل على رسل الله ومنه النازل على محمد ﷺ ليلة القدر، فالقرآن المهيمن عليها يحمل تفصيلاً لها، تفصيلاً لمحكم القرآن عن إحكامه، وتفصيلاً لما أبهم من الوحي قبله، وتفصيلاً لحقه عن الباطل المدمج فيه، وتفصيلاً لثابته عن منسوخه، إذاً فالقرآن يحمل حصيلاً من ذلك التفصيل التحصيل، ليس بعده تفصيل ولا تحصيل، اللّهم إلّا ما تشرحه السنة المحمدية ﷺ دونما أي نسخ أو تبديل.

ذلك، وكيف «ما كان أن يفترى» وقد افتري عليه أنه من دون الله وليس من الله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[2]؟.

﴿وَمَا كَانَ﴾ هنا مثل ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا تنفي فرية الافتراء، وإنما تنفي أهلية الفرية فيه، فالذين يفترون عليه أنه مفترى هم خارجون عن حقل العقل والفطرة الإنسانية والمعرفة الكتابية، فليس الافتراء هو المنفي، بل المنفي هو جوازه وإمكانيته عقلياً، طالما يتقول مجاهيل أنه مفترى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[3] وهذه هي قضية الحفاظ على

---

(١) سورة هود، الآية: ١.

(٢) سورة هود، الآية: ١٣.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٤.

صالح الوحي والذود عن ساحته، الطالحَ المدعى، حيث السكوت أمام الفرية إما جهالة أو عجز أم خيانة تعالى الله عنها علواً كبيراً: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1] فمن هذا الذي يحجز عن أخذي باليمين وقطعي بالوتين؟ وإجرام الافتراء ليس إلّا علي وها أنا بريءٌ منه كما ترونني: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾[2] ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3] ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ...﴾[4]!.

فما الفرية على القرآن أنه فرية على الله إلا فرية على الله أنه جاهل أو عاجز أو بخيل أن يذود عن ساحة وحيه، ومفترىً عليه، وحتى المشرك بالله ليس ليقوله على الله فأنى تؤفكون؟.

وهنا حجة تعجيزية على قولة الفرية ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ وكما في البقرة ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[5] لا فحسب أنتم العرب العرباء بل ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه مفترى على الله.

ذلك، فتراه - بعدُ - تفصيلاً للكتاب المقدس - على حد تعبير الحداد الشداد في تقولاته[6] ويكأن «الكتاب» في عرف القرآن يختص بذلك الكتاب

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٣٥.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٨.
(٤) سورة السجدة، الآية: ٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣.
(٦) يقول في كتابه «القرآن والكتاب» (٦٦٢): «مهما يكن من شيء فلا شك أن القرآن تفصيل للكتاب المقدس للقول المكرر بأنه تفصيل الكتاب وتصديقه فهل يفصل النبي كتاباً لا يعرفه؟».

دون القرآن نفسه بمراتبه السابقة، في علم الله، وفي نزوله ليلة القدر بصورة محكمة وما أشبه؟!.

وهنا النقطة الرئيسية في انحراف الحداد وانهرافه هي اعتباره لفظة: «الكتاب» أنه الكتاب المقدس، وإنما مثله في هذه الدعوى مَثَل من أنس بكتاب خاص بكل مراس واكتراس، فكلما يسمع لفظة «الكتاب» من أي كتاب، يحسبه كتابه الخاص، مشية عشواء حمقاء عمياء: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

وهل يستسيغ الحداد تفسير لفظة «الكتاب» في التوراة أنها تعني صحف إبراهيم، لأنه كتاب سبقه؟.

و«الكتاب» المذكور في القرآن في عشرات من آياته تعني - كأصل - القرآن ولا سيما، فيما يصرح بنزوله على رسول القرآن، ثم وتعني سائر الكتاب بقرائن تعينه وتعنيه.

فقد تعني كل كتاب ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[2].

وأخرى كتاباً خاصاً ك ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ...﴾[3].

وثالثة ما فرضه الله في القرآن: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[4].

ورابعة كتاب العدة الرجعية: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾[5] فهل ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ هنا أيضاً - كما يهواه الحداد - هو التوراة، فلا يجوز نكاح المعتدات حتى يبلغ التوراة أجله؟!.

---

(١) سورة الملك، الآية: ٢٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٥٣.
(٤) سورة النساء، الآية: ٢٤.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

ولو كان القرآن تفصيلاً لـ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ التوراة دون وحي فذٍ، إذاً فدعوى وحيه الفذّ فرية على الله ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ . . .﴾؟!.

﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ وترى كيف تكون سورة مثله؟ وليس القرآن سورة، بل هو مجموعة سور!.

«سورة» كأصل من سور البلد، وهو الجدار المحيط به الذي يفصله عما سواه، فهي في القرآن مجموعة آيات مفصولة عما سواها من آيات، فصلاً بالبسملة كما في السورة المصطلحة، ومما تعنيها ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[1].

أم فصلاً في عناية خاصة من مجموعة آيات غير مفصولة بالبسملة كما هنا ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ إذ تعني مجموعة آيات مثل القرآن كله، فالقرآن إذاً سورة واحدة، وكما في ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[2] حيث القرآن كله سورة من الوحي كسائر سور الوحي، إذ لكل وحي سور يخصه، ولا سيما لسور القرآن في حقل الفصاحة والبلاغة لفظياً وفي كافة الحقول المعنوية.

أم مجموعة هي قسم من القرآن غير مفصولة بالبسملة كما تعنيها ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾[3] و﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾[4].

وقد يحتملهما سائر السور المذكورة في القرآن كـ ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن

---

(١) سورة النور، الآية: ١.
(٢) سورة هود، الآية: ١٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٦.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٦٤.

مِّثْلِهِۦ﴾[(١)] ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾[(٢)] ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾[(٣)] ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ . . .﴾[(٤)].

إذاً فالسورة مصطلحة في القرآن لمجموعات ثلاث: القرآن كله، المجموعات المفصولة بالبسملات، المجموعات غيرهما وهي الآيات المرتبطات ببعضها البعض في عناية خاصة.

ولأن أقل سورة مفصولة بالبسملة هي آيات أربع كالكوثر، فهي أقل المتحدى به في ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[(٥)] - أو - مثله ثم كل آية مستقلة المعنى هي من المتحدى بها لكونها آية وعلامة لربانية صدورها ومصدرها.

والقرآن يتحدى بسورة، وهي أية مجموعة منه ومنها نفسه كله، أم عشر مجموعات مفصولات بالبسملات وسواها، أم مجموعة واحدة أقلها آيتان، بل وآية واحدة لمكان كونها آية، ما تعني معنى مستقلاً كالبسملة وما أشبه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

إنهم يصدقون صامدين ما ليس لهم به من سلطان، ثم لا يصدقون ما يصدقه كل سلطان، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٧.
(٤) سورة محمد، الآية: ٢٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[1].

إنهم ﴿لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ أنه من علم الله، إذ لم يتدبروا فيه حقه حتى يعرفوا معناه ومغزاه، ثم ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ مأخذاً ومرجعاً، فقد كذبوا جهلاً بما يكذبون، وليس للجاهل تكذيب ما يجهله ولا تصديقه، وكان عليهم أن يصدقوه لو كانوا يتدبرون وأحاطوا بعلمه فيعرفوا أنه ليس من عند غير الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2] ولو كان أتاهم تأويله مأخذاً قضية صالح التدبر فيه، لكانوا يصدقون، وحين يأتي تأويله مرجعاً منذ يوم الموت وإلى القيامة الكبرى فلات حين مناص وقد فات يوم خلاص و﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾[3] حيث لم يتدبروا فيه ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ...﴾[4] ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ذلك، فلا يصح ويصلح تصديق شيء أو تكذيبه إلّا بعد معرفته والحيطة به قدر ما يسمح للحكم له أو عليه، وهؤلاء الحماقى المجاهيل - الذين لا يسمحون لأنفسهم أن يسمعوا لهذا القرآن - يبتدرون بتكذيبه وأنه فرية على الله، كإخوانهم الماديين الذين يحصرون الكون في المادة ثم يحكمون أن ليس الله كائناً لأنه ليس من المادة، أم لأننا ما وجدناه في عالمنا، وهذا تكذيب بما لم يحيطوا بعلمه.

وهكذا كل مصدَّق أو مكذِّب لا بد فيه من حيطة علمية قدر ما يصلح للحكم، كما وأن كل علم أو ظن أو شك أو وهم بحاجة إلى برهان يقرره.

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٥٢، ٥٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٣.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

ذلك ولـ ﴿لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ معنيان هما معاً هنا معنيان ثانيهما التكذيب بما لا يعلم ولمّا يُعلم، وقد سئل أبو عبد الله عليه السلام عن الأمور العظام التي تكون مما لم تكن فقال: لم يأن أوان كشفها بعدُ وذلك قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾(١).

ولقد «خص الله عباده بآيتين من كتابه أن لا يقولوا حتى يعلموا ولا يردوا ما لم يعلموا...»(٢).

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

فـ ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ مصلح إذ نحا نحو الحق المبين، يُصلح به نفسه ويُصلح آخرين، و﴿مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ﴾ مفسد إذ يعرض عن مسرح الحق بمصرَحه، يفسد نفسه ويفسد آخرين ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي رباك بهذه التربية القمة السامقة ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ غير المؤمنين به متجاهلين، ولأن ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾ ليس إلا تقصيراً تركاً للتدبير فيه أم سواه من تقصير، إذاً فعدم الإمعان في معانيه إفساد، مهما اختلف إفساد عن إفساد.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ بعد كل هذه البراهين الباهرة، فلا رجاء - إذاً - فيهم لتقبُّل هذه الدعوة، فهنالك المفاصلة التامة ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ فلا يضركم ما أنا

(١) نور الثقلين ٢: ٣٠٤ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عنه عليه السلام وفيه عن حمران قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن الأمور العظام من الرجعة وغيرها فقال: إن الذي تسألوني عنه لم يأت أوانه قال الله:...

(٢) المصدر عن أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال:... قال عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩] وقال: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

عليه لو كنت كاذباً ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ لا يضرني إذ أنتم كاذبون، ثم إذا ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ فـ ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ﴾ كما أنتم ﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وهذه لمسة ماسة لوجدانهم - إن كان لهم وجدان - باعتزالهم بأعمالهم، وانعزالهم لمصيرهم منفردين، ليواجهوا مصيرهم دونما سند ولا عماد.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

هنا ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ دون «لك - أو - يستمعونك» تقرر موقف استماعهم أنه ما كان بقصد الانتفاع، بل هو الانتقاد للرسالة القرآنية، مظهرين أنهم استمعوا إليه لقرآنه، محيطين بعلمه، فما وجدوه إلَّا مفترى على ربه ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ الذين لا يسمعون ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما استمعوه وهم لاهون لاعبون، أم لم يعوه إذ لم يستمعوه، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾[1].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

وهنا ﴿يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ كـ ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ يعني نظراً ظاهراً إبصاراً إليه لا إبصاراً به، فلم ينظروا إليه ليعتبروا بآيات رسالته، بل وليُظهروا كأنهم ناظرون إليه نظر الاعتبار، ولكنهم لم يعتبروا إذ لم يجدوا فيه معتبراً فهم عُميٌ في ذلك النظر ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فقد يبصر الأعمى بإزالة العمى، ولكن الأعمى المصر على العمى ليس ليبصر، فهم

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٤٥-٤٧.

إذاً يستمعون إليك ولا يسمعون، وينظرون إليك ولا يبصرون: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾(١).

ذلك، والعُمي هنا عن آيات الله البينات هم عُميٌ هناك عن رحمات الله والجنات فـ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٢). فهؤلاء العمي هنا عمي يوم الأخرى عن نتائج الإبصار يوم الدنيا وهي الجنات.

وهكذا العُمي هنا عن معرفة الله هم عميٌ هناك عنها ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فلا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يهديهم سبيلاً.

ثم وهم عُمي في أبصارهم لفترة عذاباً فوق العذاب، كما هم عميٌ في بصائرهم عن الرحمات ومعرفة الله عذاباً فوق العذاب: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

فحين هم يستمعون إليك ولا يسمعون، وينظرون إليك ولا يبصرون، تجاهلاً وعناداً ثم لا يهتدون، فمن هو الذي ظلمهم إلّا أنفُسهم حيث هم ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فليس الله ظالماً ولا مظلوماً، وإنما هم الناس النسناس الظالمون المظلومون بأنفسهم.

وهذه الآيات الأخيرة - بعد البراهين الوفيرة وعناد المعاندين وتكذيبهم إياه ﷺ - هي تسريات وتسليات لخاطره الشريف ﷺ عما قد يجده في

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.
(٣) سورة طه، الآيتان: ١٢٤، ١٢٥.

نفسه من تضيق بذلك التكذيب الخفيق والعناد الصفيق، بعد كرور الإعلام ومرور الإعلان، وذلك بما يقرره له ربه من أن إباءَهم عن الحق ليس عن تقصير منه في البلاغ، ولا قصور في مادة البلاغ، ولكن هؤلاء هم المقصرون القاصرون كالصم والعمي، ولا يفتح الآذان لسمع الحق والأعين لإبصاره إلّا الله لمن تسمَّع وأبصر، فهم صم عمي حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون، رغم ما استكثروا الأمل واستبطؤوا الأجل وكان أمده بعيداً وليس هو إلا ساعة:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

ولقد فصلنا القول حول اللبث في البرزخ أمام القيامة الكبرى في آياتها الست الأخرى[(١)] ولا سيما الأخرى (٧٩: ٤٦) فليراجَع، وهنا نتحدث حول ميِّزات هذه الآية بينها.

هنا ثانيةٌ تحمل: ﴿سَاعَةً﴾ لبثا في البرزخ أم وقبله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾[(٢)]: ﴿سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ كما هنا، أم أية ساعة من ليل أو نهار كما في آية الروم لمكان إطلاق ﴿سَاعَةً﴾، وهي أقل تحديد من هؤلاء للبثهم، وفوقها في آيات أخرى أنه يوم أو بعض يوم، الشاملان لجزئيه ليلاً ونهاراً، أو عشر ليال أو سنين لمكان «عشراً» وهي أكثر تقدير، وحق اللبث هو أنه كان قليلاً دون هذه التحديدات: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(٣)] أم «يوماً»: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[(٤)] ولكن الحق

(١) وهي ١٧: ٥٢ و٢٠: ١٠٣ و٢٣: ١١٢ و٣٠: ٥٦ و٤٦: ٣ و٧٩: ٤٦.
(٢) سورة الروم، الآية: ٥٥.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١١٤.
(٤) سورة طه، الآية: ١٠٤.

المطلق هو ما ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

فحاسم الجواب وجاسمه أنه كان قلة قليلة بجنب الآخرة، مهما كانت كثرة وافية لحياة التكليف، فهم قد يقلِّلونه بما يعللونه عذراً أنه ما كان يكفي لحياة التكليف قبل الموت، أم إنه قليل بجنب حياة الجزاء بمجموع حياتي البرزخ والتكليف، أم إن المسؤول هو يوم البرزخ لمكان «يوم البعث»، والله يصدقهم في أصل القلة على أية حال، اللَّهم إلَّا قلة غير وافية بحياة التكليف.

ذلك، أفمِن أجل ساعة أو بعض يوم أو يوم أو عشر من الليالي والسنين، ألهذه الزهيدة العاجلة القصيرة، التافهة الهزيلة، ألهذه تتنافسون وتتطاحنون وترتكبون لأجلها ما ترتكبون فتبكون؟ إنها الحماقة الكبرى، لا يرتكبها فيرتبك بها ذو حجى، وعلى حد المروي عن رسول الهدى ﷺ: «بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ناري وسخطي، امكثوا فيها خالدين»(٢).

وترى كيف هو أحياناً في تخيلهم ليل وأخرى نهار، ثم هو بين ساعة إلى عشر ليال أمّا هو؟.

علّهم يخلدون في نفس الزمن الذي توفوا فيه ليلاً أو نهاراً وكما عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يتعارفون لليل صباحاً ولا لنهار مساءً، أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً»(٣).

﴿يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ بزعمهم وحسبانهم ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ حيث

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٦.

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٧ - أخرجه ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي عنه ﷺ: . .

(٣) السيد الشريف الرضي في نهج البلاغة عنه عليه السلام في توصيف الحالة البرزخية.

البرزخ أكثره نوم لمكان ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾[(١)] ثم هو قليل بجنب الآخرة لحد قد تحسب كساعة منها ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بعدما لم يكونوا متعارفين في البرزخ، فـ ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أنفسهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ في مسارح الهداية ظلماً وعلواً.

فقد يستقلون ذلك المكث المكيث لأمور، منها أنهم لم ينتفعوا بحياة التكليف لحياة الحساب فهي - إذاً - كالعدم، ثم لم يكن لهم أن يتداركوه بحياة البرزخ إذاً فهما ﴿سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾: «نهار التكليف المشرق لهم الحق وهم غافلون، ونهار البرزخ إذ يكشف فيه الغطاء وهم لا يستطيعون فيه جبراً لكسرهم، فهما - إذاً - ساعة من ذلك ﴿ٱلنَّهَارِ﴾».

«فالله الله عباد الله، فإن الدنيا ماضية بكم على سُنن، وأنتم والساعة في قَرَن، وكأنها قد جاءَت بأشراطها، وأزِفت بأفراطها، ووقفت بكم على صراطها، وكأنها قد أشرقت بزلازلها، وأناخت بكلاكلها، وانصرمت الدنيا بأهلها، وأخرجتهم من حِضنها، فكانت كيوم مضى أو شهر انقضى، وصار جديدها رثّاً، وسمينها غثّاً، في موقف ضنك المقام، وأمور مشتبهة عظام، ونار شديد كَلَبها» (١٨٨).

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ۝٤٦﴾:

كن يا حامل الرسالة القدسية على ثقة أن وعد الله بكلمته عليهم حق فـ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ فنفعل بهم بعد توفِّيك ما ننكل، وعلى أية حال ليسوا ليفلتوا من أيدينا ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ جميعاً ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ دون إبقاء، فلا يعزب عنه من مثقال ذرة كما لا يعزبون عنه فإنهم في قبضة محيطة من ربك.

---

(١) سورة يس، الآية: ٥٢.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

وترى «كل أمة» تشمل إلى أمم المكلفين من الجنة والناس ومن أشبههم أجمعين، تشمل أمم الدواب، فإنها أمم أمثالنا؟: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1].

قد تشمل كما فصلناه على ضوء آية الأنعام هذه، مهما اختلفت رسالة عن رسالة في بسالة الدعوة وبساطتها، وليس ﴿رَسُولُهُمْ﴾ الناحي منحى ذوي العقول مما يختص هذه الرسالة بهم لمكان ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ - و - ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ حيث اعتبر سائر الدواب في حقل الرسالة عقلاء مهما اختلفت عقول عن عقول.

وأما ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ اللّامحة لخصوص ذوي العقول، فلا نرى رسالة بين الدواب وقضاء بالقسط بينها؟ فليس لا نرى رؤية لعدم الرسالة والقضاء، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وهنا ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ تشمل النشأتين ومعهما البرزخ في هذا البين، فهنا القضاء بالقسط على ضوء بالغ الدعوة وحالقها، قضاءً حكيماً بجزاء كلٍّ من الإيمان بدرجاته والكفر بدركاته، ثم قضاء بواقع الجزاء ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ على أية حال.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

ويْكأن صدق هذا الوعد لزامه العلم بمتّاه، كمن يقال له متى ولدت أو تموت إن كنت صادقاً في أنك كائن، ولا رباط ولا صلة بين العلم بمتى أمر

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

هو محقق دون متاه بمداه، وهذا الوعد هو ما مضى في ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ . . .﴾ من العذاب.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

فهنا الجواب أنني لا أملك من الله شيئاً من أصل العذاب ومتاه فـ ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من نفع أو ضر، ومما يملكني إياه تخويلاً بإذنه ودون تخويل، ثم ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ غير معلوم للقضاء عليها وانقراضها عن بكرتها، أم عن حالتها التي هي عليها ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ بما قضى الله في علمه ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فطلب التأخير والتقديم منوط بعلمهم بمتاه ومداه، ثم وإن الله يجيبهم إلى تطلُّبهم، ولكنه أجل جاء في علم الله بقضاء الله، لا يعلمه أحد بمتاه حتى يستأخره أو يستقدمه.

وذلك الأجل فردياً أو جماعياً، مسمًّى أو معلقاً، لا يعني واقعه إذ لا معنى إذاً لاستقدامه وقد جاء واقعه، ولا لطلب تأخيره، بل هو قضاؤه[1] وقد فصلنا البحث حول الآجال في آياتها ولا سيما آية الأعراف (٣٤) والنحل (١٦) فلا نعيد إلّا أن أجل كلّ أمة هو أجل كيانها الزمني أو الرسالي دون كونها، إذ لا يعهد لنا أمة جاء أجلهم عن بكرتهم اللّٰهم إلا قوم نوح وفرعون وعاد وثمود، وهنا ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ يحلِّق الأجل على كل أمة، فالقصد من الأجل هو الأعم من أجل الكون والكيان والجامع بينهما، وقد عرفنا منهم أمماً سكنت أجراسهم وخمدت أنفاسهم ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً

(١) نور الثقلين ٢ : ٣٠٦ في تفسير العياشي عن حمران قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية قال: هو الذي سمى لملك الموت عليه في ليلة القدر.

بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(١) ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾(٢).

فالأجل قد ينتهي بالهلاك الحسي فردياً وجمعياً كما حصل لأفراد ولبعض الأمم الخالية، أم بالهلاك المعنوي في كيانهم الزمني أو الروحي، هلاك الهزيمة والضياع، إما دائماً أم مؤقتاً، وكل ذلك وفق مشيئة الله قضية آمالها وأعمالها دونما فوضى جزاف.

فالأمم التي تعيش أسباب الحياة وأساليبها الحقة هي حية دائبة، والتي تنحرف عنها فتضعف أو تضمحل، وتنجرف قدر انحرافها، وليست الأمة الإسلامية خارجة عن هذه السنة الربانية العادلة الشاملة، فإنما حياتها هي باتباع رسولها برسالته الخالدة حتى تخلد بخلودها، وكما قرر الله وقدر: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(٣).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾:

ذلك العذاب الموعود الذي تتساءلون عن متاه هازئين ساخرين ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ...﴾ فجأة ﴿بَيَٰتًا﴾: نائمين ﴿أَوْ نَهَارًا﴾: يقظين ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أإستعجالاً له نفسه؟ ولا يستعجل العذاب أي ذي لب ولا حشرة! أم إيماناً عند رؤيته؟ :(٤).

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١﴾:

---

(١) سورة النمل، الآية: ٥٢.
(٢) سورة الحاقة، الآيتان: ٧، ٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٤) نور الثقلين ٢: ٣٠٦ في تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: فهذا عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة وهم يجحدون نزول العذاب عليهم.

فالإيمان عند وقوع العذاب وحاضره لا يفيد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

ثم وهو عند فاعله القاضي على الكافرين ليس ليفيد لأنه خارج عن حياة التكليف أف «ءلئن» تؤمنون ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مما يدل على أنه كذب، تقولون ولا تؤمنون!.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

وهذه الآية هي من عشرات الآيات الدالة على الحياة البرزخية حيث ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ بعد عذاب الاستئصال في الدنيا ولمّا يأت دور عذاب الآخرة.

ولا يعني ﴿ٱلْخُلْدِ﴾ هنا إلّا ما دامت النار خالدة، ولا تخلد إلّا قدر استحقاق العذاب، وليس ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وقد كسبوا سيئات محدودة بعِدَّتها وعُدَّتها وآثارها الفانية بفناء الدنيا، فكيف يجزون لغير محدود من العذاب؟ و﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ و﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[2] فلا تجزون دون كسب كالجزاء بالنيات السيئة فإنها ليست مكتسبة، ولا دون استحقاق كالجزاء دون سبب، ولا فوق استحقاق كالجزاء اللّامحدود بالمكسب المحدود، وكل ذلك الثالوث ظلم في الجزاء، وإنما تجزون ما كنتم تكسبون وتعملون جزاءً وفاقاً ولا تظلمون نقيراً.

﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

(١) سورة غافر، الآيتان: ٨٤، ٨٥.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

الاستنباء هو طلب النبإ، ولأن حياة الحساب نبأٌ عظيم فقد ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ تساؤلاً بتجاهل هازئٍ ناكر في عُجاب، والجواب موجَب ببرهانه المجمل الجميل: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ﴾ فـ «ربي» الذي رباني بهذه التربية القمة الرسالية يدلكم على أنه «حق» حيث الرسالة في أصلها ترتكن على مستقبل الحساب، كما وهي مبدئياً دليل على حق المبدإ، فهي هي الوسيطة بين المبدإ والمعاد بأصلها رسولياً ورسالياً، وهي البلاغ لما يتوجَّب على المكلفين بعد بيان المبدإ والمعاد، أمراً من المبدإ وحائطة على المعاد ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله في نكرانكم المعاد، ولا معجزين إياه تفلُّتاً عن الحساب، ولا تغلُّباً على حكمته بمشيئته، ولا معجزين إياي كرسول أن تبطلوا رسالتي بالتأنيب والتكذيب، فأنتم الأنكاد الأوغاد أعجز من أن تعجزوني فضلاً عن ربي، فأنتم العاجزون، بل:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

﴿ظَلَمَتْ﴾ هكذا نكراناً لأصول من شرائع الله وتكذيباً ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ من سوء العذاب هنا وفي البرزخ والأخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1] ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[2] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ

(١) سورة الزمر، الآيتان: ٤٧، ٤٨.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٨.

مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(١)] ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾[(٢)].

و﴿نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ هنا هي نفس كافرة مجرمة دون أية نفس ظلمت أي ظلم، وهنا ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ تعم مثلث العذاب، مهما اختصت سائر آيات الافتداء بعذاب يوم القيامة.

وما هو الفارق لهم بين إسرار الندامة وإظهارها حيث العذاب واقع لا مرد له من الله ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؟!.

إنهم قد يسرون حيث «كرهوا شماتة الأعداء»[(٣)] ولكنهم يُفضحون على رؤوس الأشهاد حيث المحشر مجّهر لكل خفاءٍ وقد كشف فيه الغطاء «وشر الندامة ندامة يوم القيامة»[(٤)].

أجل، ولقد أخذتهم وهلة المفاجأة الفجيعة فسُقط في أيديهم فهم كأنهم خُرس لا يتكلمون ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ من الكَمْدِ المكين الذي يظلل الوجوه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

﴿أَلَآ﴾ فانتبهوا عن غفلتكم وقوموا عن نومتكم ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٦.

(٢) سورة المعارج، الآيات: ١١-١٨.

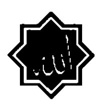
(٣) نور الثقلين ٢: ٣٠٦ عن تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام سئل عن هذه الآية وقيل له: ما ينفعهم إسرار الندامة وهم في العذاب، قال: كرهوا شماتة الأعداء.

(٤) المصدر ٣٠٧ في روضة الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث طويل يقول فيه: ..

﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ له خلقاً وتدبيراً وتقديراً، وله مِلكاً ومُلكاً، وله دنيٌ وعقبى ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ لا حِوَل عنه، حيث الحِوَل له جهل أم عجز أم ظلم وعوذاً به منها، ثم لا حِوَل للمحاسبين فإنهم له كسائر الكون ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾ أولاء الناكرين ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وأقلهم يعلمون وينكرون حيث ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾![1].

﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦﴾:

﴿هُوَ﴾ لا سواه ﴿يُحۡيِۦ﴾ إخراجاً للحي من الميت ﴿وَيُمِيتُ﴾ إخراجاً للميت من الحي، ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لا سواه ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ بعد الإحياء للحساب، ف ﴿يُحۡيِۦ﴾ تعم إلى الإحياء في الدنيا الإحياء للآخرة، كما ﴿وَيُمِيتُ﴾ تشمل الإماتة عن الدنيا والإماتة عن الحياة البرزخية كما ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾[2].



(١) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٢) سورة غافر، الآية: ١١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن

سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

مواصفات أربع للقرآن، اثنتان منها لكل الناس هما «موعظة وشفاء» وأخريان للمؤمنين هما ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ إذ لا دور لهما تماماً إلا بعد تأثير الموعظة وفاعلية الشفاء سلباً للعوائق، حتى تحل الهدى والرحمة محلهما السليم عن الشقاء بسلم وشفاء، والموعظة هي زجر لطيف مقترن بتخويف.

ذلك وقد يسبقهما «شفاء» للمؤمنين، حيث المتحري عن الشفاء لما في صدره من مرض، القرآنُ يكون له شفاءٌ، بعلمه عن الجهل وبكل أدوائه عن كــــل داءٍ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1] أم وتتأخر الشفاء عن الهدى:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[2] فالشفاء هي الناحية السلبية التي تسلب كل رين وشين ﴿وَهُدًى﴾ هي الناحية الإيجابية، فهو مَثَل مفصَّل لسلب كلمة الإخلاص وإيجابها: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

فالقرآن شفاءٌ من كل داءٍ في الصدور شرحاً لها بإيمان، كما العسل ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾[3] فلأن العسل هو خلاصة صالحة عن كافة الزهورات النافعة اليافعة فهو شفاء لكافة الأوجاع، كذلك القرآن هو خلاصة صالحة

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٤.
(٣) سورة النحل، الآية: ٦٩.

عن كافة زهورات الوحي دون إبقاء فهو - إذاً - شفاءٌ لما في الصدور المتضيقة بمختلف المضايق، شارحاً لها كل شرح صالح قدر ما يدخله كما يحق، فالفِطَر المحجوبة، والعقول المعقولة، والصدور المضيقة المدخولة، والقلوب المقلوبة، والألباب والأفئدة الدخيلة، يكون القرآن لها شفاء و﴿ٱلصُّدُورِ﴾ هي الوسطى بينها، فشفاؤها هو شفاء لما قبلها وما بعدها من مجالات الأرواح، وجلوات ذوي الأرواح.

فالقرآن هو للكل معدن الموعظة للصَّلِبين الصَّلِتين عن تحري الحق وتقبله، فإذا وجدت موعظته مجالاً في الأنفس تليناً لها من صلابتها فهنا دور شفائه لما في الصدور دواءً لأدوائها، ومن ثم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، فقد «أنزل عليكم كتاباً فيه شفاء لما في الصدور من أمراض الخواطر ومشتبهات الأمور»[(١)] و«من نفث الشيطان»[(٢)] فـ «تعلموا القرآن فإنه ربيع القلوب واستشفوا بنوره فإنه شفاء لما في الصدور[(٣)] وحين يكون القرآن شفاء لما في صدور الأرواح فهكذا صدور الأجساد، بل وسائر أجزائها»[(٤)].

ذلك، فـ «موعظة وشفاءٌ» هما خطوتان قرآنيتان للتخلية، ثم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ هما خطوتان قرآنيتان للتحلية، ولا دور للتحلية إلّا بعد صالح التخلية، كما لا دور لـ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إلا بعد ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٣٠٧ عن كتاب الأهليلجة قال الصادق عليه السلام: . . .

(٢) وفيه عن روضة الكافي بسند متصل عن علي بن عيسى رفعه قال: إن موسى عليه السلام ناجاه الله تبارك وتعالى فقال له في مناجاته: يا موسى لا يطول في الدنيا أملك - وذكر حديثاً قدسياً طويلاً يقول فيه - عز من قائل -: وقد ذكر محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ولأنزلق عليه قرآناً فرقاناً شفاء لما في الصدور من نفث الشيطان.

(٣) المصدر عن نهج البلاغة.

(٤) الدر المنثور ٣: ٣٠٨ - أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إني أشتكي صدري فقال: اقرأ القرآن يقول الله تعالى: شفاء لما في الصدور، وفيه أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن واثلة بن الأسقع أن رجلاً شكا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجع حلقه فقال: عليك بقراءة القرآن.

وإنما اختص الشفاء بما في الصدور، لأنها وسيطة بين الفِطَر والعقول والألباب وبين القلوب والأفئدة، بل والقلوب هي في الصدور: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1] فحين يشفى ما في الصدور فقد شفي ما في الألباب القلوب والأفئدة وشفي قبلها الفطر والعقول، فلا يمكن شفاءٌ لما في الصدور إلَّا بعد شفاء لما في الفطر والعقول والألباب، فقد يجمع ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ كل شفاءٍ عن كل داءٍ لـلأرواح بكل مراحلها، ومن ثم الأعضاء، فيسلم حامل القرآن كما يُرام سليماً عن كل داءٍ علي ومعرفي وعقيدي وخُلقي وعملي وما أشبه، فثم إذا ما وقع الشفاء فهنالك الهدى والرحمة قدر الشفاء، بقدر التعامل مع القرآن.

وبصيغة أخرى «شفاء في الصدور» هو «راحة لما في السرائر، لبعضهم شفاء المعرفة والصفاء، ولبعضهم شفاء التسليم والرضا، ولبعضهم شفاء التوبة والوفاء، ولبعضهم شفاء المشاهدة واللقاء»[2].

ففي الحياة الدنيا أمران اثنان لا ثالث لهما: ١ - «فضل الله ورحمته» و٢ - ما سواهما من المحاصيل، ففضل الله ورحمته هما الصراط المستقيم إلى الله لمن أراد السلوك إلى الله، وهما القرآن وعلى هامشه رسول القرآن ﷺ وعترته عليهم السلام تحليقاً لكل دعواتهم ودعاياتهم على بثٍّ معارف القرآن بمعاريف البيان وتصاريف التبيان.

وهنا ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تجعل كل ما يجمعونه سوى القرآن شراً، أم ولأقل تقدير مفضلاً عليه القرآن، والثاني هو السنة والأول هو كل ما وراءَ الكتاب والسنة.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٢) مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٩١ عن الإمام الصادق عليه السلام.

ف «فضل الله ورحمته» هنا هما القرآن بمربع فاعلياته فيمن هو عشيره وحشيره «هو» القرآن الحاوي لفضل الله ورحمته ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ سوى القرآن من أموال وبنين، أم وعلوم مهما سموها إسلامية وهي لا تتبنى القرآن، مثل كثير من العلوم الحوزوية التي عليها مدارها وقرارها وكما فيما يروى عن النبي ﷺ: وما عدل أحد عن القرآن إلّا إلى النار»[1].

و«إنه انتباه من غفلة، أو انقطاع عن ذلة، والمباينة من دواعي الشهوات»[2].

أجل وكما يقول رسول القرآن في قول ثان: «إن هذا القرآن هو النور المبين، والحبل المتين والعروة الوثقى، والدرجة العليا، والشفاء الأشفى، والفضيلة الكبرى، والسعادة العظمى، من استضاء به نوره، ومن عقد به أموره عصمه الله، ومن تمسك به أنقذه الله، ومن لم يفارق أحكامه رفعه الله، ومن استشفى به شفاه الله، ومن آثره على سواه هداه الله، ومن طلب الهدى في غيره أضله الله، ومن جعله شعاره ودثاره أسعده الله، ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ومعوَّله الذي ينتهي إليه أداه الله إلى جنات النعيم والعيش السليم»[3].

وعن وصيه وخليفته علي أمير المؤمنين عليه السلام بشأن القرآن: «نورٌ لا تطفأ مصابيحه، وسراج لا يخبؤ توقُّده، وبحر لا يُدرَك قعره، ومنهاج لا يَضل نَهْجه، وشعاع لا يُظلم ضوءُه، وفرقان لا يخمد برهانه، وتبيان لا

(١) أصول الكافي قال أبو عبد الله عليه السلام قال رسول الله ﷺ في وصف القرآن: إنه هدى من الضلالة وتبيان من العمى واستقالة من العثرة ونور من الظلمة وضياء من الأحداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من الفتن وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة وفيه كما دينكم وما عدل...

(٢) مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٩١ عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية.

(٣) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن النبي ﷺ: ..

تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه، وعز لا تهزم أنصاره، وحق لا تُخذك أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يفيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريّاً لعطشْ العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجّاً لطرق الصلحاء، ودواءٌ ليس بعد دواءٌ، ونورٌ ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقِلاً منيعاً ذروته، وعزاً لمن تولاه، وسلماً لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلْجاً لمن حاج به، ومطّية لمن أعمله، وآية لمن توسَّم، وجُنة لمن استلأم، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى»[١].

«إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضُلَّالاً، ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تُلي حق تلاوته، ولا سلة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حرف عن مواضعه»[٢].

«... فقد نبذ الكتاب حملتُه، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذٍ وأهله طريدان منفيان، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد، لا يؤويهما مؤوٍ، فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا، فاجتمع القوم على الفرقة وافترقوا عن الجماعة كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق منه إلّا اسمه، ولا يعرفون إلّا خطه وزَبره»[٣].

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٣ ص ٢٢ عبده.
(٢) المصدر الخطبة ١٧ / ٦١.
(٣) (الخطبة ١٤٥)

«واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يَغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلَّا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدىً، أو نقصان من عمىً، واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنىً. . فإنه ينادي منادٍ يوم القيامة: ألا إن كل حارث مبتلىً في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته وأتباعه واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءَكم، واستغشوا فيه أهواءَكم» (١٧٤).

«لله فيكم عهد قدَّمه إليكم وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله بينة بصائرها وآي منكشفة سرائرها، وبرهان متجلية ظواهره، مديم للبرية استماعه، وقائد إلى الرضوان اتباعه، ومؤَدياً إلى النجاة أشياعه، فيه تبيان حجج الله المنيرة، ومحارمه المحرمة، وفضائله المدونة، وجمله الكافية، ورخصه الموهوبة، وشرائطه المكتوبة، وبيناته الجالية»[١].

و«ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟ لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة»[٢].

«فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحل مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكمة وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى

(١) بحار الأنوار ٨٩: ١٣ في خطبة فاطمة عليها السلام في أمر فدك.

(٢) البحار ٨٩: ١٥ عن الرضا عليه السلام عن أبيه عليه السلام أن رجلاً سأل أبا عبد الله عليه السلام: ما بال القرآن. . .

عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنازل الحكمة ودليل على المعروف لمن عرفه»[(١)].

و«فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه - والقرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده - والقرآن مأدبة الله فتعلموا مأدبته ما استطعتم - إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحسرة، والظل يوم الحرور، والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان»[(٢)].

«فالقرآن آمر زاجر، وصامت ناطق، حجة الله على خلقه، أخذ عليهم ميثاقه وارتهن عليهم أنفسهم، أتم نوره وأكرم به دينه، وقبض نبيه ﷺ وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى، فعظِّموا منه سبحانه ما عظم من نفسه، فإنه لم يُخف عنكم شيئاً من دينه ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه إلَّا وجعل له علماً بادياً وآية محكمة تزجر عنه أو تدعو إليه، فرضاه فيما بقي واحد وسخطه فيما بقي واحد»[(٣)] «كتاب الله تبصرون به وتسمعون، وينطق بعضه على بعض ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله»[(٤)].

و«عدد درج الجنة عدد آي القرآن فإذا دخل صاحب القرآن الجنة قيل له: ارقأ واقرأ لكل آية درجة فلا تكون فوق حائط القرآن درجة»[(٥)].

---

(١) البحار ٩٨: ١٧ بأسانيد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول الله ﷺ: أيها الناس إنكم في زمان هدنة وأنتم على ظهر السفر والسير بكم سريع فقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان كلّ جديد ويقربان كلّ بعيد ويأتيان بكل موعود فأعدوا المجاز لبعد المفاز، فقال المقداد فقال يا رسول الله ﷺ: ما دار الهدنة؟ قال: دار بلاء وانقطاع فإذا التبست..

(٢) البحار ٨٩: ١٩ عن رسول الله ﷺ:..

(٣) المصدر عن نهج البلاغة عن علي عليه السلام.

(٤) المصدر.

(٥) كتاب الإمامة والتبصرة بسند عن رسول الله ﷺ.

وقال ﷺ: أتاني جبرئيل فقال: يا محمد سيكون في أمتك فتنة، قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله، فيه بيان ما قبلكم من خير وخبر ما بعدكم وهو الفصل ليس بالهزل، من وليه من جبار فعمل بغيره قصمه الله، ومن التمس الهدى في غيره أضله الله...»[١].

ذلك و«إن أهل القرآن في أعلا درجة من الآدميين ما خلا النبيين والمرسلين، فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم فإن لهم من الله لمكاناً»[٢] و«من أعطاه الله القرآن فرأى أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي فقد صغَّر عظيماً، وعظَّم صغيراً»[٣].

ذلك و«فضل الله» هو القرآن و«رحمته» أن جعلهم من أهله[٤] ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من غير القرآن من حظوظ مادية أو روحية، وقد يعني فضل الله القرآن ورسوله، ورحمته الممثل له ﷺ بالقرآن وهو علي عليه السلام[٥] وولده المعصومون عليهم السلام، والجمع أنهما يعنيان القرآن أصالة، والرسولَ ﷺ رسالة به، وخلفاءه المعصومين بسالة في تفسيره وتطبيقه.

فالقرآن هو معدن الفضل وبحبوحة الرحمة، ذلك هو الذي يستحق الفرح دون ما سواه، فذلك هو الفرح العِلوي الذي يُطلق النفس من عقال الشهوات والحيوانات، ويجعلها عالية مرفرفة على الكائنات اتصالاً بمعدن العظمة ومخزن الرحمة.

---

(١) المصدر ١٨ عن الحارث الأعور قال: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام فقلت: إنا إذا كنا عندك سمعنا الذي نسد به ديننا وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة مغموسة لا ندري ما هي؟ قال: أو قد فعلتموها؟ قلت: نعم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: أتاني جبرئيل...

(٢) بحار الأنوار ٨٩: ١٨٠ عن الصادق عن أبيه عليهما السلام قال قال النبي ﷺ: ...

(٣) المصدر عن عدة الداعي عن النبي ﷺ: ...

(٤) الدر المنثور ٣: ٣٠٨ - أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: ...

(٥) المصدر - أخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٥٨] قال: النبي ﷺ ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ [يونس: ٥٨] قال: علي بن أبي طالب عليه السلام.

فكل القيم هي زائفة زائلة عن بكرتها، مائلة عن الحق المرام إلَّا التي يرسمها ويحققها القرآن، فالقيمة القيِّمة العليا التي ترفع من قيمة الإنسان هي - فقط - المتمثلة في هدي القرآن الذي هو موعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾:

أنتم تقتسمون رزق الله إلى حرام وحلال وكأنكم آلهة مشرِّعون من دون الله ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ أن تجعلوا منه حراماً وحلالاً كرسل من الله تحملون هكذا رسالة الله ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أنه هو الذي حرم هكذا وأحل؟.

فلأنه ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1] فجعلُ رزق منه حراماً أو حلالاً لا بد وأن يستند إلى وحي بوسيط أم دون وسيط، أم فرية على الله أنه حرم أو أحل، وأما أن تحرِّموا أو تُحلوا مصلحياً محادِّين الله فهو خارج عن دور التشريع، ولم يكن المشركون يدعون أنهم هم المشرعون.

فلأن العباد هم عباد الله، ورزقهم كذلك هو رزق الله، فليكن تحريمه أو تحليله أيضاً بما شرع الله، وهذه التحريمات والتحليلات الشركية لا أثر لها في شرعة الله!.

وهنا ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ تعني الإنزال من علياء كيان الربوبية سواء أكان الرزق من السماء أو من الأرض، فإن الله ليس له مكان علٍ حتى ينزل رزقه منه، ولا أن الأرزاق كلها من السماء حيث الأرض هي متعاملة مع عوامل السماء من في إعداد الرزق بأعداد منه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

ولا يدل ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ على إمكانية إذنه أحياناً في تشريع، حيث القرآن فيه برهان لا مرد له على اختصاص التشريع بالله، إذاً فهو بين تنازل أنه إذن للتشريع، أم أنه أرسلكم لبيان شرعته، ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وكل ذلك الثالوث منفي بحقكم فأنتم - إذاً - مبطلون.

ذلك، لأن التشريع هو من اختصاصات الربوبية لا يحمله مَن سوى الله لا استقلالاً دون إذن ولا استغلالاً بإذن منه، اللّهم إلّا افتراء على الله، وحين لا يأذن الله لرسله في تشريع، فكيف يؤذن لغيرهم أن يشرِّعوا، ف ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ استغراب أوّل أنه أذن لكم في تشريع ولا يأذن لرسله، ثم ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ استغراب ثان، وأما الثالث وهو الرسالة فسلبيتها عنهم مفروغة، ثم وهم غير مأذونين في تشريع.

وهكذا يقضي على كافة التشريعات غير الربانية مهما تسمت بأسماء مغرية كالاجتهاد وما أشبه، اتكالاً على قياسات واستحسانات واستصلاحات، لحد تقرَّر بما تُغرِّر هيئة لمعرفة المصالح الوقتية سماحاً لغيار أحكام شرعية ثابتة روعي فيها كافة المصالح الصالحة للخلود!.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

فافتراء الكذب على الله من أيّ كان وأيان إنه محظور محظور، فما ظنهم - إذاً - يوم القيامة، أن الله سيعاملهم، وافتراء الكذب على الله هو من أكفر الكفر بالله و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بفاضل رحماته المتواترة عليهم وسعة عنايته بهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله وهم يكفرون كفراً وكفراناً، وتراهم يستخفون من الله ما هو أعلم بهم من أنفسهم أم لا يخافونه؟.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا

عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾:

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا حامل الرسالة القرآنية ﴿فِي شَأْنٍ﴾ من شؤونك الرسولية والرسالية، وهكذا كافة المكلفين بشؤونهم الصالحة والطالحة «وما تتلوا منه - من شأنك - من قرآن» تلاوة المتابعة رسولياً ورسالياً، دعائياً وتطبيقياً، أنت يا حامل الرسالة، وهكذا كافة المكلفين به في شأنهم الرسالي وأصله القرآن، ثم ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم كلكم رسولاً ومرسلاً إليهم ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ قلبي أو قالبي ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ شهادة الحق الذي لا ريب فيه ولا خفية تعتريه ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ من عمل، والإفاضة هي الإسالة في خيرٍ، أو الخوض في شر، حين تستفرغون لعمل مما تعملون.

وهنا ﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ تعني جمعية الصفات، وليست جمعية الذات، أم الذات مع غيرها من الذوات التي هي شهود فرعية بإذنه تعالى كالملائكة والنبيين والأعضاء العاملة والأرض، فإن الله لا يردف نفسه بخلقه فضلاً عن أن يأتي بصيغة تجمعه إلى خلقه.

إذاً فـ ﴿كُنَّا﴾ هنا كـ ﴿أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[1] و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾[2] وما أشبه، أترى بعدُ أن مع الله معطين آخرين للكوثر، ومنزلين سواه للذكر؟ حتى يجمعهم إلى نفسه في هذه الجموع؟!.

فقد يعني الجمع فيها وفي أضرابها عناية جمعية الصفات الربانية في تلك الشهادة على الأعمال كلها، شهادة قيومية وعلمية واستنساخية: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] وإيحاءً للأرض تسجيلاً لما يحدث عليها

---

(١) سورة الكوثر، الآية: ١.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾[(١)] وإعلاماً لسائر الشهود أن يشهدوا ما يعملون.

ذلك «وما يعزب - ويبعد - عن ربك» الذي رباك بهذه التربية القمة غير العازبة عنه ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أرضاً وسماءً وما بينهما وما فيهما من أحياء وأموات، ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ في علم الله قبل الخلق وبعده.

وهنا أصغر من مثقال ذرة، هو الذي لا يُرى ببصر أو بصيرة، فهو في الماديات هي المادة الفردة ذات بعدين، التي لا تنقسم إلَّا إلى الفناء انقساماً هو انفصام عن كونها، فهي المادة الأولية، وهو في الطاقات هي الطامّة الفردة، فهي الطاقة الأولية في حقل الخلق.

«كذلك ربنا لا يعزب عنه شيءٌ وكيف يكون من خلق الأشياء لا يعلم ما خلق وهو الخلاق العليم»[(٢)].

ذلك، وفي نظرة إلى الآية بشأنها أدبياً ترى ما هو المرجع لضمير «منه»؟ إنه الشأن حيث يعني الشأن الرسالي، وهو القرآن لأنه أصل شأنه الرسالي وعلى هامشه السنة، وقد أفرد القرآن بالذكر بعد تعميم ﴿شَأْنٍ﴾ ليدل على أنه هو معظم الشأن رسولياً ورسالياً، ثم سائره ليس إلّا على هامشه، فقد ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ...﴾[(٣)] تقديماً للكتاب الذي هو المحور الأصيل بتنزيله وتأويله ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ ثم ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ تعميماً بعد تخصيص ليدل على أن له إراءَة إلهية على هامش القرآن ليست هي في القرآن نصاً أو ظاهراً.

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٤، ٥.

(٢) نور الثقلين ٢: ٣٠٨ في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي عليه السلام يقول فيه وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات وأما قوله: وما يغرب عن ربك... كذلك...

(٣) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

وهنا يتقدم الأرض على السماء حيث الأرض أقرب إلى حاضر مخاطبيها من السماء، وأن المقام هو الشهادة على أعمال المكلفين والأصل منهم هنا ساكنو الأرض.

ويعكس الأمر في سباء: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1] لأن غيب السماء أغيب في حسابنا من غيب الأرض.

وترى ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ أي يبعد ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هلّا تبعد كل علم هنا عن ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؟ كلّا حيث الاستثناء استغراق لعلم كل شيء في كتاب مبين، أي ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ في سلبية العزب، فكل شيء من الكائنات هو مسلوب العزب عن ربك عنده.

وقد يكون هذا الاستثناء منقطعاً يقطع كل عزب عن ساحة علمه تعالى، فيعني أن كل المذكورات هي في كتاب مبين.

ذلك ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ لا تنفي فقط العزب البُعد علمياً لمكان ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ فهو عزب عن ربوبيته، عزب القدرة القيومة والرحمة والرقابة الشاملة وأي شأن من شؤون الخليقة فإن ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2].

وهنا يسبح الخيال مع الذرات وأصغر منها، والمجرات وأكبر منها، السابحة في الأرض والسماء، ومعها علم الله ورقابته وهدايته، فيرتعش الوجدان إشفاقاً ورهبة، ويخشع القلب إجلالاً وهيبة، ويُهَدهِد القلب الواجف الراجف بأنس القرب من الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[3].

وهنا يأتي دور الإعلان الجاهر الباهر بحق أولياء الله العارفين الله:

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣.
(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الذين يلون الله حباً وطاعة واتباعاً، فيليهم الله توفيقاً وهدىً، هؤلاء الأكارم ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يخاف منه حاضراً ومستقبلاً ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى أو يأتي، فإنهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الله على محور الإيمان: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[(١)] و﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

وترى أن ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الدارين، هي بشارة لكافة المؤمنين المتقين؟ إنها - فقط - للمستقيمين من المؤمنين، فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾[(٣)].

ذلك وكما هنا ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ حيث تعني كينونة التقوى قبل إيمانهم الحاضر، فحملتهم تقواهم على إيمانهم إذ كانوا يتحرون عنه، ثم عاشوا تقواهم - وما جرى - بعد إيمانهم، فهو إيمان في القمة العالية باستقامة التقوى من قبل ومن بعد، وليس إيماناً سطحياً بدائياً دونما سابقة التقوى ولاحقة بالاستقامة، فهؤلاء الأكثرية من المؤمنين الخائفين هنا الحزينين ليسوا هم من هؤلاء المبشَّرين.

فـــ ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ و﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾[(٤)] هي مواصفات ثلاث للذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٩.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٤.
(٣) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

لا في الدنيا ولا في الآخرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١). وهؤلاء هم المعنيون بـ «عباد» في ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(٢).

ثم المرتبة النازلة لنازلي المؤمنين هي هذه البشرى يوم القيامة دون ما هنا هي المعنية بـ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣).

أجل وهؤلاء المستقيمون في الإيمان هم لا يخافون هنا إلّا الله، ولا يحزنون على ما فاتهم في سبيل الله، وهي درجة عالية غالية ليست لتعم كافة أهل الإيمان بالله، كيف ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٤) بالله، وإنْ في مراحله الخفية الخفيفة، فإن قضيته الخوف ممن سوى الله قدر ما يشركون بالله، رئاءً وسمعة أم وسائر التأثير المزعوم ممن سوى الله.

ذلك «لأنهم حُمِّلوا ما لم تُحمَّلوا عليه وأطاقوا ما لم تطيقوا»(٥) حيث «أدوا فرائض الله وأخذوا بسنن رسول الله، وتورعوا عن محارم الله، وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا ورغبوا فيما عند الله واكتسبوا الطيب من رزق الله، لا يريدون التفاخر والتكاثر، ثم أنفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة فأولئك

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٢.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٦٨.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٩.
(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٥) نور الثقلين ٢: ٣٠٩ في تفسير العياشي عن عبد الرحمن بن سالم الأشل عن بعض الفقهاء قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢] ثم قال: «تدرون من أولياء الله؟ قالوا: من هم يا أمير المؤمنين؟ فقال: هم نحن وأتباعنا ممن تبعنا من بعدنا طوبى لنا وطوبى لهم أفضل من طوبى لنا، قالوا: يا أمير المؤمنين: ما شأن طوبى لهم أفضل من طوبى لنا؟ ألسنا نحن وهم على أمر؟ قال لا، إنهم.. وفي الدر المنثور ونور الثقلين روايات متظافرة أن من بشراهم الرؤيا الصالحة.

الذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا ويثابون على ما قدموا لآخرتهم»[(١)].

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾:

بشراهم تعم الدنيا إلى الآخرة و﴿تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ بشراها وسواها و﴿ذَٰلِكَ﴾ العظيم العظيم من بشراهم ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وذلك هو من ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[(٢)] و﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾[(٣)] ومن بشراهم ما ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١)﴾[(٤)].

ذلك ومن بشراهم هنا بشرى ظهور القائم المنتظر وأنهم من أعوانه وأنصاره في الرجعة، وحضور الرسول ﷺ والإمام علي عليه السلام عند موتهم، والرؤية الصالحة المبشرة كما في روايات عدة[(٥)].

---

(١) المصدر عن بريد العجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال: وجدنا في كتاب علي بن الحسين عليه السلام ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [يونس: ٦٢] إذا أدوا...
وفيه عن الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى أخفى أربعة في أربعة وليه في عباده فلا تستصغرن عبداً من عبيد الله فربما يكون واليه وأنت لا تعلم...
وفيه عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى أبي بصير قال قال الصادق عليه السلام: يا أبا بصير طوبى لشيعة قائمنا المنتظرين لظهوره في غيبته والمطيعين له في ظهوره أولئك أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٧.

(٤) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٥) نور الثقلين ٢: ٣١٠ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية الإمام يبشرهم بقيام القائم وبظهوره وبقتل أعدائهم وبالنجاة في الآخرة والورود على محمد ﷺ الصادقين على الحوض..» وفيه عن الكافي عن عقبة أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الرجل إذا وقعت نفسه في صدره يرى، قلت جعلت فداك وما يرى؟ قال: يرى رسول الله ﷺ فيقول له =

فلأولياء الله منزلة مرقومة مرموقة مغبوطة، وهم الذين «يُذكر الله لرؤيتهم»(١) و«لا يحق العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله تعالى، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاء من الله، وإن أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يُذكرون بذكري وأذكَر بذكرهم»(٢).

ذلك، وقد فصل قول رسول الله ﷺ هذا المروي عن أخيه علي عليه السلام أنهم «قوم أخلصوا لله في عبادته ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها فعرفوا آجلها حين عزت الخلق سواهم بعاجلها فتركوا ما علموا أنه سيتركهم وأماتوا ما علموا أنه سيميتهم، أيها المطل نفسه بالدنيا، الراكض على حبائلها، المجتهد في عمارة ما سيخرب منها ألم تر إلى مصارع أبنائك تحت الجنادل والثرى؟ كم مرضت ببدنك وعللت بكفنك تستوصف لهم الأطباء وتستغيث لهم الأحباء فلم تغن عنهم غناءك، ولا ينجح عنهم دواؤك»(٣)، وآخر له آخر، المسيح عليه السلام في جواب الحواريين السائلين:

= رسول الله ﷺ: أنا رسول الله أبشر ثم يرى علي بن أبي طالب عليه السلام فيقول له: أنا علي بن أبي طالب الذي كنت تحبه تحب أن أنفعك اليوم؟

قال قلت له: أيكون أحد من الناس يرى هذا ثم يرجع إلى الدنيا؟ قال: إذا رأى هذا أبداً مات وأعظم من ذلك، قال: وذلك في القرآن قول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ...﴾ [يونس: ٦٣].

(١) الدر المنثور ٣: ٣٠٩ عن سعيد بن جبير عن النبي ﷺ في الآية قال: يذكر الله لرؤيتهم.

(٢) المصدر ٣١٠ - أخرج أحمد والحكيم الترمذي عن عمرو بن الجموح أنه سمع النبي ﷺ يقول:.. وفيه عنه ﷺ قال: خياركم من ذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم منطقه ورغبكم في الآخرة عمله، وفيه عن أبي الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: حقت محبتي للمتحابين فيّ وحقت محبتي للمتزاورين فيّ وحقت محبتي للمتجالسين فيّ الذين يعمرون مساجدي بذكرى ويعلمون الناس الخير ويدعونهم إلى طاعتي أولئك أوليائي الذين أظلهم في ظل عرشي وأسكنهم في جواري وآمنهم من عذابي وأدخلهم الجنة قبل الناس بخمسمائة عام يتنعمون فيها وهم فيها خالدون ثم قرأ النبي ﷺ: ألا إن أولياء الله..

(٣) في أمالي المفيد بإسناده عن عباية الأسدي عن ابن عباس قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآية فقيل له: من هؤلاء الأولياء؟ فقال عليه السلام:..

مَن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟: قال عليه السلام: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، والذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، وأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم، وتركوا ما علموا أن سيتركهم، فصار استكثارهم منها استقلالاً، وذكرهم إياها فواتاً، وفرحهم بما أصابوا حزناً، وما عارضهم من نائلها رفضوه، وما عارضهم من رفقها بغير الحق وضعوه، خَلِقت الدنيا عندهم فليس يجددونها، وخربت بينهم فليس يعمرونها، وماتت في صدورهم فليس يحبونها، يهدمونها فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، ويرفضونها فكانوا برفضها هم الفرحين، وباعوها فكانوا ببيعها هم المربحين، ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت فيهم المثلات فأحبوا ذكر الموت وتركوا ذكر الحياة، يحبون الله تعالى ويستضيئون بنوره ويضيئون به، لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وبهم عُلِم الكتاب وبه عَلموا، ليسوا يرون نائلاً مع ما نالوا، ولا أماني دون ما يرجون، ولا خوفاً دون ما يحذرون»[١].

أجل فأولياء الله هم المستغرقون في نور معرفة الله وحبه، فإن رأوا رأوا دلائل قدرة الله، وإن سمعوا سمعوا آيات الله، وإن نطقوا نطقوا بالثناء على الله، وإن تحركوا تحركوا في خدمة الله، وإن اجتهدوا اجتهدوا في طاعة الله، فهم العائشون الله دونما حجاب بينهم وبين الله إلّا حجاب ذاته تعالى حيث ذابت إنياتهم أمام الله، وتخرقت سائر الحجب بينهم وبين الله، فـ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من غير الله.

وصحيح أنهم لا يخافون سوء الحساب لأنهم يخافون موقفهم من الله:

---

(١) المصدر ٣٠٩ - أخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب قال قال الحواريون يا عيسى من أولياء الله. . .

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(١) وما أشبه من سائر الخوف من الله وفي الله، ولكن النص لا ينفي خوفهم، إنما ينبغي الخوف عليهم أن ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ لا منهم بالنسبة لمسيرهم ومصيرهم فإن الله ضمن لهم الأمن، ولا ممن سواهم إذا عرفوا موقفهم من الله.

فهم يخافون الله ويخافون في الله ثم لا خوف منهم عمن سواه فـ «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء».

أجل وكيف يخاف أولياء الله غير الله ويحزنون على ما فاتهم في جنب الله وهم الواجدون الله، فما الذي فقد من وجدك يا الله، وما الذي وجد من فقدك يا الله، وكيف يخافون أو يحزنون ومعهم الله، موصولين بالله وهم تحت رعاية الله ورقابته، وعلى عينه وعنايته.

هؤلاء الأكارم هم أولياء الله دون المهبولين المخبولين الذين يعيشون اللامبالاة ويدعون أنهم أولياء الله!. فـ:

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥﴾:

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾ يا رسول الهدى ﷺ ويأكل من اهتدى ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾ أولاء الأنكاد، الماقت الساقط، عرقلة ضد رسالتك ودعوتك، إذ لا عزة لهم في قالهم وحالهم وفعالهم حتى يُخشَوا على كيان الرسالة فـ ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ لا سواه، وإن بعضاً إلا من أعزه الله و﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٢) و﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ مقالكم ومقالهم ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ أحوالهم وأحوالكم.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٨.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.

أجل ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ كأصل ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[(١)] ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[(٢)].

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

فحين يكون ﴿لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أفلا تكون عزة الأعزة منهم له «وما يتبع الذين من دونه شركاء» و«ما» هنا في وجه نافية تنفي اتباعهم شركاءَ لله إذ لا شريك له فضلاً عن شركاء ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ والزعم الفاسد الكاسد الذي لا يرتكن إلى أي ركن ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ويكذبون في اتباعهم شركاء، فهم إنما يتبعون أهواءَهم ولا واقع لما يتبعونه من شركاء إذ ليس له في الحق شركاء.

وقد تعني «ما» الاستفهامَ إلى ما عنته، فالمعنى: وأي شيء يتبع الذين يدعون من دونه شركاء، هل يتبعون في الحق شركاء؟ كلّا! ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

أم وموصولة عطفاً على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ تعني: والذي يتبعه الذين من دونه شركاء هم كسائر الكون لله فكيف هم شركاء ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ في الحق ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ دون ﴿شُرَكَآءَ﴾ إذ ليس له شركاء، فلا واقع لما يتبعونه إلّا الظن الخاوي عن واقع لمظنونهم، هنا المحظور اتباع الظن، لا أصله الحاصل لطوارئ، غير المتَّبع، فإنه دونه حظراً فـ: «إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجل الظن برجل لم تظهر منه خِزية فقد ظَلَم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجل الظن برجل فقد غرَّر»[(٣)].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.
(٣) (الحكمة ١١١).

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

فهل ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ ما جُعل، أم شركاءكم، وفي جعل الليل سكناً عن حركات التعب ونهضات النصب، والنهار مبصراً لتبتغوا فيه من فضله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الآيات التي تذكرهم.

وهنا وصف النهار بكونه مبصراً وإنما يبصَر فيه وليس هو مبصراً، إنه مبالغة في عناية التعبير كما يقال: وليلة عمياء إذا لم يبصر الناس فيها شيئاً لشدة إظلامها.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

ولماذا ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ هل من وحدة وهيدة؟ وهو الوحيد غير الوهيد، فقد كان إذ لا كان! أم أنساً عن وحشته؟ أم وارثاً له بعد موته؟

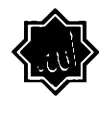
أم معيناً يعينه و﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كل ذلك فإن ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلماذا - إذاً - يتخذ ولداً ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ الاتخاذ الوخاز، لا فطري ولا عقلي ولا علم أو أثارة من علم إلّا ضده، إذاً ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ما يمس من كرامة ألوهيته ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بل وتعلمون أنه ليس له ولد بكل مصادر العلم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

إنهم ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ بل ويَفلجون، فإن الكذب ككل - فضلاً عن افتراء الكذب على الله - إنه رذيلة وفضيحة، لا يفلح صاحبه به أبداً مهما ضل به ضالون، فإن للباطل جولة وللحق دولة.

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٧٠﴾:

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ قليلٌ مهما ملكوها عن بكرتها ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ بعد الموت حتى القيامة الكبرى وحسابها ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ بعد الحساب.



﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي
وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا
يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا
سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ
﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ
بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ
مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ
وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ
أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ
أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا
نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا
جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ
ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ
ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن
يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ

يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾:

تحدّ سافر من نوح لقومه المتعنِّتين المتعنّدين: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ فيكم رسولاً داعياً إلى الله ﴿وَتَذۡكِيرِي﴾ إياكم بآيات الله ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ

تَوَكَّلْتُ﴾ في بلاغي المستمر بينكم لرسالة الله، ثم لا أخاف أحداً إلّا الله، فافعلوا ما شئتم بحقي صداً عن بلاغ رسالة الله ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ عليَّ إمراً ملتوياً، كما تستطيعون عن بكرتكم ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، استنفاراً عاماً بين العابدين من دون الله والمعبودين ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ ذلك الأمر لاستئصالي ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ غماً عليَّ ورحمة ولا غُماماً فلا ترحموني في ذلك الاستنفار النفار ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ بكل أمركم بشركائكم حيث لا حول ولا قوة فوقه ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أبداً نظرة النظر في أمري أم أية نَظِرة.

أجل ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ إجماعاً في شورى، بإجماع بالكم وكل حالكم، وبالغوا في قدح الرأي بينكم حتى لا يكون أمركم غمة عليكم، أي: مغطى تغطئة حيرة، ومبهماً إبهام جهالة، فيكون عليكم كالغمة العمياء والطخية الظلماء، وذلك مأخوذ من: غُم الهلال، إذا تغطى ببعض الغمام التي تمنع من رؤيته، ثم افعلوا بي ما أنتم فاعلون على مكانتكم.

فهذه حلقة أخيرة من تحدي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد إنذار وتذكير طويل طال ألف سنة إلَّا خمسين عاماً، حلقة تختصر كل تفاصيل دعوته الطويلة ومواجهتهم العنيدة العتيدة، قضية الاختصار.

وهنا ﴿ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ دون «علي» لمحة باهرة أنهم ليسوا ليقضوا عليه بكل قواتهم، إنما ﴿إِلَيَّ﴾ قصداً لغاية القضاء علي.

أنا كرسول من الله كل استعدادي هو التوكل على الله، وأنتم كمكذبين إياي أجمعوا أمركم وشركاءكم ككل، ثم انظروا من هو السابق في ذلك السباق.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ رغم هذه الحجة الأخيرة المتحدية المتهددة، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ حتى يكبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله، فما داؤكم بعد وما دواؤكم، حجة بالغة تبلغ بكم إلى الحق المُرام دون أن تكلفكم أجراً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ الذي حمَّلني رسالتي إليكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لله في حمل هذه الرسالة، تحملاً لكل أعبائها والتواءاتها دون أية وقفة في أي موقف.

تحدٍّ صريح مثير، الذي لا يفعله إلّا المالئ يديه من طاقة لا تُغلب أمام كافة الطاقات من هؤلاء الجماهير الضخمة، يحرضهم على أن يهاجموه بقوة جمعية واحدة دون إنظار ولا غمة، وذلك برهان لا مردَّ له ولا حِوَل عنه إلا على من ركز العناد في قلبه.

أجل إنه كان معه الإيمان بالله والتوكل بكل كيانه على الله، القوة التي تتصاغر وتتضاءل أمامها كافة القوات من دون الله.

ذلك، وحتى إذا غدروا به وقدروا عليه ضرباً وهتكاً وفتكاً وتشريداً وتقتيلاً، فلن يضروا الداعية شيئاً، لأنه إبتلاء من الله تمحيصاً للقلوب، ثم تعود الكَرَّة لهم عليهم، حيث النصرة الرسالية مضمونة لهم من الله مهما خسروا كل ما لهم من غير رسالة الله فـ : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾(١).

إنه لا يضرني توّليكم عني سلباً ولا إيجاباً، سلباً لأجر: إذ ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ وإيجاباً للقضاء إلي: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لله في هذه السبيل، فأنا من السلسلة الرسالية الموصولة على مدار الزمن الرسالي، الصامدة في بلاغ الرسالة، لن يزجرني عنها أي مزدجر.

أجل ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فتراه إسلاماً كسائر الإسلام

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

البسيط أو الوسيط؟ كلا! إنه الإسلام العالي الغالي وكما ينسبه ثاني المسلمين على أمير المؤمنين عليه السلام: «لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحدٌ قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل»[1].

فهنا الكفاح من نوح عليه السلام بعد دعوته الرسالية غير المؤثرة فيهم، إنما هو ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أمام كل العراقيل منهم، وأخرى مقترحة هي «فاجمعوا أمركم.. ثم لا يكن أمركم عليكم غُمة، ثم اقضوا إلي، ومن ثم ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

ويا له من كفاح حاسم جاسم لنوح أمام مثنى العرقلات: منهم، متطلباً من نوح أن يعملوها، كفاحاً صارماً يهدِّدهم بكلالهم في ضلالهم وأنهم لا يقدرون على شيء للقضاء على هذه الرسالة السامية اللّهم إلّا شذراً نزراً عابراً.

وقد خطى نوح في رسالته خطوات ثلاث:

١ - خطوة المواصلة في دعوته تقديماً لبراهين رسالته ووحيه.

٢ - خطوة المفاصلة لما كلت دعوته إذ كذبوه وهددوه.

٣ - خطوة تكملة الحجة بعدهما تأكيداً للأولى بعد تلك المفاصلة: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ...﴾ وهنا ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ صارح في رسالته، صارخ في دعوته، إذ كانت بالغة، ثم ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ تأكيداً لصالح الدعوة، وإزالة العرقلة مالية قد تمنع دون تصديقها، فقد خلصت دعوته في بعدي الروحية والمالية، فائضة من كل متطلباتها كدعوة ربانية، فاضية عن موانع الإقبال إليها كسؤال أجرة.

(١) (الحكمة ١٢١).

وفي نظرة أخرى إلى الآية، قد تلمح ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ بصيغة الإفراد، أن تهديهم السافر أمام تلك الجموع المحتشدة ضده، المعرقِلة دعوته، بتحضير مربع طاقاتهم وإمكانياتهم قضاء إليه، وليس له إلا توكله على ربه، تلمح أنه يقول ما يقوله صدقاً دونما ادعاء خاوٍ هاوٍ، وهذا على حده كأنه نبأه عليه السلام مع ما كانت له أنباء وأبناء، حيث الرسول النافض يديه عن بلاغه بعد كل الحجج المثبتة لرسالته، لو لم يكن في الحق رسولاً كان يضعف، لا أن يتضاعف بذلك المربع البارع الذي كلٌّ من أضلاعه كاف واف لاثبات حقه حقَّه.

ثم ﴿مَّقَامِى﴾ قد تحتمل مثلث معانيها: قياماً بمكانه وزمانه في دعوته، ومن ثم تطلبه إجماعهم في أمرهم وشركائهم دونما إبقاء، تدليلاً على أن جمعية قواتهم كليلة عليلة عن مقاومته في دعوته.

وبعد كل ذلك ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾ دون «عليّ» لمحة لعدم مكنتهم للقضاء عليه، إنما إليه، قصداً للقضاء عليه ولن يقضوا عليه أبداً.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

لقد غرقوا بما كذبوا ومرقوا، ونجى نوح والذين معه في الفلك فلم يغرقوا ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ من بعدهم يخلفونهم في استمرارية الحياة ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وهكذا انطوى طومار هؤلاء الأنكاد عن بكرتهم على كثرتهم، ونجى نوح والذين معه في الفلك على قلتهم إذ ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

(١) سورة هود، الآية: ٤٠.

هنا نتوسع في المعني من ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ فإن الذين نجوا معه في الفلك أصبحوا بأنسالهم خلائف للغرقى في كونهم، وبعض منهم في كيانهم حيث خلفوهم بأنسالٍ لهم في التكذيب بآيات الله.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ﴾ وتراه ﴿مِن قَبْلُۚ﴾ وهم ذرٌ؟

والذر أياً كان ليس في دور التكليف، وقد فصلنا القول حول آية الذر أنها تعني قضيةَ الفطرة التي فُطِر الناس عليها، دون حالة سابقة على هذه الولادة التكليفة، كما فصلنا هذه الآية بنظيرتها في الأعراف.

أم ﴿مِن قَبْلُۚ﴾ ابتعاثِ الرسل بالبينات؟ فما هذا الذي كذبوا به من قبل حتى يؤمنوا به من بعد! ولا إيمان قبل الرسالة، اللّهم إلّا في الفترة الرسالية، فمن المحتمل أنهم كذبوا بنوح وهو بعدُ فيهم، أم بعدما توفاه الله وقبل أن يبعث رسلاً من بعده.

أم و﴿مِن قَبْلُۚ﴾ بعد بعث رسل بعده إليهم فبادروهم بالتكذيب ثم ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ﴾ فهو على أية حال تكذيب بما يجب الإيمان به، وطبيعة الحال في الذين يكذبون بالرسل المبعوثين بالبينات، أنهم يواصلون في تكذيبهم إياهم استمراراً لنقطة البدء السوداء، اعتداءً بمثل الاعتداء ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1] ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2] ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠١.

(٣) سورة يونس، الآيتان: ١٣، ١٤.

وهؤلاء الرسل هم كل هؤلاء الذين جاؤوا بعد نوح إلى موسى عليه السلام لمكان:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

ومن هنا إلى سبع عشرة آية تالية سرد خاطف لقصة الرسالة الموسوية إلى فرعون وملئه، منذ البداية إلى غرق فرعون وملئه وتبوُّءِ بني إسرائيل مبوأً صدق وهم مختلفون مختلقون متخلفون رغم ما رزقهم الله من الطيبات التي هم فيها غارقون.

وهنا البعثة الموسوية إلى فرعون وملئه توسِّع نطاقها من بني إسرائيل إلى غيرهم، فلم تكن شرعته - فقط - شرعة لبني إسرائيل، وإنما هم المحور الأول ومنطلَقه إذ كانوا أضعف المستضعفين، ثم فرعون وملأه إذ كانوا أكبر المستكبرين، والشرائع الربانية تتمحورهما كأصل فيها منذ البداية وعلى طول الخط، وتشمل غيرهما من المتوسطين.

وهنا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لا تعني كل الآيات الرسولية والرسالية، بل هي «تسع آيات» كما في الأعراف، كنموذجة عالية من كل الآيات البصرية لرسل الله، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عنها ﴿وَكَانُوا۟﴾ من قبل ومن بعد ﴿قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ثمرات الحياة الإنسانية والرسالية قبل إيناعها.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾:

﴿ٱلْحَقُّ﴾ هنا هو الآيات الصدق للرسالة الموسوية و﴿مِنْ عِندِنَا﴾ دون «عندي» تلميحة أنها صادرة من عَلى جمعية الصفات الربانية ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا﴾ الحق «إلّا سحر مبين» كونه سحراً.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

هنا «إن هذا إلّا سحر مبين» تبدَّل بِسؤالِ استعجاب: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ تبييناً أنهم لا يملكون لدعواهم أية حجة اللّهم إلّا صورة السؤال، تزييفاً لها إذ ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ فيما يدعون.

وهذا من الفوارق البينة بين السحر والآية الربانية أن مدعي الرسالة بسحر لا يفلح كمدعي سائر الأمور تحت نقاب السحر، حيث الحكمة الرحيمة الربانية تقتضي إفلاج الساحر المدعي رسالة الله به سداً عن الضلال وصداً للإدغال، ثم وإفلاج الصادق في دعواه وإفلاج من سواه.

فحتى المرسل من عند الله بآيات صدقه ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[(١)] فضلاً عمن يدعي رسالة الله فرية على الله بسحر حيث يغري ويفري المجاهيل.

أجل إنه لا ﴿يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ فلا بد من فضحهم فلجاً لهم وتبيناً للبسطاء أنه باطلٌ فلا يعتقدوا فيه ولا يحرموا حوله، فـ«من أكبر الذنوب اشتغال المرء بالسحر»[(٢)] بل و«من سحر فقد أشرك»[(٣)].

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾:

فلقد صدهم عن تصديق الحق أنه يلفتهم عما وجدوا عليه آباءَهم كأنه هو الحق لا سواه؛ ثم ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سقوطاً لنا عن علوائنا ورفعاً لكما عن ذُلِّكم، وذلك خروج عن عبودية الذات بعد عبودية الأصنام.

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٧.

(٢) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ - ك ٥٥ ب ٢٣، ك ٧٦ ب ٤٧ ك ٨٦ ب ٤٤، بد - ك ١٧ ب ١٠ مج - ك ٣١ ب ٤٣ قا حم - ثالث ص ٨٣ قا رابع ص ٣٩٩.

(٣) المصدر نقلاً عن بد - ك ٢٧ ب ١٧ و٢٤ نس - ك ٣٧ ب ١٩ قا حم - أول ص ٣٨٩ و٤٣٨ و٤٤٠، ثان ص ٢٢٠.

وهذه هي العلة القديمة الجديدة التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعاة إلى الله، انتحالاً لشتى المعاذير ورمي الدعاة بأشنع التهم، أنها هي ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بكل ما فيها من زيف وحيف، حيث التفتُّح للتوحيد الحق بشرعته الحقة، والاستنارة بنورها، هو خطر عظيم على هذه القيم الموروثة الزائفة، ثم النتيجة الحتمية الحاضرة الحاسمة: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أن نؤمن أنفسنا لصالحكم فإنه لا أمن فيه حيث يخرجنا عن علوائنا وكبريائنا!.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ انتخاباً للنخبة العلمية من السحرة، و﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ اختصاراً عن حوار بشأن مَن يُلقي قبل: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟...﴾(١).

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ جرأة أولى على باطل السحر الذي سحر أعين الناس واسترهبهم، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ ثانية، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ثالثة كبرهان على الثانية «ويحق الحق بكلماته» رابعة كنتيجة في صراع المعجزة والآية الربانية.

وطالما يُتحدث حول مبطل السحر في كل حقوله ولما يجدوا ما يبطله بأسره، فإذا الله يحدثنا هنا عن مُبطله وهو الآية المعجزة، فكما أن عصا موسى أبطلت سحرهم بإذن الله، كذلك القرآن - وبأحرى - يبطل كل سحر يقابله، فضلاً عن سائر السحر الذي لا يُدعى تحديه للقرآن، وكما يروى أن

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١١٥، ١١٦.

قراءة مائة آية من القرآن يبطل كل سحر وقد جربها المجربون فما أخطأت ولا مرة يتيمة تصبح حجة على بطلانه.

ذلك، ومن ميزات القرآن الآية أمام كل سحر، أنه لا يختص إبطاله إياها بخصوص النبي ﷺ وأهليه المعصومين عليهم السلام، وسائر الآيات المعجزات هي مختصة بمن تظهر على يديه.

فالقرآن ككل، وقراءَةٌ من أيّ كان شرطَ إسلامه وإيمانه، يبطل كل سحر، كما ويبطل ببيناته كل ما يعارضه في أيّ من حقوله، فأدبه يبطل سحر الآداب، وحكمته تبطل سحر الفلسفات، وعرفانه يبطل سحر العرفانات، وفقهه يبطل سحر الفقاهات، وعلومه تبطل سحر العلوم، فهو الآية الوحيدة الربانية في كافة ميادين النضال والصراع، سابقة كل الرفاق في كل ميادين السباق.

صحيح أن الباطل قد يزهو ولكنه لا ينمو، فهو باطل في نفسه بما هو ظاهر من نفسه عند العارفين، والله يبطله ولا سيما في حقل الصراع لآياته البينات، حفاظاً عن الإغراء بإطرائه:

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الآفاقية والأنفسية، الرسولية والرسالية، التدوينية والتكوينية، وقد حق الحق في الصراع الموسوي الفرعوني بكلمة ثعبان العصا وآيتها ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وترى لماذا «السحر» معرّفة وهي خبر «ما» الموصولة؟ لأنها تحمل إجابة عن ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فـ ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ هو ذلك «السحر» الذي افتريتموه على آيته الربانية!.

أم وهو كل «السحر» وكأن السحر كله مجموع فيه، ولكن ﴿ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ على جمعيته للسحر كله، ومَن ذا الذي آمن لموسى في تلك المباراة العظيمة الحاشرة؟:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

وترى آمن له - فقط - ذرية من قومه؟ وقد كانوا مؤمنين به من قبل مهما اختلفت درجاته، كما وآمن السحرة له كلهم: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾(١).

ذلك هو الإيمان الخالص غير الفالس ولا الكالس من قومه، دون كل من في محشر المباراة، فهنا العناية إلى تصلُّب بني إسرائيل بعدما رأوا الآيات الموسوية ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ وأما السحرة فقد آمنوا له عن بكرتهم إيماناً متيناً مكيناً ما كانت تزعزعهم عنه التهديدات الفرعونية، ولا تخوّفهم، رغم أن الذرية القلة المؤمنة من قومه كانوا على خوف من فرعون وملئهم، فـ ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ تختص ذلك الإيمان الخوفان بهم دون السحرة المؤمنين دون أي خوف من فرعون وملئهم.

فهنا ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ هم الناشئون الناشطون الذين لا يُحسبون بشيء أمام الكبار المصلحيين، وهم كانوا خطراً عليهم في إيمانهم لمكان ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ بعد ﴿فِرْعَوْنَ﴾ فخطر ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ كان مزيداً عليهم من خطر فرعون، مما يهدد - حسب الظاهر - الدعوة الموسوية من الداخل والخارج الوبيل.

فذلك الملأُ الإسرائيلي رغم كونهم مع موسى الرسول عليه السلام ظاهرين وتحت قيادته، كانوا هم مع فرعون بقيادة سلسين ملسين، لذلك يخاطب قومه ككل تحريضاً على إيمان:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

---

(١) سورة طه، الآية: ٧٠.

هنا ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ بعد ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ تعني الإسلام بعد الإيمان، ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ لله وجوهكم في هذه البيئة الخَطِرة الفرعونية.

وهنا قد لحق بـ ﴿ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ ممن سواهم، أم لم يلحق، يسمع سليم الإجابة ممن آمن:

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

فعل ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تخص ملأهم أم وتعممهم إلى فرعون وملئه، ثم ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هم فرعون وملأه، فـ ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أن يفتنونا من داخل ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أن يفتنونا من خارج، والفتنة الداخلية أفتن من الخارجية.

أجل و﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ لا على ملئنا الخَوَنة، ولا على موسى والمؤمنين به، إنما ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ كما وأمرتنا ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ...﴾[1].

ذلك، وقد تلمح ﴿إِن كُنتُمۡ...﴾ أنهم فقط ﴿ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾[2] لسابق إيمانهم على ذلك الخطاب و﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ فـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ إلّا اعتباراً كأنهم فقط هم قومه دون الباقين منهم إذ لم يؤمنوا.

ذلك، وقد يحتمل أن ﴿ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ تعنيهم من قوم فرعون لسابق ذكره، فـ «ملئهم» هم الفرعونيون[3]، وقد تعني هذه الذرية إلى السحرة الناشئين من الفرعونيين في تلك المباراة الباهرة، مؤيداً بخطابه قومه ككل دون خصوص الذرية ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ...﴾.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٨٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٣.

(٣) الدر المنثور ٣: ٣١٤ - أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت الذرية التي آمنت بموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه.

وقد يكون المعنيان هما معنيَّان، فـ ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ تعني مثلثها: السحرة، وذرية من قوم فرعون، وذرية من قومه نفسه، وما أجمله جمعاً، وأجله قمعاً للملإ غير المؤمنين.

فـ ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ هي المؤمنة - دوماً - بين الملإ المستكبرين حيث يجدون ملجأً من الدعاة إلى الله.

ترى وكيف سألوا الله أن ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؟ وحياة التكليف كلها فتنة!: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1] ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[2].

الفتنة قد تعني مجرد المحنة دون مهنة فهي شاملة للمكلفين أجمعين، وأخرى تعني مهنة في محنة فهي مختصة بالظالمين جزاءً وفاقاً: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾[3] في الأخرى نتيجة ظلمهم في الأولى ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[4] ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾[5] وهما محنة في الأولى.

فهذه الفتنة الماكنة الفاتنة التي لا مفلت عنها هي خاصة بالظالمين: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾[6] وأما الذين آمنوا فـ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا﴾[7]: ذنوبنا التي توردنا موارد الفتنة المضلِّلة، ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[8].

ففي مثنى الفتنة الفاتنة الممتهنة، والفتنة الممتحنة، ليس نصيب المؤمنين إلا الثانية، والأولى هي للذين ظلموا وكفروا.

ذلك، والتوكل على الله بعد الإيمان بالله والإسلام لله هو عنصر القوة

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٦٣.
(٤) سورة المدثر، الآية: ٣١.
(٥) سورة القمر، الآية: ٢٧.
(٦) سورة النور، الآية: ٦٣.
(٧) سورة الممتحنة، الآية: ٥.
(٨) سورة المائدة، الآية: ٤١.

المتينة المكينة الذي يضاف إلى رصيد التقوى مع الإيمان والإسلام، فإذا ذرية قليلة ضعيفة تصبح قوية صارمة أمام جبروت الطاغوت.

فقولهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني به ألا يمكِّن الظالمين منهم إضلالاً لهم وإدغالاً، أم استئصالاً لهم وإخمالاً ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في ورطة الفتنة المستمرة منهم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

ذلك الوحي في الوسط الذي عاشه بنو إسرائيل بين الغَلَب على فرعون في تلك المباراة وبين ملاحقته موسى وقومه وغرقه مع ملئه ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ مما يدل على أنهم لم تكن لهم بمصر بيوت إذ كانوا مستخدَمين في البيوت الفرعونية دونما استقلال حتى كالخدم المستقلين في بيوتهم، المستغَلين عند المستخدِمين إياهم.

وأما كيف ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾؟ فهل هي قبلة للصلوات؟ وليست بيوتهم قبلة، كعبة أو القدس! أم قبلة قبال الفرعونيين؟ وهذه سياسة الاستهدار الاستهتار أن تُجعل بيوتهم قبالهم، فصراع دائب بدل أن يتغربوا عنهم ولا يتقربوا منهم!.

هنا ﴿قِبْلَةً﴾ تعني قبال بعضها البعض[1] تغرباً عن القبط الكافرين، وتقرباً إلى بعضهم البعض، ليكونوا على خبرة جمعية بينهم لأحوالهم فيما يُصلحهم أو يفسدهم، والهجمات المحتملة عليهم من السلطة الكافرة، فإن ﴿قِبْلَةً﴾ هي هيئة خاصة في الإقبال، تقابلاً في البيوت كما هنا، واستقبالاً كما في الصلاة.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣١٤ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: يقابل بعضها بعضاً.

وهذه سياسة الحياد والحياط على جمع مشرَّد مطرود في سبيل الله أن ينضموا ويتضامنوا مع بعضهم البعض، بعداً عن شتاتهم بين الأعداء فيذوبوا، وقرباً فيما بينهم فلا يذبلوا، وهذه تعبئة نظامية إلى تعبئة روحية هما ضرورتان للمطاردين في الله، وقد عمت الفتنة وتجبَّر الطاغوت، وفسد الناس ونتنت البيئة.

وقد تعني ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أن ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1] فيها دون تظاهر فيها خارجها قضيةَ التقية، أم تعني «اجعلوا» فقط موسى وهارون أن تكون بيوتهما قبلة لبني إسرائيل يتجهون إليها على أية حال، حيث الإمام لا بد له أن يكون بمتناول الأمة على كلّ حال، دون انعزال وتغرب عنهم، ولقد كان علي عليه السلام لا يسكر باب بيته ليل نهار حتى يفسح المجال للمحاويج، وفي الأثر أنه عليه السلام لما ملك الأمر أمر أن يقلع باب بيته حتى لا يُغلق لوقتٍ مَّا أمام المحاويج.

وقد يكون مثلث المعنى معنياً من ذلك النص لصلوح اللفظ والمعنى، فكما أن قبلة الصلاة مفتوحة مفسوحة لكافة المصلين، فلتكن قبلة الصِلات بالداعية مفتوحة للمدعوين، وهكذا قبلة الصِّلات بين بعضهم البعض بتقابل بيوتهم المتواصلة، وقبلة الصَّلاة تقية في تلك البيوت.

ومن جَعْل بيوتهم قبلة أن يسكنوا بيوت الله المفسوحة لهم أجمع، فقد سمح لهما أن يبيتا في بيوت الله في كافة الحالات وإن جنباً وعلى غير طهارة، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هكذا وكان أحرى من هارون وموسى عليهما السلام[2].

---

(١) نور الثقلين ٢: ٣١٥ في تفسير القمي بسند متصل عن منصور عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: لما خافت بنو إسرائيل جبابرتها أوحى الله تعالى إلى موسى وهارون عليهما السلام ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧] قال: أمروا أن يصلوا في بيوتهم.

وفي الدر المنثور ٣: ٣١٤ عن ابن عباس في الآية قال: أمروا أن يتخذوا في بيوتهم مساجد.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣١٤ - أخرج ابن عساكر عن أبي رافع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطب فقال: إن الله=

ذلك، وقد تعني ﴿قِبْلَةً﴾ فيما عنت قبلة الكعبة المباركة(١)، فإنها كانت قبلة المصلين على مدار الزمن الرسالي إلّا فترة فتيرة قليلة في العهد المدني ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾(٢).

ثم ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في بيوتكم ونحو القبلة، كإقامة الصِّلات في بيوتكم القبلة المتقابلة مع بعضكم البعض، وصِلات أخرى مع موسى وهارون حيث بيوتهم قبلة، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وبرسالاته أنهم آمنون في رحمة الله.

= أمر موسى وهارون أن يتبوآا لقومهما بيوتاً وأمرهما أن لا يبيت في مسجدهما جنب ولا يقربوا فيه النساء إلا هارون وذريته ولا يحل لأحد أن يقرب النساء في مسجدي هذا ولا يبيت فيه جنب إلا علي وذريته.

ورواه في علل الشرائع بإسناده إلى أبي رافع مثله بزيادة: فمن ساءه ذلك فها هنا وضرب بيده نحو الشام، وفي عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا عليه السلام مع المأمون في الفرق بين العترة والأمة حديث طويل وفيه: قالت العلماء فأخبرنا هل فسر الله تعالى الاصطفاء في الكتاب؟ فقال الرضا عليه السلام فسر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موطناً وموضعاً.. وأما الرابعة فإخراجه صلى الله عليه وآله وسلم الناس من مسجده ما خلا العترة حتى تكلم الناس في ذلك وتكلم العباس، فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تركت علياً وأخرجتنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما تركته وأخرجتكم ولكن الله عز وجل تركه وأخرجكم وفي هذا تبيان قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، قالت العلماء: وأين هذا من القرآن؟ قال أبو الحسن عليه السلام أوجدكم في ذلك قرآناً وأقرأه عليكم، قالوا: هات، قال: قول الله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا...﴾ [يونس: ٨٧] ففي هذه الآية منزلة هارون من موسى، وفيها أيضاً منزلة علي عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا دليل ظاهر في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين قال: ألا إن هذا المسجد لا يحل لجنب إلا لمحمد وآله، قالت العلماء: يا أبا الحسن عليه السلام هذا الشرح وهذا البيان لا يوجد إلا عندكم معشر أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال عليه السلام: ومن ينكر لنا ذلك ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها ففيما أوضحنا وشرحنا من الفضل والشرف والتقدمة والاصطفاء والطهارة ما لا ينكره معاند ولله تعالى الحمد على ذلك فهذه الرابعة.

(١) المصدر أخرج أبو الشيخ عن أبي سنان في الآية قال: قبل الكعبة وذكر أن آدم عليه السلام فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

إذاً فلتعيشوا ﴿بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ بكل معانيها الصالحة للعناية للمؤمنين القلة أمام الكافرين الثلة، استبقاءً لكونهم وكيانكم عن التهدر والله من ورائكم رقيب عتيد.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾:

هذه أقسى وأقصى كلام لموسى عليه السلام مع الله فيما يفسر بغير ما يعنيه، وفي التوراة نص حضيض يعبر عن سوء أدبه عليه السلام مع الله: «فرجع موسى إلى الرب وقال: يا سيد لماذا أسأت إلى هذا الشعب؟ لماذا أرسلتني؟ فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب، وأنت لم تخلص شعبك. فقال الرب لموسى: الآن تنظر ما أنا أفعل بفرعون. فإنه بيد قوية يطلقهم وبيد قوية يطردهم من أرضه» (سفر الخروج ٥: ٢٢ - ٢٣)، فهذه وما أشبهت في مزيّف التوراة[1] تمس من كرامة الرسالة الموسوية مساً مصيصاً قد تجعله غير مؤمن بربه، ناكر حكمته ورحمته!.

---

(١) موسى يذكر بدعواته القيمة وجهاده المتواصل بكل تبجيل وتجليل في زهاء الربع (٣١) من سور القرآن (١٣٦) مرة، والتوراة تذكره دون ذلك زعم أنها كتاب شرعته، وتمس من كرامته مراراً وتكراراً: «فقال الرب لموسى وهارون من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني أمام أعين بني إسرائيل لذلك لا تدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتهم إياها» (إعداد ٢٠: ١٢) -

و«إن الله حمى غضبه على موسى إذا التمس منه وزيراً ردءاً له يصدقه فقال موسى للرب استمع أيها السيد. لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا حين كلمت عبدك، بل أنا ثقيل الفم واللسان. فقال له الرب: من صنع للإنسان فماً أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصيراً أو أعمى. أما هو أنا الرب. فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به، فقال: استمع أيها السيد. أرسل بيد من ترسل. فحمى غضب الرب على موسى وقال: أليس هارون اللاوي أخاك. أنا أعلم أنه هو يتكلم وأيضاً ها هو خارج لاستقبالك... وهو يكون لك فما وأنت تكون له إلهاً» (الخروج ٤: ١٠ - ١٦).

ثم القرآن يذود عن ساحته كل شين ورين، وهنا ﴿لِيُضِلُّوا﴾ لا يدل على إضلال قاصد دون سبب صالح، بل هو مثل ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(١) إزاغة بزيغ جزاءً وفاقاً، كما ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾(٢) ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾(٣) ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾(٤) ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾(٥)، هذه وما أشبه تدلنا على أن الله تعالى يستدرج الظالمين ويمهلهم ليخرج مكين كيدهم ومكنون سرهم.

لذلك هنا يطلب موسى بقطع أسباب فرعون عن إضلاله وعن إيمانه: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وحقيقة الطمس هي محو الأثر من قولهم:

طمست الكتاب إذا محوت سطوره، وطمست الريح ربع الحي، إذا محت رسومه، فكان موسى دعا الله سبحانه بأن يمحو معارف أموالهم بالمسح لها حتى لا يعرفوها ولا يهتدوا إليها، وتكون منقلبة عن حال الانتفاع بها، حيث الطمس هو تغير حال الشيء إلى الدثور والدروس، ثم ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ هو الختم عليها والطبع.

وليس ﴿لِيُضِلُّوا﴾ غاية مقصودة لـ «أتيت» بل هي واقعية معلومة لله وكما في أخرى غير معلومة لفرعون وملئه معلومة للّه: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(٦).

ذلك، ولا مانع أيضاً من كون الإضلال غاية مقصودة جزاءً وفاقاً

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة مريم، الآية: ٨٣.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.
(٦) سورة القصص، الآية: ٨.

لفرعون ليزيد ضلالاً وامتحاناً لمن يضلهم وله امتهاناً، حيث الإضلال البدائي هو المستحيل على الله، دون النهائي الذي فيه دور الضلال المعاند، كما وأن ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾ إضلال كجزاء على ضلال.

إذاً فلم يكن ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ نقداً من موسى على الله وعوذاً بالله، إذ هو الذي دعا بعدُ نفسه بشدِّ الضلال: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

وترى متى ﴿أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ هل هي فور الدعوة أم بفاصل المحنة المهنة؟ قد يُرى من ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾[1] أن لم يكن فصل بين الأمرين.

ولكن «تبوءآا لقومكما بيوتاً...» قد تصرخ لمهلة ماحلة قاحلة بين الأمرين، وليس «فأخذه الله» صراحاً في فور الإجابة[2] كما و﴿فَٱسۡتَقِيمَا...﴾ لامحة إلى طول لأمد الإجابة، وإلَّا فما هو دور الاستقامة في فور الإجابة؟ فإيجابية الاستقامة أمام الهجمات الفرعونية وسلبية الاتباع لسبيل الذين لا يعلمون، لهما دور المهلة الماحلة الفرعونية الطاغية، ثم و﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ... فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ

---

(١) سورة النازعات، الآيات: ٢٠-٢٥.

(٢) نور الثقلين ٥: ٥٠٠ عن الخصال عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: أملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه الله نكال الآخرة والأولى فكان بين أن قال الله تعالى لموسى وهارون ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] وبين أن عرفه الإجابة أربعين سنة، ثم قال قال جبرئيل عليه السلام: نازلت ربي في فرعون منازلة شديدة فقلت: يا رب تدعه وقد قال: أنا ربكم الأعلى؟ فقال: إنما يقول هذا عبد مثلك، وفي ٢: ٣١٦ عن أبي عبد الله عليه السلام قال ما في معناه إلا «نازلت».

لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ. . .﴾[١] هذه مما تدل صارحة بفصل فاصل بين وعد الإجابة وواقعها لموسى عليه السلام.

ولماذا هنا ﴿دَّعْوَتُكُمَا﴾ ولم يكن الداعي إلَّا موسى؟ لأن هذه الرسالة واحدة فدعوة موسى هي بنفسها دعوة هارون كما وتلمح له «ربنا» حيث تعني جمعية رسولية متمثلة فيهما، أم ولأن موسى دعا وهارون أمَّن دعاءه فهما - إذاً - داعيان اثنان، وكما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٢]، أم أنهما دعيا مهما لم يذكر منهما إلا دعاء موسى[٣].

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ إجمال عن تفصيل في آيات أخرى تفصِّل خارقة هذه المجاوزة ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ في البحر لما رأوهم مجاوزين، فخوف البحر لم يكن ليخوِّفهم تخيلاً منهم أنهم على ضعفهم جاوزوه، والطريق بعدُ يَبَسَ، فلماذا لا نجاوزه نحن على قوتنا، ثم «أنا فعلت هذا فمروا وامضوا»[٤] كيد أخير كادَ به نفسَه وقومه.

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٣٠-١٣٦.

(٢) نور الثقلين ٢: ٣١٦ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: دعى موسى وأمّن هارون عليهما السلام وأمنت الملائكة فقال الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٩] ومن غزا في سبيل الله استجيبت له كما استجيبت لكما يوم القيامة.

(٣) المصدر في تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في طائل القصة: فمضى موسى وأصحابه حتى قطعوا البحر وأدركهم آل فرعون فلما نظروا إلى البحر قالوا لفرعون: ما تعجب مما ترى؟ قال: أنا فعلت هذا فمروا وامضوا فيه، فلما توسط فرعون ومن معه أمر الله البحر فأطبق عليهم فغرقهم أجمعين فلما أدرك فرعونَ الغرقُ ﴿قَالَ ءَامَنتُ. . .﴾ [يونس: ٩٠].

(٤) نور الثقلين ٢: ٣١٨ في تفسير العياشي عن أبي عمرو عن بعض أصحابنا يرفعه قال: لما =

وهنا ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ تقرران مدى الملاحقة الصامدة الباغية العادية، وقد تعني «عدواً» بعد ﴿بَغْيًا﴾ مع العداء، العدو الركض أنهم أسرعوا في ذلك الاتباع فأسرع في إدراكهم الغرق.

وهنا «أدركهم» دون «أغرقهم» تلمح أن الغرق استقبلهم محيطاً بهم بعدما تقدموا في البحر لحد لم يبق لهم مجال الرجوع، فقد كان اتباعاً في الغور، تجاوزاً عن الساحل.

أجل ﴿أَدْرَكَهُ﴾ إلى درْك النار في نفس البحر برزخياً وكما كان لقوم نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾(١) (٢).

﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ فعاين الموت ولم يعد يملك نجاةً على قوته! فبرزت فطرته المحجوبة، وظهرت عقليته المدخولة المعقولة ف ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فلقد سقطت عن الباغية الطاغية كل أرديته التي تنفخ فيه فتظهره لقومه هائلة مخيفة ساقطاً من علوائه، هابطاً من غلوائه، فتضاءَل وتصاغر واستخذى، فسقط في يديه، وزاد - بادعائه قولاً - على إيمانه إسلامَه وهو بالغ الإيمان لحد التسليم لرب العالمين، ولكن:

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾:

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ وقد مضى يوم خلاص ولات حين مناص؟ الآن حيث لا

= صار موسى في البحر اتبعه فرعون وجنوده، قال: فتهيب فرس فرعون أن يدخل البحر فتمثل له جبرئيل عليه السلام على رمكة فلما رأى فرس فرعون الرمكة اتبعها فدخل البحر هو وأصحابه فغرقوا.

(١) سورة نوح، الآية: ٢٥.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣١٦، أخرج أبو الشيخ عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: . . أقول ورواه عنه مثله ابن عباس وأبو هريرة وابن عمر باختلاف يسير، وهي مشتركة في ضرب الحماة.

اختيار ولا فرار؟ الآن وقد سبق العصيان والاستكبار، الآن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ في مجالتك الفاسحة ما استطعت ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ طول حياتك؟

والإيمان عند رؤية البأس قاحل ماحل لا أصل له إلّا بغية الخلاص؟: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[1] ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾[2] [3].

وقد يروى عن النبي ﷺ قوله: «قال لي جبرئيل ما أبغضت شيئاً من خلق الله ما أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد، وما أبغضت شيئاً أشد غضباً من فرعون فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها في فيه فوجدت الله أشد غضباً مني...»[4].

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

(٣) نور الثقلين ٢: ٣١٦ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام بإسناده إلى إبراهيم بن محمد الهمداني قال قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: لأي علة غرق الله تعالى فرعون وقد آمن به وأقر بتوحيده، قال: لأنه آمن عند رؤية البأس والإيمان عند رؤية البأس غير مقبول وذلك حكم الله تعالى ذكره في السلَف والخلَف قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤].. وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِى﴾ [الأنعام: ١٥٨].. وهكذا فرعون لما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين فقيل له: الآن وقد عصيت.. وقد كان فرعون من قرنه إلى قدمه في الحديد قد لبسه على بدنه فلما غرق ألقاه الله تعالى على نجوة من الأرض ببدنه ليكون لمن بعده علامة فيرونه مع تثقله بالحديد على مرتفع من الأرض وسبيل الثقل أن يرسب ولا يرتفع فكان ذلك آية وعلامة...».

(٤) نور الثقلين ٢: ٣١٨ في تفسير القمي في الآية: فإن موسى أخبر بني إسرائيل أن الله عزّ وجلّ قد أغرق فرعون فلم يصدقوه فأمر الله عزّ وجلّ البحر فلفظ به على ساحل البحر حتى رأوه ميتاً. وفيه عن أبي جعفر عليه السلام: فلما توسط فرعون ومن معه أمر الله البحر فأطبق عليهم فغرقهم أجمعين... أن قوم فرعون ذهبوا أجمعين في البحر فلم ير منهم أحد في البحر هووا إلى =

فالأصل في عدم قبول توبته هو طائل العصيان والإفساد حتى رأى البأس، فلم تكن توبته صالحة تعني صالح الإيمان، وحتى لو كان فكيف تقبل مع تحليق حياته على كل إفساد وعصيان، ثم لم يكن ذلك إيماناً حيث ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ دون «فتاب» مما يدل، وتراه بعدُ إنما لم تقبل توبته حيث قصد من ﴿ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(١) العجل الذي عبدوه؟

وإنما عبدوه أم أرادوها بعدما جاوزوا البحر وغرق فرعون!: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ . . .﴾(٢) فهنا أرادوها ثم عبدوها، لما غاب عنهم موسى لميقات ربه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ﴾(٣).

أم قصد منه إلهاً مجسداً كما تجسِّده التوراة؟ و«الآن» سؤال تنديد بتأخير الإيمان، ولو لم يكن صالحاً في أصله لكان التنديد بغير صالح الإيمان دون تأخيره، فإنما هو الإيمان مخافة البأس، فلو كان قبل الآن لكان صالحاً يُقبل، وهنا تتبين حال سائر الاحتمال ك: أنه ورَّى في قوله فأراد بـ ﴿ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ نفسه، حيث عبدهم لنفسه فترة فتيرة من الزمن الذي استعبدهم فيه.

كلّا! وإنما قصد به «الله» ولكن «قال آمنت» دون إخبار بات من الله أنه «آمن» وحتى لو آمن فـ ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ وقد مضى يوم خلاص ولات حين مناص ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ طول حياتك النكدة ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ثالوث منحوس ليس عنه خلوص.

= النار فأما فرعون فنبذه الله عَزَّوَجَلَّ وحده فألقاه بالساحل لينظروا إليه وليعرفوه ليكون لمن خلفه آية ولئلا يشك أحد في هلاكه أنهم كانوا اتخذوه رباً فأراهم الله عَزَّوَجَلَّ إياه جيفة ملقاة بالساحل ليكون لمن خلفه عبرة وعظة يقول الله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

(١) سورة يونس، الآية: ٩٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٨.

فهنا تأخير التوبة عن الحالة غير المخيفة إلى المخيفة، هو مما يدخلها فيما لا يقبل وإن كانت صالحة، فـ ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾[1].

فتأخير الإيمان إلى رؤية البأس، وهو إيمان للبأس، وقد سبقه كل عصيان وإفساد، ذلك مما يمنع باتّاً لا حِوَل عنه عن قبول التوبة، فقد يُقبل صالح الإيمان عند رؤية البأس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[2] ولكنه إذا كان صادقاً ولم يعش صاحبه كل المظلمات والعصيانات.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ دون روحك، ودون كل حياتك خلاصاً عن الغرق ﴿نُنَجِّيكَ﴾ لا نجاةً لك، بل نجاةً لمن ألّهك عما كانوا يظنون ﴿لِتَكُونَ﴾ ببدنك «لمن خلف» حاضرين ومستقبلين ﴿ءَايَةً﴾ مجسدة ربانية تقضي على ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3] وتثبت أن الله هو الرب لا سواه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

إذاً فالمفروض بقاء بدنه آية، وكما نراه في دائرة الآثار العتيقة بالقاهرة،

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٧، ١٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ٩٨.
(٣) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

ولقد رأيت جثمان فرعون فيها وكان بجنبي مستشرق مسيحي من إنجلترا فقلت له هذا ما أخبر عنه القرآن: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ...﴾ فقال حائراً قلقاً: ويكأن القرآن فيه كل غيب، فلان للإيمان!.

هنا ﴿لِمَنۡ خَلۡفَكَ﴾ دون «قومك» وما أشبه، تخلُّف خلفاً واسعاً فيه من قوم فرعون ومن بني إسرائيل[1] الحاضرين ومن خلفهم إلى ما شاء الله، وذلك البدن حتى الآن باق بمعرض الآثار القديمة في القاهرة.

﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

﴿بَوَّأۡنَا﴾ بواءً روحياً وحيوياً بما بعثنا فيهم رسلاً ولاسيما موسى عليه السلام حيث نجاهم من فرعون، وجعلناهم ملوكاً يملكون أنفسهم بعدما كانوا يُملكون، ويقدِّرون أمورهم بعدما كانوا يُقدَّرون ويغدرون.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٣١٩ في علل الشرايع بسند متصل عن محمد بن سعيد الإذخري وكان ممن يصحب موسى بن محمد بن محمد بن علي الرضا أن موسى أخبره أن يحيى بن أكثم كتب إليه يسأله عن مسائل فيها: وأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] من المخاطب بالآية؟ فإن كان المخاطب به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس قد شك فيما أنزل الله عز وجل إليه وإن كان المخاطب غيره فعلى غيره إذا أنزل الكتاب؟ قال موسى: فسألت أخي علي بن محمد عليه السلام عن ذلك قال: أما قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ...﴾ [يونس: ٩٤] فإن المخاطب بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن في شك مما أنزل الله عز وجل ولكن قالت الجهلة: كيف لا يبعث إلينا نبياً من الملائكة أنه لم يفرق بينه وبين غيره في الاستغناء عن المأكل والمشرب والمشي في الأسواق فأوحى الله عز وجل إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فأسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك بمحضر من الجهلة هل بعث الله رسولاً قبلك إلا وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ولك بهم أسوة وإنما قال: «وإن كنت في شك» ولم يكن، ولكن ليتبعهم كما قال له صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] ولو قال تعالى: نبتهل فنجعل لعنة الله عليكم لم يكونوا يجيبون للمباهلة وقد عرف أن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم مؤد عنه رسالته وما هو من الكاذبين وكذلك عرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه صادق فيما يقول ولكن أحب أن ينصف من نفسه.

وإفراد ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ قد يعني جملة حياتهم التي تحولت من جحيم الاستعباد إلى جنة الإبعاد عن فرعون وملئه، ثم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بعد الحياة الخبيثة الجائعة المائعة ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في الحق ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ فاختلفوا فيه بغياً بينهم، إذ كانوا قبل بواءِ الصدق ورزق الطيبات ضُلّاً الاَّ لا يختلفون على محور الحق ولمَّا يأتيهم، فلما ﴿جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بالشرعة التوراتية والبلاغات الموسوية اختلفوا فيها على علم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قضاء بحكم عادل كما هنا، وبواقع الجزاء المقضي هناك.



فهرس الجزء الثالث عشر

الموضوع الصفحة

تتمة سورة التوبة

سورة يونس